إرفين د. يالوم

تعرية الحب

ترجمة: جوهر عبد المولى

تعرية الحب

الكتاب: تعريةُ الحب

المؤلف: إرفين د. يالوم

ترجمة: جوهر عبد المولى

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

"This edition published by arrangement with Basic Books, an imprint of Perseus Books, LLC, a subsidiary of Hachette Book Group, Inc., New York, New York, USA. All rights reserved."

عدد الصفحات: 440

الترقيم الدولي: 978-1-998800-16-2

الطبعة الأولى: 2023

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

إرفين د. يالوم

تعرية الحب

ترجمة: جوهر عبد المولى

المحتوى

قبل البدء	5
تمهيد	9
تعرية الحب	29
لو كان الاغتصاب قانونيًّا ...	113
أخطأ الموت في الاختيار	143
السيدة البدينة	183
محصنةٌ أنا	232
لا تكن لطيفًا	245
ابتسامتان	268
ثلاث رسائل لم تُفتَح بعدُ	298
الإخلاص العلاجي	339
بحثًا عن الحالم	367
كلمة الختام	429

قبل البدء

كتبتُ معظم أجزاء هذا الكتاب خلال سنةِ تفرغٍ سافرت فيها كثيرًا. أُعرب عن امتناني للعديد من الأفراد والمؤسسات التي استضافتني وسهَّلت عليَّ مهمة كتابة هذا الكتاب: مركز العلوم الإنسانية بجامعة «ستانفورد» (Stanford University Humanities Center)، ومركز دراسات «بيلاجيو» التابع لمؤسسة «روكفلر» (The Rockefeller Foundation Bellagio Study Center)، والدكتور «ميكيكو هاسيغاوا» (Mikiko Hasegawa) والدكتور «تسونيهيتو هاسيغاوا» (Tsunehito Hasegawa) في «طوكيو» و«هاواي»، ومقهى «مالفينا» (Caffé Malvina) في «سان فرانسيسكو»، وبرنامج الكتابة الإبداعية في كلية «بينينجتون» (Bennington).

أُعرب عن امتناني لزوجتي «مارلين» (Marilyn) (التي كانت دائمًا أشدَّ نُقَّادي وأوفى مَن دعمني)، وإلى محرِّرتي «فيبي هوس» (Phoebe Hoss) في «بيسك بوكس» (Basic Books)، التي سهَّلت سَير هذا الكتاب مثلما سهَّلت سَير كتبي السابقة الصادرة عن «بيسك بوكس»؛ وإلى محرِّرة المشاريع في «بيسك بوكس»: «ليندا كاربون» (Linda Carbone). أتوجَّه بالشكر أيضًا للعديد من الزملاء والأصدقاء الذين لم ينفروا عندما كانوا يَرونني أقترب منهم وأنا أحمل قصة جديدةً في يدي، وقدَّموا لي الآراء النقدية أو التشجيع أو العزاء. لقد كانت هذه العملية طويلة جدًّا ولا شك في أنني نسيت بعض الأسماء مع مرور الوقت، لكنني

ممتنٌ لـ: «بات بومغاردنر» (Pat Baumgardner)، و«هيلين بلاو» (Helen Blau)، و«ميشيل كارتر» (Michèle Carter)، و«إيزابيل ديفيس» (Isabel Davis)، و«ستانلي إلكين» (Stanely Elkin)، و«جون فيلستينر» (John Felstiner)، و«ألبرت جيرار» (Albert Guerard)، و«ماكلين جيرار» (Maclin Guerard)، و«روثيلين جوسيلسون» (Ruthellen Josselson)، و«هيرانت كاتشادوريان» (Herant Katchadourian)، و«ستينا كاتشادوريان» (Stina Katchadourian)، و«مارغريت ليدربرغ» (Marguerite Lederberg)، و«جون لورو» (John L'Heureux)، و«مورتون ليبرمان» (Morton Lieberman)، و«دي لوم» (Dee Lum)، و«ك. ي. لوم» (K. Y. Lum)، و«ماري جين موفات» (Mary Jane Moffatt)، و«نان روبنسون» (Nan Robinson)، وأختي «جان روز» (Jean Rose)، و«جينا سورنسن» (Gena Sorensen)، و«ديفيد شبيغل» (David Spiegel)، و«وينفريد فايس» (Winfried Weiss)، وابني «بنيامين يالوم» (Benjamin Yalom)، ودفعة 1988 من المقيمين والمتدربين في علم النفس لدى ستانفورد، وسكرتيرتي «بيا ميتشل» (Bea Mitchell) التي كتبتْ -على امتداد عشر سنوات- الملاحظات والأفكار الإكلينيكية[1] التي تنبع منها هذه القصص. وكما هو الحال دائمًا، أنا ممتنٌ لجامعة «ستانفورد» لدعمهم لي ومنحي الحرية الأكاديمية وتزويدي بالوسط الفكري، إذ كانت هذه الأمور ضرورية جدًا لنجاح عملي.

(1) Clinical: الإكلينيكي أو العيادي أو السريري أو التحليلي. (المترجم).

أنا مدين بالكثير للمرضى العشرة الذين يباركون صفحات هذا الكتاب. لقد قرأ كلٌّ منهم جميع الأسطر في قصته ووافق على نشرها (باستثناء مريض واحد تُوفي قبل أن أنتهي). تحقَّق جميعهم أيضًا من تمويهي لشخصياتهم وأعربوا عن موافقتهم، كما قدَّموا لي الكثير من العون في تحرير المحتوى، حتى إن أحدهم («ديف» Dave) سمَّى عنوان قصته بنفسه. قال لي بعض المرضى بأن التمويه الذي أجريتُه كان مبالغًا فيه بلا داعٍ وحثُّوني على أن أكون أكثر دقة. وأعرب اثنان منهم عن اضطرابهما بسببِ كشفي أغوار نفسي أو بسبب بعض الحريَّات الدرامية التي اتخذتُها، لكنهما رغم ذلك أعطياني موافقاتهما ومباركاتهما، على أمل أن تكون هذه الحكايات مفيدة للأطباء النفسيين و/أو المرضى الآخرين. لهم مني جميعًا خالص الامتنان.

القصص في هذا الكتاب قصصٌ حقيقية لكن كان عليَّ أن أُجري العديد من التغييرات لحماية هُوية المرضى. لقد صنعتُ في كثير من الأحيان بدائلَ موازية رمزيًّا للجوانب المتعلقة بهُوية كل مريض منهم والظروف المحيطة بحياته. دمجتُ في بعض الأحيان جزءًا من هُوية مريض آخر مع بطل القصة. الحوارات من وحي الخيال غالبًا، وتأتي تأملاتي الشخصية بعدها. لقد أوغلتُ في تمويه الشخصيات، ولا يمكن أن يخترق هذا التمويه في كل حالة من الحالات سوى المرضى أنفسهم. مخطئ أيُّ قارئ يعتقد أنه قد تعرف إلى أحد المرضى العشرة؛ كلي ثقة بهذا الأمر.

تمهيد

تخيَّل هذا المشهد: يُطلب من ثلاثمئة إلى أربعمئة شخص، غرباء بعضهم عن بعض، أن يشكِّلوا ثنائياتٍ لِيطرح كلٌّ شريك على شريكه سؤالًا واحدًا فقط: «ماذا تريد؟» مرارًا وتَكرارًا.

هل من شيءٍ أبسط من هذا الأمر؟ سؤالٌ واحدٌ بريء مع إجابته. ورغم ذلك، لقد رأيتُ -مرة تلو الأخرى- هذا التمرين الجماعي يثير مشاعر جياشة إثارةً غير متوقعة. في كثير من الأحيان، كانت تتأجَّج الغرفة بالعواطف في غضون دقائق، فتتحرَّك مكنونات النفس لدى الرجال والنساء من الأعماق (وهؤلاء ليسوا أناسًا يائسين أو متطلِّبين بأي شكل من الأشكال، بل أشخاصٌ ناجحون لهم أدوارهم الفعَّالة في المجتمع ويرتدون ملابس جميلة ويبهرون أنظار الآخرين أثناء سيرهم) وينادون على أولئك الذين كانوا قد فقدوهم إلى الأبد؛ الآباءِ والأمهات المتوفَّينَ أو الغائبين والأزواج والأطفال والأصدقاء: «أريد أن أراك مرة أخرى». «أريد منك أن تحبَّني». «أريدك أن تخبرني بأنك فخور بي». «أريدك أن تعرف أنني أحبك، وكم أنا آسف لأنني لم أخبرك بهذا أبدًا»! «أريدك أن تعود إليَّ، فأنا وحيد جدًّا». «أريد الطفولة التي لم أحظَ بها من قبلُ». «أريد أن أكون بصحة جيدة وأن يعود لي شبابي مرة أخرى. أريد أن أكون محبوبًا، وأن يحترمني الناس. أريد أن يكون لحياتي معنى ما. أريد أن أنجز شيئًا ما. أريد أن أكون ذا شأنٍ، وأن أكون مهمًّا، وأن يتذكرني الآخرون».

الكثير من الرغبات، الكثير من الأشواق، والكثير من الآلام! يبوحون بكل ذلك في بضع دقائق فقط؛ ألم القَدر، وألم الوجود، تلك الآلام التي لا تفارقنا، والتي لا تتوقف عن الأزيز تحت قشرةِ الحياة. هي آلامٌ يُمكننا دائمًا استدعاؤها بسهولة تامة. تُذكِّرنا الكثيرُ من الأشياء -مثل تمرين جماعي بسيط، وبضع دقائق من التفكير العميق، وعمل فني أو عِظة ما، أو أزمة شخصية أو خسارة ما- بأنَّ أعمق رغباتنا هي أمور لا يمكن تحقيقها مهما حصل؛ رغباتنا بإحياء مرحلة الشباب مجدَّدًا، بوضع حدٍّ للشيخوخة، بعودة هؤلاء الذين اختفوا من حياتنا، بالحب الأبدي، بالشعور بالأمان والأهمية، والتَّوْق للخلود نفسه.

عندما تصبح حياتنا أسيرةَ هذه الرغبات العصية على التحقق، نلجأ إلى مساعدة العائلة والأصدقاء والدِّين، وأحيانًا إلى المعالجين النفسيين.

أروي في هذا الكتاب قصصًا عن عشرة مرضى لجئوا إلى العلاج. في سياق عملهم، كان هؤلاء المرضى قد عانوا من ألم الوجود، لكن لم يكن هذا هو السبب الذي دفعهم إلى طلب المساعدة. على العكس تمامًا؛ إذ كانوا يعانون من المشاكل الشائعة في الحياة اليومية: الشعور بالوحدة، واحتقار الذات، والعجز الجنسي، والصداع النصفي، وفرط النشاط الجنسي، والسمنة، وارتفاع ضغط الدم، والحزن، والهوس المُضني بالحب، وتقلُّب المزاج، والاكتئاب. ومع ذلك، بطريقة ما (وتتكشَّف هذه «الطريقة» على نحو مختلف في كل قصة)، تمكَّن العلاج من الكشف عن جذور عميقة لهذه المشاكل اليومية، جذور يعود أصلها إلى الركيزة الأساسية للوجود الإنساني.

- «أريدُ! أريد!»: هذا ما سيسمعه القارئ في جميع أنحاء هذه الحكايات. تصرخ واحدةٌ من المرضى: «أريد استعادة ابنتي

الحبيبة الميتة»؛ بعد أن أهملت ابنَيها اللذَين لا يزالان على قيد الحياة. ويُصر مريضٌ آخر: «أريد أن أمارس الجنس مع كل امرأةٍ أراها»؛ حيث كان السرطان اللمفاوي قد غزا جذعه السفلي. يتوسل آخر: «أريد أبي وأمي والطفولة التي لم أحظَ بها أبدًا»؛ وهو يتألم بسبب ثلاث رسائل لم يتمكَّن من حمل نفسه على فتحها. وقالت أخرى: «أريد أن أصبح شابة وأن أبقى كذلك إلى الأبد»؛ لأنها كانت امرأة عجوزًا لم تستطع التخلي عن حُبها الهوسي لرجلٍ كان يَصغرُها بخمسة وثلاثين عامًا.

أعتقد أن الأشياء البدائية في العلاج النفسي تكمن دائمًا في مثل هذا الألم الوجودي، وليس في المساعي الغريزية المكبوتة أو شظايا الماضي المأساوي التي لم تُدفن بأكملها، كما يزعم البعض في كثير من الأحيان. خلال علاجي لكلٍّ من هؤلاء المرضى العشرة، كان الافتراض الإكلينيكي الأساسي الذي استندت إليه في أسلوبي العلاجي هو أن القلق الاعتيادي ينشأ من مساعي الفرد للتعامل مع حقائق الحياة القاسية، أو «مسلَّمات» الوجود، سواء أكانت تلك المساعي تحدث في الوعي أم اللاوعي.

لقد وجدت أن هناك أربع مُسلَّمات ذات صلة بالعلاج النفسي على وجه الخصوص: أولًا، أن الموت أمرٌ محتَّمٌ علينا وعلى أحبابنا. ثانيًا، أنْ نكون أحرارًا في صياغة حياتنا على هوانا. ثالثًا، وَحدتنا المطلقة. وأخيرًا، غياب المعنى أو الهدف الواضح من هذه الحياة. مهما بَدَت هذه المعطيات كئيبة، فإنها تكتنز بذورَ الحكمة والخلاص. آمَل أن أُظهر في هذه القصص العشر عن العلاج النفسي أنه من الممكن مجابهة حقائق الوجود وتسخير قوتها في خدمة التغيير والنمو الشخصي.

من بين حقائق الحياة هذه يَبرُزُ الموت على نحو بديهي كأكثرها وضوحًا وتجليًا؛ فنحن نتعلم في سن مبكرة جدًا -أبكر بكثير مما يعتقد الناس غالبًا- أن الموت قادم لا محالة، وأنه لا مفرَّ منه. ومع ذلك، على حدِّ تعبير سبينوزا، إن «كل شيء يسعى نحو الاستمرارية في كيانه الخاص». في صميم المرء، هناك صراعٌ دائمٌ بين الرغبة في الاستمرار في الوجود، والوعي بالموت الحتمي.

من أجل أن نتكيَّف مع واقع الموت، نبرع إلى أقصى الحدود في ابتكار طرق لإنكاره أو الهروب منه. عندما نكون صغارًا، ننكر الموت مستعينين بطَمْأنات آبائِنا وأمهاتنا والأساطير العلمانية والدينية. ثم نجسِّده في وقتٍ لاحق من خلال تحويله إلى كيانٍ ما، فنجعله وحشًا أو رجلَ رمالٍ أو شيطانًا ما. في نهاية المطاف، إذا كان الموت فعلًا كيانًا يُطاردنا، فإننا لا نزال نبحث عن طريقة للتملُّص منه. إلى جانب ذلك، مهما كان وحش الموت هذا مخيفًا، يبقى أقلَّ رعبًا من الحقيقة؛ تلك الحقيقة التي يحملها المرء في أبواغ[1] موته الخاص به. يجرِّب الأطفال فيما بعد طرقًا أخرى لتخفيف القلق الذي يتسبَّب فيه الموت، فينزعون السُّمِّية منه (detoxify) عن طريق السخرية، أو يتَحدَّونه بالتهور والأخطار، أو يزيلون الحساسية منه[2] (desensitize) بتعريض أنفسهم -بحضور أقرانهم المُطمئِن وهم يتناولون الفشار الدافئ بالزبدة- لقصص الأشباح وأفلام الرعب.

---

(1) في عالم النباتات، الأبواغ (spores) هي خلايا تكاثرية قادرة على التكاثر بمعزل عن الخلايا الإنجابية. (المترجم).

(2) إزالة أو سلب أو تقليل الحساسية (desensitization) هو نهج علاجي يقوم على تعريض المريض بشكل متكرر إلى المُثير (stimulus) السلبي أو المُقلق بهدف إزالة المخاوف منه. (المترجم).

نتعلم كلما تقدَّمنا في السن أنْ نبعد الموت عن أذهاننا، نصرف انتباهنا عنه، نحوِّله إلى شيء إيجابي (كالانتقال إلى الحياة الأخرى، أو العودة إلى المنزل، أو الانضمام مجددًا إلى الله، أو النعيم بالسلام أخيرًا)؛ ننكرُ الموت باللجوء إلى الأساطير التي تضمن لنا الديمومة، نسعى جاهدين لتحقيق الخلود بالأعمال الراسخة؛ من خلال زرع بذرتنا في المستقبل بإنجاب الأطفال، أو من خلال اعتناق نظام ديني يؤمِّن لنا الأبدية الروحية.

يعترض الكثير من الناس على وصف إنكارهم للموت بهذا الشكل، فيقولون: «هذا هراء! نحن لا نُنكر الموت؛ الجميع سيموتون، ونحن نعلم ذلك. الحقائق واضحة، ولكن ما الجدوى من الخوض في هذا الأمر؟».

في الحقيقة، نحن نعلم أمورًا ونجهل أمورًا أخرى. نعلم بعض الحقائق عن الموت؛ أي من الناحية الفكرية، لكنَّ الجزء اللاواعي من عقلنا -الذي يحمينا من القلق العارم- قد ابتعد أو انفصل عن الرعب المرتبط بالموت. إنَّ هذه العملية الفصامية تحدث في لاوعينا، وهي غير مرئية بالنسبة لنا، لكن يمكننا أن نقتنع بوجودها خلال تلك النوبات الاستثنائية؛ حين تفشل آلية الإنكار ويشقُّ قلق الموت طريقه إلينا بكامل قوته. هذا أمرٌ نادر الحدوث، ولا يحدث سوى مرة أو مرتين فقط في العمر؛ يحدث أحيانًا أثناء اليقظة، وأحيانًا بعد صدام وشيك مع الموت، أو عندما يموت أحد أفراد أسرتنا. ولكن يظهر قلق الموت في معظم الأحوال خلال الكوابيس.

الكابوسُ حلمٌ فاشل؛ أي أنه حلمٌ فشل في أداء مهمته كحارس للنوم، نتيجة عدم «التعامل مع» القلق. وعلى الرغم من أن الكوابيس تختلف من حيث المحتوى الظاهري للحلم، فإن كل الكوابيس تعمل بالطريقة ذاتها؛ يهرب قلق الموت الخام من حُراسه ليتفجَّر في الوعي. تُقدم قصة «بحثًا

عن الحالم» مشهدًا فريدًا من وراء الكواليس عن الهروب من قلق الموت ومحاولة العقل المستميتة لاحتوائه؛ هنا، وسط صور الموت المظلمة المستشرية في كابوس «مارفن» (Marvin)، تكمن أداة بارزة تنادي باسم الحياة وتتحدَّى الموت، ألا وهي تلك العصا البيضاء المتوهجة التي ينخرط بها الحالم في مبارزة جنسية مع الموت.

ينظر أبطال القصص الأخرى إلى الفعل الجنسي أيضًا على أنه تعويذة تدرأ الزوال والشيخوخة والدنوَّ من الموت؛ والنتيجة هي الانحلال الجنسي القهري لشاب في مواجهة سرطانه القاتل (في قصة «لو كان الاغتصاب قانونيًّا ...»)، ورجلٍ عجوز يتشبَّث برسائل صفراء عمرها ثلاثون عامًا من عشيقته الميتة (في قصة «لا تكن لطيفًا»).

خلال السنوات العديدة التي تعاملت فيها مع مرضى السرطان الذين يواجهون الموت الوشيك، انتبهت إلى وجود طريقتين فعَّالتين وشائعتين لطمأنة المرضى بشأن مخاوفهم عن الموت؛ أو وَهْمين أو معتقدَين يوفِّران لهم الإحساس بالأمان. الأول هو إيمان الفرد بمكانته الخاصة[1] (specialness)، أما الآخرُ فهو الإيمان بفكرة المُخلِّص النهائي[2] (ultimate rescuer). صحيحٌ أن هذه أوهامٌ من حيث كونها تمثل «اعتقاداتٍ ثابتة خاطئة (fixed false beliefs)»، إلا أنني لا أستخدم مصطلح «الوهم» بالمعنى التحقيري؛ فهذه معتقداتٌ كونية توجد فينا جميعًا -عند مستوى معين من الوعي- وتلعب دورًا مهمًّا في العديد من هذه القصص.

---

(1) المكانة أو المنزلة أو الحظوة الخاصة أو الاستثنائية. (المترجم).

(2) المُنقِذ أو المُنجد أو المُخلِّص النهائي أو الأخير. يتناول «يالوم» هذين المصطلحين (specialness) و(ultimate rescuer) على نحو موسَّع في كتابه «Psychotherapy Existential» (العلاج النفسي الوجودي)، (1980) في الفصل الرابع؛ ص: (117 : 141). (المترجم).

المكانة الخاصة هي اعتقاد المرء بأنه محصنٌ ومنيع، على نحو يتجاوز القوانين الطبيعية للبيولوجيا والمصائر البشرية. في مرحلة ما من حياتنا، سيواجه كل فردٍ منا بعض الأزمات؛ مرضًا خطيرًا أو فشلًا مهنيًا أو طلاقًا، أو كما حدث لـ «إلفا» (Elva) في قصة «مُحصنةٌ أنا». قد يكون حدثًا بسيطًا كأنْ يتعرَّض المرء لسرقة محفظته، الأمر الذي يعرِّي له فجأةً وَهْم التميُّز ويشكِّك في الافتراض الشائع القائل بأن الحياة ستكون في حالةٍ متصاعدةٍ إلى الأبد.

في حين أن الإيمان بالمكانة الخاصة يُشعر المرء بالأمان النفسي، فإن «الميكانيزم» (mechanism) الرئيس الآخر الذي يعمل على إنكار (denial) الموت -أي الإيمان بالمُخلِّص النهائي- يسمح لنا بالشعور بأن هناك قوة خارجية تُراقبنا وتحمينا إلى الأبد. قد نتعثر ونمرض، وقد يصل بنا الأمر إلى أنْ نقف على حافة الموت، إلا أننا نقتنع بأن هناك خادمًا جبارًا شاخصًا أمامنا سيعمل دائمًا على إعادتنا إلى الحياة.

يشكِّل هذان المعتقدان معًا قضيةً «ديالكتيكية» معينة؛ بحيث يصبحان استجابتين للوضع البشري تتعارضان فيما بينهما التعارض كله. فالإنسان إما أن يرسِّخ استقلاليته من خلال تأكيد الذات البطولي، أو يسعى إلى الأمان من خلال الاندماج بقوةٍ عُليا؛ أي إما أن ينبثق[1]

---

(1) الانبثاقية (emergence) في علم النفس وفلسفة العقل. باختصار شديد: الانبثاق هو تغيير تراكمي (cumulative) أو تجمعي يطرأ عندما تقوم خواص معينة باستبدال (supervene upon) خواصَّ أخرى. انظر ص: (240) من كتاب «The Foundations of Science and the Concepts of Psychology and Psychoanalysis» 1956 (أسس العلوم ومفاهيم علم النفس والتحليل النفسي)، تحرير «هربرت فيغل» (Herbert Feigl) و«مايكل سكريفن» (Michael Scriven). (المترجم).

(emerges)، أو يندمج[1] (merges)، أو ينفصل (separates)، أو يَنطَمر[2] (embeds)؛ إما أن يتحول المرء إلى أبٍ/أمٍ لذاته أو يبقى عالقًا في مرحلة الطفولة إلى الأبد.

يعيش معظمنا غالبًا في هنَاءَةٍ من خلال تجنُّب هاجس الموت بصعوبة؛ فنضحك ونتفق مع «وودي آلن» (Woody Allen) عندما يقول: «أنا لست خائفًا من الموت؛ كل ما في الأمر هو أنني لا أريد أن أكون في المكان الذي سأموت فيه». لكن هناك طريقة أخرى -وهو تقليد قديم ينطبق على العلاج النفسي- تُعلِّمنا أن الوعي الكامل بالموت يُنضِج حكمتنا ويُثري حياتنا. تُظهر الكلمات الأخيرة لأحد مرضايَ وهو على فراش الاحتضار (في قصة «لو كان الاغتصاب قانونيًا ...») أنه بالرغم من أن حقيقة الموت -أو طبيعة الموت المادية- تدمِّرنا، فإن فكرة الموت قد تُنقذنا.

بالنسبة للحرية -وهي أيضًا من مُسلَّمات الوجود- فتمثِّل معضلةً للعديد من هؤلاء المرضى العشرة؛ عندما قالت لي «بيتي» (Betty) -وهي مريضةٌ تعاني السمنة- إنها قد أفرطت في تناول الطعام قبل مجيئها لرؤيتي مباشرةً، وإنها كانت تنوي فعل الأمر ذاته مرةً أخرى بمجرد مغادرتها مكتبي، كانت تحاول التخلِّي عن حريتها من خلال إقناعي بالسيطرة على أفعالها. كما دارت كل فترة علاج مريضةٍ أخرى («ثيلما» (Thelma) في «تعرية الحب») حول موضوع استسلامها لحبيبٍ (ومعالجٍ) سابق، إضافةً إلى سعيي وراء إيجاد إستراتيجياتٍ تساعدها على استعادة قوتها وحريتها.

---

(1) جاء عن الأندماج أو الائتلاف في الطبعة الثانية من كتاب «The Beginner's Guide to Counselling & Psychotherapy» (2015) (دليل المبتدئين إلى الإرشاد والعلاج النفسي)، تحرير «ستيفن بالمر» (Stephen Palmer)، ص: (191): «عند نقطة الالتقاء (confluence)، يندمج الفرد بالآخر ولا يعترف بحاجاته الشخصية». (المترجم).

(2) الانطمار (embeddedness) هو انكفاء الشخص على ذاته وانغلاقه عن الآخرين. (المترجم).

الحرية بصفتها شيئًا مسلَّمًا به تبدو نقيضًا للموت؛ فنحن نخشى الموت، ونَعد الحرية أمرًا إيجابيًّا مطلقًا. أليس صحيحًا أن تاريخ الحضارة الغربية قد تخلَّله التَّوْق إلى الحرية على نحو متقطع؟ وأن الحرية كانت القوة الدافعة وراءه أحيانًا؟ ومع ذلك، ترتبط الحرية من المنظور الوجودي بالقلق؛ من خلال التأكيد على أننا لا ندخل -ونغادر في النهاية- كونًا مُحكمَ التنظيم مبنيًّا على مخطَّطٍ عظيم سرمدي (على عكس ما توحي به الحياة اليومية)؛ فالحرية تعني أن المرء مسئول عن خياراته وأفعاله وواقع حياته.

إنَ لكلمةِ «مسئول» (responsible) سياقاتٍ عِدة، لكنَّني أفضِل تعريف «سارتر» لها: أن تكون مسئولًا يعني أن تكون «فاعلَ الشيء أو الحدث»[1] «be the author of»، ومن ثم فإن كل واحد منَّا يكون بمنزلة «المُوجِد» لطرازِ حياته الخاص. لدينا حرية اختيار ماهيتنا مهما كانت، باستثناء أن نكون غير أحرار؛ فنحن محكوم علينا بالحرية، على حدِّ تعبير «سارتر». في الواقع، يدَّعي بعض الفلاسفة أن هنالك ما هو أعمق من هذا بكثير؛ حيث تكون بِنية العقل البشري السببَ الذي يجعل كل واحد منا مسئولًا عن شكل الواقع الخارجي، أي عن شكل المكان والزمان بحدِّ ذاتهما. هنا يكمن القلق، في فكرة بناء الذات بعينها؛ فنحن مخلوقات تتوق إلى المنظومة، ولذلك نخاف من مفهوم الحرية الذي مُفاده أن اللاشيء -أن البُطلان المطلق- هو الأساس الذي نقف عليه.

---

(1) تأتي هذه الفكرة في كتاب «الوجود والعدم» لـ «سارتر». يستعمل سارتر، في الصفحة 598 (النسخة الفرنسية الأصلية: (L'etre et le neant)، طبعة 1943) لفظةَ «auteur» (author بالإنكليزية)؛ وتحتمل هذه اللفظة معنيَين اثنين في اللغتين الإنكليزية والفرنسية: الأول هو «المؤلف»، والثاني هو «الفاعل» أو «المُنشِئ» أو «المُوجِد» أو «المُسبب». (المترجم).

يعرفُ كل معالجٍ أن الخطوة الأولى المحورية في العلاج هي أن يتحمَّل المريض المسئولية عن المأزق الذي هو فيه. ما دام المرء يظنُّ أن مشاكله ناتجةٌ عن قوة أو تأثير خارجي، فلا فائدة من العلاج. عندما يعتقدُ المرء أن المشكلة تكمن في المحيط الخارجي، لن يرى سببًا يدفعه إلى تغيير نفسه؛ سيقول إن العالم الخارجي (الأصدقاء والوظيفة وشريك الحياة) هو الذي يجب تغييره أو استبداله. لذلك لم يستطع «ديف» (في قصة «لا تكن لطيفًا») المُضيَّ قُدمًا في العلاج، وهو الذي اشتكى بحرقةٍ من أنه كان محبوسًا في سجنِ الزوجية -على يد زوجةٍ متطفلةٍ متملِّكةٍ تلعب دور السجَّان- حتى أدرك أنه كان هو بذاته مسئولًا عن بناء ذلك السجن.

نظرًا لأن المرضى ينزعون إلى مُقاومة تحمُّل المسئولية، فلا بد أن يُطور المعالجون تقنيات تجعل المرضى مدركين لحقيقةِ أنهم هم الذين يتسبَّبون في المشاكل التي يعانون منها. إحدى التقنيات التي أستخدمها -والتي استخدمتُها في العديد من هذه الحالات- هي التركيز على المحيط الآني[1] (here-and-now)؛ بما أن المرضى يميلون -خلال جلسات العلاج- إلى إعادة خلق المشاكل «البين-شخصية»[2] (interpersonal) ذاتها التي تقضُّ مضاجعهم في حياتهم الخارجية، إذن فأنا أقومِ بالتركيز على ما يحدث في اللحظة الراهنة بيني وبين المريض، بدلًا من التركيز على الأحداث الماضية أو الجارية في حياته.

---

(1) أو اللحظة الراهنة أو الوقت الحاضر. الترجمة الحرفية لهذا التركيب هو «هنا والآن». يُعد هذا النهج نقيضَ النهج الذي يركز على الماضي أو الأحداث التي يجلبها المريض إلى جلسة العلاج من العالم الخارجي، ويُعرف هذا النهج باسم (there-and-then) (حرفيًّا: «هناك وآنذاك»). (المترجم).

(2) علاج النفس البين-شخصي (interpersonal psychotherapy) يهدف إلى علاج المريض من خلال التركيز على علاقته بالأشخاص الآخرين في محيطه الاجتماعي والبيئة الثقافية التي نشأ فيها. (المترجم).

يمكنني من خلال دراسة تفاصيل العلاقة العلاجية[1] (أو خلال العلاج الجماعي ودراسة العلاقات بين أعضاء المجموعة) أنْ أشير على الفور إلى كيفية تأثير المريض على استجابات الآخرين. وهكذا، مع أن «ديف» كان يُقاوم تحمُّل المسئولية عن دوره في مشاكله الزوجية، لم يتمكَّن من مقاومة المعطيات الفورية التي كان يولِّدها هو بنفسه خلال العلاج الجماعي؛ أي إن سلوكه السري والمزعج والمراوغ كان يستثير أعضاء المجموعة الآخرين فتكون استجابتُهم له مماثلةً تمامًا لاستجابة زوجته له في المنزل.

بطريقة مماثلة، كان علاج «بيتي» (في قصة «السيدة البدينة») يفتقر إلى الفاعلية، ما دامت كانت تعزو وَحدتها إلى ثقافة «كاليفورنيا» الهشَّة والمُقَلْقَلة. لم تتمكن من التفكير في حقيقة أنها كانت هي المسئولة عن خَلْق عزلتها الشخصية إلا بعد أن أوضحتُ لها -خلال الساعات التي قضيناها معًا- كيف أن سلوكها الانطوائي والخجول والانعزالي كان يخلق البيئة الانطوائية ذاتها خلال جلسات العلاج.

في حين أن تحمل المريض للمسئولية يضعه على طريق التغيير، فإن ذلك لا يساوي التغيير بعينه؛ التغيير هو دائمًا بمنزلة الفريسة التي يجب السعي وراءها، مهما حاول المعالج جذب المريض نحو التبصُّر، وتحمُّل المسئولية، وتحقيق الذات.

لا تتطلب الحرية منا تحمُّل مسئولية خيارات حياتنا فحسب، بل تفترض أيضًا أن التغيير يقتضي فعلَ الإرادة (an act of will). وعلى الرغم من أن «الإرادة» مفهومٌ نادرًا ما يستخدمه المعالجون جهرًا، فإننا نكرِّس الكثير من الجهد للتأثير على إرادة المريض؛ فنقدِّم الإيضاحات

(1) أي علاقة المعالج بالمريض. (المترجم).

والتفسيرات دون كلل أو ملل، بفرض أن فهم الأمور سيولِّد التغيير دائمًا (وتلك ثقة علمانية عمياء[1] تفتقر إلى الإثبات التجريبي (empirical) المقنع). عندما تفشل السنوات التي نقضيها في التفسير بإحداث التغيير اللازم، نبدأ بمخاطبة الإرادة مباشرةً: «لا بد أن تبذل الجهد. عليك أن تحاول. هناك وقت للتفكير والتحليل، ولكن يجب أن تكرِّس وقتًا للعمل أيضًا». وعندما يفشل نُصحُ المريض مباشرةً، يُختزَل أسلوب المعالج -كما تشهد هذه القصص- إلى أي وسيلة شائعة تُمكِّن شخصًا ما من التأثير على شخص آخر؛ ومن ثم، قد أنصح المريض، أو أجادله، أو ألحُّ عليه، أو أُلاينه، أو أتذمَّر منه، أو أستثيرُ ردة فعله، أو أستعطفه، أو أكتفي بمجاراته؛ على أمل أن تنهار نظرته العصابية (neurotic) للعالم نتيجة الإرهاق فقط.

إن حريتنا لا تأخذ مجراها إلا من خلال فعل الإرادة؛ ذلك الدافع الرئيسي على العمل. أرى أن للإرادة مرحلتين اثنتين: ينطلق الشخص من خلال فعل الرغبة (wishing)، ليصل إلى التنفيذ من خلال فعل القرار (deciding).

يعاني بعض الناس من العجز في الرغبة (wish-blocked)؛ أي إنهم لا يستطيعون تحديد مشاعرهم ولا يعرفون ماذا يريدون، هم بلا آراء أو دوافع أو ميول، فيصبحون كطفيلياتٍ تقتات على رغبات الآخرين؛ عادةً ما يبعثُ هؤلاء الناس على الإرهاق. كانت «بيتي» مُملةً على وجه التحديد لأنها كَبَحَت رغباتها، ومن ثم يشعر الآخرون بالضجر من مدِّها بالرغبات والخيالات.

---

(1) المصطلح الوارد هنا هو (leap of faith)؛ أي وثبة أو قفزة الإيمان حرفيًا: الإيمان بأمر ما على نحو مطلق قبل التأكد من صحته أو إمكانية نجاحه. (المترجم).

يعاني بعض المرضى الآخرين من عجزٍ في اتخاذ القرار؛ فرغم أنهم يعرفون بالضبط ما يريدون وما يجب عليهم فعله، لكنهم يعجزون عن التصرف، فتجدهم متردِّدين خائفين لا يستطيعون المُضي قدمًا. في قصة «ثلاث رسائل لم تُفتح بعد»، كان «سول» (Saul) يعرف أن أي رجل عاقل كان سيفتح الرسائل، لكن الخوف الذي تسببت فيه هذه الرسائل شلَّ إرادته كليًّا. وكانت ثيلما (في قصة «تعرية الحب») تعرف أن هَوَسها بالحب كان يجرد حياتها من الواقعية؛ كانت تعلم أن حياتها -على حدِّ تعبيرها- عالقةٌ في السنوات الثماني الماضية، وأنه كان يتعين عليها التخلي عن افتتانها إذا أرادات استعادتها، لكنها لم تتمكن، أو لم تكن تريد فِعل ذلك، وقاومت بشراسة كلَّ محاولاتي لتنشيط إرادتها.

إن اتخاذ القرارات أمر صعب لأسباب عديدة، وتمتد جذور بعض الأسباب هذه إلى صميم الوجود بعينه. يحكي «جون غاردنر» (John Gardner)، في روايته «غريندل» (Grendel)، عن رجل حكيم يلخِّص تأمله في أسرار الحياة بمُسلَّمتين بسيطتين مروِّعتين: «تتلاشى الأشياء، وتُقصِي البدائل بعضها بعضًا». سبق وأن تناولتُ المُسلَّمة الأولى؛ ألا وهي الموت، أما الثانية «تُقصِي البدائل بعضها بعضًا»، فهي دليل مهم يُتيح لنا فهم سبب صعوبة اتخاذ القرارات. فدائمًا ما يستلزم القرارُ التخلِّي عن شيء ما؛ مقابل كل «نَعم» نقولها يجب أن نقول «لا»، كل قرار نتخذه يلغي أو ينفي الخيارات الأخرى (إن المعنى من جذر كلمة يقرر (decide) هو «يقتل» (slay)، كما هو الحال في كلمتي الجريمة (homicide) أو الانتحار (suicide)). وهكذا تشبَّثت ثيلما بفرصة متناهية الصغر ممنِّية نفسها بإعادة إحياء علاقتها مع حبيبها؛ كان التخلي عن هذا الاحتمال بمنزلة الزوال والموت.

تشير العزلة الوجودية (existential isolation)، وهي ثالث المُسلَّمات، إلى الهوةِ التي لا يمكن رَدمها بين الذات والآخرين، وهي فجوة توجد حتى في العلاقات البين-شخصية المرضية للغاية؛ حيث يكون المرء معزولًا ليس فقط عن الكائنات الأخرى، ولكن بقدرِ ما يشكِّل المرء عالمه الخالص عن العالم الخارجي أيضًا. يجب تمييز هذه العزلة عن نوعين آخرين من العزلة: العزلة البين-شخصية، والعزلة الداخلية (intrapersonal isolation).

يعاني المرء من العزلة الداخلية أو الشعور بالوحدة، إذا كان يفتقر إلى المهارات الاجتماعية أو نمط الشخصية الذي يتيح له التفاعل الاجتماعي الحميمي مع الآخرين. تحدث العزلة الداخلية عندما تنشقُّ عن الذات أجزاءٌ منها، كما هو الحال عندما يفصل المرء العاطفةَ عن الذاكرة من حدثٍ ما. إن الشكل الأكثر تطرفًا ودراماتيكيةً للانشقاق هذا هو الشخصية المتعددة (multiple personality)، وهو نادرٌ نسبيًّا (رغم أنه صار معترفًا به على نطاق أوسع)، لكن عندما يحدث فعلًا، فقد يواجه المعالج المعضلة المحيِّرة المتمثلة في حَيرته حول تحديد الشخصية التي يجب عليه أن يقدِّرها من بين سائر الشخصيات، كما حدث معي خلال علاج «مارج» (Marge) (في قصة «الزواج الأحادي العلاجي»).

في حين أنه لا يوجد حل للعزلة الوجودية، يتوجَّب على المعالجين رَدْع الحلول الخاطئة، إذ يمكن أن تؤدي الجهود التي يبذلها المرء في الهروب من العزلة إلى تخريب علاقاته مع الآخرين؛ لقد فشلت العديد من الصداقات أو العلاقات الزوجية لأنه بدلًا من التواصل مع الآخر والعناية به، يستخدم أحد أطراف العلاقة الطرفَ الآخر كدرعٍ يقيه من العزلة.

إحدى المحاولات الشائعة والفعَّالة لحل العزلة الوجودية -التي تظهر في العديد من هذه القصص- هي الامتزاج (fusion)؛ أي تليينُ الحدود التي يضعها المرء أمامه، والذوبان في الآخر. لقد أثبت الامتزاج قوته في تجارب الإدراك اللاشعوري (subliminal perception) التي تَظهر فيها عبارةُ «أنا وأمي شخص واحد» على شكل ومضات سريعة جدًّا على الشاشة؛ بحيث لا يستطيع المشاركون في الاختبار رؤيتها، وتؤدي هذه التجربة إلى شعورهم بالتحسن والقوة والتفاؤل أكثر من ذي قبل، حتى إنهم يستجيبون على نحو أفضل من الآخرين لعلاج بعض المشاكل، مثل التدخين والبدانة وسلوك المراهقين المضطرب (مع تعديل السلوك (behavioral modification) طبعًا).

إن إحدى المفارقات العظيمة في هذه الحياة هي أن الوعي بالذات يولِّد القلق؛ فيأتي فعل الاندماج ليقضي على القلق جذريًّا، من خلال التخلُّص من الوعي بالذات. الشخص الذي يقع في الحب ويدخل في حالة اندماج سعيدة لا يتأمَّل نفسه لأن أناه المُتسائلة الوحيدة (والقلق المصاحب للعزلة) يذوبان في صورة الـ «نحن». وهكذا ينفصل المرء عن قلقه، ولكنه يفقد نفسه.

لهذا السبب بالضبط لا يحبِّذ المعالجون علاج المريض العاشق؛ إذ يتنافى العلاج النفسي مع حالةِ الاندماج بالحب، لأن العمل العلاجي يتطلب استجوابًا للوعي الذاتي والشعور بالقلق الذي سيصبح في نهاية المطاف بمنزلة المرشد للصراعات الداخلية.

بالإضافة إلى ذلك، فمن الصعب بالنسبة لي -كما هو الحال بالنسبة لمعظم المعالجين- تكوين علاقة علاجية مع مريض واقع في الحب. في قصة «تعرية الحب» على سبيل المثال، لم تشكِّل ثيلما أي ارتباط

بي؛ كانت قد استهلكت طاقتها بالكامل في هَوَسها بالحب. على المرء أن يحذر من التعلُّق الحصري الشديد بالآخر؛ فهو ليس دليلًا على نقاء الحب، بخلاف ما يعتقد الناس أحيانًا. إن مثل هذا الحب المُتقوقع والحصري الذي يتغذّى على نفسه فلا يعطي أي شيء ولا يهتم بالآخرين، مقدَّرٌ له أن ينهار على رأس صاحبه. فالحب أكثر من مجرد شرارة الوَلَع بين شخصين؛ هناكَ فرق لا حصر له بين «الوقوع في الحب» و«الوقوف في الحب». الحب أسلوبٌ حياتي؛ إنه شكلٌ من أشكال «العطاء»، وليس «الوقوع». الحب طريقة للتواصل عمومًا، ولا يقتصر على شخص واحد.

صحيحٌ أننا نحاول جاهدين أنْ نعيش هذه الحياة على شكل أزواج أو مجموعات، إلا أن هناك بعض الأوقات -خاصة عندما ندنو من الموت- التي تبرز فيها حقيقةٌ معينةٌ بوضوحٍ تقشعرُّ له الأبدان، حقيقةُ أننا نُولَد وحيدِين وأننا سنموت وحيدين. لقد سمعتُ العديد من المرضى المحتضرين يقولون إن أسوأ ما في الموت هو أن على المرء أن يموت وحده. ومع ذلك، حتى عندما نقف على حافة الموت، فإن رغبة الآخر في أن يكون حاضرًا بكل جوارحه قد تخترق هذه العزلة. كما قال المريض في قصة «لا تكن لطيفًا»: «حتى عندما تكون وحيدًا على متن قاربك، ستشعر بالراحة دائمًا عندما ترى أضواء القوارب الأخرى تتحرك إلى أعلى وأسفل بمحاذاتك».

وبما أن الموت حدثٌ لا مفر منه، وبما أن كل إنجازاتنا ونظامنا الشمسي بأكمله سيصبح يومًا ما كومةً من الخراب، وبما أن العالَمَ قائمٌ على فكرة الإمكان (Contingency) (أي أن كل شيء كان يمكن أن يكون بخلاف ما هو عليه)، وبما أن على الإنسان تكوين عالمه والطراز البشري داخل هذا العالم، إذن فما احتمالية أن يكون هناك معنًى ثابتٌ في هذه الحياة؟

هذا هو السؤال الذي يقضُّ مضجع الرجال والنساء المعاصرين، ويلجأ الكثيرون إلى العلاج لأنهم يشعرون أن حياتهم تفتقر إلى المعنى والهدف، فنحن مخلوقاتٌ مفطورةٌ على البحث عن المعنى. من الناحية البيولوجية، تعمل أنظمتنا العصبية على نحوٍ يجعل الدماغ يُجمّع تلقائيًا المحفزات الواردة إليه على شكل مجموعةٍ من الصيغ العامة[1] (configurations). كما يوفر المعنى إحساسًا بتسيُّد الموقف؛ فالشعور بالعجز والارتباك في مواجهة الأحداث العشوائية اللانمطية يدفعنا إلى ترتيبها، وبذلك نشعر بأننا سيطرنا عليها. الأهم من ذلك كله هو أن المعنى يولِّد لنا القيم، ومن ثم يقودنا إلى القواعد السلوكية؛ حيث تشكل الإجابةُ على الأسئلة التي تبدأ بـ «لماذا» (مثلًا: لماذا أعيش؟) إجابةً على الأسئلة التي تبدأ بـ «كيف» (مثلًا: كيف أعيش؟).

لكن لا يوجد في هذه الحكايات العشر عن العلاج النفسي إلا عدد قليل من النقاشات الصريحة حول المعنى في الحياة؛ إذ يجب إجراء البحث عن المعنى –حاله كحال البحث عن المتعة– بطريقة غير مباشرة. ينشأ المعنى من خلال ممارسة النشاطات الهادفة؛ كلما سعينا وراءه عمدًا، قلَّ احتمال العثور عليه، وإن ديمومة الأسئلة العقلانية التي يمكن للمرء أن يطرحها حول طبيعة المعنى تتخطَّى ديمومة الإجابات في كل مرة. في العلاج النفسي –كما هو الحال في الحياة– يكون المعنى ناتجًا ثانويًا عن عملية المشاركة والالتزام، ولذلك يتوجب على المعالجين أن يركِّزوا جهودهم في هذا المجال، وهذا لا يعني أن المشاركة تعطي الإجابات العقلانية على الأسئلة التي تدور حول المعنى، لكنها تُفقِدُ هذه الأسئلة أهميتها.

---

(1) إشارةٌ إلى صيغ العلاج «الغشتالتي» (Gestalt therapy)، (انظر الهامش صفحة 64). (المترجم).

إن لهذه المعضلة الوجودية –أي ذلك الكائن الذي يبحث عن المعنى واليقين في عالم يخلو من كلا هذين الشيئين– أهمية هائلة بالنسبة لمهنة المعالجين النفسيين؛ إذ يواجه المعالجون النفسيون في عملهم اليومي الكثير من عدم اليقين، خصوصًا إذا أرادوا التواصل مع مرضاهم تواصلًا فعليًّا. ولا يقتصر الأمر على أن مواجهة المريض للأسئلة التي لا يمكن الإجابة عنها تُعرِّض المعالج النفسي لمجابهة تلك الأسئلة ذاتها، بل يجب على المعالج أيضًا أن يدرك، كما أدركتُ أنا في قصة «ابتسامتان» (Two Smiles)، أن تجربة الآخر هي في النهاية تجربةٌ خاصة جدًّا ولا يمكن معرفتها بتاتًا.

لا شك في أن القدرة على تحمل عدم اليقين شرطٌ أساسيٌّ لمزاولة هذه المهنة. قد يعتقد عامة الناس أن المعالجين يوجِّهون المرضى بمنهجية وكفاءة خلال مراحل العلاج الواضحة التي تمضي نحو هدف معروف، إلا أن هذا نادرًا ما يحدث؛ فكما توضِّح هذه القصص، كثيرًا ما يتخبَّط المعالج النفسي ويرتجل ويتحسَّس طريقه في الظلام بحثًا عن الوجهة الصحيحة؛ إن التوصُّل إلى الشعور باليقين من خلال اعتناق مدرسة أيديولوجية ونظام علاجي مُحكَم هو إغراء مؤثِّر جدًّا، لكنه غدار؛ فقد يَحُول هذا الاعتقاد دون تشكُّل علاقة علاجية فيها عدم اليقين والعفوية الضروريَّين لتحقيق علاجٍ فعال.

هذه العلاقة العلاجية، الكامنة في صميم العلاج النفسي، هي لقاء إنساني عميق بين شخصين؛ أحدهما (وهو المريض عمومًا، لكن ليس دائمًا) يكون أكثر اضطرابًا من الآخر. عادةً ما يلعب المعالج دورًا مزدوجًا؛ حيث يجب عليه مراقبة حياة مريضه والمشاركة فيها. يكون المعالج المراقب موضوعيًّا بما فيه الكفاية لكي يوجِّه المريض كما يجب

وفقًا لبعض الأساسيات، أما المعالج المشارك فيدخل إلى حياة المريض، ويتأثر ويتغير أحيانًا على أثر هذه العلاقة.

عندما أختار أنا، المعالج، الدخولَ على نحو كامل إلى حياة المريض، فسوف أتعرَّض للمشكلات الوجودية ذاتها التي يعيشها مرضاي، كما يجب أن أكون مستعدًا لتفحُّصها مستخدمًا قواعد البحث المألوفة. لا بد أن أفترض أن المعرفة أفضل من عدم المعرفة، وأن المغامرة أفضل من عدم المغامرة، وأن السحر والأوهام مهما كانا غنيَّين ومغريَين فهما يُضعفان الروح البشرية في النهاية. يقول توماس هاردي: «إذا كان هناك سبيل نحو الأفضل، فإنه يفرض علينا أن نلقي نظرة شاملةً على الأسوأ»، وهي كلمات راسخةٌ أتعامل معها بجدية كبيرة.

يتطلب الدور المزدوج (كمراقب ومشارك) الكثير من جهد المعالج، وبالنسبة لي في هذه الحالات العشر، فقد واجهني بأسئلة مروعة؛ كيف لي –على سبيل المثال– أن أتوقع من المريض الذي طلب مني أن أحتفظ برسائله الغرامية أن يتعامل مع المشاكل ذاتها التي تجنَّبتُها أنا في حياتي الخاصة؟ هل سأتمكن من مساعدته على التحليق بعيدًا أبعد مما حلقتُ أنا؟ هل سأطرح أسئلة وجودية قاسية على رجل يحتضر، وأرملة، وأمّ ثكلى، ومتقاعد قلق يرى أحلامًا غامضةً؟ أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها! هل عليَّ أن أكشف عن ضعفي ومحدوديتي أمام مريضة كانت شخصيتها الأخرى مغرية للغاية؟ هل سأتمكن من تكوين علاقة صادقة وعطوفة مع سيدة بدينة جعلني مظهرها الجسدي أنفر منها؟ هل عليَّ –تحت راية التبصُّر الذاتي– تجريد سيدة عجوز من وَهْم الحب غير العقلاني، حتى وإن كان مريحًا وداعمًا لها؟ هل سأفرض إرادتي بالقوة على رجل غير قادر على التصرف بما يخدم مصلحته، قد سمح لثلاث رسائل غير مفتوحة أن تبثَّ في قلبه الرعب؟

صحيحٌ أن حكايات العلاج النفسي هذه تعجُّ بكلمتَي «المريض» و«المعالج»، لكن لا تَدَع هذين المصطلحين يخدعانك؛ لأن هذه القصص تحكي عن كل رجل وكل امرأة فينا. المشاكل النفسية واسعة الانتشار؛ لذا فإن تسمية أحدهم بـ «المريض» هو تصرف اعتباطيٌّ إلى حدٍّ كبير، وغالبًا ما يعتمد على العوامل الثقافية والتعليمية والاقتصادية أكثر من اعتماده على شدة المرض. نظرًا لأن على المعالج مواجهة المسلَّمات الوجودية هذه، حاله كحال المريض؛ فإن الموقف المهني الذي يتبنَّى الموضوعية الحيادية -الضرورية للغاية في البحث العلمي- لا يناسب العلاج النفسي. لا يجوز أن نكتفي نحن بوصفنا معالجين نفسيين بالشفقة على المرضى وحثِّهم على الكفاح بحزم ضد معاناتهم، لا يجوز أن نقول لهم: «أنتم المسئولون، وهذه معاناتكم أنتم». بل يجب أن نتحدث عنا وعن معاناتنا نحن؛ لأن حياتنا ووجودنا دائمًا ما يرتبط بالموت، وحبنا يرتبط بالخسارة، وحريتنا ترتبط بالخوف، وازدهارنا يرتبط بالافتراق؛ نحن جميعنا شركاء في هذه المحنة.

1

تعرية الحب

لا أحبذ علاج المرضى الواقعين في الحب. قد يكون ذلك بسبب الحسد؛ فأنا أيضًا أتوق إلى الافتتان بأحدهم. أو ربما لأن الحب والعلاج النفسي يتعارضان جذريًّا؛ ففي الوقت الذي يحارب فيه المعالجُ البارعُ الظلامَ ويفتِّش عن النور، يُبنى الحب الرومانسي على الغموض وينهار عند التنقيب فيه. أكره أن أكون جلَّاد الحب.

ومع ذلك، أخبرَتني «ثيلما» في مستهلِّ مقابلتنا الأولى أنها كانت في حالةِ حبٍ مأساوية ميئوس منها، ولم أتردد أبدًا، ولا للحظة واحدة، في قَبول علاجها. كل شيءٍ رأيتُه من النظرة الأولى -وجهها المتجعد البالغ من العمر سبعين عامًا، ورعشة ذقنها الهَرِم، وشعرها الأصفر المتساقط المُبيضُّ الأشعث، ويداها الهزيلتان ذواتا العروق الزرقاء- أخبرني بأنها كانت مخطئةً لا محالة، وأنها لا يمكن أن تكون عاشقة؛ كيف يمكن للحب أن يتقصَّد تدمير هذا الجسد المسنِّ الضعيف المترنِّح، أو أن يسكن في بدلة ركض «البوليستر» عديمة الشكل تلك؟

علاوة على ذلك، لم أرَ فيها ما يدل على أنها كانت تنعم بالحب. لم تفاجئني معاناة «ثيلما»؛ فالحب دائمًا ما يكون ملوثًا بالألم، لكن حبها كان يفتقد إلى التوازن على نحو مخيف، كان خاليًا من المتعة على الإطلاق، حياتها بأكملها كانت ضربًا من العذاب.

لذلك وافقتُ على علاجها لأنني كنت متأكدًا من أنها كانت تعاني، لكن ليس من الحب، بل من أمر مغايرٍ نادرٍ خلطَتْ بينه وبين الحب. علاوةً على إيماني بأنني أستطيع مساعدة «ثيلما»، كنت أشعر بالفضول الشديد تجاه إمكانية أنْ يكون هذا الحب المزيَّف منارةً تسلِّط الضوء على القليل من خفايا الحب العميقة.

كانت «ثيلما» منكفئةً على ذاتها وقاسيةً في اجتماعنا الأول؛ لم تبادلني الابتسامة عندما استقبلتُها في غرفة الانتظار، ومشَت ورائي بخطوة أو خطوتين وأنا أرافقها في الردهة. عندما دخلنا إلى مكتبي لم تتفقَّد محيطها وجلسَت على الفور، ثم من دون أن تنتظر أي تعليق مني ودون أن تحلَّ أزرار السترة الثقيلة التي كانت ترتديها فوق بدلة الركض، أخذَت نفسًا عميقًا حادًّا وشرعت تتكلم: «قبل ثماني سنوات خلَت، كنت في علاقة حب مع معالجي النفسي، ولم أتمكن من التوقف عن التفكير فيه منذ ذلك الحين، كدتُ أقتل نفسي في إحدى المرات، وأعتقد أنني سأنجح في المرة القادمة. أنت أملي الأخير».

أُنصتُ دائمًا بعناية إلى الجُمل الأولى؛ فهي غالبًا ما تبوح بالأسرار على نحو خارق للعادة وتنبِّئني بنوع العلاقة التي سأتمكن من توطيدها مع المريض مستقبلًا. عادةً ما تسمح الكلمات لنا بالعبور إلى حياة الآخر، لكنَّ نبرة صوت «ثيلما» كانت خاليةً من أي دعوة للاقتراب.

ثم تابعَتْ: «إن كنتَ تجد صعوبة في تصديق كلامي، فربما هذا سيساعدك»!

مدت يدها إلى محفظتها الحمراء الباهتة وأعطتني صورتين قديمتين؛ كانت الأولى لراقصة شابَّة جميلة ترتدي ثوبَ رقصٍ أسودَ أنيقًا. عندما

نظرتُ إلى وجه تلك الراقصة، أذهلَتني عيون «ثيلما» الكبيرة وهي تحدِّق بي قادمةً من العقود التي توالت عليها.

«التُقطَت تلك الصورة ...» -أخبرتني «ثيلما» عندما رأتني ألتفت إلى الصورة الثانية، صورة لامرأةٍ بهية تبلغ من العمر ستين عامًا لكن بدا عليها أنها كانت متبلِّدة الأحاسيس- «منذ حوالي ثماني سنوات. فكما ترى ...» -مررت أصابعها في شعرها الأشعث- «لم أعد أعتني بمظهري».

رغم أنني واجهت صعوبةً في تخيُّل هذه المرأة العجوز المتهالكة على علاقة مع معالجها النفسي، لم أنبس ببنت شفة عن عدم تصديقي لها. في الواقع، التزمتُ الصمت تمامًا. حاولتُ التصرف بموضوعية تامة، لكن لا بد أنها لاحظت شيئًا ما دلَّها على تشكيكي بقصتها، بعض الإشارات الصغيرة ربما، كاتساعِ عينيَّ بعض الشيء. قررتُ ألا أعترض على اتهامها لي بأنني لم أكن أصدِّقها؛ لم يكن هناك من داع وقتها لكي أُظهر أمامها بَسالتي، لكن كان هناك فعلًا تناقضٌ في وجود امرأة مبعثرة الهيئة تبلغ من العمر سبعين عامًا مفتونة وقلبها ملتاعٌ بالحب؛ كنا أنا وهي نعرف ذلك، وكانت تعرف أنني أعرف حقيقة هذا الأمر.

سرعان ما علمتُ أنها كانت تعاني على مدى السنوات العشرين الماضية من الاكتئاب المزمن، وكانت تخضع للعلاج النفسي بصورة مستمرة تقريبًا. كانت قد تلقَّت معظم علاجها في عيادة الصحة العقلية المحلية في المقاطعة، حيث عولجت من قِبَل عددٍ من المتدربين.

قبل حوالي أحد عشر عامًا، كانت قد بدأت العلاج مع «ماثيو» (Matthew)؛ وهو شاب وسيم وطبيب نفسي مقيم، والتقتْ به أسبوعيًا لمدة ثمانية أشهر في العيادة، واستمرت في رؤيته في عيادته الخاصة لمدة عامٍ

آخر. في العام التالي، عندما تولَّى «ماثيو» منصبًا بدوامٍ كامل في مستشفى حكومي، وجد نفسه مضطرًا إلى إنهاء علاج جميعً مرضاه الخاصِّين.

ودَّعته «ثيلما» والحزن الشديد كان قد غلب عليها؛ لأنه كان أفضل معالج حظيَتْ به على الإطلاق، وقد أصبحت متيَّمةً به إلى حد كبير. خلال تلك الأشهرِ العشرين، كانت تتطلع طوال الأسبوع إلى جلسة علاجها. لم يسبق لها قطٌّ أن كانت صريحةً تمامًا مع أي شخص آخر، لم تكن قد رأت من قبلُ أي معالج ضميره حيٌّ وقابلها بصدقٍ ووضوحٍ ولطف.

تحدثت «ثيلما» عن «ماثيو» لعدة دقائق: «كان يُظهر الكثير من الاهتمام والكثير من الحب. حاول معالجون آخرون أن يكونوا حميميين تجاهي، لكي لا تقلق، لكن «ماثيو» كان مختلفًا؛ كان يهتم بي حقًّا، وقد تقبَّلني بكل صدق. بغض النظر عن أي شيء كنت أفعله، أو الأفكار الفظيعة التي كانت تَلوح في بالي، كنت أعرف أنه سيتقبَّلها وسيستمر بـ... –ما الكلمة المناسبة؟– دعمي؟ كلا، بل مصادَقتي على أفعالي وأفكاري. لقد ساعدني كما يفعل المعالجون عادةً، لكنه فعل أكثر من ذلك بكثير».

- «على سبيل المثال؟».
- «لقد عرَّفني على الأبعاد الروحية والدينية للحياة؛ علَّمني أن أهتم لأمر جميع الكائنات الحية؛ علَّمني أن أفكر في الأسباب التي جعلتني آتي إلى الحياة على هذه الأرض. لكنه لم يكن منفصلًا عن الواقع، بل كان يتعامل معي بكل وضوح».

كانت «ثيلما» مفعمة بالنشاط، ألقت كلماتها بسرعةٍ وهي تشير إلى الأرض وإلى الغيوم أثناء حديثها؛ كان واضحًا أنها تحب الحديث عن «ماثيو»: «أحببتُ تناغمه معي، لم يسمح لي بالإفلات بأي شيء، ودائمًا ما انتقدَ عاداتي السيئة».

أذهلتني هذه العبارة الأخيرة؛ إذ لم تتناسب مع بقية طرحها. ومع ذلك، فقد اختارت مصطلحاتها بدقة تامة لدرجة أنني اعتقدتُ أنها كانت تخرج من فم «ماثيو»، ربما كان ذلك مثالًا على أسلوبه البارع! كانت مشاعري السلبية تجاهه تنمو بسرعة، لكنني احتفظت بها لنفسي. أشعرتني كلمات «ثيلما» بوضوح أنها لن تُقابل أيَّ انتقادٍ لـ «ماثيو» برحابة صدر.

بعد رحيل «ماثيو»، بدأت «ثيلما» العلاجَ مع معالجين آخرين، لكن لم يتمكَّن أيٌّ منهم من التواصل معها بنجاح أو من مساعدتها على تقدير حياتها كما كان يفعل «ماثيو».

لك أن تتخيل إذن مدى سعادتها، بعد عام من لقائهما الأخير، عندما صادَفَتْهُ في وقتٍ متأخر من بعدِ ظهرِ أحدِ أيام السبت في «يونيون سكوير» (Union Square) في «سان فرانسيسكو»، حيث تجاذبا أطراف الحديث، ولكي يهربا من زحمة المتسوقين تناولا القهوة معًا في مقهى فندق «سينت فرانسيس» (St. Francis). كانت بانتظارهما الكثير من الأحاديث، أراد «ماثيو» أن يعرف ما حدث مع «ثيلما» في العام الماضي، لدرجة أن الساعة التي كانا قد خصَّصاها لشرب القهوة امتدَّت إلى حين موعد العشاء، وسارا معًا إلى مطعم «سكوما» (Scoma) عند مرسى الصيادين (Fisherman's Wharf) في «سان فرانسيسكو» لتناول يخنة سرطان البحر.

بدا كل شيء طبيعيًا جدًّا، كما لو كانا قد تناولا وجبات مثل هذه مرات لا تعدُّ ولا تحصى في الماضي. لكن في الواقع كانت علاقتهما علاقةً مهنية بحتة لم تتخطَّ بأي شكل من الأشكال الحدود الرسميةِ لعلاقة المريض بالمعالج. كانا قد اعتادا أن يتعرَّف أحدهما إلى الآخر على دُفعاتٍ أسبوعيًا لمدة خمسين دقيقة بالضبط، لا أكثر ولا أقل من ذلك.

لكن في ذلك المساء، لأسباب لم تستطع «ثيلما» فهمها حتى الآن، انسلّت هي و«ماثيو» خارج الواقع اليومي؛ لم يتفقّد أيٌّ منهما الوقت، كانا قد تواطآ بصمتٍ متظاهرين بأن التحدث على الصعيد الشخصي أو تناول القهوة أو العشاء معًا كانت أمورًا اعتيادية. كانت تتصرف على طبيعتها وهي تسوي قُبة قميصه المتجعدة وتزيل الوبر عن سترته، وتمسك بذراعه أثناء مَشْيهما صعودًا في شوارع حي «نوب هيل» (Nob Hill). بدا من الطبيعي لـ «ماثيو» أن يصف لـ «ثيلما» شقته الجديدة في شارع «هيت» (Haight)، كما بدا أمرًا طبيعيًا جدًّا أن تقول «ثيلما» له إنها كانت تتشوق كثيرًا لرؤيتها. ضحكا عندما قالت «ثيلما» إن زوجها كان خارج المدينة؛ كان «هاري» -عضو المجلس الاستشاري للكشافة الأمريكية- يُلقي الخطابات في التجمعات الرسمية للكشافة في مكانٍ ما من أمريكا كل ليلة تقريبًا من الأسبوع. كان «ماثيو» مسرورًا عند معرفته بأنه لم يتغير أي شيء، ولم تكن «ثيلما» بحاجة لأن تشرح له شيئًا؛ فقد كان يعرف كل شيء عنها.

تابعت «ثيلما» قائلةً: «لا أتذكر الكثير عن بقية أحداث ذلك المساء، وكيف جرت الأمور، ومَن منَّا بادر إلى لمس الآخر، وكيف قررنا الذهاب إلى الفراش؛ لم نتعمَّد اتخاذ أي قرار، بل جرى كل شيء بعفوية ودون أي عناء. ما أتذكره بوضوح هو أن الاستلقاء بين ذراعيْ «ماثيو» كان شعورًا آسرًا. كانت تلك اللحظة من أعظم لحظات حياتي».

- «أخبريني عما حدث بعد ذلك».

- «كانت الأيام السبعة والعشرون التالية؛ أي من 19 يونيو إلى 16 يوليو، أيامًا ساحرة؛ تحدثنا عبر الهاتف عدة مرات في اليوم وتقابلنا أربع عشرة مرة. كنت أطفو وأتمايل وأرقص».

ظهر في صوت «ثيلما» بعض النغم، وراحت تهز رأسها على إيقاع لحن السنوات الثماني الماضية. كانت عيناها المغلقتان تقريبًا تختبران صبري بشدة، فأنا لا أحب أن يُشعرني الآخرون بأنني غير موجود.

- «كانت تلك ذروة حياتي؛ لم أشعر بالسعادة من قبل -أو منذ- ذلك الوقت. الأشياء التي حدثت منذ تلك الأيام لا يمكن أن تمحو أبدًا ما مَنَحني إياه حينها».
- «وماذا حدث منذ ذلك الحين يا تُرى؟».
- «آخر مرةٍ رأيتُه فيها كانت في الثانية عشرة والنصف مساءَ السادس عشر من يوليو. كان قد توقَّف عن الرد على مكالماتي لمدة يومين؛ لذلك زُرته دون سابق إنذار في مكتبه. كان يتناول شطيرةً وكان لديه متسعٌ من الوقت -حوالي عشرين دقيقة- قبل أن يُضطر إلى ترؤُّس مجموعة علاج جماعي. سألته لماذا لم يعاود الاتصال بي، فقال بكل بساطةً: «ما نقوم به خطأ، وكلانا يعرف ذلك»». توقَّفَت عن الكلام وبكتْ بصمت.

قلت في نفسي إنه اكتشف في توقيت مثاليّ أن ما كانا يقومان به لم يكن أمرًا سليمًا: «هل يمكنكِ المتابعة؟».

سألتُهُ: «لنفترض أنني سأتصل بك العام المقبل أو بعد خمس سنوات؟ هل ستقابلني؟ هل يمكننا القيام بنزهة أخرى على طول جسر «غولدن غيت» (Golden Gate)؟ هل ستسمح لي بمعانقتك؟» أجاب «ماثيو» على أسئلتي بإمساك يدي، ثم سحبني إلى حضنه وعانقني بشدة لعدة دقائق.

- اتصلتُ به كثيرًا منذ ذلك الوقت وتركتُ له عدة رسائل على مجيبه الآلي. في البداية عاود الاتصال بي بضع مرات، لكنه توقَّف عن الاتصال بعدها توقفًا كاملًا؛ أبعدني عنه تمامًا والتزم الصمت كليًّا».

استدارت «ثيلما» بعيدًا ونظرت إلى الخارج من النافذة؛ لقد اختفى النغم من صوتها وصارت تتحدث برويةٍ أكبر، بنبرة مريرة موحشة، لكنها لم تكن تبكي. شعرتُ بأنها كانت على وشك أن تمزَّق أو تَفقأ عينيها بدلًا من البكاء.

- «لم أستطع أبدًا معرفة السبب؛ لم أعرف لماذا انتهى الأمر بتلك البساطة! في إحدى محادثاتنا الأخيرة قال لي إن علينا العودة إلى حياتنا الحقيقية، ثم أضاف أنه كان مرتبطًا بشخصٍ جديد». ظننتُ -دون أن أخبرها- بأن الشخص الجديد في حياة «ماثيو» كان مريضًا آخرَ.

لم تكن «ثيلما» متأكدة إذا ما كان الشخص الجديد رجلًا أم امرأة. كانت تشتبه في أن «ماثيو» شاذٌّ جنسيًّا؛ فقد كان يعيش في أحد أحياء المثليين المنعزلة في «سان فرانسيسكو»، وكان جميلًا تمامًا كالعديد من الرجال المثليين، بشاربه الممشَّط بعنايةٍ فائقة، ووجهه الصبياني، وجسده الزئبقي. فكَّرت في هذا الاحتمال بعد ذلك بعامين، عندما كانت تصطحب ضيفًا من خارج المدينة في جولة سياحية، حيث دخلَتْ بكل حذرٍ حانةً للمثليين في شارع «كاسترو» وذُهلتْ لدى رؤيتها خمسَ عشرةَ نسخةً من «ماثيو» جالسين عند «البار»: خمسةَ عشر شابًّا نحيفًا جذابًا بشوارب أنيقة.

كان هجرُ ماثيو لـ «ثيلما» على نحو فجائيّ أمرًا مدمرًا. كما أن عدم معرفتها لسبب ابتعاده كان شيئًا لا يطاق. ظلّت «ثيلما» تفكر في «ماثيو» باستمرار، ولم تنقطع تخيلاتها المستفيضة عنه ساعةً واحدة. أصبحت مهووسة بمعرفة السبب. لماذا رفضها ونبذها؟ لماذا فعل ذلك؟ لماذا لا يراها أو حتى يتحدث معها عبر الهاتف؟

بلغ اليأس في قلب «ثيلما» مبلغًا شديدًا للغاية بعد أن باءت جميع محاولات الاتصال بـ «ماثيو» بالفشل؛ بقيتْ في المنزل طوال اليوم تنظر من نافذتها إلى الشارع، كما عجزت عن النوم، أصبحت بطيئة الحركة والكلام، فقدت حماسها تجاه القيام بأي نشاط، امتنعت عن الأكل، وسرعان ما أصبح اكتئابها خارج متناول العلاج النفسي أو الأدوية المضادة للاكتئاب! استشارت ثلاثة أطباء مختلفين من أجل علاج أَرَقها، وحصلت من كل واحد منهم على وصفة طبية لأدوية النوم، وسرعان ما جمعت منها كمية قاتلة. وبعد ستة أشهر تمامًا من لقائها «ماثيو» بالصدفة في «يونيون سكوير»، تركتْ رسالةَ وداع لزوجها «هاري» الذي كان خارج المدينة لمدة أسبوع، وانتظرت إلى أن اتصل بها من الساحل الشرقي ليتمنى لها ليلة سعيدةً، ثم رفعت سماعة الهاتف، وابتلعت جميع الأقراص، وخلدت إلى الفراش.

كان «هاري» عاجزًا عن النوم في تلك الليلة؛ فاتصل بـ «ثيلما» مرة أخرى، وشعر بالقلق الشديد عندما وجد أن الخط كان مشغولًا كلما عاود الاتصال! اتصل بجيرانه، الذين أخذوا يطرقون عبثًا على باب «ثيلما» ونوافذها. سرعان ما اتصلوا بالشرطة، الذين اقتحموا المنزل بدورهم، فوجدوا أنها كانت على وشك مفارقة الحياة.

لم تنجُ «ثيلما» من الموت إلا من خلال جهود الأطباء البطولية. عندما استعادت وعيها، قامت على الفور بترك رسالةٍ صوتيَةٍ على مجيب ماثيو الآلي.؛ أكَّدَت له أنها ستحافظ على سرهما وتوسلَت إليه لكي يزورها في المستشفى. حضر «ماثيو» لزيارتها، لكنه لم يمكث سوى خمس عشرة دقيقة، وكان وجوده -كما قالت «ثيلما»- أسوأ من صمته؛ حيث تهرَّب من كل تلميحاتها إلى الأيام السبعة والعشرين من الحب التي كانا قد قضياها سويًا، وأصرَّ على الحفاظ على الرسمية والمهنية.

لم يتوقف عن لعب هذا الدور سوى مرة واحدة، عندما سألَته «ثيلما» عن سير علاقته مع الشخص الجديد الذي دخل حياته، فاستشاط «ماثيو» غضبًا وقال لها: «لا داعي لأن تعرفي شيئًا عن هذا مطلقًا!».

- «وهكذا انتهى كل شيء!» أدارت «ثيلما» وجهَها نحوي مباشرة لأول مرة، وأضافت بصوت مستسلم ومرهق: «لم أره بعد ذلك قط. لا زلت أتصل به لأترك له رسائل مسجَّلة له في التواريخ المهمة؛ في عيد ميلاده، و19 يونيو (تاريخ أول موعد بيننا)، و17 يوليو (تاريخ الموعد الأخير)، والكريسماس، ورأس السنة الجديدة. في كل مرة أغيِّر فيها معالجي أتصل به لإخباره بذلك، لكنه لا يعاود الاتصال بي نهائيًا.

- لم أتوقف عن التفكير فيه لمدة ثماني سنوات؛ كلَّ صباح في تمام السابعة أتساءلُ عن إذا ما كان قد استيقظ أم لا، وفي الثامنة أتخيله وهو يأكل دقيقَ الشوفان (فهو يحب دقيق الشوفان لأنه نشأ في مزرعة في «نبراسكا»). أبحثُ عنه أينما ذهبتُ إذا سرتُ في الشارع، وظننتُ خطأً أنني رأيته أكثر من مرة، فأجد نفسي قد اندفعت لتحية أناس غرباء! أحلم به، أُعيد تصور كل لقاء

من لقاءاتنا معًا خلال تلك الأيام السبعة والعشرين. في الواقع، تمضي معظم أيام حياتي وأنا مستغرقةٌ في أحلام اليقظة هذه، لا أنتبه إلى ما يحدث حولي في الوقت الحاضر إلا في النوادر؛ حياتي عالقةٌ في السنوات الثماني الماضية».

يا لها من عبارة آسرة؛ «حياتي عالقةٌ في السنوات الثماني الماضية!» قررتُ حِفظها لكي أستخدمها مستقبلًا.

- «أخبريني عن العلاج الذي تلقَّيتِه في هذه السنوات الثماني التي انقضت، منذ أن حاولتِ الانتحار».
- «خلال ذلك الوقت لَزِمتُ الذهاب إلى المعالجين على الدوام؛ وصفوا لي الكثير من مضادات الاكتئاب التي يقتصر نفعها على السماح لي بالنوم، لم أتلقَّ الكثير من العلاجات الأخرى، ولم يكن العلاج بالكلام ذا جدوى بالنسبة إليَّ أبدًا. يمكنك القول بأنني لم أمنح العلاج فرصة نجاح كبيرة؛ لأنني كنت قد اتخذت قرارًا بحماية «ماثيو» بعدم ذكره أو ذكر علاقتي به أمام أي معالج آخر».
- «أي أنكِ خلال ثماني سنواتٍ كاملةٍ من العلاج لم تتحدَّثي عن «ماثيو» مطلقًا!».

يا لسوء تقنيني في هذا الموقف! كان خطأً لا يرتكبه سوى المبتدئين؛ لكنني لم أستطع كبح دهشتي. تذكرت حينها مشهدًا لم أفكر فيه منذ عقود؛ كنتُ آنذاك طالبًا وكنت جالسًا في حصة إجراء المقابلات في كلية الطب، كان هناك طالب حَسَن النية، لكنه متبجِّح وبارد، (ولحسن الحظ أصبح لاحقًا جراح عظام)، وكان يجري مقابلةً أمام زملائه ويحاول

استخدام أولى تقنيات «روجرز»[1] (Rogers) القائمة على مداراة المريض عن طريق تكرار كلماته، وعادة ما يقع الاختيار على الكلمة الأخيرة من جملة المريض: «ويأكل الهامبرغر النيء»! كانت هذه آخر جملةٍ قالها المريض، الذي كان يسرد الأفعال الشنيعة التي ارتكبها والده المستبد؛ لم يعد المحاوِر عندها قادرًا على احتواء غضبه، بعد أن كافح بشدة للحفاظ على حياده، فردَّ عليه بصوت عالٍ: «الهمبرغر النيء؟» على امتداد ذلك العام، غالبًا ما كانت عبارة «الهمبرغر النيء» تُهمس في المحاضرات، ودائمًا ما كان الطلاب يُطلقون الضحكات عند سماعها.

طبعًا احتفظتُ بحلم اليقظة هذا لنفسي: «لكنكِ اتخذتِ اليوم قرارًا بالمجيء لرؤيتي وبالتصالح مع ذاتك. أخبريني عن هذا القرار».

- «لقد بحثتُ عن بعض المعلومات حولك؛ اتصلتُ بخمسة معالجين سابقين وأخبرتهم بأنني سأعطي العلاج فرصةً أخيرة وسألتهم عمن يجب أن أذهب إليه الآن، فظهر اسمك في أربعٍ من قوائمهم؛ قالوا لي إنك معالج جيد بالنسبة لمن يبحث عن ملاذٍ أخير. كان ذلك بمنزلة نقطة لصالحك، لكنني كنت أعرف أيضًا أنهم طلابك السابقون، لذلك درستك أكثر؛ ذهبت إلى المكتبة وراجعتُ أحد كتبك، وقد أدهشني أمران اثنان: كنتَ واضحًا على نحو جعلني أفهم كتاباتك، وكنتَ لا تمانع الحديث بصراحة عن الموت. ولذلك سأكون صريحةً معك؛ أنا شبه متأكدة من أنني سأنتحر في النهاية. سبب تواجدي هنا هو منح العلاج فرصة أخيرة لكي أتمكّن من العيش ولو بذرَّة من السعادة، إذا لم يحصل ذلك، آملُ أن تساعدني على الموت، وأن تجد لي سبيلًا أقلِّل به الألم الذي سأتسبب فيه لعائلتي قدر المستطاع».

---

(1) عالم النفس الأمريكي «كارل روجرز» (1902 - 1987) (Carl Rogers). (المترجم).

أخبرت «ثيلما» بأنني أعتقد أنه يمكننا أن نعمل على علاجها سويًا، لكنني اقترحت أن نتشاور في جلسة أخرى لدراسة الأمور بشكل أوسع، وللسماح لها أيضًا بتقييم إذا ما كان بإمكانها تلقي العلاج على يدي. كنتُ على وشك أن أقول المزيد، عندما نظرتْ «ثيلما» إلى ساعتها وقالت: «لقد انقضَت خمسون دقيقة. إذا لم يكن هناك شيء آخر ... لقد تعلَّمت ألا أُطيل المكوث في جلسات العلاج».

كنتُ أتأمل نبرة صوت «ثيلما» عندما قالت هذه العبارة الأخيرة -إذ لم تكن ساخرةً أو مغرورةً بالضرورة- عندما نهضَتْ وأخبرتني في طريقها للخروج أنها ستُحدد الجلسة التالية مع سكرتيرتي.

بعد انقضاء هذه الجلسة توجَّب عليَّ أن أفكر في الكثير من الأمور؛ كان «ماثيو» على رأس القائمة لأنه أغضبني كثيرًا، لقد رأيتُ الكثير من المرضى الذين قد تضرروا بشدة على يد المعالجين الذين استغلُّوهم جنسيًّا، دائمًا ما تكون آثار هذا الأمر مدمرة للمريض.

الأعذار التي يقدمها المعالجون تكون دائمًا تسويغاتٍ لا تخفى على أحد وتخدم مصالحهم الذاتية؛ كأنْ يقوم المعالج، على سبيل المثال، بتقبُّل وتأييد مشاعر المريض الجنسية. يحتاج الكثير من المرضى أحيانًا إلى الشعور بأنهم مقبولون جنسيًّا، خصوصًا أولئك الذين لا يتمتعون بجاذبيةٍ ملحوظة، أو الذين يعانون من السمنة المفرطة، أو المشوَّهين إثر العمليات الجراحية. لكنني لم أسمع حتى اليوم عن أي معالج تقبَّل هؤلاء الناس جنسيًّا؛ دائمًا ما يقع الاختيار على المرأة الجذابة في هذا الخصوص. بطبيعة الحال، إن المعالجين المُعتدين هم الذين يحتاجون إلى مَن يتقبلهم جنسيًّا، وهم الذين يفتقرون إلى السبل التي تخوِّلهم للحصول عليه في حياتهم الشخصية.

لكن «ماثيو» كان بمنزلة لغزٍ إلى حدٍّ ما؛ فعندما أغوى «ثيلما» (أو سمح لنفسه بأن تُغوى، لا فرق بين هذين الأمرين)، كان قد انتهى توًّا من الدراسات العليا، ومن ثم كان في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من عمره؛ إذن لماذا؟ لماذا اختار شابٌّ جذابٌ -وناجحٌ على ما يبدو- امرأةً تبلغ من العمر اثنين وستين عامًا؟ لماذا اختار امرأةً قد ماتت روحها وتملَّكتها الكآبةُ لسنوات عديدة؟ فكَّرت في تكهُّنات «ثيلما» حول كونه شاذًا جنسيًّا، ربما كانت الفرضية الأكثر منطقية هي أن «ماثيو» كان يحاول علاج -أو تجسيد (act out)- بعض المشاكل النفسية- الجنسية الشخصية التي كان يعاني منها، وكان يستخدم مريضته (أو مرضاه) للقيام بذلك.

ولهذا السبب بالتحديد نحثُّ المتدربين على الخضوع للعلاج الشخصي لفترات طويلة. ولكن اليوم -بوجود دورات تدريبية قصيرة وإشرافٍ أقل وتدنِّي معايير التدريب ومتطلبات الترخيص- غالبًا ما يرفض المعالجون ذلك، وقد عانى العديد من المرضى من افتقار المعالج إلى معرفة ذاته. لا شفقة لديَّ تجاه المهنيين غير المسئولين، وقد شجَّعت الكثير من المرضى على الإبلاغ عن المعالجين المعتدِين جنسيًّا إلى لجان الأخلاقيات المهنية. فكرتُ للحظةٍ في السبيل الذي يمكنني اتباعه في التعامل مع «ماثيو»، لكنني اعتقدت أن مدة اتخاذ إجراءٍ بحقه قد انقطعت بموجب قانون التقادم[1]. ومع ذلك، كنت أريده أن يعلم بمدى الضرر الذي تسبب فيه.

(1) مصطلح قانوني يشير إلى الفترة الزمنية التي يمكن من خلالها أن يقاضي أحدهم شخصًا ما؛ إذا انتهت هذه الفترة دون أن يتقدم الفرد بالدعوى القضائية، فلا يحق له حينئذ مقاضاة ذلك الشخص بسبب الجريمة أو التهمة المزعومة. (المترجم).

وجهتُ انتباهي إلى «ثيلما» وصرفتُ النظر في الوقت الحالي عن دوافع «ماثيو»، لكن كان محتّمًا عليَّ أن أعاني من هذه المسألة عدة مرات قبل نهاية هذا العلاج، ولم أخمِّن حينها أن اللغز الذي قُدِّر لي أن أفكَّ عُقَده على نحو كامل -من بين كل الألغاز المرتبطة بـ «ثيلما»- هو لغزُ «ماثيو».

لقد أدهشني هَوَسها العنيد بالحب؛ ذلك الهوس الذي سيطرَ عليها لمدة ثماني سنوات دون أي تعزيز خارجي[1] (external reinforcement). لقد احتلَّ الهَوَس حياتها بالكامل، كانت «ثيلما» محقةً؛ فحياتها فعلًا عالقةٌ في السنوات الثماني الماضية. لا بد أن الهوس كان يستمدُّ جزءًا من قوته من الوَهَن الذي أصاب باقي أركان وجودها؛ شككتُ في إمكانية نَشْلها من هوسها دون مساعدتها أولًا على إثراء النواحي الأخرى من حياتها.

تساءلتُ عن مقدار الحميمية في حياتها اليومية؛ فبناءً على ما أخبرتني به حتى الآن عن زواجها، لم تكن «ثيلما» على ما يبدو مقربةً من زوجها كثيرًا، ربما كانت مُهِمّة الهوس -ببساطة- هي منحها الشعور بالحميمية؛ إذ شكّل لها ارتباطًا بشيء آخر، لكن ارتباطها لم يكن بشخص حقيقي، بل كان بوَهْم.

قد يكون أفضل آمالي هو أن أنشئ بيننا علاقةً وطيدةً ذات مغزى؛ لكي تصبح تلك العلاقة لاحقًا بمنزلة مُذيب يتحلّل داخله هَوَسها. لكن ذلك لن يكون أمرًا سهلًا. قصتها عن العلاج تقشعرُّ لها الأبدان؛ تخيَّل أن تخضع للعلاج لثماني سنوات وأنت لا تستطيع أن تتناول المشكلة الحقيقية! يتطلب هذا الأمر نوعًا مميزًا من الناس، أيْ هؤلاء الذين

---

(1) أي أن سلوك «ثيلما» أو هوسها لم يتلقَّ أي محفزٍ (incentive) أو مُثيرٍ (stimulant) من «ماثيو» يدعم تعلقها به. (المترجم).

يستطيعون تحمُّل ازدواجية هائلة، ويرحِّبون بالحميمية في خيالاتهم رغم أنهم قد يتجنَّبونها في الحياة الواقعية.

بدأت «ثيلما» الجلسة التالية بإخباري عن الأسبوع المريع الذي قَضَته؛ كان العلاج يشكِّل مفارقةً بالنسبة لها: «أعلم أنني في حاجة إلى الخضوع للعلاج؛ فلا يمكنني النجاة من دونه. لكن رغم ذلك، في كل مرة أتحدث فيها عما جرى معي، يصبح الأسبوع بأكمله تعيسًا. دائمًا ما تزيد جلساتُ العلاج الطينَ بلةً؛ فهي لا تقدم أيَّ حلولٍ أبدًا، بل تجعل الأمور أسوأ مما هي عليه».

لم يعجبني كلامها هذا. هل هو بمنزلة عيِّنة لتصرفاتها القادمة؟ أم إنها تُخبرني بالسبب الذي سيجعلها تترك العلاج في النهاية؟

- «لقد كان هذا الأسبوع برمَّته نوبةَ بكاءٍ طويلة؛ احتلَّ «ماثيو» تفكيري كله، ولا أستطيع التحدث إلى «هاري» لأن ذهني منشغل بأمرين اثنين فقط: («ماثيو»، والانتحار)، ومن المحال أن أتناول أيًّا منهما معه.
- لن أتكلم عن «ماثيو» مع زوجي أبدًا مهما حصل؛ أخبرتُه قبل سنوات بأنني رأيت «ماثيو» لفترة وجيزة بالصدفة، أظنُّ أنني تحدثت كثيرًا حينها؛ لأن «هاري» قال لي لاحقًا إنه يعتقد أن «ماثيو» مسئول بشكل أو بآخر عن محاولة انتحاري. إذا اكتشفَ الحقيقة يومًا ما، أعتقد حقًّا بأنه سيُقدِمُ على قتل «ماثيو». صحيحٌ أن رأس «هاري» يعجُّ بشعارات الشرف الشائعة لدى الكشافة –فهذا هو شغله الشاغل، الكشافة فحسب– لكنه، وراء هذا كله، رجلٌ عنيف؛ كان ضابطَ «كوماندوز» في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، وتخصَّص في تعليم طرق القتل باستعمال اليدين».

- «حدِّثيني أكثر عن «هاري»». لقد صعقَتْني الحدة في صوت «ثيلما» عندما قالت إن «هاري» قد يقتل «ماثيو» إذا علم بما حدث.

- «قابلتُ «هاري» في الثلاثينيات، عندما كنت أمارس الرقص الاحترافي في قارة أوروبا. لطالما عشتُ رغبةً في شيئين اثنين فقط: ممارسة الحب، والرقص. ورفضتُ إنجاب الأطفال لكي لا أتخلى عن الرقص، لكنني أُجبرتُ على التخلي عنه منذ واحد وثلاثين عامًا؛ لأنني أُصبت بالنقرس في إصبع قدمي الكبير، وهو مرض سيئ جدًّا بالنسبة لراقصات الباليه. أما عن الحب، فعندما كنت أصغر سنًّا كان لديَّ الكثيرُ من العشاق. لقد رأيتَ صورتي تلك: كن صادقًا وقل الحقيقة، ألم أكن جميلة؟». تابعتْ «ثيلما» الحديث من دون أن تنتظر ردًّا مني: «ولكن بمجرد أن تزوجتُ «هاري»، أصبح الحب في طيِّ النسيان. لم يتجرأ إلا عددٌ قليل جدًّا من الرجال على الوقوع في حبي (باستثناء البعض فقط)؛ كانوا جميعًا يخافون جدًّا من «هاري». وتخلَّى «هاري» بدوره عن الجنس منذ عشرين عامًا (فهو بارعٌ في التخلي عن الأشياء)، نادرًا ما يلمسُ أحدنا الآخر هذه الأيام. قد أُلامُ أنا أيضًا على ذلك».

كنتُ على وشك أن أسألها عن مهارة «هاري» في التخلي عن الأشياء، لكن «ثيلما» تابعَت الحديث على عُجالة. كانت تريد أن تتكلَّم، لكن لم يبدُ أنها توجِّه حديثها إليَّ، لم يظهر عليها أنها ترغب في الحصول على ردودٍ مني؛ كانت تُشيح بوجهها جانبًا وتنظر بين الحين والآخر إلى الأعلى، كما لو كانت تائهةً في الذكريات.

- «الشيء الآخر الذي أفكر فيه ولكن لا يمكنني أن أتحدث عنه، هو الانتحار؛ عاجلًا أم آجلًا أعلم بأنني سأُقدم عليه، إنه خلاصي الوحيد. لكنني لا أستطيع أن أقول كلمة واحدةً لـ «هاري» عن هذا الموضوع، كدتُ أصيبُ منه المَقْتَلَ عندما حاولتُ الانتحار؛ فقد تعرَّض لسكتةٍ دماغية صغيرة وازداد عمره عشر سنوات أمام عيني. عندما استيقظتُ في المستشفى وفوجئتُ بأنني على قيد الحياة، فكّرت كثيرًا في ما فعلتُه بعائلتي. هناك، في تلك اللحظة وذلك المكان، اتخذت بعض القرارات».

- «وما هذه القرارات؟». لم يكن هناك داعٍ لسؤالي حقيقةً؛ لأن «ثيلما» كانت على وشك وصف تلك القرارات، لكن كان لا بد من وجود حديث متبادل بيننا. كنت أحصل منها على الكثير من المعلومات، لكنَّ التواصل بيننا كان غائبًا لدرجة أننا حتى لو كنا في غُرَفٍ منفصلة لما اختلف شيء.

- «كنتُ قد عقدت العزم على ألا أقول أو أفعل أي شيء يمكن أن يؤلم «هاري»، قررتُ إعطاءه كلَّ شيء والرضوخ لرغباته دائمًا؛ يريد بناء غرفة جديدة لمعدات التمرين الخاصة؟ فليكُن. يريد الذهاب إلى المكسيك لقضاء العطلة؟ فليكُن أيضًا. يريد مقابلة الناس خلال اجتماعات الكنيسة؟ لا مانع لديَّ».

لاحظتْ «ثيلما» الاستغرابَ يعلو محيايَ عند ذكرها اجتماعات الكنيسة؛ فأوضحت قائلةً: «على مدى السنوات الثلاث الماضية، منذ أن أصبحتُ واثقةً بأنني سأنتحر في نهاية المطاف، لم أعد أرغب في مقابلة أي شخص جديد؛ فالتعرف على أصدقاء جدد يعني المزيد من الوداعات والمزيد من الأذى للناس».

لقد تعاملتُ سابقًا مع العديد من الأشخاص الذين حاولوا حقًّا قتل أنفسهم، لكن عادةً ما تؤدي هذه التجربة إلى تغييرهم جذريًا نوعًا ما، ويصلون إلى مرحلةٍ جديدة من النضج ويكتسبون حكمة جديدة أيضًا. عادةً ما تؤدِّي المجابهة الحقيقية مع الموت إلى تشكيك الفرد جديًّا في أهدافه وتصرفاته التي قادته إلى تلك اللحظة. وكذلك الحال مع أولئك الذين يُجابهون الموتَ من خلال الصراع مع مرض قاتل، فكم من الناس تحسَّر قائلًا: «يا للأسف! لم أعرف كيف أعيش حياتي حتى اليوم، الآن وقد اجتاح السرطان جسدي؟»، لكن «ثيلما» كانت مختلفة؛ لم أقابل الكثير من الناس الذين وقفوا على حافة الموت ولم يتعلموا سوى القليل منه. تلك القرارات التي اتَّخذَتْها عندما استعادت وعيها بعد الجرعة الزائدة ... هل هي مقتنعةٌ حقًّا بأنها ستجعل «هاري» سعيدًا بالمصادقة على كل طلباته وإخفاء رغباتها وأفكارها؟ لم يكن هناك أي شيء أسوأ بالنسبة إلى «هاري» من بكاء زوجته الأسبوع الماضي دون أن تشاطره مشاعرها. كانت «ثيلما» امرأةً غارقة في خداع الذات.

كان خداعها لذاتها واضحًا، لا سيما عندما كانت تتحدث عن «ماثيو»: «إن اللطف الذي يتمتع به يمسُّ حياة كل من يتواصل معه. لقد أحبَّه جميع من عمل لديه في مكتب السكرتارية. كان يقول لكل واحدٍ منهم أشياء تُظهر اهتمامه؛ فكان يعرف جميع أسماء أطفالهم، ويُحضر لهم حلوى «الدونَت» ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع. وكل مرة خرجنا فيها خلال السبعة والعشرين يومًا، لم ينسَ قط أن يقول كلامًا يُشعرُ النادل أو عامل المتجر بشيء جميل. هل تعرف أي شيء عن التأمل على الطريقة البوذية؟».

- «نعم، في الواقع أنا ...» لكنَّ «ثيلما» لم تدعني أكمل جملتي.

-«إذًا لا بد أنك تعرف معنى «التأمل الناشئ عن الحب» ('loving-kindness' meditation). كان يمارسه مرتين في اليوم وعلَّمَني كيفية ممارسته أيضًا؛ لهذا السبب بالضبط أجد نفسي عاجزةً عن فهم معاملته لي بهذه الطريقة. إن صمتَه يقتلني! أحيانًا، عندما أتعمق في التفكير، أشعر أن الصمت التام هو أفظع عقوبةٍ يمكن أن يُنزلها بي «ماثيو»، ذلك الشخص الذي علَّمني كيفية الانفتاح على الحياة. يزداد اعتقادي هذه الأيام ...»، انخفض هنا صوت «ثيلما» ليصبح أقرب إلى الهمس: «بأنه يحاول متعمدًا دفعي إلى الانتحار، هل تبدو لك هذه فكرة مجنونة؟».

- «لا أعرف، لكنني أرى أنها فكرة يائسة ومؤلمة إلى أقصى الحدود».

- «إنه يحاول دفعي إلى الانتحار لكي يتخلص من عبء وجودي في حياته؛ هذا هو التفسير الوحيد!».

- «نعم، خصوصًا لأنك لم تكُفِّي عن حمايته طوال هذه السنوات. لماذا فعلتِ ذلك؟».

- «لأنني أرغب بكل جوارحي أن يرى «ماثيو» أنني شخص جيد، لا أريد أن أغامر بفرصتي الوحيدة للحصول على بعض السعادة!».

- «لكن يا «ثيلما» لقد انقضت ثماني سنوات، لم يتصل بك منذ ثماني سنوات!».

- «لا تزال لديَّ فرصة صغيرة ربما، ووجودها ولو بنسبة اثنين أو حتى واحد بالمئة أفضل من اللاشيء. لا أتوقع أن يقع «ماثيو» في حبِّي مرة أخرى، أريده فقط أن يكترث لوجودي على هذا الكوكب، ولا أعتقد أنني أُغالي في مطلبي هذا. عندما مشينا في

متنزه «غولدن بارك» (Golden Park)، كاد أن يلتوي كاحله وهو يحاول تجنُّب دهس عشٍّ للنمل، هل من الصعب عليه حقًا أن يوجِّه موجاته الذهنية نحوي محملةً بحسن النية أيضًا؟!».

وجدتُ في تقديسها له الكثيرَ من التناقض والغضب، والقليل من السخرية، جنبًا إلى جنب. رغم أنني كنت قد بدأت أَدخلُ عالمها التجريبي تدريجيًا واعتدتُ سماع آرائها في «ماثيو» المبالغ فيها، وما أذهلني حقًا هو ما قالتْه بعد ذلك.

- «لو اتصل بي مرة واحدة في السنة، وتحدث معي لمدة خمس دقائق فقط، وسأل عن أحوالي، وأظهر اهتمامه بي، فيمكنني حينها أن أعيش بسعادة. هل ترى أن هذا مطلبٌ كبير؟».

لم يسبق لي أن رأيت أحدًا يسمح لشخصٍ آخر بالتحكم فيه إلى هذه الدرجة. تأمَّل ادعاءها هذا: مكالمةٌ هاتفيةٌ واحدة مدتها خمس دقائق في السنة ستكون كفيلةً بشفائها! لقد تساءلتُ عما إذا كان هذا قد ينجح حقًا، وأتذكر أنني فكرت في إمكانية اللجوء إلى هذه التجربة في حال فشلِ كل محاولاتي معها! كنت أُدرك أن فرص نجاح العلاج ضئيلة؛ فخداع «ثيلما» لذاتها، وافتقارها إلى التعقُّل النفسي (psychological mindedness)، ومقاومتها لمطالعة النفس (introspection)، وميولها الانتحارية، كلُّ هذه الأمور كانت تقول لي: «كن حذرًا!».

لكنني كنت مهتمًا جدًا بمشكلتها؛ كان هوسها بالحب -فماذا عسانا أن نسمِّيه بغير هذا الاسم؟- قويًا وعنيدًا؛ فقد سيطرَ على ثماني سنوات من حياتها. ومع ذلك بَدَت جذور هذا الهوس قابلةً للتحلُّل على نحو ملحوظ. بالقليل من الجهد والبراعة يمكنني انتزاع هذه العشبة بأكملها من التربة، ثم بعد ذلك ماذا سأجد وراء هوسها؟ هل سأكتشف الحقائق

القاسية للتجربة الإنسانية التي أخفاها افتتانُ «ثيلما»؟ عندها قد أتعلم حقًّا بعض الأشياء عن وظيفة الحب. في بدايات البحث الطبي في القرن التاسع عشر، اكتشف الباحثون الطبيون أن أفضل سبيلٍ نحو فهم الغرض من الغدد الصماء هو إزالتها ومراقبة الأداء الفيزيولوجي اللاحق الذي سيطرأ على الحيوان المخبري. تساءلتُ، مع العلم أنني ارتعدتُ حتى النخاع من هذه الاستعارة: ألا ينطبق المبدأ ذاته هنا؟ إذ كان من الواضح أن حب «ثيلما» لـ «ماثيو»، في الواقع، مثَّل شيئًا آخرَ؛ ربما كان هروبًا من الواقع أو درعًا يحميها من الشيخوخة والعزلة. لم يكن لـ «ماثيو» وجودٌ ملموس فيه، ولا للحب حتى، إذا نظرنا إلى الحب على أنه علاقة إيثاريةٌ مبنية على الرعاية والعطاء.

كانت هناك علاماتُ تكهُّنٍ (prognostic) أخرى تحاول جاهدةً جذب انتباهي، لكنني اخترت تجاهلها. كان بإمكاني، على سبيل المثال، أن أفكِّر بجدية أكبر في العلاج النفسي الذي تلقَّته «ثيلما» على امتداد عشرين عامًا! عندما كنتُ طالبًا في عيادة «جونز هوبكنز» للطب النفسي (Johns Hopkins Psychiatric Clinic)، امتلك الكادر الطبي العديدَ من المؤشرات «السرية» لتقييم الأمراض المزمنة، وأكثر هذه المؤشرات وقاحةً كان كِبر حجم ملف المريض، فكلما كبُر الملف ازداد التكهُّن بحالة المريض اللاحقة سوداويةً؛ وكان من الممكن لوزن ملف «ثيلما» -البالغة من العمر سبعين عامًا- أن يكون عشرة أرطال على الأقل، من دون أن يوصي أحدٌ أبدًا بعلاجها نفسيًّا.

عندما أتأمل حالتي الذهنية في ذلك الوقت، أُدرك أنني قمتُ ببساطة بعَقْلنة هذه المخاوف من أجل تَنحِيتها جانبًا.

عشرون عامًا من العلاج؟ حسنًا، لكن لا يمكن القول بأن «ثيلما» كانت تتلقَّى العلاج في الأعوام الثمانية الأخيرة بسبب سريتها. لا يمكنُ أن ينجح العلاج نهائيًّا إذا كان المريض يتكتَّم على المشاكل الرئيسية.

ماذا عن السنوات العشر من العلاج التي سبقت «ماثيو»؟ حسنًا، كان ذلك منذ وقت طويل جدًّا! أضف إلى ذلك أن معظم معالجيها كانوا من المتدربين الشُّبان. لا شك في أنه بإمكاني أن أكون ذا نفع أكبر لها من هؤلاء. لم يستطع كلٌّ من «ثيلما» و«هاري» -بإمكانياتهما المالية المحدودة- تحمُّل نفقات أي معالج آخرَ غير الطلاب المتدربين، لكنني كنتُ أحصل على التمويل من معهدٍ للأبحاث من أجل أن أدرُس العلاج النفسي لدى المسنين، وكان باستطاعتي علاج «ثيلما» مقابل رسوم رمزية؛ فكانت هذه بالتأكيد فرصةً استثنائيةً لكي تتعالج على يد طبيب متمرِّس.

لكن الأسباب الحقيقية التي جعلتني آخذ على عاتقي مهمة علاج «ثيلما» كانت تكمُن في مكان آخر: أولًا، لقد استهوَتني كثيرًا مواجهة هذا الهوس بالحب، الذي كان متجذرًا بعمق وضعيفًا وقابلًا للتعرية في آنٍ واحد، وما كنتُ سأحيد عن سعيي وراء نَبْشه والبحث فيه مهما حدث. ثانيًا، كنتُ مُصابًا بالغطرسة؛ أي أنني كنت أعتقدُ أنه يمكنني مساعدة أي مريض، وأن براعتي كانت كفيلةً بعلاج الجميع. لقد عرَّف الفلاسفة السابقون لسقراط الغطرسةَ بأنها «عصيانُ القوانين الإلهية»، وأنا كنت متمردًا، لكنْ ليس على القوانين الإلهية، بل على القوانين الطبيعية؛ تلك القوانين التي تتحكم في مجرى الأحداث في مجال عملي. أعتقدُ أنني كنت متوجسًا خلال تلك الفترة -أي قبل أن أنتهي من علاج «ثيلما»- من أنه ستتم مُساءلتي عن غطرستي.

بعد انتهاء الجلسة الثانية، ناقشتُ عقد العلاج مع «ثيلما»، وأو... لي أنها لن تُلزم نفسها بالعلاج الطويل الأجل. بالإضافة إلى ذلك كان بد أن أتمكن في غضون ستة أشهر من معرفة مدى قدرتي على مسا... لذلك اتفقنا على جلسة واحدة في الأسبوع لمدة ستة أشهر (مع إمكا... التمديد لمدة ستة أشهر أُخرى، إذا ارتأينا ضرورة ذلك). كان التزامها... يعني أن تحضر بانتظام وأن تشارك في مشروع بحثٍ في مجال العلا... النفسي؛ الشيء الذي تضمَّن مقابلةً بحثيةً ومجموعة من الاختبارا... النفسية لقياس النتيجة، على أن تقوم بهذا مرتين؛ في بداية العلاج، و... ستة أشهر من الانتهاء.

كان عليَّ بَذْل قصارى جهدي لإبلاغها أن العلاج سيكون متعبًا... شك، وحاولت أن أحصل منها على وعدٍ بالالتزام به.

- «يا «ثيلما»، إن استغراقك المستمر في التفكير بـ «ماثيو» ... لِنُسمِّهِ هاجسًا، من باب الاختصار ...».
- «لقد كانت الأيام السبعة والعشرون نعمةً عظيمة»، قالتها بصوت غاضب. «لا أريد لأحدٍ أن يصنِّف تلك الأيام على أنها مرض؛ هذا واحدٌ من الأسباب التي جعلتني أمتنع عن الحديث عنها مع معالجين آخرين».
- «كلا يا «ثيلما»، أنا لا أتحدث عن السنوات الثماني التي انقضت، أنا أتحدث عن اللحظة الراهنة؛ عن عجزك عن ممارسة الحياة لأنك لا تكفِّين عن تكرار الماضي مرة تلو الأخرى. ألم تأتي لرؤيتي لأنكِ تريدين الكفَّ عن جَلْد ذاتك؟».

تنهدتْ وأغمضت عينيها وأومأت برأسها؛ لقد وجهَتْ لي بذلك تحذيرها، ثم استرخت في كرسيِّها.

- «ما أردتُ قوله هو أن هذا الهاجسَ ... دعينا نبحث عن كلمة أفضل إذا كانت كلمة «هاجس» تشعرك بالإهانة».

- «كلا، لا بأس بذلك؛ بدأتُ أفهم قصدك».

- «حسنًا. لقد شغل هذا الهاجس جزءًا أساسيًّا من تفكيرك لمدة ثماني سنوات، وسيكون استئصاله أمرًا صعبًا. سأكون مضطرًّا إلى التشكيك في بعض معتقداتك، وقد يكون العلاج مرهقًا؛ لذلك أطلب منكِ التماسك والتحلِّي بالصبر».

- «أعدكَ بذلك؛ فعندما أتخذ قرارًا لا أتراجع عنه أبدًا».

- «إضافةً إلى ذلك يا «ثيلما»، لا يمكنني العمل على نحو فعالٍ وتهديدُكِ بالانتحارِ يحوم فوق رأسي، يجب أن تَعِديني وعدًا قاطعًا بأنك لن تفعلي أي شيءٍ مُهلكٍ للجسد خلال الأشهر الستة القادمة. إذا شعرتِ يومًا ما بأنكِ على وشك القيام بذلك، اتصلي بي، اتصلي بي في أي وقت وسأكون جاهزًا لمساعدتك. ولكن إذا قمتِ بأي محاولة مهما بدت بسيطة فإن عقدنا يصبح ملغيًّا، وسأتوقف عن علاجك. أنا بحكم العادة أكتب هذه الأمور على الورق وأطلب من المريض أن يوقِّع عليها، لكنني سأحترم تعهُّدك الشفهي بالالتزام الدائم بقراراتك».

فاجأَتني «ثيلما» بهز رأسها: «ليس بمقدوري أن أَعِدك وعدًا كهذا؛ تتقلب حالتي المزاجية عندما أشعر بثقةٍ من أنه السبيل الوحيد للخلاص. لن أضع هذا الخيار جانبًا».

- «أنا أتحدث عن الأشهر الستة المقبلة فقط. لا أطلب منكِ أي التزام على المدى البعيد، لكنني لن أبدأ بعلاجك من دون هذا الوعد. هل ترغبين في التفكير أكثر في الأمر يا «ثيلما»؟ يمكننا أن نحدد موعدًا لجلسةٍ أخرى الأسبوع المقبل».

هنا أصبح مزاجها استعطافيًا على الفور، أعتقدُ أنها لم تكن تتوقع أن أتخذ مثل هذا الموقف الحازم، وأظن أنها شعرت بالارتياح رغم أنها لم توحِ بذلك.

- «لا أستطيع الانتظار أسبوعًا آخر، أريد أن نتخذ قرارًا الآن وأن نباشر بالعلاج على الفور. سأبذل قصارى جهدي، أؤكد لك ذلك».

- «سأبذل قصارى جهدي»؛ شعرتُ بأن ذلك لم يكن كافيًا، لكنني لم أشأ أن أخوض معها صراعَ قُوى بتلك السرعة؛ لذلك لم أقل شيئًا واكتفيتُ برفع حاجبَيَّ ببساطة.

بعد دقيقة أو دقيقة ونصف من الصمت (وهي مدة صمت طويلة خلال العلاج)، وقفت «ثيلما» ومدَّت لي يدها وقالت: «أعدك بذلك».

في الأسبوع التالي بدأنا العمل على علاجها. قررتُ أن نركز بشدة على القضايا ذات الصلة؛ تلك القضايا المرتبطة بالوقت الحاضر. كانت قد حظيت «ثيلما» بالوقت الكافي (عشرون عامًا من العلاج!) من أجل استكشاف مراحل نموها عبر السنين، لذلك لم أكن مهتمًا مطلقًا بتسليط الضوء على الأحداث التي انقضت منذ ستين عامًا.

كانت مشاعرها متناقضة للغاية بشأن العلاج، رغم أنها اعتبرته أملها الوحيد، لم تكن راضيةً عن أي جلسةٍ من جلساتها. وخلال الأسابيع العشرة الأولى، تعلمتُ أثناء تحليلنا مشاعرنا تجاه «ماثيو» أن هوسها يشتد في الأسبوع التالي. من ناحيةٍ أخرى، عندما كنا نتباحث في مواضيع أخرى –حتى إن كانت قضايا مهمة مثل علاقتها بـ «هاري»– كانت ترى أن الجلسة ذهبت سدًى لأننا كنا بذلك قد تجاهلنا مشكلة «ماثيو» الرئيسية.

كانت مستاءة، فأصبح الوقت الذي نقضيه معًا غير مُرضٍ بالنسبة إليَّ أيضًا. تعلمتُ ألا أتوقع الحصول على أي إثابةٍ (reward) على الصعيد الشخصي من علاجي لـ «ثيلما». لم أشعر أبدًا بالسرور (pleasure) من وجودها حولي، وأدركتُ في وقت مبكر، في الجلسة الثالثة أو الرابعة، أن أي إشباعٍ (gratification) قد أتحصَّل عليه خلال هذا العلاج يجب أن يصدرَ من التأمل الفكري.

كرَّسنا معظم وقتنا معًا للحديث عن «ماثيو»؛ استفسرتُ منها عن المحتوى الدقيق لأحلام يقظتها، وبدا أنَّ «ثيلما» كانت تستمتع بالحديث عنها. كان استغراقها في التفكير يتكرَّر كثيرًا؛ عادةً ما كانت تسترجع بدقة كبيرة بعض لقاءاتهما معًا خلال تلك الأيام السبعة والعشرين. كان اللقاء الأكثر تكرارًا هو لقاءهما الأول؛ لقاء الصدفة في «يونيون سكوير»، عندما تناولا القهوة في فندق «سينت فرانسيس» ومشيا إلى مرسى الصيادين وتأمَّلا الخليج من مطعم «سكوما»، والإثارة التي شعرتْ بها عندما توجَّها بالسيارة إلى شقة «ماثيو». لكنها غالبًا ما كانت تفكر في إحدى محادثاته الغرامية عبر الهاتف.

لم يلعب الجنس إلا دورًا ثانويًّا في هذه الأفكار؛ فنادرًا ما كانت تشعرُ بأي إثارة جنسية. في الواقع، رغم حضور المداعبة الجنسية بشكل كبير خلال سبعة وعشرينَ يومًا مع «ماثيو»، إلا أنهما مارسا الجماع مرةً واحدة فقط، في الليلة الأولى. لقد حاولا تكرار الأمر مرتين أخريين، لكن «ماثيو» عانى من ضعف الانتصاب؛ وهو ما جعلني أقتنعُ أكثر فأكثر بأن حدسي حول سلوكه كان في مكانه؛ أي أنه كان يعاني من مشاكل نفسية-جنسية عميقة حاول تنفيسها عبر «ثيلما»، (وربما عبر مرضى آخرين غير محظوظين).

كان هناك الكثير من الأدلة الثرية، لدرجة أنه كان من الصعب اختيار واحد فقط والتركيز عليه. مع ذلك، بدا ضروريًا أن أثبت أولًا -على نحو يرضي «ثيلما»- أنه يجب القضاء على هاجسها؛ لأن الهوس بالحب يُفرغ الحياة من واقعيتها، ويمحو التجارب الجديدة، جيدةً كانت أم سيئة، كما أثبتَتْ لي تجربتي الخاصة. في الواقع، لقد نشأتْ معظم معتقداتي الراسخة حول العلاج النفسي، وأكثر اهتماماتي بالنفس البشرية شدةً، من التجربة الشخصية. يقول «نيتشه» إن النظام الفكري لدى الفلاسفة ينشأ دائمًا من سيرتهم الذاتية، وأعتقد أن هذا ينطبق على جميع المعالجين، وحتى على أي شخص يتأمل الفكر.

قبل أن أقابل «ثيلما» بعامين تقريبًا، التقيتُ في مؤتمرٍ بامرأةٍ كانت قد غزتْ عقلي وأفكاري وأحلامي، تبنَّت صورتها دَور المدبِّر المنزلي لذهني وتحدَّت كل جهودي لاستئصالها، لكن كل شيء كان على ما يرام لفترة وجيزة؛ أحببتُ ذلك الهاجس وتمتعتُ بمذاقه مرارًا وتكرارًا. بعد بضعة أسابيع، ذهبت في إجازة لمدة أسبوع مع عائلتي إلى جزيرة كاريبية جميلة، وخلال عدة أيام فقط أدركتُ أنني كنت أفوِّت على نفسي كل شيء في الرحلة؛ جمال الشاطئ، والنباتات المورِقة والغريبة، وحتى إثارة الغوص بالأقنعة واستكشاف حديقة الحيوانات المائية، طمسَ هاجسي هذا الجمال الغني كله؛ كنتُ ذاهلًا عن اللحظة الراهنة؛ كنت أسيرَ أفكاري، أتصوَّر مرارًا وتكرارًا الشيء ذاته، الذي كان قد أصبح بحلول ذلك الوقت خيالًا لا طائل منه. بعد أن ضاق صدري وسئمتُ تمامًا من نفسي، بدأتُ العلاج (مرةً أخرى)، وبعد عدة أشهر عصيبة، استعدتُ صوابي وتمكنت من العودة إلى التجربة المثيرة المتمثلة في ممارسة حياتي أثناء حدوثها. (حدث شيء غريب في تلك الفترة؛ بعد أن أصبح معالجي في النهاية صديقًا مقربًا مني بعد عدة سنوات، أخبرني أنه عندما كان يعالجني كان

هو نفسه مهووسًا بامرأة إيطاليةٍ جميلة، منجذبةً إلى شخص آخر. وهكذا، تتنقَّل وساوس الحب من مريضٍ إلى معالجٍ إلى مريضٍ آخرَ، كما لو كانت تلهو في متنزه «لا روند» (La Ronde)).

لذلك، خلال عملي على علاج «ثيلما»، شدَّدتُ على حقيقةِ كيف أن هَوَسها أفسد حياتها، وكررتُ على مسمعها من حين إلى آخر ما قالته سابقًا: «حياتكِ عالقةٌ في السنوات الثماني الماضية». لا عجب في أنها كرهتْ كونها على قيد الحياة! كانت حياتها تختنق في غرفةٍ بلا هواء وبلا نوافذ، فأصبحت عاجزةً عن التنفس سوى من خلال تلك الأيام السبعة والعشرين التي أصبحت في ظلال الماضي.

لكن «ثيلما» لم تجد هذه الفرضية مقنعة بتاتًا، وأعتقد الآن أنها كانت محقةً في ذلك؛ فقد عممّتُ -مستندًا إلى تجربتي- وافترضتُ خطأً أن حياتها كانت ثريةً لكن هاجسها كان يسلبها من هذا الثراء. شعرتْ «ثيلما» -رغم أنها لم تقل ذلك علنًا حينها- أن هاجسها كان يتمتع بحيويةٍ لا حدود لها مقارنةً مع حالتها الراهنة. (قمنا في وقت لاحق باستكشاف نقيض هذه الصيغة، مع الحفاظ على أقل تأثير ممكن؛ أي أنها كانت تحتضن هذا الهاجس في المقام الأول لأن حياتها كانت فقيرة).

بحلول الجلسة السادسة تقريبًا كنتُ قد أرهقتها، وأعتقد أنها قالت -على سبيل مسايرتي فحسب- إنها توافقني على أن الهاجس هو العدو الذي يجب استئصاله. أمضينا جلسةً تلو الجلسة في استطلاع معالم هاجسها؛ حيث بدا لي أن مصدر سيطرته عليها هو السُّلْطَةُ التي منحتها لـ «ماثيو». لم نستطع فعل أي شيء قبل أن نُحجِّم تلك السلطة.

- «أريد منكِ يا «ثيلما» أن تستفيضي في الحديث عن شعورك بأن الشيء الوحيد الذي يهمُّك هو أن يرى «ماثيو» أنك شخصٌ جيد».

- «لا يمكنني وصفه بدقة، مجرد فكرةِ كرهه لي أمرٌ لا يطاق. إنه الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء عني؛ لذا فإن إمكانية أن يبادلني الحب -على الرغم من كل ما يعرفه عني- كانت تعني الكثير لي».

لهذا السبب بالضبط، قلتُ في نفسي إن على المعالج أن يمتنع عن الانخراط عاطفيًا مع المرضى؛ فبحُكم دوره الخاص الذي يميزه عن غيره، وحرية وصوله إلى مشاعر المرضى العميقة ومعلوماتهم السرية، فإن ردود أفعاله دائمًا ما تشير إلى أنه يمنح نفسه حجمًا أكبر من حجمه الفعلي. يكاد من المستحيل أن يتمكّن المرضى من رؤية المعالجين على صورتهم الحقيقية. كان غضبي تجاه «ماثيو» قد بدأ يزداد.

- «لكن يا «ثيلما» إنه مجرد إنسان كسائر الناس، ولم تقابليه منذ ثماني سنوات، كيف لرأيهِ في شخصيتك أن يُحدث أي فرق؟».

- «لا أعرف السبب بالضبط، وأعلم أن هذا أمرٌ غير منطقي، لكن أعماق روحي تقول لي إنني سأكون على ما يرام وإنني سأكون سعيدةً إذا أحسنَ الظن بي».

كان هذا هو العدو الفعلي؛ طريقة التفكير هذه، هذا الاعتقاد الخاطئ في لُب أفكارها، وكان عليَّ استئصاله. فَرُحتُ أستجديها بحماس:

- «أنتِ يا «ثيلما» ... أنتِ لديك كيانك ووجودك الخاص، ولا تتغير طبيعة هذا الكيان بتغير اللحظات أو الأيام. إن وجودك في الأساس محصَّنٌ من هذه الأفكار العابرة والتموّجات

الكهرومغناطيسية التي تحدث في عقلٍ لا هوية له، حاولي أن تفهمي ذلك؛ إن كل هذه السلطة التي يمتلكها «ماثيو» أتت منكِ أنت، كل ذرةٍ منها»!

- «أُصاب بالإعياء من فكرةِ احتقاره لي».

- «إن ما يدور في ذهنٍ شخص آخر -شخص لا تلتقين به أبدًا وربما لا يعرف بوجودك حتى، شخصٍ لديه متاعب حياته الخاصة- لا يمكن أنْ يُغيِّر طبيعتك الحقيقية».

- «أوه، أؤكد لك أنه يعرف بوجودي تمامًا؛ أتْركُ له الكثير من الرسائل على مجيبه الآلي. في الواقع، تركتُ له رسالةً الأسبوع الماضي لكي أخبره بأنني بدأت بزيارتك من أجل العلاج، أعتقد أنه يجب أن يعرف بِأنني أخبرتك عنه؛ فعلى مر السنين كنت أتصل به دائمًا كلما بدأت أزور معالجًا جديدًا».

- «لكنكِ قلتِ بأنكِ لم تخبري كل هؤلاء المعالجين عنه».

- «هذا صحيح. لقد وعدتُه بكتمان السر، مع أنه لم يطلب ذلك أبدًا، وقد حافظتُ على هذا الوعد إلى أن أتت هذه اللحظة. صحيحٌ أنني لم أتحدث عنه طوال تلك السنوات، لكني اعتقدتُ أنه يجب أن يعرف هوية المعالج الذي أزوره؛ كان العديد منهم زملاءه في الدراسة، أو ربما حتى أصدقاءه».

بسبب مشاعري الانتقامية تجاه «ماثيو»، لم أشعر بالاستياء مما قالته «ثيلما»، على العكس تمامًا؛ كنت مستمتعًا عندما تخيَّلتُ ارتباكه على مر السنين وهو يستمع إلى رسائل «ثيلما» المُقلقة جدًّا! بدأت أتخلَّى عن أفكاري في الثأر من «ماثيو»، كانت هذه السيدة تعرف كيفية معاقبته ولم تكن في حاجة إلى مساعدتي في إتمام هذه المهمة.

- «لكن لِنعُد إلى ما كنتُ أقوله سابقًا، ألا ترينَ أنَّكِ مسئولةٌ عما يحدث لك؟ لا يمكن لأفكاره أن تُغير طبيعتك يا «ثيلما»، أنتِ مَن يسمح له بالتأثير عليك، إنه مجرد شخص مثلك ومثلي. لنفترض أنكِ أسأتِ الظن بشخصٍ لا تتواصلين معه أبدًا، فهل ستُؤثر أفكارك -أيْ تلك التصورات التي تجوب في دماغك أنتِ ولا يعرفها أحدٌ سواك- على هذا الشخص؟ لا يمكن لشيء كهذا أن يحدث سوى باللجوء إلى الشعوذة. لماذا تَضعين قوتك تحت رحمة «ماثيو»؟ لا شيء يُميزه عن سائر الناس؛ يكافح من أجل العيش، ويتقدم في العمر، ويطلق الريح، وسوف يموت في النهاية».

لم ألقَ أي ردٍّ من «ثيلما»، لذلك قمتُ بمضاعفة الجرعة.

- «لقد قلتِ من قبل إن إيذاءه لك بهذه الطريقة المتعمدة هو أسوأ ما يمكن أن يفعله أي إنسان؛ قلتِ إنه ربما كان يحاول دفعكِ إلى الانتحار، وإنه لا يكترث بصحتك، لماذا إذن ترفعين من قدره هكذا؟ لماذا تؤمنين بأن أهم شيء في هذه الدنيا هو أن يُحسن «ماثيو» الظن بك؟».

- «أنا لا أعتقد حقًّا أنه يحاول دفعي إلى الانتحار؛ تلك مجرد فكرة تُراودني في بعض الأحيان. تتقلب مشاعري بسرعة وبشكل متواتر تجاه «ماثيو»، المهم بالنسبة لي في معظم الأوقات هو أن يتمنى لي الخير».

- «ولكن ما الذي يجعل أمنياته مهمةً للغاية؟ لقد سمحتِ له أن يحتلَّ مكانةً خارقة للطبيعة في حياتك، مع أنه يبدو شخصًا مضطربًا حقًّا، أنتِ بنفسكِ ذكرتِ مشاكله الجنسية العميقة! عليكِ أن تنظري إلى الموضوع برمَّته من حيث نزاهته ومبادئه

الأخلاقية الخاصة به؛ لقد انتهك القواعد الأساسية التي تقوم عليها أي مهنة تهدف لمساعدة الآخرين. انظري إلى الأسى الذي سبَّبه لكِ، كلانا يعلم أن من الخطأ أن يقوم المعالج المحترف -الذي قد أقسم على العمل بما يخدم مصالح رضاه- بإيذاء أي شخص مثلما آذاكِ».

إلا أن كلامي ذهب في مهب الريح.

- «لكنه لم يُقدِم على إيذائي سوى عندما عاد إلى التصرف باحترافية ورسمية، عندما كنا مجرد إنسانين واقعين في الحب مَنَحني أثمن هدية في العالم».

يا للإحباط الكبير! من الواضح أن «ثيلما» كانت مسئولة عن المصيبة في حياتها، ومن الواضح أن السلطة التي كانت بيد «ماثيو» محض خيال؛ هي التي منحته تلك السلطة لكي تحرم نفسها من حريتها ومسئوليتها عن تكوين حياتها، لم تكن «ثيلما» ترغب في استعادة حريتها من «ماثيو»؛ على العكس تمامًا، كان لدى «ثيلما» شهوة الخضوع للآخرين.

كنت أعرف منذ البداية -بالطبع- أنه مهما بلغت حُجتي من قوةٍ فإنها لن تتغلغل بعمق كافٍ لإحداث أي تغيير، نادرًا ما ينجح ذلك؛ فلم ينجح معي يومًا عندما كنتُ أنا أخضع للعلاج، ولا يمكن أن ينجح سوى عندما يشعر المرء ببصيرة ثاقبة نابعةٍ من أعماقه؛ عندها فقط يمكنه أن يتصرف بناءً عليها ويُحدِث التغيير. يتحدث من يمتهنون علم النفس الرائج دونما هوادة عن «تحمل المسئولية»، لكن ذلك كله ليس إلا كلامًا يُقال؛ فمن الصعب للغاية -لا بل من المخيف أيضًا- أن يُقرَّ المرء بالبصيرة القائلة بأنه هو وحده المسئول عن بناء طراز حياته الخاص. ومن ثم فإن المشكلة في العلاج تكمن دائمًا في كيفية الانتقال من تقدير المرء الذهني غير

الفَعال لحقيقةٍ ما عن نفسه، إلى اختبارِ هذه الحقيقة بعواطفه إلى حدٍّ معين. لا يمكن أن يصبح العلاج قوة حقيقيةً تبعث على التغيير إلا عندما ينجح في تطويع المشاعر العميقة.

وكان العجز هو المشكلة في علاجي لثيلما؛ كانت محاولاتي لمَنْحها القوة تفتقر إلى اللباقة على نحو مخجل، فرُحتُ أتخبط وأتذمَّر وألف وأدور مرارًا وتكرارًا حول هاجسها وأعمل جاهدًا على التخلص منه.

كم أتوق في مثل هذه المنعطفات إلى اليقين الذي توفِّره الأساليب التقليدية! دائمًا ما يفترض التحليل النفسي -خصوصًا مدارس العلاج النفسي الأيديولوجية الأكثر شموليةً- قناعاتٍ راسخةً جدًّا حول الإجراءات التقنية العلاجية اللازمة؛ نعم، يبدو المحللون النفسيون أكثر يقينًا بكل شيء، في حين أنِّي لا يقينَ لديَّ بأي شيء. كم سيكون من المريح أن أشعر -ولو لمرة واحدة فقط- بأنني أعرف بالضبط ما أفعله خلال ممارستي العلاج النفسي! أن أشعر على سبيل المثال بأنني أجتازُ -بكل إخلاص وبالتسلسل الصحيح- المراحلَ الدقيقة للعملية العلاجية!

لكن هذا بالطبع ليس إلا وهمًا؛ فالمدارس الأيديولوجية لا تجدي نفعًا للمرضى لأن مفاهيمها الميتافيزيقية المعقَّدة تنجح في تخفيف قلق المعالج، وليس المريض (ومن ثم تسمح للمعالج بمواجهة القلق الناشئ عن العملية العلاجية). كلما استطاع المعالج تحمُّل قَلقِ عَدَم المعرفة، قلَّتْ حاجته لاتباع الأساليب التقليدية. ينتهي الأمر بالأفرادَ الخلَّاقين الذين ينتمون لأي عقيدة تقليدية -مهما كان شكلها- بفقدان الاهتمام بالتعاليم التي اعتادوا عليها.

صحيحٌ أن هناك شعورًا مطمئنًا ينبعث من المعالج الذي يعلم كل شيء ويتحكم دائمًا في كل موقف، لكن هناك أيضًا شيئًا أخاذًا حول

المعالج المتخبِّط؛ فهو على استعدادٍ لأن يمشي في طريقٍ وعرٍ بصحبة المريض حتى يعثرا معًا بالصدفة على اكتشاف يساعدهما سويًا. لكن يا أسفاه! تعلمتُ من «ثيلما» -قبل أن أنتهي من حالتها- أن الكثير من جلسات العلاج المدهشة قد تُهدر على مريضٍ ما!

في بحثي عن القوة، دفعتُ بالعلاج إلى أقصى الحدود، حاولتُ زعزعتها وصدمها.

- «لنفترض للحظةٍ واحدة أن «ماثيو» قد مات! هل سيُحررك ذلك من قبضته؟».
- «لقد حاولتُ أن أتخيل هذا الأمر؛ عندما أتخيَّله ميتًا يجثم على صدري حزن عارم، سيصبح عالمي فارغًا من دونه، وأعجز عن تصور تَبِعات رحيله».
- «إذًا كيف يمكنك تحرير نفسك من هذا الشيء؟ ما السبيل لتحريرك؟ هل بإمكان «ماثيو» إطلاق سراحك؟ هل تخيَّلتِ يومًا محادثةً يحدث فيها ذلك؟».

ابتسمتْ «ثيلما» عند سماعها هذا السؤال، وخُيِّل لي أنها نظرت إليَّ بالمزيد من الاحترام، كما لو أنها معجبة بقدراتي على قراءة الأفكار. كان من الواضح أنني أيقظتُ خيالًا مهمًّا بالنسبة إليها.

- «نعم، في كثير من الأحيان».
- «شاركي معي هذا التصور. كيف سيجري هذا السيناريو؟»، ليس من عادتي الاعتماد على تقمُّص الأدوار أو تبديل أماكن الجلوس، لكن هذه اللحظة كانت مثاليةً لفعل ذلك! «فلنحاول تقمُّص الأدوار؛ هلَّا تنتقلين إلى الكرسي الآخر كي تلعبي دور «ماثيو»، وتتحدثي إلى «ثيلما» هنا في هذا الكرسي!».

نظرًا لأن «ثيلما» كانت قد عارضتْ كل اقتراحاتي السابقة، جهَّزتُ نفسي لإقناعها باقتراحي، لكنها وافقت بحماس؛ فاجأني ذلك الأمر! ربما تلقَّت «ثيلما» العلاج -خلال عشرين عامًا خَلَت- على يد معالجي «الغشتالت»[1] (gestalt therapy) الذين استخدموا هذه التقنيات، أو ربما كانت تجربتها في عالم المسرح تُبرز نفسها هنا؛ لأنها كادت تقفز من كرسيها، ثم تنحنحت وتظاهرتْ إيماءً بأنها كانت تضع ربطة عنق وأنها تزرِّر سُترة بدلتها، ورسمتْ على وجهها ابتسامة قِديس، وعلا مُحياها رحابةُ صدرٍ معطاءة مُشرقة مبالغٌ فيها، وتنحنحت مجددًا وجلست على الكرسي الآخر، وتحولتْ إلى «ماثيو».

- «يا «ثيلما»، لقد جئتُ إليكِ حاملًا ذكرياتنا الجميلة من جلسات العلاج التي أقمناها سويًّا، وأريد أن تكوني بمنزلة صديقٍ لي. لقد استمتعتُ بالأخذ والردِّ بيننا، واستمتعت بالمزاح حول عاداتك الرديئة. كنتُ صادقًا تجاهك، وعنيتُ الأشياء التي قلتُها لك كلها دون استثناء، ثم حدث شيء اخترت ألا أخبركِ به، وقد دفعني إلى تغيير رأيي. لا علاقةَ لكِ أنت بالأمر؛ ليس فيكِ أي شيء بغيض، لكن لم يكن لدينا أساسٌ كافٍ لبناء علاقة دائمة، ما حدث هو أن امرأةً اسمها «سونيا» ...».

هنا توقفت «ثيلما» عن أداء دورها للحظة وهمستْ بصوتٍ مسموع: «دكتور «يالوم»، كان «سونيا» اسمي المسرحي عندما كنت راقصة».

---

(1) تعني كلمة (gestalt) بالألمانية «الشكل» أو «الصورة». يركز العلاج النفسي الغشتالتي (أو الشكلي) على المريض، ويسعى إلى توجيه انتباهه نحو اللحظة الراهنة وفهمها، بدلًا من لجوئه إلى الماضي من أجل تفسير الأحداث الحالية، وذلك عبر أكثر من طريقة؛ من هذه الطرق لعب الأدوار. (المترجم).

ثم تحوَّلتُ إلى «ماثيو» مرةً أخرى وتابعتُ الكلام: «دخلت هذه المرأة -أي «سونيا»- إلى حياتي، وأدركتُ أن الحياة معها ستكون ملائمةً بالنسبة إليَّ. حاولتُ الابتعاد وحاولت أن أطلب منك الكفَّ عن الاتصال، وبكل صراحة: لقد أزعجتِني لأنكِ لم تتوقفي عن ذلك. بعد أن حاولتِ الانتحار أدركتُ أنه يجب أن أكون حذرًا للغاية في طريقة كلامي معكِ، ولهذا السبب ابتعدتُ عنكِ كثيرًا؛ زرتُ معالجًا نفسيًّا، وهو الذي نصحني بالتزام الصمت التام. أحبِّذ أن تصبحي صديقةً لي، لكن لا يمكن أن نكون أصدقاء من دون أن يسبِّب أحدنا الضررَ للآخر. أنتِ لديكِ زوجكِ «هاري»، وأنا لديَّ «سونيا»».

صمتتْ وارتخت في كرسيها، ثم أنزلتْ كتفيها، واختفت ابتسامتها السخية، وبعد أن خارت قواها كليًّا، أصبحت «ثيلما» مرة أخرى.

مكثنا في الصمت معًا. عندما فكرتُ في الكلمات التي قالتها على لسان «ماثيو»، استطعتُ بسهولة فَهْم الهدف من ورائها ولماذا كانت «ثيلما» تكررها كثيرًا دون أدنى شك؛ لقد أكَّدتْ لها كلماتُها نظرتَها للمجريات، وبرَّأت «ماثيو» من أي مسئولية (إذ كان طبيبه النفسي هو الذي نصحه بالصمت)، وأكَّدتْ لها أنها لم تكن تعاني من أي خطبٍ وأن علاقتهما لم تكن متنافرة، كل ما في الأمر أن «ماثيو» كان لديه التزام أكبر تجاه شخص آخر. لقد أشارت لي حقيقةُ أن المرأة الأخرى كانت «سونيا»، أي «ثيلما» الشابة، إلى أنني في حاجة إلى قضاء المزيد من الوقت في تحليل مشاعر «ثيلما» حيال عمرها.

كنتُ مهتمًّا إلى أبعد الحدود بفكرة تخليصها؛ هل كانت هذه الكلمات على لسان «ماثيو» ستحرِّرها حقًّا؟ تذكرتُ في تلك اللحظة إحدى تجاربي مع مريضٍ خلال أول سنةٍ لي بصفتي طبيبًا مقيمًا (تلك

التجارب الإكلينيكية الأولى تصاحب المعالج على الدوام، وكأنها تطبَعُ أثرها في مهدِ مسيرته الاحترافية). أصرَّ ذلك المريض، الذي كان مصابًا بالـ «بارانويا»، على أنني لست الدكتور «يالوم»، بل عميلٌ لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، وطالبني بإثبات هُويتي. وعندما قدمتُ له في الجلسة التالية شهادة ميلادي ورخصة قيادتي وجواز سفري، قال لي إنني أثبتُّ صحة كلامه؛ إذ لا يمكن سوى لمن لديه نفوذٌ في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يقوم بعمليات التزوير بهذه السرعة! إذا كان هناك نظامٌ يتوسع توسعًا لا نهائيًا، فلن يستطيع المرء الهربَ من محيطه.

لا أقصد طبعًا أن «ثيلما» كانت مصابةً بالـ «بارانويا»، لكنني تساءلتُ عما إذا كانت هي أيضًا ستُبطل فاعلية أي محاولاتٍ كلاميةٍ تسعى لتخليصها من هاجسها، حتى لو صدرت عن «ماثيو»، من خلال المطالبة الدائمة بمنحها المزيد من الأدلة والطمأنينة. ومع ذلك عندما أستذكرُ هذه الحالة، أعتقد أنني كنت قد بدأتُ في هذه اللحظة تمامًا التفكيرَ بجدية فيما إذا كنتُ سأُشرك «ماثيو» في عملية العلاج، ولا أقصد صورته المثالية المرسومة في مخيلتها، بل «ماثيو» الحقيقي؛ بشحمه ولحمه!

- «ما شعوركِ حيال تقمُّص الأدوار يا «ثيلما»؟ ما الذي أثاره فيك؟».
- «شعرتُ وكأنني حمقاء! إن من السخف أن يتصرف شخص في مثل عمري كمراهق أحمق».
- «هل هناك من سؤال موجَّهٍ لي في كلامكِ هذا؟ هل تعتقدين أنني أفكر فيك على هذا النحو؟».

- «بصراحة، (بالإضافة إلى الوعد الذي قطعتُه لـ «ماثيو») لم أخبر عنه المعالجين أو أي شخص آخر لأنني أعلم أنهم سيقولون إن مشاعري تجاهه هي افتتان أو مجرد إعجابٍ أو تحويل[1] (transference). «كل مريض يقع في حب معالجه»؛ هذا ما سيقولونه، أو ربما سيتحدثون عن ... ماذا تسمون تلك الحالة عندما ينقل المعالجُ شيئًا ما إلى المريض؟».
- «التحويلُ المضاد (Countertransference)».
- «نعم، التحويلُ المضاد. في الواقع، سأكون صريحةً معك (فأنت تطلب مني أن أكون كذلك خلال جلساتنا)؛ لقد أثرتَ غضبي عندما اقترحتَ الأسبوع الماضي أن «ماثيو» كان ينفِّس عن مشاكله الشخصية من خلال علاجه لي، كما لو كنتُ أنا عديمة القيمة، أو كأنني متفرجةٌ عابرةُ سبيلٍ بريئة تشاهد شيئًا كان يقوم به مع والدته».

لزمتُ الصمت لأنها كانت محقةً! تلك بالضبط الأفكارَ التي تجوب في بالي؛ أنتِ و«ماثيو» كلاكما «متفرجان بريئان»، لم يكن أيٌّ منكما على ارتباطٍ حقًّا بالآخر، بل بصورةٍ وهمية عن الآخر. لقد وقعتِ في حب «ماثيو» بسبب ما كان يمثِّله بالنسبة إليك؛ أي ذلك الشخص الذي يحبك حبًّا جمًّا بلا قيودٍ أو شروط، ويكرِّس ذاته تكريسًا منقطع النظير للعناية بصحتك وراحتك وازدهارك، ويوقف شيخوختك عند حدِّها ويُحبك كما لو كنتِ «سونيا» الشابة الجميلة، ويوفر لك فرصة الهروب من ألم العزلة ويمنحك نعيم الاندماج بشخصٍ آخر غير أناني. قد تكونين فعلًا «واقعةً

(1) التحويل أو الانتقال هو قيام المريضِ بإسقاط بعض المشاعر والتوقعات والتجارب السابقة على المعالج، وغالبًا ما تحدث هذه العملية في لاوعي المريض. (المترجم).

في الحب»، لكني متأكد قطعًا من أنك لم تكوني واقعةً في حب «ماثيو»، فأنتِ لم يسبق لك أن عرفتِ «ماثيو» الحقيقي قط!

لكن ماذا عن «ماثيو»؟ من الشخص -أو ما الشيء- الذي وقع في حبه؟ لم أكن قد اكتشفتُ ذلك بعد، إلا أنني لا أعتقد أنه «عاشقٌ» أو محبٌ لكِ. لم يكن يُحبك أنتِ يا «ثيلما»، بل كان يستغلكِ، لم يهتمَّ اهتمامًا حقيقيًا بـ «ثيلما»؛ أي «ثيلما» التي من لحم ودم! حقيقةً، قد يكون تخمينك أنه كان يقوم بشيء مع والدته في مكانه!

بدا وكأنها كانت تقرأ أفكاري؛ حيث واصلت «ثيلما» حديثها، ورفعت ذَقَنها وراحت تتكلم كما لو كانت تخاطب جمهورًا غفيرًا: «عندما يعتقد الناس أننا لم نكن في علاقة حبٍ متبادلةٍ، فإن ذلك يقلِّل من قيمة الحب الذي كان بيننا، ويسلبه من العمق الذي يميزه، لا بل يقضي عليه كليًا. كان ذلك الحب ولا يزال حقيقيًا، لم أشعر بأي شيءٍ أكثرِ واقعية منه في حياتي، كانت تلك الأيام السبعة والعشرون ذروة حياتي، عشتُ تلك الأيام كما لو أنني في الجنة، مستعدة لأن أضحي بكلِّ شيءٍ من أجل استعادتها!».

قلتُ في نفسي: «يا لها من سيدة قوية؛ فقد استطاعت أن ترسم خطًّا أحمرَ ممنوعًا عليَّ تخطِّيه؛ «إياكَ أن تجرِّدني من ذروة حياتي، لا تسلبْ مني الشيء الوحيد الحقيقي الذي شعرتُ به على الإطلاق». مَن مِنَّا قد يتحمل تعريض أي شخص لذلك، ناهيك عن امرأةٍ مكتئبة، بميول انتحارية، تبلغ من العمر سبعين عامًا؟».

لكني ما كنتُ سأسمح لنفسي بأن يتم ابتزازي بهذه الطريقة، إذا استسلمتُ لها الآن فسأصبحُ حتمًا دون أدنى جدوى؛ لذلك واصلتُ الكلام بنبرة واقعية: «أخبريني عن النشوة (euphoria) التي عشتِها بكل تفاصيلها».

- «كانت بمنزلة تجربة الخروج من الجسد؛ شعرتُ بأنه لا وزن لي، وبدا الأمر كما لو أنني لم أكن هناك، أو على الأقل ذلك الجزء مني الذي يؤلمني ويُوهن عزيمتي، توقَّفت عن التفكير والقلق بشأن ذاتي، وتحولتُ إلى نحن».

الأنا الوحيدة تذوب نشوةً لتصبح «نحن»، كم من مرة سمعت ذلك! إنه القاسم المشترك لكلِّ شكلٍ من أشكال النعيم؛ الرومانسي والجنسي والسياسي والديني والصوفي، كلنا نرغب في هذا الاندماج السعيد ونرحب به، إلا أن حالة «ثيلما» كانت مختلفة؛ فهي لم تكن تريد ذلك فعلًا، لكن كان لا بد أن تحصل عليه هربًا من خطرٍ محدق.

- «يتناسب هذا الوصف مع ما أخبرتِني به عن ممارستك الجنس مع «ماثيو»؛ حيث لم يكن من المهم بالنسبة لك أن يكون بداخلك، ما كان يُهمك هو أن يتواصل معك أو أن يندمج بك».

- «هذا صحيح، هذا ما قصدتُه عندما قلتُ إنك تبالغ كثيرًا في تحليل علاقتنا الجنسية. الجنس في حدِّ ذاته لم يلعب دورًا مهمًّا للغاية».

- «هذا يساعدنا على فهم الحلم الذي راودك قبل أسبوعين».

كانت «ثيلما» قد أبلغتني قبل أسبوعين عن حلم حصرٍ نفسيّ (anxiety dream) قد راودها، وكان هذا الحلم الوحيدَ الذي أَخبرَتني عنه طوال رحلة العلاج:

«كنتُ أرقص مع رجل أسود ضخم، قبلَ أن يتحول إلى «ماثيو». كنا مستلقِين على حلبة الرقص نمارس الجنس، حينما اقتربتُ من الوصول إلى الرعشة، همستُ في أذنه: «اقتلني»! ثم اختفى، وبقيت وحدي على حلبة الرقص».

- «يبدو وكأنكِ تريدين التخلص من الشعور بالانفصال (separateness)، وأن تستسلمي استسلامًا كاملًا (الشيء الذي تمثَّل في الحلم بجملة: «اقتلني»)، على أن يكون «ماثيو» هو الأداة التي ستحقق ذلك. برأيك، لماذا جرى هذا المشهد على حلبة الرقص؟».

- «قلتُ في وقت سابق إنني لم أشعر بالنشوة سوى خلال تلك الأيام السبعة والعشرين، لكن هذا ليس دقيقًا تمامًا. غالبًا ما شعرتُ بالنشوة عندما كنت أرقص، في كثير من الأحيان كان كل شيء يتلاشى؛ أنا وكل شيءٍ حولي، ليبقى الرقص واللحظة الراهنة. عندما أرقص في أحلامي، فهذا يعني أنني أحاول أن أجعل كل شيء سيئ يختفي، وأعتقد أن ذلك يشير أيضًا إلى رغبتي في أن أصبح شابة مرة أخرى».

- «لم نتكلم إلا قليلًا جدًّا عن مشاعرك حول كونكِ في سن السبعين، هل تُشغلين تفكيرك كثيرًا في هذا الأمر؟».

- «أعتقدُ أنني لو كنت في سن الأربعين بدلًا من السبعين لكان موقفي تجاه العلاج مختلفًا، ولَكنتُ تطلَّعت إلى المستقبل، ألا يفضل الأطباء النفسيون علاج الأشخاص الأصغر سنًّا؟».

كنت متأكدًا من أن كلامها هذا مليءٌ بالمعطيات، انتابني إحساسٌ قويٌّ بأن خوف «ثيلما» من الشيخوخة والموت كان يزيد من حدَة هاجسها. كان أحدُ أسباب رغبتها في أن تندمج بالحب -لا بل أن يطمسها الحب- هو الهروب من رعب مواجهة الموت الذي سيمحوها كليًا. يقول «نيتشه»: «إن المكافأة النهائية التي يحصل عليها الموتى هي أنهم لن يموتوا مرة ثانية». ومع ذلك، كانت تلك فرصة ملائمة جدًّا لكي تتحسن

علاقتنا سويًا. صحيحٌ أن الموضوعَين اللذين كنا نعمل على استكشافهما (أي الهروب من الحرية، ومن عزلة الانفصال) شكلا وظلّا يشكّلان فحوى محادثاتنا، لكني شعرتُ أن أفضل سبيل لمساعدة «ثيلما» يكمن في تطوير علاقة هادفة معها. كنت آمل أن يضعُف تعلُّقها بـ «ماثيو» بما فيه الكفاية، من خلال خلق أواصر عميقة معها حتى تتمكّن من انتزاع نفسها من قبضته، عندها فقط يمكننا أن ننتقل إلى تحديد وإزالة العقبات التي كانت تمنعها من بناء علاقات حميميةٍ في حياتها الاجتماعية.

- «يا «ثيلما»، عندما تسألين طبيبًا نفسيًّا عما إذا كان يفضل علاج المرضى الأصغر سنًّا، يبدو الأمر وكأنك تُضمِّنين في كلامك سؤالًا على الصعيد الشخصي».

لكن «ثيلما» كالعادة تجنَّبت الحديث عن شخصنة الأمور: «يبدو لي من المنطقي أن هناك، على سبيل المثال، المزيدَ من المكاسب في علاج امرأةٍ شابة لديها ثلاثة أطفال؛ فهي أمامها مستقبلٌ واسع، وسوف يستفيد أطفالها وأحفادها أيضًا من تحسُّن حالتها العقلية».

لكنني كنتُ مُلحًّا: «ما أردتُ قوله هو أنني أعتقد أن هناك سؤالًا ما، سؤالًا شخصيًّا، ربما تريدين توجيهه لي حول العلاقة الكائنة بيننا».

- «أليس صحيحًا أن الأطباء النفسيين يفضِّلون علاج مريضٍ يبلغ من العمر ثلاثين عامًا على مريض يبلغ من العمر سبعين عامًا؟».

- «هلّا تركزين انتباهك عليَّ وعليك أنتِ بدلًا من الطب النفسي والأطباء النفسيين والمرضى! ألستِ توجِّهين هذا السؤال لي: ما شعورك يا «إيرف» ...» -ابتسمتْ «ثيلما» هنا؛ فهي نادرًا ما خاطبتني بالاسم، سواء بالاسم الأول أو الكنية- «حيال معالجتك إياي، أنا المدعوة «ثيلما»؛ المرأة التي تبلغ من العمر سبعين عامًا؟».

لم أتمكّن من الحصول على أي إجابةٍ منها، اكتفتْ بالتحديق من النافذة دون أن يهتزَّ رأسها إلا قِيد أنملة. يا للعنة! كم كانت عنيدة!

- «هل أنا على صواب؟ هل هذا هو سؤالك؟».
- «هذا سؤالٌ لا على التعيين؛ ليس بالضرورة السؤالَ الذي أردتُ طرحه. لكن لو كنتَ قد أجبتَ عن سؤالي بالصيغة التي استعملتُها أول مرةٍ لكنتُ قد حصلتُ على إجابة للسؤال الذي طرحتَهُ أنت الآن».
- «تقصدين أنك كنتِ ستعرفين رأيي حيال نظرة الطب النفسي، على العموم، تجاه علاج المرضى الأكبر سنًّا، ومن ثمَّ كنتِ ستفترضين أن تلك هي مشاعري تجاه علاجك».

أومأت «ثيلما» برأسها.

- «لكنَّ هذا الأسلوب ملتوٍ للغاية، ويفتقر للدقة أيضًا. كان من الممكن أن تكون ملاحظتي تخمينًا يتناول بشكل عام مجالَ الطب النفسي بأكمله، وليس تعبيرًا عن مشاعري الشخصية تجاهك أنتِ. ما الذي يمنعك من أن توجِّهي لي السؤال الحقيقي مباشرةً؟».
- «هكذا كانت الأمور تجري خلال علاجي مع «ماثيو». هذه هي بالضبط عاداتي السيئة التي كان يشير إليها».

جعلني كلامها هذا أفكر قليلًا؛ هل يا ترى كنتُ سأرغب في التحالف بأي شكل من الأشكال مع «ماثيو»؟ مع ذلك، كنت متأكدًا من أن هذا هو المسار الصحيح الذي يجب عليَّ اتباعه.

- «دعيني أحاول الإجابة عن أسئلتك؛ أي السؤال العام الذي طرحتِهِ والسؤال الشخصي الذي لم تطرحيه، وسأبدأ بالسؤال العام. أنا

شخصيًا أحب علاج المرضى الأكبر سنًّا؛ فكما تعلمين -بعد كل تلك الاستبيانات التي ملأتِها قبل أن نبدأ- أنا في خضم مشروع بحثيّ، ويشارك في البحث الكثير من المرضى الذين هم في الستينيات والسبعينيات من العمر. بدأت أتعلم أنهم يُبلون بلاءً حسنًا في العلاج مثل المرضى الأصغر سنًّا، وقد يكون تجاوبهم أفضل، وأحصل على القدر ذاته من الإشباع نتيجة العمل على علاجهم.

أقدِّر سؤالَكِ عن الأم الشابة والتأثير الذي قد تحمله، لكنَّني أرى هذه القضية بمنظور مختلف؛ فأنتِ أيضًا لديك تأثير ملموس، حيث سيراكِ جميع الناس الأصغر سنًّا من حولك مُرشدةً لهم أو نموذجًا يحتذون به على امتداد السنوات القادمة في حياتهم. وبالنسبة لوجهة نظرك على الصعيد الفردي، أعتقد أنه بإمكانك في سن السبعين أن تكتشفي منظورًا جديدًا يتيح لك أن تغمري جميع مراحل حياتك الأولى، على نحو رجعيّ[1] (retroactively)، بمعنًى جديد وقيمة جديدة. أعلم أنه يصعب عليكِ رؤية ذلك الآن، لكن ثقي بي، غالبًا ما يحدث هذا الأمر.

سأجيبكِ الآن عن الجزء الشخصي من السؤال؛ أي عن كيفية شعوري حيال علاجك. والحقيقة هي أنني أرغب في ذلك فعلًا، أعتقد أنني أفهم آلامك وأتعاطف كثيرًا معها، فقد عانيتُ من آلام مشابهةٍ لها في الماضي. تهمني هذه المشكلة التي تعانين منها، وأعتقد أنه بإمكاني مساعدتك، لا بل إنني ملتزم بمساعدتك، لكن الجزء الأصعب بالنسبة لي في جلساتنا معًا هو الإحباط الذي أشعر به بسبب المسافة الكبيرة التي تضعينها بيننا. قلتِ لي في وقت سابق إنه يمكنك معرفةُ (أو -على الأقل- تخمينُ) الإجابة على نحو جيدٍ عن الأسئلة الشخصية من خلال طرح أسئلة غير شخصية،

(1) أي من خلال تأمل وفحص الأحداث السابقة في الحياة. (المترجم).

لكن عليك أن تضعي في اعتبارك تأثير ذلك على الشخص الآخر. فعندما تستمرِّين في طرح أسئلة غير شخصية عليَّ -كما فعلتِ قبل بضع دقائق- أشعر بأنك تبعدينني عنكِ».

- «هذا هو بالضبط الكلام الذي اعتدتُ على سماعه من «ماثيو»».

ابتسمتُ وكززتُ على أسناني بصمت، لم أستطع التفكير في أي ردٍّ بنَّاء؛ لقد كان هذا التفاعل المحبط والشاق حالةً نموذجيَّة، وكان المستقبل يحمل لنا العديد من عمليات الأخذ والرد المماثلة.

شعرتُ أن علاجها كان شاقًّا وغير مجزٍ، كانت قوتي تضعف أسبوعًا تلو أسبوع، حاولت أن أعلِّمها أبجدية التواصل مع الآخرين بمودة؛ على سبيل المثال، حاولت تعليمها كيفية استعمال ضمائر «أنا» و«أنت»، وكيفية تحديد المشاعر (بدءًا من الفرق بين المشاعر والأفكار)، وكيفية «الاعتراف» بالمشاعر والتعبير عنها، درَّبتها على التعامل مع المشاعر الأساسية (الاستياء والحزن الغضب والسرور)، أعطيتُها جملًا لكي تعمل على إكمالها؛ على سبيل المثال: «عندما تقول ذلك يا «إيرف»، أشعر بـ ______ تجاهك».

لكنها تمتَّعت بذخيرة مدهشة من آليات إبعاد الآخرين، كانت مثلًا تستهلُّ كلامها بديباجة طويلة ومملة. عندما نوهتُ بهذا الأمر، اعترفَت بأنني على حق، لكنها بدأت تسرد لي بعد ذلك كيف أنها تُلقي محاضرات حول صناعة الساعات عندما يسألها الناس عن الوقت! انتهتْ بعد عدة دقائق من سرد حكايتها (حكايةٌ بوصفٍ تاريخيٍّ شامل، تكلمَتْ فيها عن أول مرة أصبحت فيها هي وأختها معتادتين على سردِ قصص استطرادية طويلة)، وبذلك نجحَتْ في تنحيتنا كليًّا عن نقطة البدء، كما أبعدتني عنها تمامًا.

اعترفتْ في إحدى المناسبات بأنها تواجه مشكلة كبيرة في التعبير عن نفسها؛ فهي لم تشعر بأنها كانت على طبيعتها، بعفويتها الكاملة، سوى في حالتين من حياتها كشخص بالغ: عندما كانت تمارس الرقص، وعندما كانت غارقة في حب «ماثيو» لمدة سبعة وعشرين يومًا. وهذا ما جعل إلى حدٍّ كبير تقبُّل «ماثيو» لها يحوم فوقنا كغيمة كبيرة: «لقد كان «ماثيو» من ضمن القلة القليلة من الناس الذين عرفوني جيدًا؛ أي كما أنا على طبيعتي، صريحة جدًّا ولا أُخفي شيئًا».

لكن عندما كنت أسألها: «كيف حالك اليوم؟»، أو إذا طلبتُ منها أن تصف جميع المشاعر التي اختبرتها تجاهي خلال أي جلسة في أي يوم من الأيام، فنادرًا ما كنتُ أحصل على إجابة منها. اعتادت أن تُنكر وجود أي مشاعر لديها، لكنها استطاعت أحيانًا تجريدي كليًا من قدرتي على انتقادها عندما تقول إنها تشعر بمودةٍ شديدة تجاهي، خصوصًا خلال تلك الجلسات التي أشعر فيها بأنها تُراوِغ وتبعدني عنها. لم يكن استكشاف التناقض في وجهات نظرنا يخدمنا أبدًا لأنها كانت غالبًا تشعر بالرفض.

مع تزايد الأدلة على عدم وجود علاقةٍ ذات مغزى بيننا، شعرتُ بالحيرة والاستبعاد. على حدِّ علمي، كنت متقبِّلًا لها بكل رحابة صدر، لكنها ظلَّت غير مبالية بي. حاولتُ أن أسألها: «لماذا لا أروق لكِ مثل «ماثيو»؟»، إلا أنها شعرتْ بأنني أتذمَّر منها مهما أعدت صياغة هذا السؤال.

- «أتعلمين يا «ثيلما» -إضافةً إلى أنكِ تمنحين رأي «ماثيو» فيكِ مكانة بالغةَ الأهمية- أنتِ ترفضين تمامًا إعطاء أي قيمة لرأيي. إذا نظرتِ إلى الموضوع من جميع الجوانب، فأنا مثل «ماثيو»؛ أعرف الكثير عنكِ، وأنا أيضًا معالج، في الواقع خبرتي تفوق خبرة «ماثيو» بعشرين عامًا، وأنا على الأرجح أكثر حكمةً منه. أتساءل: لماذا لا تهتمين أبدًا بأفكاري ومشاعري تجاهك؟».

تجاوبت «ثيلما» مع محتوى كلامي، ولكن ليس مع المشاعر الكامنة فيه، وهدَّأتني: «أنت لستَ السبب؛ كلي ثقةٌ بأنك ضليع في مجال عملك، سأتعامل بهذه الطريقة مع أي معالج آخر في العالم؛ كل ما في الأمر أنني تأذَّيت من «ماثيو» كثيرًا، لذلك لن أجعل نفسي عرضةً للأذى من معالج آخر مرة ثانية».

- «تجيدين الإجابة عن كل شيء، لكن الخلاصة من كلامك هي دائمًا «إياكم أن تقتربوا». فأنتِ لا تقتربين من «هاري» لأنكِ تخشين أن تؤذيه بإخباره عن أفكارك الحميمية تجاه «ماثيو» وعن أفكارك الانتحارية، ولا تسمحين لنفسك باختبار المودة مع الأصدقاء خشية أن تؤذيهم عندما تنتحرين في النهاية، وتبعدينني عنكِ لأن معالجًا آخر سبَّب لك الأذية قبل ثماني سنوات. تختلف كلماتك في كل حالة، لكن المغزى منها لا يتغير».

أخيرًا، بحلول الشهر الرابع، ظهرتْ مؤشراتٌ على إحرازنا بعض التقدم؛ توقَّفت «ثيلما» عن الاصطدام معي عند كل منعطف، ولدهشتي، بدأتْ في إحدى الجلسات بإخباري أنها أمضت ساعات مطولة خلال الأسبوع الماضي في إعداد قائمةٍ تضم كل علاقاتها الاجتماعية الوثيقة مبيِّنةً فيها ما حلَّ بكل واحدةٍ منها، حيث أدركَتْ أنها كانت تقطع علاقتها بأي شخصٍ كلما اقتربت منه كثيرًا.

- «قد تكون على حق؛ ربما أعاني فعلًا من مشكلة جسيمة في الاقتراب من الناس. أعتقد أنني لم أحظَ بصديقة جيدة منذ ثلاثين عامًا. ولست متأكدةً مما إذا كنتُ قد حظيتُ بأي صديقة جيدة من قبل».

يا ليت أن تفطُّنها لهذا الأمر كان بمنزلة نقطة تحولٍ في علاجها؛ إذ كانت تلك أول مرة حدَّدت فيها «ثيلما» مشكلة معينة وتحمَّلت المسئولية عن دورها فيها. كنتُ آمل في تلك الفترة بالانكباب على العمل الحقيقي، لكن ما حدث هو العكس تمامًا؛ انكفأتْ على نفسها أكثر مدَّعيةً أن مشكلتها في التقرب من الآخرين حكمت بالهلاك على العلاج الذي كنَّا نتوصَّل إليه!

حاولتُ بكل قوتي إقناعها بأن ما تكشفه في جلسات العلاج شيءٌ إيجابيٌّ، ليس سلبيًّا، شرحتُ لها مرارًا وتكرارًا أن الصعوبات التي تواجهها في تشكيل علاقات حميمية مع الآخرين ليست حدثًا راكدًا دخيلًا أعاق سير العلاج بالصدفة، بل هي القضية المحورية. أكَّدتُ لها أن التطور الذي شهدناه كان إيجابيًّا وليس سلبيًّا، وأن أمامنا فرصة استكشافه.

لكن يأسها تفاقم سوءًا، وأصبح كلُّ أسبوعٍ تمر به أسبوعًا بائسًا. ازداد هاجسها حدةً، وصارت تبكي أكثر، وانعزلتْ عن «هاري» أكثر فأكثر. أمضت ساعات مطولة في التخطيط لكيفية انتحارها، أصبحتْ تنتقد العلاج أكثر من ذي قبل، وزعمتْ أن جلساتنا كانت تزيد الطين بلة ليس إلا؛ لأنها كانت تزيد المشقة عليها، وندمتْ على إلزام نفسها بستة أشهر كاملة من العلاج.

أوشك الوقت على النفاد؛ كنا قد تخطينا عتبة الشهر الخامس، ورغم أن «ثيلما» أكَّدت لي أنها ستحترم التزامها، كانت قد أوضحت أنها لن تكون مستعدة لأن تستمر في العلاج أكثر من ستة أشهر. شعرتُ بالإحباط، لقد ذهبَتْ كل جهودي المضنية سدًى، لم أتمكن حتى من إقامة تحالفٍ علاجيّ قويّ معها، كانت طاقتها العاطفية بأكملها -كل ذرة منها- مثبتةً بإحكامٍ على «ماثيو»، وعجزتُ عن إيجاد أي طريقة لانتزاعها منه. كان الوقت قد حان لكي ألعب ورقتي الأخيرة.

- «يا «ثيلما»، منذ تلك الجلسة التي جَرَت قبل شهرين -عندما تقمصتِ دور «ماثيو» ونطقتِ الكلمات التي من شأنها أن تُطلق سراحك- وأنا أشاور نفسي حول دعوته إلى مكتبي لكي نقوم بجلسة بين ثلاث أطراف؛ أنتِ وأنا و«ماثيو». لم يتبقَّ لدينا سوى سبع جلسات أخرى فقط، ما لم تعيدي النظر في قرارك بإنهاء العلاج». هزت «ثيلما» رأسها بحزم. «أعتقد أننا بحاجة إلى يد العون لكي نتمكن من المضي قدمًا؛ لذلك، ائذني لي بالاتصال بـ «ماثيو» ودعوته للانضمام إلينا، أظن أن جلسة واحدة فقط بيننا نحن الثلاثة ستكون كافية، لكن يجب أن نفعل ذلك قريبًا لأنني أعتقد أننا سنحتاج إلى عدة ساعات بعد ذلك لكي ندمج في علاجك ما يمكن أن نتعلَّمه من جلسة كهذه».

فجأةً جلست «ثيلما» منتصبةً، بعد أن كانت مسترخيةً بلا مبالاة في كرسيها، وسقطت محفظتُها من حضنها على الأرض، لكنها تجاهلتها لكي تصغي إليَّ وعيونها المشدوهة تنظر نحوي. أخيرًا ... أخيرًا، استطعتُ لفتَ انتباهها! جلستْ «ثيلما» بصمتٍ لعدة دقائق تتأمَّل كلماتي.

على الرغم من أنني لم أكن قد فكرت مليًّا في اقتراحي، شعرتُ أن «ماثيو» سيوافق على مقابلتنا، وكنت آمَل أن تخيفه سمعتي في مجال الطب النفسي فيجد نفسه مجبرًا على التعاون معنا. علاوةً على ذلك، لا بد أنه كان يشعرُ بالإرهاق من رسائل «ثيلما» الصوتية على امتداد ثماني سنوات، وكنتُ واثقًا من أنه كان أيضًا يتوق إلى الخلاص.

لم أكن أعرف تمامًا ما سيجري في هذا الاجتماع الثلاثي الاستثنائي، لكنني كنت واثقًا ثقة غريبةً بأن كل شيءٍ سيكون لصالح الجميع؛ أيُّ معلومات قد نحصل عليها من شأنها أن تساعدنا، أي اقترابٍ من الواقع

سيساعدني في تحرير «ثيلما» من هوسها بـ «ماثيو». وبغض النظر عن مدى عمق العيب في شخصيته -طبعًا، لم يكن لديَّ شك في أنه كان بحجم خندق كبير- كنتُ متأكدًا من أنه لن يفعل أي شيءٍ أثناء حضوري يحفِّز خيالاتها الزاعمة بأنهما سيحظيان بلمّ الشمل في نهاية المطاف.

بعد صمت طويل غير عادي، قالت «ثيلما» إنها بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير في الأمر: «حتى الآن، أرى أن السلبيات أكثر من الإيجابيات».

تنهدتُ وجلستُ في كرسيي؛ كنت على يقينٍ بأن «ثيلما» ستقضي بقية الساعة في حياكة سلسلة من الهواجس.

- «إحدى الإيجابيات، على ما أعتقد، هي أن الدكتور «يالوم» سيحظى بفرصة المراقبة بشكل مباشر».

تنهدتُ بعمقٍ أكبر، على ما يبدو سيكون الأمر أسوأ من المعتاد، كانت تشير إليَّ بضمير الغائب. حاولت أن أقول لها إنها كانت تتحدَّث عني كما لو كنتُ في غرفةٍ أخرى، لكنني لم أستطع استجماع قوتي؛ كانت قد أرهقتني تمامًا.

- «أمَّا من الناحية السلبية، فهناك العديد من الاحتمالات التي يمكنني وضعها بعين الاعتبار. أولًا، إن اتصالك به سينفِّره مني. لديَّ الآن فرصة -بنسبة واحد أو اثنان بالمئة- في أن يغير رأيه بشأني، لكن إذا اتصلتَ به ستصبح فرصتي بنسبة صفر بالمئة، أو حتى أقل من ذلك».

كان شعوري بالغضب يتنامى، وقلتُ في نفسي: «لقد انقضت ثماني سنوات يا «ثيلما»، أما زلتِ عاجزةً عن فهم الرسالة؟ وكيف يمكن أن تكون نسبة فرصتك أقل من الصفر أيتها الساذجة؟» كانت هذه بالفعل

الورقة الأخيرة بحوزتي، وكنت أشعر شيئًا فشيئًا أنها ستتغلب عليها، لكنني التزمت الصمت.

- «دافعه الوحيد للمشاركة هو المهنية؛ أيْ مساعدة مريضةٍ نفسيةٍ عاجزةٍ عن الإمساك بزمام الأمور. رقم ثلاثة: ...».

يا إلهي! كانت تتكلم بلغة البنود مرةً أخرى، لم أستطع تحمُّل ذلك!

- «رقم ثلاثة: من المحتمل أن يقول «ماثيو» الحقيقة، لكن صياغته للكلام ستكون متعاليةً وستتأثر كثيرًا بوجود الدكتور «يالوم»، ولا أعتقد أنني سأحتمل معاملته لي بفَوْقية. رقم أربعة: سيضعه هذا الأمر موضع الشبهة، وسيكون في موقفٍ محرج للغاية من الناحية المهنية، ولن يغفر لي ذلك نهائيًّا».

- «لكنه معالجٌ يا «ثيلما». هو يعلم أن عليك أن تتحدثي عنه من أجل أن تتماثلي للشفاء، إذا كان «ماثيو» فعلًا ذلك الشخص الروحاني كما تصفينه، فمن المؤكد أن الشعور بالذنب قد ألقى بظلاله السوداء عليه بسبب مِحنتك وسيُسعده تقديم المساعدة».

لكن «ثيلما» كانت منهمكةً جدًّا في إعداد قائمتها ولم تسمع ما قلته.

- «رقم خمسة: كيف يمكن لاجتماعنا نحن الثلاثة أن يساعدني؟ فأنا أستبعدُ أن يقول ما آمل أن يقوله، لا يهمني إذا كان صادقًا أم لا، كل ما أريده هو أن يقول إنه يكترث لأمري، إذا كنتُ أحصل على ما أريده وأحتاجه، فلماذا أعرض نفسي للألم؟ تأذّيت بما فيه الكفاية، لماذا عليَّ أن أقبل بهذه الجلسة؟».

نهضَتْ «ثيلما» من كرسيها ومشت باتجاه النافذة.

تزايد قلقي؛ لأن «ثيلما» كانت على وشك الدخول في حالةِ انفعال جنونيّ لا منطقية، وكانت ستصد فرصتي الأخيرة لمساعدتها. أخذتُ وقتي وفكرت في كلماتي بعناية.

- «أفضل إجابة يمكنني تقديمها لجميع أسئلتك هي أن التحدث إلى «ماثيو» سيقرِّبنا أكثر من الوصول إلى الحقيقة، ولا شك في أنك تريدين ذلك». وقفتْ وأدارت ظهرها إليَّ، لكنني شعرتُ أنني رأيتها تومئ قليلًا برأسها موافقةً. «لا يمكنكِ الاستمرار بالعيش في الأكاذيب أو الأوهام!.

- لقد سألتِني في أكثرِ من مناسبة يا «ثيلما» عدة أسئلة حول توجُّهي النظري، ولم أُجِبك غالبًا لأنني أعتقد أن الحديث عن مدارس العلاج النفسي من شأنه أن يبعدنا عن الحوارات الشخصية التي نحتاج إليها، ولكن اسمحي لي أن أقدم لك إجابة واحدة على هذا السؤال الآن. ربما تكون العقيدة الأكثر أهمية لديَّ في مجال العلاج النفسي هي أن «الحياة التي لا نتفحَّصها غير صالحةٍ للعيش»[1]؛ قد يكون وجود «ماثيو» في هذا المكتب هو المفتاح لكي نتوصل إلى معاينةٍ وفهم حقيقيَّين للأحداث التي كنتِ تمرِّين بها خلال السنوات الثمانيَ الماضية».

هدَّأ جوابي هذا من روع «ثيلما»؛ إذ عادت إلى كرسيها وجلست.

- «لقد أثار هذا الكثير من المشاعر بداخلي، أشعر بالدوار. دعني أفكر بالموضوع لمدة أسبوع، لكن يجب أن تَعِدني بشيء واحد: لا تتصل بـ «ماثيو» من دون إذني».

(1) تُنسب هذه المقولة إلى «سقراط»، ويُحكى أنه قال هذه الكلمات عندما كان يخضع للمحاكمة التي أدت إلى إعدامه. (المترجم).

وعدتها بأنني لن أتصل بـ «ماثيو» خلال الأسبوع المقبل، شريطةَ أن تتواصل معي، ثم افترقنا. لم أكن بصدد إعطائها ضمانًا بأنني لن أتصل به أبدًا، ولحسن الحظ لم تطلب مني ذلك.

حضرتُ «ثيلما» الجلسة التالية وهي تبدو أصغر بعشر سنوات؛ كانت مفعمةً بالحيوية، صفَّفت شعرها وارتدت تنورة صوفية جذابة بِنقش «الأرغايل»[1] (argyle) وكلسات نسائية، بدلًا من بنطال «البوليستر» المعتاد أو بدلة الركض. جلستْ في مكانها على الفور وشرعت بالعمل.

- «لقد قضيتُ الأسبوع بأكمله وأنا أفكر بلقاء «ماثيو»، فكرتُ في جميع الإيجابيات والسلبيات، وأعتقد الآن أنك على حق؛ فأنا في حالة سيئة جدًّا لدرجة أنه من غير الممكن أن يزداد وضعي سوءًا مهما حصل!».
- «أنا لم أقل هذا يا «ثيلما». ما قلتهُ هو ...».

لكن «ثيلما» لم تكن مهتمة بكلماتي، وأسكتتني برفع صوتها فوق صوتي: «لكنَّ تخطيطك للاتصال به لم يكن فكرة جيدة. كان من الممكن أن يشعر بالصدمة إزاء تلقيه مكالمة منك على حين غرة، لذلك قرَّرتُ الاتصال به لكي أهيئه لمكالمتك. لم يكن موجودًا عندما اتصلت به، لكنني أخبرته باقتراحك عبر المجيب الآلي، وقلت له أن يتصل بي أو بك، ثم ... ثم ...».

بابتسامة كبيرة على وجهها، صمتتْ مؤقتًا لكي تخلق جوًّا مشوقًا، لقد أدهشتني! لم يسبق لي وأن رأيتها تقوم بهذه الألاعيب من قبل: «ثم؟».

---

(1) الشكل الهندسي الشائع الذي يشبه الجوهرة أو هَرَمين متقابلين بالضلع السفلي. (المترجم)

- «حسنًا، لقد اتَّضح لي أن تأثيرك أقوى بكثير مما كنت أعتقد. لأول مرة منذ ثماني سنوات عاود الاتصال بي، ودارت بيننا محادثة ملأها الودُّ لمدة عشرين دقيقة».

- «كيف كان شعورك عندما تحدثتِ معه؟».

- «كان شعورًا رائعًا! لا يسعني أن أصفه لك. بدا الأمر كما لو كنا قد تحدثنا توًّا في اليوم السابق. كان «ماثيو» لطيفًا عطوفًا كما عهدته سابقًا. سألني عن كل أحوالي، وأبدى قلقه بشأن اكتئابي، كان سعيدًا لأنني أتلقى العلاج على يدك، كانت محادثةً جيدة».

- «هلا تخبريني عن تفاصيل النقاش الذي دار بينكما!».

- «يا إلهي! لست أدري، لقد تجاذبنا أطراف الحديث فحسب».

- «عن الماضي؟ أم الحاضر؟».

- «أعلم أن هذا يبدو جنونيًّا، لكنني لا أتذكر!».

- «لا يمكنك تذكر أي شيء؟» قد يقوم الكثير من المعالجين عند هذه المرحلة بتفسير طريقة صد المريض لهم، ربما كان عليَّ فعل ذلك، لكنني لم أستطع الانتظار؛ كنتُ أتحرق فضولًا! كان من عادات «ثيلما» أن تنسى أنني أنا أيضًا لديَّ بعض الأمنيات أحيانًا.

- «لستُ أسعى لإخفاء أي شيء، كل ما في الأمر هو أنني لا أستطيع أن أتذكر؛ كنت متحمسةً جدًّا. أوه، نعم، أخبرَني أنه قد تزوَّج ثم أصبح مطلقًا، وأنه عانى الأمرَّين بسبب الطلاق.

- لكن أهم ما دار بيننا هو أنه على استعدادٍ لحضور الاجتماع الثلاثي. يا له من أمرٍ طريف! لقد بدا متلهفًا، كما لو كنتُ أنا

التي تجنَّبته طوال هذا الوقت، قلتُ له أن يأتي إلى مكتبك عندما تحين جلستي الاعتيادية الأسبوع المقبل، لكنه طلب مني أن أسألك عما إذا كان بمقدورنا اختيار موعدٍ أقرب. بما أننا قررنا عقد هذه الجلسة، يريد «ماثيو» أن يتم الأمر في أقرب وقت ممكن، أعتقد أنني أشاطره الشعور ذاته!».

اقترحتُ أن تتم الجلسة بعد يومين من الآن، وقالت «ثيلما» إنها ستبلغ «ماثيو». ثم استعرضنا محادثتها الهاتفية مرة أخرى، وخططنا للجلسة التالية. لم تتمكن «ثيلما» من تذكر جميع تفاصيل تلك المحادثة، لكنها تذكَّرت الأمور التي لم يتحدثا عنها.

- «منذ أن أغلقتُ سماعة الهاتف وأنا أوبِّخ نفسي، لأنني كنتُ أجبنَ من أن أسأل «ماثيو» السؤالين المهمَّين حقًّا. أولًا، ما حقيقةُ الذي جرى قبل ثماني سنوات؟ لماذا ابتعدتَ عني؟ لماذا التزمتَ الصمت؟ وثانيًا، كيف تشعر تجاهي الآن بكل صدق؟».

- «إذن يجب أن نحرص على ألا توبِّخي نفسك بعد اجتماعنا نحن الثلاثة بسبب سؤالٍ لم توجِّهيه إليه، أعدك أن أساعدك في طرح جميع الأسئلة التي تريدين طرحها؛ كل تلك الأسئلة التي قد تحرِّرك من السلطة التي أعطيتِها لـ «ماثيو»، ستكون هذه مهمتي الرئيسية في الجلسة».

أمضت «ثيلما» ما تبقى من هذه الجلسة في تكرار الكثير من القضايا القديمة؛ تحدثَت عن مشاعرها تجاه «ماثيو» مشددةً على أنها لم تكن مجرد عملية تحويل، وأن «ماثيو» منحها أفضل أيام حياتها. بدا لي أنها ستستمر إلى ما لا نهاية؛ إذ راحت تخوض في الأحاديث الاستطرا واحدًا تلو الآخر، وعلاوةً على ذلك كانت تقول كل شيء لي كما لو أ

أسمعه للمرة الأولى. أصبحتُ مدركًا لحقيقةِ أنها لم تتغير سوى قِيد أنملة، وأن مصيرها صار معلقًا بشكل كبير بحدوث شيء دراماتيكيِّ خلال الجلسة التالية.

وصلتْ «ثيلما» قبل عشرين دقيقة من الجلسة، كنتُ أقوم ببعض المراسلات في ذلك الصباح ومررتُ بجانبها في غرفة الانتظار عدة مرات أثناء التشاور مع سكرتيرتي. كانت «ثيلما» ترتدي فستانًا جذابًا وضيقًا باللون الأزرق الملكي؛ زيٌّ جريء بالنسبة لامرأةٍ تبلغ من العمر سبعين عامًا! لكنها بدت حسنة المظهر برأيي. عندما دعوتها إلى مكتبي لاحقًا، أبديت إعجابي بفستانها، فأخبرتني بسريةٍ تآمريةٍ وهي تضع إصبعها على فمها أنها أمضت معظم أيام الأسبوع في التسوق من أجله؛ كان هذا أول فستان جديد تشتريه منذ ثماني سنوات. قالت وهي تضع الرتوش الأخيرة على أحمر شفاهها إن «ماثيو» سيصل في غضون دقيقة أو دقيقتين، في الوقت المحدد بالضبط، كان قد أخبرها أنه لا يريد قضاء الكثير من الوقت في غرفة الانتظار لأنه لا يريد أن يصادف أحدًا من زملائه في حال مرُّوا من أمامه. لم ألُمه على ذلك.

توقفتُ فجأةً عن الكلام، كنتُ قد تركت بابي مواربًا، فسمعنا «ماثيو» عندما وصل؛ إذ كان يتحدث إلى سكرتيرتي.

- «لقد جئتُ من أجل بعض المحاضرات هنا عندما كان القسم في المبنى القديم ... متى انتقلتِ؟ ... أحب الشعور الرقيق الذي يبعثه هذا المبنى، ماذا عنكِ؟».

وضعت «ثيلما» يدها على صدرها وكأنها كانت تحاول تهدئة نبضات قلبها: «أترى؟ ألم أقل لك إنه مفطورٌ على الاهتمام بالآخرين؟».

دخل «ماثيو». كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها «ثيلما» منذ ثماني سنوات، وإذا كان قد شعر بأي شكل من أشكال الذهول بسبب الشيخوخة التي حلَّت بها، فإن ابتسامته الصبيانية الطيبة لم توحِ بذلك نهائيًا. كان أكبر سنًّا مما توقعت، ربما في أوائل الأربعينيات من عمره، يرتدي بدلةً رسميةً متحفظةً لا تتماشى مع الأذواق الدارجة في «كاليفورنيا». عدا عن ذلك، بدا كما وصفته «ثيلما» تمامًا؛ نحيفًا، وله شارب، وبشرته ضاربةٌ إلى السمرة بشكل واضح.

كنت قد جهزت نفسي للتعامل مع صراحته وصدقه، ومن ثم لم يباغتني هذا الأمر (فالمعتلون اجتماعيًا (sociopaths) غالبًا ما يعطون انطباعًا جيدًا). استهللتُ الحديث بشُكره بإيجاز على حضوره.

أجابني على الفورِ: «لقد رغبتُ في جلسة كهذه لسنواتٍ عدة، أنا الذي يتوجب عليَّ تشكُرك على جعل هذا الأمرِ حقيقةً. كما أنني قرأت كتبك على امتداد السنين؛ إنه لشرف لي أن ألتقي بك!».

كان من الواضح أنه يتمتع بكاريزما ساحرة، لكنني لم أرغب في الخوض في نقاش شخصي أو مهني مع «ماثيو» لئلا يتشتَّت انتباهي؛ كان من الأفضل أن أتجنَّب لفت الأنظار نحوي في هذه الجلسة، وأن يكون هناك تفاعلٌ بين «ثيلما» و«ماثيو» قدر الإمكان. أدرتُ دفة الحديث إليهما قائلًا: «علينا أن نتناول الكثير من القضايا اليوم، من أين سنبدأ؟».

بدأتْ «ثيلما»: «يا له أمرٍ مضحك! فأنا لم ألجأ إلى زيادة جرعة الأدوية التي أتناولها». كانت قد التفتت نحو «ماثيو». «ما زلتُ أتناول مضادات الاكتئاب بعد انقضاء ثماني سنوات. يا إلهي! ثماني سنوات، يصعب تصديق ذلك! ولكن بعد السنوات الثماني هذه، ربما جربت ثمانية مضادات اكتئاب جديدة، وما زالت لا تجدي نفعًا. لكن المثير للاهتمام هو أن

جميع الآثار الجانبية قد تعاظمت اليوم، فمي جاف جدًا لدرجة أنني بالكاد أستطيع الكلام. ما السبب يا ترى؟ هل يزيد التوتر من الآثار الجانبية؟».

انغمست «ثيلما» في الثرثرة، وراحت تستنزف وقتنا الثمين بمقدماتها. وجدتُ نفسي في مأزق كبير؛ لو كانت الظروف عادية لَحاولتُ توضيح عواقب أحاديثها غير المباشرة. على سبيل المثال، كنتُ أشرتُ إلى أنها تلعب دور الشخص الضعيف؛ الأمر الذي من شأنه أن يثبِّط على الفور النقاش الصريح الذي عبرَت عن رغبتها فيه، أو كنتُ نوَّهت بأنها دعتْ «ماثيو» للقدوم إلى العيادة لكي يتحدث بحرية، لكنها قامت على الفور باستثارة شعوره بالذنب من خلال تذكيره بأنها لم تتوقف عن تناول مضادات الاكتئاب منذ أن تركها. لكن تفسيراتٍ كهذه لن تقود سوى إلى تحول معظم هذه الجلسة إلى جلسة علاج فردية تقليدية، وهو بالضبط ما لم يكن يريده أي أحدٍ منًا. علاوةً على ذلك، إذا وصفتُ سلوكها -بأي صيغة من الصيغ- بأنه يسبِّب لنا المتاعب، فستشعر بالإهانة ولن تسامحني على ذلك ما حييت.

لكن الكثير من الوقت كان يمضي. لم أستطع تحمُّل فكرة إهدار «ثيلما» هذه الفرصة باللف والدوران في منعطفات جانبية، كانت هذه فرصتها لطرح الأسئلة التي ابتُليتْ بها لمدة ثماني سنوات، هذه فرصتها لكي تحرّر نفسها.

- «سأقاطعكِ للحظة يا «ثيلما» لو سمحتِ. بعد موافقتكما، أود أن يكون دوري اليوم هو المُتحكم في الوقت، وأود أيضًا أن أحافظ على تركيز الجميع. ما رأيكما أن نفكر لمدة دقيقة أو دقيقتين في برنامج عمل الجلسة؟».

ساد الصمت لفترة قصيرة إلى أن كسره «ماثيو».

- «سبب وجودي هنا اليوم هو مدُّ يد العون لـ «ثيلما»؛ أعلم أنها كانت تمر بأوقات عصيبة، وأعلم أنني أتحمل مسئولية ذلك. سأكون منفتحًا قدر الإمكان على جميع الأسئلة».

كانت هذه الإشارة المثالية لـ «ثيلما»، أوعزتُ إليها بالبدء بنظرة واحدة؛ تنبهَتْ لها وشرعتْ بالكلام.

- «إن أسوأ شعور في الدنيا هو الحرمان؛ أن تشعر أنك وحيد تمامًا في هذا العالم. عندما كنت طفلةً، كان أحد كتبي المفضلة ـ الذي كنت آخذه إلى منتزه «لينكن» (Lincoln) في واشنطن لقراءته على المقاعد هناك- هو ...».

استجمعتُ قواي هنا ونظرتُ إلى «ثيلما» نظرةً حادةً يقدح الشرر منها؛ فهمَتْ قصدي.

- «حسنًا، سأدخل في صلب الموضوع. أعتقدُ أن ما أريد قوله هو ...» -التفتتْ ببطء وحذر نحو «ماثيو»- «ما شعورك تجاهي؟».

أحسنتِ يا فتاة! ابتسمتُ في وجهها ابتسامةً مشرقة.

إجابة «ماثيو» أصابتني بالدهشة؛ نظر إليها مباشرةً وقال: «لقد فكرت فيكِ كل يوم على مدى السنوات الثماني الماضية! يهمني أمرك، يهمني كثيرًا، أريد أن أعرف عن تفاصيل حياتك، أتمنى لو كان هناك سبيل ما لكي نجتمع كل بضعة أشهر حتى أبقى على اطلاعٍ بالمجريات، لا أريد أن أكون معزولًا عنك».

سألتْهُ «ثيلما»: «إذًا لماذا لزمتَ الصمت طيلة هذه السنوات؟».

- «يمكن أن يعبر المرء أحيانًا عن اهتمامه بشكل أفضل من خلال الصمت».

هزت «ثيلما» رأسها: «يبدو هذا لغزًا من ألغاز الـ «زِنْ»[1] (Zen) الخاصة بك التي لم أستطع فهمها يومًا».

تابع «ماثيو»: «كلما حاولت التحدث إليكِ ازداد الوضع سوءًا؛ كنتِ تطلبين المزيد والمزيد حتى أصبحتُ عاجزًا عن إيجاد سبيل لتقديم المزيد، اتصلتِ بي عشرات المرات في اليوم، جئتِ مرارًا وتكرارًا إلى غرفة الانتظار في مكتبي، ثم عندما كدتِ أن تقتلي نفسك، كنتُ متأكدًا من أن أفضل ما يمكنُ فعله هو الابتعاد كليًا، وشاطرني طبيبي النفسي الرأي».

كان كلام «ماثيو» مشابهًا على نحو غريب لسيناريو «التخليص» الذي شاركته «ثيلما» إياي في جلسة تقمُّص الأدوار.

علقتْ «ثيلما» قائلةً: «لكن من الطبيعي أن يشعر المرء بأنه محرومٌ إذا أُخذَ منه شيءٌ مهمٌ جدًا من دون سابق إنذار».

أومأ «ماثيو» برأسه لـ «ثيلما» متفهمًا، ووضع يده للحظةٍ فوق يدها، ثم التفت إلي: «أعتقد أنه من المهم بالنسبة إليك أن تعرف تمامًا ما حدث قبل ثماني سنوات، وأنا أتحدث إليك الآن بدلًا من «ثيلما» لأنني سبق وأخبرتها بهذه القصة، أكثر من مرة». التفتَ إليها قائلًا: «اعذريني لأنك ستضطرين إلى سماعها مرة أخرى يا «ثيلما»».

ثم التفت «ماثيو» إليَّ ببراءةٍ وشرع يتحدث: «سردُ هذه القصة ليس بالأمر السهل عليَّ. لكنَّ أفضل طريقة للقيام بهذا الأمر هو أن أدخل في صلب الموضوع فحسب، لذا ها أنا أقصُّها عليك.

(1) فلسفة تأملية بوذية. (المترجم).

قبل ثماني سنوات، بعد حوالي عام من إنهاء تدريبي، أُصِبتُ بانهيار عصبيّ خطير. كنت خلال تلك الفترة منغمسًا بشدة في البوذية وكنت أمارس الـ «فيباسانا» (Vipassana) –وهي شكلٌ من أشكال التأمل البوذي ...»، عندما رآني «ماثيو» أومئ برأسي قاطعَ نفسه: «يبدو أنك ملمٌّ بهذا الأمر، ويهمني جدًّا معرفة رأيك فيه، لكن أعتقد أن من الأفضل أن أتابع ... كنت أمارس الـ «فيباسانا» لمدة ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم، لاح في ذهني أن أصبح راهبًا بوذيًّا، وذهبت إلى الهند للتأمل في مُعتكفٍ بوذي لمدة ثلاثين يومًا في «إيغابوري» (Igapuri)، وهي قرية صغيرة شمال «بومباي». كان النظام المتبعُ قاسيًا للغاية بالنسبة إليّ: صمتٌ تام، وعزلةٌ تامة، والتأمل جلوسًا لمدة أربع عشرة ساعة في اليوم. كانت حدود الأنا (ego boundaries) عندي قد بدأت تتلاشى بحلول الأسبوع الثالث، صرت أهَلوس واعتقدتُ أنه أصبح بإمكاني الرؤية من خلال الجدران والعبور كما يحلو لي إلى حياتي الماضية والمستقبلية؛ أخذني الرهبان إلى «بومباي»؛ حيث وصف لي طبيب هندي عقارًا مضادًّا للذهان، ثم اتصل بأخي، الذي سافر إلى الهند ليعود بي إلى الوطن. أدخلوني المستشفى لمدة أربعة أسابيع تقريبًا في «لوس أنجلوس». بعد خروجي من المستشفى، عدتُ على الفور إلى «سان فرانسيسكو»، وفي اليوم التالي قابلت «ثيلما» بمحض الصدفة في «يونيون سكوير».

كنت لا أزال مشتتًا ذهنيًا إلى حدٍّ كبير؛ فقد تحولت عقائدي البوذية إلى حالةٍ من الجنون الحقيقي وصرتُ أعتقد أنني متحدٌ مع الجميع، كنت سعيدًا بلقائكِ يا «ثيلما» أنتِ بالذات». التفتَ إليها: «أسعدتني رؤيتك، وقد ساعدني ذلك على الشعور بالاتزان مرة أخرى».

ثم التفتَ «ماثيو» إليَّ، ولم ينظر مرة أخرى إلى «ثيلما» إلا بعد أن أنهى قصته.

- «كانت جميع مشاعري تجاهها مشاعرَ طيبة؛ شعرتُ بأنني أشكِّل مع «ثيلما» كيانًا واحدًا، أردتُها أن تحقق كل رغباتها في الحياة، وأكثر من ذلك بكثير. شعرتُ أن سعيها لتحقيق السعادة كان سعيي أنا أيضًا، كان هدفنا واحدًا، وكنا متشابهَين تمامًا. تعاملتُ بحِرَفية للغاية مع العقيدة البوذية حول الوحدة الكونية واندثار الأنا، لم أكن أعرف أين تنتهي ذاتي وأين تبدأ ذات الآخر، أعطيتها كل شيء أرادته، أرادت مني أن أكون قريبا منها، أرادت العودة معي إلى المنزل، أرادت ممارسة الجنس، كنتُ على استعدادٍ لمنحها كل شيء في حالةٍ من الاتحاد والحب المثاليَّين.

لكنها أرادت المزيد، وأنا لم أستطع أن أقدم لها المزيد. ازدادت اضطراباتي، وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع عادت إليَّ الهلوسات، وكان لا بد من دخول المستشفى مجددًا، هذه المرة لمدة ستة أسابيع. لم تكن قد مضت بضعة أيام على خروجي من المستشفى عندما سمعتُ عن محاولة انتحار «ثيلما»؛ وقفتُ عاجزًا، كان الأمر كارثيًا! كان ذلك أسوأ شيء اختبرتُه على الإطلاق، لقد لازمني كالظل لمدة ثماني سنوات. في بادئ الأمر كنت أرد على مكالماتها، لكنها لم تتوقف عن الاتصال، فنصحني طبيبي النفسي أخيرًا بالانقطاع عنها كليًا، وبالتزام الصمت التام، قال إن ذلك ضروريٌّ للحفاظ على سلامتي العقلية، وكان متأكدًا من أنه سيصب في مصلحة «ثيلما» أيضًا».

عندما استمعتُ إلى «ماثيو»، بدأتُ أشعر بالدوار؛ كنتُ قد فكرت بمجموعة مختلفةٍ من الفرضيات لفهم سلوكه، لكنني لم أكن مستعدًا نهائيًا للقصة التي سمعتها للتو.

أولًا، هل قصته حقيقيةٌ؟ كان حضور «ماثيو» ساحرًا، وشخصيته سلسلة. فهل كان يدّعي كل ذلك أمامي؟ كلا، لم يراودني أدنى شك في أن الأحداث جَرَت كما وصفها، لقد سمعتُ وقْعَ الحقيقةِ في كلماته على نحوٍ لا لبس فيه؛ فقد ذكر بملء إرادته أسماء المستشفيات والأطباء في حال أردتُ التأكد بنفسي. وعلاوةً على ذلك، فإن «ثيلما» -التي سمعتْ هذه القصة في الماضي حسب قوله- استمعتْ باهتمامٍ شديد ولم تعترض بأي شكلٍ من الأشكال.

التفتُّ نحو «ثيلما»، لكنها أشاحت بنظرها عني. بعد أن أنهى «ماثيو» حديثه، راحت تحدِّق من النافذة؛ هل يعقل أنها كانت تعرف كل هذا منذ البداية وأخفت حقيقة الأمر عني؟ أم أنها كانت مستغرقةً في مِحنتها واحتياجاتها الخاصة لدرجة أنها كانت غير مدركة تمامًا لحالة «ماثيو» العقلية طوال هذا الوقت؟ أم إنها عرفت لفترة وجيزة ثم كبحت تلك الحقيقة لأنها تعارضت مع الكذبة التي كانت بحاجتها؟

«ثيلما» وحدها من يملك الجوابَ، لكن أيُّ «ثيلما»؟ «ثيلما» التي خدعتني؟ أم «ثيلما» التي خدعت نفسها؟ لم أكن واثقًا من أنني سأجد الإجابات عن هذه الأسئلة.

مع ذلك، كان انتباهي في المقام الأول موجهًا نحو «ماثيو»؛ حيث إنني على امتداد الأشهر القليلة الماضية كنت قد شكّلت تصورًا -أو عدة تصورات بديلة- عنه: «ماثيو» غير المسئول المعتلّ اجتماعيًّا الذي يستغل مرضاه، «ماثيو» القاسي ذو الهوية الجنسية الحائرة الذي كان ينفِّس عن صراعاته الشخصية (مع النساء بشكل عام أو أمه بشكل خاص)؛ «ماثيو» المعالج الشاب الضال المهووس بعظمة ذاته الذي اعتقدَ مخطئًا أن الحب المرغوب هو ذاته الحب المفروض.

لكنه لم يكن أيًا من تلك الشخصيات، كان شيئًا آخر لم أتوقعهُ أبدًا، إلا أنني لم أستطع تحديدَ هذا الشيء بالضبط. هل كان ضحيةً لحسن نواياه؟ هل كان يداوي جراح الآخرين وهو مصابٌ -كالمسيح- وضحى بنزاهته من أجل «ثيلما»؟ بكل تأكيد، لم أعد أراه على أنه معالجٌ مُعتَد؛ لقد كان مريضًا مثل «ثيلما»، وإضافةً إلى ذلك (قلت في نفسي مُجبرًا وأنا ألقي نظرة خاطفةً على «ثيلما» التي كانت لا تزال تحدق من النافذة)، كان مريضًا فعالًا، مريضًا يشبهني تمامًا.

أتذكر شعوري بأني أصبحت معزولًا؛ فالعديد من فرضياتي كانت قد نُسفت في غضون دقائق، انتهت كليًا فكرة المعتل اجتماعيًا أو المعالج الانتهازي التي كونتها عن «ماثيو»، ونشأ بدلًا منها سؤالٌ مؤرق: من الذي كان يستغل الآخر في هذه العلاقة؟

كانت هذه هي كل المعطيات التي استطعتُ تدبرها (والتي كنتُ بحاجة إليها على ما أعتقد)، لا تسعفني ذاكرتي في استحضار ما جرى في بقية الجلسة، أتذكر أن «ماثيو» شجَّع «ثيلما» على طرح المزيد من الأسئلة، كما لو كان هو أيضًا قد شعر أنه لا يمكن تحريرها إلا من خلال المعلومات، وأن أوهامها لن تتحمَّل شعاع الحقيقة، وأعتقدُ أنه أدرك أن خَلاصه أيضًا لن يتحقق إلا من خلال خَلاص «ثيلما». أتذكر أننا طرحنا عليه العديد من الأسئلة، وأجاب على كلِّ واحدٍ منها إجابة كاملة. كانت زوجته قد تركته قبل أربع سنوات بسبب تبايُن آرائهما كثيرًا حول الدين، ولم تستطع هي أن تحذو حذوه في اعتناق معتقدٍ مسيحيّ أصولي.

كلا، لم يكن شاذًا، ولم يكن كذلك من قبلُ قط، على الرغم من أن «ثيلما» سألته كثيرًا عن ذلك. في هذه اللحظة فقط تلاشت ابتسامته وبدأت نبرة الغضب تظهر في صوته («أخبرتكِ مرارًا وتكرارًا يا «ثيلما» أن المُغايرين جنسيًا أيضًا يعيشون في شارع «هيت»»).

كلا، لم يكن على علاقة شخصية مع أي مريض آخر نهائيًا. في الواقع، نتيجة لذهانه (psychosis) وما حدث بينه وبين «ثيلما»، أدرك منذ عدة سنوات أن مشاكله النفسية شكّلت أمامه عائقًا لا يمكن تخطيه، وتخلى عن مزاولة العلاج النفسي. ولكنه كان ملتزمًا بخدمة الآخرين؛ لذلك خضع للاختبارات النفسية لبضع سنوات، ثم عمل في مختبرٍ للارتجاع الحيوي[1] (biofeedback)، وفي الآونة الأخيرة أصبح مديرًا لمنظمة مسيحية لتقديم خدمات الرعاية الصحية.

كنت أتأمل قرار «ماثيو» المهني، حتى إنني تساءلت عما إذا كان قد تطور بما فيه الكفاية لكي يعود إلى ممارسة العلاج النفسي -فربما صار يَصلحُ الآن لأنْ يكون معالجًا استثنائيًا- عندما لاحظتُ أن الجلسة كانت قد شارفت على الانتهاء.

استفسرتُ عما إذا كنا قد تناولنا كل شيء، طلبتُ من «ثيلما» أن تتصوَّر نفسها في المستقبل وأن تتخيل شعورها بعد عدة ساعات من الآن، هل ستشعر أنها نسيَتْ طرح بعض الأسئلة؟

لدهشتي، بدأت تبكي بشدة لدرجة أنها لم تستطع التقاط أنفاسها، وراحت الدموع تنهمر على فستانها الأزرق الجديد، حتى سبقني «ماثيو» وأعطاها علبة المناديل. عندما هدأ بكاء «ثيلما»، أصبحت كلماتها مسموعة.

---

(1) يُعرف أيضًا باسم التغذية الراجعة الحيوية، وهي طريقة لدراسة وقياس بعض الاستجابات في الجسم (نبض القلب أو التنفس أو الذاكرة العضلية، على سبيل المثال)، ثم إرجاعها إلى الفرد على شكل اهتزازات صوتية أو ومضات ضوئية، بحيث يزداد وعيه باستجابات جسمه ويتعلم كيفية التحكم فيها. (المترجم).

- «أنا لا أصدق، ببساطة لا أستطيع أن أصدق أن «ماثيو» يهتم حقًا لأمري». لم تكن كلماتها موجهة نحو «ماثيو» أو نحوي، بل نحو نقطةٍ ما بيننا في الغرفة؛ لاحظتُ بشيء من الارتياح أنني لم أكن الشخص الوحيد الذي كانت تخاطبه بضمير الغائب.

حاولتُ مساعدة «ثيلما» على التحدث: «لماذا؟ لماذا لا تصدقينه؟».

- «لأنه مضطرٌ لقول ذلك؛ لأن فعل الصواب يحتم عليه قول ذلك، لا بل إنه الشيء الوحيد الذي يمكنه قوله».

بذل «ماثيو» قصارى جهده، لكن التواصل معها كان صعبًا بسبب بكائها: «أعني الكلام الذي قلتُه بحذافيره، لم تفارقي ذهني في أي يوم طيلة هذه السنوات الثماني، يهمني ما يحدث لك وأكترث لأمرك كثيرًا».

- «لكن ماذا يعني اهتمامك هذا؟ فأنا أعرف كل شيءٍ عنه، أنت تهتم بالفقراء والنمل والنباتات والنظم البيئية! لا أريد أن أكون نملةً من نملاتك!».

كنّا قد تخطينا وقت الجلسة الأصلي بعشرين دقيقة ولا بد من التوقف، رغم أن «ثيلما» لم تكن قد استعادت رباطة جأشها بعد. أعطيتها موعدًا على أن تحضر في اليوم التالي لكي أقدم لها الدعم، ولأنه سيكون من الأفضل أن أراها مرة أخرى بسرعة، بما أن تفاصيل هذه الجلسة كانت لا تزال حيةً في ذهنها.

أنهينا نحن الثلاثة الجلسة بعد أن صافح كل واحدٍ منا الآخر، وافترقنا. بعد بضع دقائق، وأنا أجلب بعض القهوة، رأيت «ثيلما» و«ماثيو» يتحدثان في الممر؛ كان يحاول أن يوضح لها نقطةً ما، لكنها كانت تنظر بعيدًا عنه، ثم بعد ذلك بقليل رأيتهما يمشيان في اتجاهين مختلفين.

عندما حلَّ اليوم التالي، لم تكن «ثيلما» قد تعافت بعد، كان مزاجها متقلبًا على نحو استثنائيّ طوال جلستنا: بكت كثيرًا، وكانت تستشيط غضبًا في بعض الأحيان. أولًا، شعرتُ بالأسى لأن رأي «ماثيو» بها كان سلبيًا إلى تلك الدرجة. كانت قد شغلت نفسها وأمعنت في القلق بشأن «اهتمام» «ماثيو» بها، حتى تحول الأمر إلى إهانة بالنسبة إليها، وأشارت إلى أنه لم يذكر أيًا من ميزاتها الإيجابية، وأقنعتْ «ثيلما» نفسها بأن موقفه الأساسي تجاهها هو موقف «مجاف».

فوق ذلك كله، كانت مقتنعة بأنه -ربما بسبب وجودي- انتحلَ أسلوبًا ونبرةً علاجيةً زائفةً؛ الأمر الذي وصفتْهُ بأنه تصرفٌ متعالٍ. تكلمتْ «ثيلما» كثيرًا دون جدوى، وتأرجحت يَمنةً ويَسرة بين إعادة تصور ما جرى في الجلسة وبين ردة فعلها تجاه ذلك.

- «أشعر وكأني قد خضعت لعملية بترٍ لأحد أطرافي، أشعر أنني فقدت شيئًا ما، أعتقد أنني أكثر صدقًا من «ماثيو» رغمًا عن أخلاقياته الطنانة، خاصةً فيما يتعلق بروايته حول مَن مِنا أغوى الآخر».

ظلتْ «ثيلما» غامضةً في هذا الشأن، ولم أُلح عليها من أجل أن توضح قصدها، رغم أنه كان سيروقُ لي معرفة ما حدث حقًا؛ كلامها عن عملية «البتر» أثار اهتمامي أكثر.

تابعتْ «ثيلما»: «صارت خيالاتي حول «ماثيو» جزءًا من الماضي. لم أعد أحلم أحلام اليقظة، لكنني أريد ذلك؛ أريد أن أغوص في أحضان أحلام اليقظة الدافئة. أشعر بالبرد والفراغ. لا شيء هناك الآن سوى العدم».

كانت مثل قارب انجرف عن مرساه وتاهت به السبل، لكنه كان قاربًا واعيًا يبحث مستميتًا عن رصيف يرسو فيه، أي رصيف مهما كان. الآن، وسط جميع هواجسها، كانت «ثيلما» في حالةٍ نادرة من الحيرة، هذه هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها؛ لأن مثل هذه الحالات لا تدوم طويلًا، فعندما يصبح الشخص الذي يكون عُرضةً للوساوس غير مقيدٍ، حاله كحال الأكسجين الوَليد (nascent oxygen)، يمكن أن يمتزج بسرعة مع بعض الصور الذهنية أو الأفكار. كانت هذه اللحظة بالذات –هذه الفترة القصيرة وسط هواجسها المختلفة– هي الوقت الحاسم لكي نعمل بجِد، قبل أن تستعيد «ثيلما» توازنها من خلال التعلق بشيء أو شخص ما؛ فعلى الأرجح أنها ستقوم بإعادة تصور الجلسة مع «ماثيو» حتى تتمكن من صياغتها الشخصية للأحداث من دعم أوهامها بالاندماج به مرة أخرى.

بدا لي أننا أحرزنا تقدما حقيقيًا؛ اكتملت العملية الجراحية، وتمثَّلت مهمتي الآن في منعها من الحفاظ على الطرف المبتور لئلا تقوم بإعادة تركيبه بسرعة. كانت فرصتي قد حانت، في حين استمرت «ثيلما» برثاء خسارتها.

- «لقد تحققَت توقعاتي للمجريات؛ لم يعُد لديَّ أي أمل، ولن أشعر بالرضا مرةً أخرى. يمكنني تقبُّل فرصة الواحد بالمئة، لطالما تقبلتها!».
- «عن أي رضًا تتحدثين يا «ثيلما»؟ فرصةُ واحد بالمئة لأجل ماذا؟».
- «لأجل ماذا؟ لأجل تلك الأيام السبعة والعشرين. قبل يوم أمس كانت الفرصة قائمةً، كان من الممكن أن نعود أنا و«ماثيو» إلى ذلك الوقت، كنا هناك سويًا، كان الشعور حقيقيًا؛ فأنا أعرف

الحب عندما أشعر به، طالما كنت أنا و«ماثيو» على قيد الحياة، فرصة العودة إلى الحب كانت ممكنةً إلى أن جاء يوم أمس، في مكتبك».

كان عليَّ اقتلاع بقايا أوهامها، لقد دمرتُ هاجسها بالكامل تقريبًا، وحان الوقت لإنهاء المهمة: «ما سأقوله الآن يا «ثيلما» لن يكون لطيفًا، لكن لا بد منه، وسأحاول التعبير عن أفكاري بوضوح. لنفترض أن هناك شخصين قد عاشا معًا لحظةً أو شعورًا ما؛ إذا أحس كلاهما بالشيء ذاته، فإنه من الممكن أن يقوما بإعادة إحياء هذا الشعور الثمين طالما كان كلاهما على قيد الحياة، إلا أن هذه المهمة ستكون صعبة، لأن الناس يتغيرون، وتنطفئُ شعلة الحب في نهاية المطاف. لكن يبقى نجاح هذا الأمر واردًا، يمكنهما التواصل على جميع الصُّعُد، ومحاولة الظفر بعلاقة حقيقية عميقة، بما أن الحب الصادق هو حالة مطلقة، ويمكن أنْ يُنعِشَ الصلة التي كانت بينهما. لكن لنفترض أن التجربة هذه لم تكن مشتركةً أبدًا! لنفترض أنهما عاشا تجربتين مختلفتين الاختلاف كله، ولنفترض أيضًا أن أحدهما ظن خطأً أن المشاعر التي اختبرها كانت مطابقةً لمشاعر الآخر!».

كانت عيون «ثيلما» تحدِّق بي بنظرةٍ ثابتة، كنُت على يقين من أنها فهمت قصدي تمامًا.

تابعتُ الكلام: «هذا هو بالضبط ما سمعتُه خلال جلستنا مع «ماثيو»: كانت تجربته مختلفةً جدًّا عن تجربتك، أترين كيف أنه من المستحيل أن تقوما بإعادة خلق تلك الحالة الذهنية التي عشتِها؟ لا يمكن لأحدكما مساعدة الآخر في فعل هذا لأن الحالة لم تكن مشتركةً قط.

كان هو في وادٍ وأنت في وادٍ آخر، كان تائهًا في ذهانه، وأضاع حدود أناه؛ لم يكن يعرف أين انتهت ذاته وأين بدأتْ ذاتك، أراد أن تكوني

سعيدةً لأنه ظن أنكما فردٌ واحد، التجربة التي عاشها لم تكن تجربة حبٍّ، لأنه لم يكن يعرف من هو، كانت تجربتك مختلفة جدًّا، لا يمكنك إعادة خلق حالة حبٍّ رومانسية مشتركة، حيث يكون كلٌّ منكما هائمًا بالآخر؛ لأن هذا الشيء لم يكن موجودًا في المقام الأول!».

أعتقد أن هذا الكلام كان أقسى كلام قلتُه في حياتي، ولكن ليكون صوتي مسموعًا، كان عليَّ أن أتحدَّث بكلمات مؤثرة وصارمة جدًّا لا يمكن تحريفها أو نسيانها.

لم يكن هناك شكٌّ في أن ما قلتُه أصابها في الصميم. توقفتْ «ثيلما» عن البكاء وجلستْ هناك بلا حراكٍ وهي تُمعن التفكير في كلماتي، فكسرتُ الصمت المهول بعد عدة دقائق:

- «ما هو شعورك حيال ما قلتُه، يا «ثيلما»؟».
- «لم أعد أشعر بأي شيء، لم يعد هناك شيءٌ لكي أشعر به. سيتعين عليَّ أن أجد سبيلًا لكي أقضي الوقت المتبقي من حياتي، أشعرُ بالخدر».
- «لقد عشتِ شعورًا واحدًا طيلة السنوات الثماني الماضية، والآن فجأةً في غضون أربعة وعشرين ساعة انتُزع كل ذلك منك. سوف تكون هذه الأيام القليلة القادمة مربكةً جدًّا بالنسبة إليك، وستشعرين بالضياع. لكن هذا أمرٌ متوقع، لا يمكن أن يحدث خلاف ذلك».

قلتُ هذا لأن أفضل طريقة لمنع المريض من القيام بردة فعل كارثية هي التنبؤ بها. الطريقة الأخرى هي مساعدة المريض على الخروج من هذه الحالة لكي ينتقل إلى لعب دور المراقب، لذلك أضفت: «سيكون من المهم خلال هذا الأسبوع أن تراقبي وتوثِّقي حالتك النفسية؛ لذا أودُّ منكِ

أن تتحققي منها كل أربع ساعات، عندما تكونين مستيقظة، وأن تدوِّني ملاحظاتك من أجل أن نتدارسها الأسبوع المقبل».

لكن «ثيلما»، ولأول مرة، غابت عن الجلسة التالية. اتصل بي زوجها للاعتذار نيابةً عن زوجته، التي كانت قد استغرقت في النوم، وحدَّدنا موعد الجلسة بعد يومين.

عندما ذهبتُ إلى غرفة الانتظار لتحية «ثيلما»، دبَّ فيَّ الفزع عندما رأيتُ سوء حالتها الجسدية؛ كانت قد عادت لارتداء بدلة الركض الخضراء، وكان من الواضح أنها لم تمشِّط شعرها أو تحاول العناية بمظهرها بأي شكل من الأشكال. علاوةً على ذلك، كان زوجها «هاري» برفقتها على غير العادة؛ كان «هاري» رجلًا طويل القامة، ذا شعر أبيض، وله أنف كبير منتفخ، جلس هناك وهو يضغط على جهازٍ لتقوية القبضة في كلتا اليدين، فتذكرتُ أن «ثيلما» كانت قد أخبرتْني بأنه علَّم القتال بالأيدي أثناء الحرب. من السهل أن يتخيَّله المرء وهو يخنق شخصًا ما.

كان أمرًا غريبًا أن يرافقها في ذلك اليوم؛ فعلى الرغم من تقدُّمها بالسن، فإن «ثيلما» لا تزال رشيقةً، وكانت دائمًا تقود السيارة بنفسها إلى مكتبي. ازداد فضولي أكثر عندما قالت لي في غرفة الانتظار بأن «هاري» كان يرغب في مقابلتي اليوم! كنتُ قد التقيت به مرة واحدة سابقًا؛ رأيته مع «ثيلما» في الجلسة الثالثة أو الرابعة، حيث تحادثنا لمدة خمس عشرة دقيقة، لكي أطَّلع على طبيعة شخصيته وأتعرَّف على زواجهما من وجهة نظره. لكنه لم يطلب من قبلُ مقابلتي؛ لذا من الواضح أن أمرًا هامًّا كان قد طرأ. وافقتُ على التحدث معه في الدقائق العشر الأخيرة من جلسة «ثيلما»، وأوضحتُ له أيضًا أنني سأخبرها بكل ما سيدور في محادثتي معه.

بدت «ثيلما» منهكة؛ استرخت في كرسيها وتحدثتْ ببطء، بصوت منخفض ونبرة مستسلمة.

- «لقد كان هذا الأسبوع بأكمله مرعبًا! كان جحيمًا مطلقًا! لقد تلاشى هَوَسي أو شارف على ذلك، على ما أعتقد. بدلًا من أقضي تسعين بالمئة من وقتِ يقظتي بالتفكير في «ماثيو»، صرت أقضي أقل من عشرين بالمئة منه، وحتى العشرين بالمئة هذه أصبحت مختلفة.

وماذا كنتُ أفعل عوضًا عن ذلك؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق؛ صرت أنام اثنتي عشرة ساعة في اليوم، لا أفعل أي شيء سوى النوم والجلوس والتنهد، لقد جفت دموعي، لم يعد بمقدوري البكاء بعد الآن. الليلة الماضية، وأنا أتناول عشائي على مضض -فبالكاد تناولت أي طعام هذا الأسبوع- قال لي «هاري» الذي نادرًا ما ينتقدني: «هل عدتِ لرثاء نفسك مجددًا؟»».

- «كيف تفسرين ما يحدث لك؟».

- «أشعر أنني كنت في عرضٍ سحريّ طوال هذا الوقت، والآن قد خرجت؛ الحياة كئيبةٌ جدًا في الخارج».

أصابتني القشعريرة؛ لأنني لم أسمع «ثيلما» من قبل تلجأ للغة المجازية، شعرتُ وكأن شخصًا آخر يتكلم.

- «أخبريني بالمزيد عن مشاعرك».

- «أشعر بأنني عجوزٌ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لأول مرة أتنبه إلى أنني أبلغ من العمر سبعين عامًا؛ سبعةٌ بجانبها صفر، أي أنني أكبرُ من تسعة وتسعين بالمئة من الناس حولي! أشعر وكأنني جثة

متحركة، لقد نفدت طاقتي، باتتْ حياتي خاوية، والطريق أمامي مسدودة، لا يسعني سوى أن أنتظر الموت».

خرجتْ هذه الكلمات من فم «ثيلما» بسرعة، لكن إيقاعها تباطأ عند الجملة الأخيرة. التفتتْ نحوي وراحت تحدِّق بثبات في عيوني، كان هذا في حدِّ ذاته أمرًا استثنائيًا؛ لأنها نادرًا ما كانت تنظر إليَّ مباشرةً. ربما كنتُ مخطئًا، لكنني شعرتُ أن عيونها قالت لي: «هل أنتَ راضٍ الآن؟»، لم أعلق على نظرتها هذه.

- «إذن جرى كل هذا بعد جلستنا مع «ماثيو». ما الذي حدث في تلك الجلسة حتى أصبح حالك هكذا؟».
- «تنبهتُ إلى كمية حماقتي التي جعلتني أحميه لمدة ثماني سنوات!».

دبَّ النشاط في «ثيلما» إثر غضبها، أخذتْ محفظتها من حضنها ووضعتها على الأرض، وبذلتْ طاقةً كبيرةً في كلامها: «يا تُرى ما جزائي أنا؟ سأخبرك إن كنتَ لا تعلم. جزائي هو خيبةٌ ما بعدها خيبة! لو لم أخفِ سره عن كل المعالجين طوال هذه السنوات لَاختلفت طبيعة جميع هذه الأحداث».

- «لم أفهم قصدك. عن أي خيبةٍ تتحدثين؟».
- «لقد كنتَ هناك ورأيت ما جرى؛ شاهدت قسوة قلبه، لم يقل لي مرحبًا أو وداعًا، ولم يُجب عن أسئلتي؛ هل يتطلب فعل ذلك الكثير من الجهد؟ ولم يخبرني إلى هذه اللحظة لماذا ابتعد عني!».

حاولتُ أن أشرح لها كيف أن نظرتي للمجريات مختلفة، وكيف أن «ماثيو» -من وجهة نظري- كان حميميًا معها وتناول تفاصيلَ دقيقةً ومُوجِعة حول سبب انفصاله عنها.

لكن «ثيلما» كانت على عجلةٍ من أمرها، ولم تستمع إلى تعليقاتي: «لقد كان واضحًا بشأن شيء واحد فقط، ألا وهو أن «ماثيو جينينغز» (Matthew Jennings) قد سئم من «ثيلما هيلتون» (Thelma Hilton) وضاق ذرعًا بها. قل لي أنتَ: يا تُرى ما الطريقة المثلى لدفع حبيبٍ سابق إلى الانتحار؟ أن يبتعد المرء فجأةً من دون أن يذكر أسباب ابتعاده. هذا هو بالضبط ما فعله بي!

في أحد أحلام يقظتي بالأمس، رأيت «ماثيو» قبل ثماني سنوات يتفاخر أمام أحد أصدقائه (ويراهنه) بأنه بإمكانه استخدام معرفته في علم النفس لإغوائي أولًا، ومن ثم تدميري كليًا في سبعة وعشرين يومًا!».

انحنت «ثيلما» وفتحت محفظتها وأخرجت قصاصةَ جريدةٍ تتناول موضوع الجريمة، انتظرتْ بضع دقائق قبل قراءتها. كانت قد حددتْ بقلم رصاص أحمر فقرةً تدَّعي أن حالات الانتحار هي في الواقع جرائم قتل مزدوجة.

- «وجدتُ هذه الفقرة في صحيفة الأحد الماضي. هل يمكن أن ينطبق هذا على حالتي أنا؟ ربما عندما حاولتُ الانتحار، كنت أريد قتل «ماثيو». يبدو ذلك منطقيًا، أشعر بذلك هنا»، كانت تشير إلى قلبها، «لم أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة من قبل!».

عملتُ جاهدًا للحفاظ على رباطة جأشي. بطبيعة الحال، كنتُ قلقًا بشأن اكتئابها، كانت في حالة يأس بكل تأكيد، كيف للأمر أن يكون خلاف ذلك؟ لا شيء سوى اليأس المتجذر بإمكانه أن يولِّد وهمًا متينًا

ومستعصيًا يدوم لمدة ثماني سنوات. وبما أنني قضيتُ على الوهم، إذن عليَّ أن أكون مستعدًا لمواجهة اليأس الذي أخفاه في طياته. وعلى الرغم من سوء الأمر، كانت محنة «ثيلما» هذه مؤشرًا جيدًا على أننا كنا على الطريق الصحيح، كان كل شيءٍ يسير على ما يرام؛ اكتملت أخيرًا عملية التحضير، وحان وقت البدء بالعلاج الحقيقي الآن.

في الواقع، كان قد بدأ بالفعل! فقد دلَّت انفعالات «ثيلما» المفاجئة واحتدام غضبها بسرعة تجاه «ماثيو» على تقهقر آليات دفاعها القديمة، كانت إذن في حالة متقلبة، إن كل مريض مصاب بالهوس الشديد لديه شعورٌ بالغضب في صميم أعماقه، وتوقعتُ ظهوره لدى «ثيلما». بشكل عام، اعتبرتُ غضبها تطورًا ممتازًا، بغض النظر عن مكوناته اللاعقلانية.

كنتُ منهمكًا في هذه الأفكار وفي التخطيط للعمل معًا على علاجها المستقبلي، لدرجة أنني لم أنتبه إلى الجزء الأول من تعليق «ثيلما» التالي، لكنني سمعت نهاية جملتها بوضوح شديد: «... ولهذا السبب يجب أن أترك العلاج!».

سارعت للرد على الفور: «كيف لك أن تفكري مجرد التفكير في ذلك يا «ثيلما»؟ لا يمكنك التخلي عن العلاج في هذا التوقيت السيئ! الآن حانت الفرصة لكي نحقق بعض التقدم الفعلي!».

- «لا أريد أن أخضع للعلاج بعد الآن؛ عشرون عامًا انقضت وأنا على هذا الحال، لقد سئمت من كوني مريضة، عامَلني «ماثيو» كمريضةٍ وليس كصديقة، وأنت أيضًا تعاملني كمريضة، أريد أن أصبح كسائر الناس».

لم أعد أتذكر الكلمات التي قلتُها بالضبط، كل ما أعرفه هو أنني بذلتُ قصارى جهدي ومارستُ أشد درجات الضغط عليها لكي تعيد

النظر في قرارها، وذكَّرتُها بأنها ملتزمةٌ بستة أشهر من العلاج، وقد تبقَّى منها خمسة أسابيع.

لكنها ردت قائلة: «حتى أنت قد تتَّفق معي أن على المرء حماية نفسه أحيانًا، فالمزيد من هذا «العلاج» سيكون أمرًا لا يمكنني احتماله»، ثم أضافت بابتسامة كالحة: «المزيد من العلاج قد يؤدي إلى قتل المريض».

كل الحجج التي لجأتُ إليها لاقت مصيرًا مشابهًا لهذا. شددتُ على حقيقةِ أننا أحرزنا تقدمًا ملموسًا، ذكرتُها بأنها جاءت إليَّ في الأصل لكي تحرِّر عقلها مما كان يشغلها، وقد قطعنا أشواطًا كبيرة نحو تحقيق ذلك، يجب علينا في هذه المرحلة أن نعالج شعورها الكامن بالفراغ والعبثية اللذين غذَّيَا هاجسها.

تلخَّص ردها في أن الخسائر التي تلقَّتها كانت فادحة، على نحو يفوق طاقتها على التحمل؛ لقد فقدت أملها بالمستقبل (طبعًا كانت تقصد أنها فقدت «فرصة الواحد بالمئة» للمصالحة مع «ماثيو»)، وفقدتْ أيضًا أفضل سبعة وعشرين يومًا من حياتها (إذا لم تكن تلك الأيام «حقيقيةً» كما أوضحتُ لها، فإنها فقدت ذكرى ذروة حياتها التي استمرت لوقت طويل)، وفقدتْ كذلك ثماني سنوات من التضحية (إذا كان الشيء الذي قامت بحمايته محض وهم، فإن تضحيتها كانت عقيمة).

كانت كلمات «ثيلما» مؤثرةً جدًا لدرجة أنني لم أجد سبيلًا لمواجهتها بفاعلية، عدا عن أنني أقررتُ بصحة أنها تكبَّدت الخسائر، وقلتُ إنه لا شك في أنها ستقضي الكثير من الوقت في رثاء الماضي، وإنني سأساندها وأساعدها على فعل ذلك. حاولتُ أيضًا أنْ أشير إلى أنه بمجرد ظهور الشعور بالندم سيكون تحمُّله أمرًا مؤلمًا للغاية، ولكن يمكننا أن نتَّبع الكثير من الإجراءات لكي نمنع تجذر المزيد من الندم. على سبيل المثال،

قلتُ لها أن تضع في عين الاعتبار القرارَ الذي عليها أن تتخذه الآن: ألَن تندم بشدة بعد شهر أو عام من الآن على قرارها بالتوقف عن العلاج؟

أجابتني «ثيلما» بأنني قد أكون على حق، لكنها قطعت وعدٍ على نفسها بالتوقف عن العلاج. قارنَتْ جلستنا نحن الثلاثة بزيارة الطبيب عندما يظن المرء أنه مصابٌ بالسرطان: «بعد مقاساته الكثير من الاضطرابات النفسية، بعد أن دفعه الذعر إلى تأجيل زيارة الطبيب مرارًا وتكرارًا، يؤكد له الطبيب أنه مصاب بالسرطان، لتنتهي بذلك كل الاضطرابات التي عانى منها لأنه لم يكن يعرف الحقيقة، ولكن ماذا يتبقى له في هذه الحالة؟».

عندما حاولتُ فهم مشاعري حينها، أدركتُ أن أول ردٍ كان يطالبني بالإذعان له هو: «كيف يمكنكِ أن تفعلي هذا بي؟». نعم، كان غضبي نابعًا جزئيًا من الإحباط الذي شعرتُ به، إلا أنني كنت متأكدًا من أنني تفاعلتُ أيضًا مع شعور «ثيلما» تجاهي؛ أنا الشخص المسئول عن خسائرها الثلاث، فاجتماعنا نحن الثلاثة فكرتي أنا، وأنا مَن قام بإزالة أوهامها (disillusion). شعرتُ أنها قابلتْ المهمة التي كنت أنفِذها بنكران الجميل، حتى إن عبارة «إزالة الأوهام» –بدلالتها السلبية العدمية– كان يجب أن تكون كفيلةً بتحذيري. فكرتُ قليلًا في مسرحية «أونيل» (O'Neill) «رجلُ الثلج يأتي» (The Iceman Cometh) و . «هيكي» (Hickey)، نازع الأوهام؛ حيث ينقلب ضده في النهاية أو . الذين حاول إعادتهم إلى الواقع، ويدخلون مرةً أخرى عالمَ الوهم.

تذكرتُ أنني اكتشفتُ قبل عدة أسابيع أن «ثيلما» تعرف . تعاقب الآخرين، ولم تكن بحاجة إلى مساعدتي في ذلك. أعتقد أ. عندما حاولت الانتحار كانت بالفعل تسعى لقتل «ماثيو»، وأعتقد الآ. أن قرارها بالتوقف عن العلاج كان أيضًا شكلًا من أشكال الجر.

المزدوجة. اعتبرَتْ «ثيلما» إنهاء التزامها بالعلاج هجومًا عليَّ، وكانت على حق! لقد أدركتْ مدى أهمية النجاح بالنسبة إليَّ، وإرضاء فضولي الفكري، والخوض في كل شيء حتى النهاية.

أرادت الانتقام مني من خلال إحباط كل هذه الأهداف، وغضَّت النظر عن حقيقةِ أن الطوفان الذي تمنَّتهُ لي قد يبتلعها هي أيضًا. في الواقع، كانت ميولها السادومازوخية (sadomasochistic) بارزةً جدًّا لدرجة أنها كانت منجذبةٍ إلى فكرة القربان المزدوج[1] (dual immolation). نوهتُ ممتعضًا بأن لجوئي إلى المصطلحات التشخيصية المهنية كان يعني أنني غاضبٌ منها غضبًا شديدًا.

حاولتُ استكشاف هذه الأفكار مع «ثيلما»: «أتفهَّم غضبك تجاه «ماثيو»، لكن أتساءل عما إذا كنتِ مستاءةً مني أيضًا؛ من المنطقي جدًّا أن تشعري بغضبٍ عارمٍ تجاهي، ربما تشعرين بشكل أو بآخر أنني أقف وراء محنتك هذه، دعوةُ «ماثيو» كانت فكرتي أنا، وأنا مَن اقترح أن تطرحي عليه تلك الأسئلة». رأيتها تومئ برأسها على ما أعتقد.

- «إذا كان الأمر كذلك يا «ثيلما»، أليس من الأفضل لنا أن نعالجه هنا والآن في جلسات العلاج؟».

أومأت «ثيلما» برأسها بشدة أكبر: «يقول لي حدسي إنكَ على حق. لكن على المرء أحيانًا أن ينفِّذ رغباته. لقد قطعت وعدًا على نفسي بألا أكون مريضةً تخضع للعلاج بعد الآن، وسأفي بهذا الوعد».

---

(1) طقس من طقوس التضحية كان شائعًا لدى بعض الشعوب القديمة، مثل «الأزتيك» في المكسيك. يُعرف أيضًا باسم: (double immolation). (المترجم).

استسلمتُ أمامها، كنت أواجه جدارًا أصمَّ! انتهتْ جلستنا منذ فترة طويلة، ولم أكن قد رأيت «هاري»، الذي وعدته بعشر دقائق من وقتي. قبل أن نفترق أنا و«ثيلما»، استطعتُ أن أحصل منها على بعض الالتزامات؛ وافقتْ على التفكير أكثر في قرارها ومقابلتي مرة أخرى في غضون ثلاثة أسابيع، ووعدتْني أن تلتزم بالمشروع البحثي من خلال الاجتماع بعد ستة أشهر مع الباحث النفسي، ومَلء مجموعةٍ من الاستبيانات. عند نهاية الجلسة، كنت أعتقد أنه على الرغم من أنها قد تفي بالتزامها بمشروع البحث، كانت فرصة استئنافها العلاج ضئيلة.

بعد أن أمسكتْ بانتصارها الباهظ الثمن في قبضتها، تحلَّتْ بالقليل من الكرم؛ شكرتني على جهودي وهي تغادر مكتبي، وقالت لي إنها إذا عادت إلى العلاج فسأكون أولَ معالج تلجأ إليه.

رافقتُ «ثيلما» إلى غرفة الانتظار، ومن ثم رافقت «هاري» إلى مكتبي، كان سريعًا ومباشرًا: «أعرف تمامًا معنى العمل وفق برنامج منضبط، يا دكتور، لقد فعلتُ ذلك في الجيش لمدة ثلاثين عامًا، وأرى أنك تعمل لوقتٍ متأخر، هذا يعني أنك ستتأخر طوال اليوم، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي لكنني أكَّدت له أن وقتي يسمح لي بمقابلته.

- «حسنًا، سيكون كلامي موجزًا؛ فأنا لست مثل «ثيلما»، لا أحب اللف والدوران، لذلك سأدخل في صلب الموضوع: أعِد زوجتي لي يا دكتور؛ «ثيلما» القديمة، كما عهدتها في السابق تمامًا».

لم يكن هناك تهديدٌ أو وعيدٌ في صوت «هاري»، بل كان يتوسَّل إليَّ. على أي حال، لقد حظيَ بانتباهي الكامل، وبينما كان يتحدث وجدتُ نفسي ألقي نظرة خاطفة على يديه الكبيرتين. تابع الكلام، وكانت نبرة اللوم

تظهر تدريجيًّا في صوته وهو يصف كيف ساء حال «ثيلما» تدريجيًّا، منذ أن بدأتُ أنا وهي بالعمل على علاجها. بعد أن سمعتُ كل ما لديه، حاولتُ تقديم بعض الدعم له؛ فقلت إن الاكتئاب المزمن يكاد يكون صعبًا على الأسرة والمريض على حدٍّ سواء. أجاب -متجاهلًا مناورتي- بأن «ثيلما» كانت دائمًا زوجةً جيدةً، وأنه ربما تسبَّب في تفاقُم مشاكلها لكثرة تنقُّله وأسفاره. أخيرًا، عندما أبلغتُه بقرار «ثيلما» بالتخلِّي عن العلاج، بدا مرتاحًا وراضيًا؛ لقد كان يحثها لفعل ذلك خلال الأسابيع الماضية.

بعد أن غادر «هاري» مكتبي، جلستُ هناك مرهقًا ومصعوقًا وغاضبًا. يا إلهي! يا لهما من زوجين! نجِّني مِن كليهما! يا للمفارقة العجيبة! ذلك العجوز الأحمق يريد ««ثيلما» كما عَهِدها مرة أخرى». هل كان «غائبًا» عنها لدرجة أنه لم يلحظ أن «ثيلما» القديمة لم تكن يومًا بحوزته؟ وأنها لم تكن في المنزل قط؟ على مدى السنوات الثماني الماضية، أمضت «ثيلما» تسعين بالمئة من حياتها تائهةً في خيالاتها، معتقدةً أنها في حالة حبٍّ لم يكن لها وجودٌ من الأساس. لقد قرَّر «هاري» -الذي لا يقل شأنًا عن «ثيلما»- اعتناق الوهم! يسأل «ثيربانتس»: «أيهما ستختار؛ الجنون الحكيم أم العقل السليم الأحمق؟» كان خيار «هاري» و«ثيلما» واضحًا جدًّا!

لكنني شعرتُ بالقليل من العزاء من تحميل «ثيلما» و«هاري» مسئولية ما حصل، أو من رثاء هشاشة الروح البشرية؛ ذلك الشبح الضعيف العاجز عن النجاة من دون الأوهام والافتتان أو أضغاث أحلام أو خداع الذات. لكن توجَّب عليَّ مواجهة الحقيقة؛ لقد أخفقتُ في هذه الحالة إخفاقًا مروِّعًا، ولم يكن من الصواب إلقاء اللوم على المريضة أو زوجها أو الوضع البشري.

كانت الأيام القليلة التالية مليئةً بتأنيب الضمير والقلق بشأن «ثيلما»، في البداية قلقتُ بشأن إقدامها على الانتحار، لكني هدأتُ في النهاية لأنني أعرف أن غضبها كان علنيًا وموجهًا نحو العالم الخارجي على نحو واضح جدًا، لدرجة أنه من غير المحتمل أن توجِّهه ضد ذاتها.

سعيًا وراء مكافحة تأنيب الضمير، حاولتُ إقناع نفسي بأن الإستراتيجية العلاجية التي لجأتُ إليها كانت مناسبة؛ حيث كانت «ثيلما» بالفعل حالة حرجةٍ جدًا عندما استشارتني، وكان لا بد أن أقوم بشيءٍ ما. كانت في وضع سيئ الآن، هذا صحيح، إلا أنها ليست بحالٍ أسوأ مما كانت عليه عندما أتت إليَّ. ومن يدري؟ ربما هي بحال أفضل؛ ربما نجحتُ في نزع أوهامها وأصبحَتْ تحتاج إلى مواساةِ نفسها بمعزل عن الآخرين لفترةٍ ما، قبل الشروع في أي شكل من أشكال العلاج مجددًا. لقد ... نهجًا متحفظًا لمدة أربعة أشهر ولم ألجأ إلى إجراء تدخلٍ جذريٍ إلا عندما اتَّضح لي أنه الخيار الوحيد المتبقي لديَّ.

لكن هذا كله ليس إلا خداعًا للذات؛ كنت أعرف أن شعوري بالذنب لم يأتِ من فراغ، لقد وجدتُ نفسي مرة أخرى ضحيةً لاعتقادي المبالغ فيه بأنني قادرٌ على علاج أي أحد، كنتُ قد أعماني الفضول والكبرياء. تجاهلتُ منذ البداية عشرين عامًا من الأدلة التي تشهد على أن «ثيلما» لم تكن أهلًا لتلقِّي العلاج النفسي، وأخضعتُها لمواجهةٍ مؤلمة، وبا... إلى الوراء، اتَّضح لي أن فرص نجاح هذه المواجهة كانت ضئيلة؛ كنتُ ... جرَّدتُها من دفاعاتها من دون بناء أي شيء ليحلَّ محلها.

ربما كانت «ثيلما» على حق بشأن حماية نفسها مني في هذه المرحلة، ربما كانت محقة في قولها إن «المزيد من العلاج قد يقتل المريض!» بشكل عام، أستحققت انتقادات «ثيلما» و«هاري»، إضافةً إلى أ...

أحرجتُ نفسي مهنيًا؛ إذ إنني كنت منذ أسبوعين في مؤتمرٍ تعليمي، ورحتُ أصف جلسات «ثيلما» العلاجية، وأثار ذلك اهتمام الحضور كثيرًا. أصْغُرُ أمام نفسي الآن عندما أفكر في احتمالية أن يقول لي الزملاء والطلاب في الأسابيع القادمة: «أطلِعنا على آخر المستجدات، إلى ماذا آلت الأمور؟».

كما توقعت، لم تلتزم «ثيلما» بموعدها التالي بعد ثلاثة أسابيع؛ فاتصلتُ بها وجَرَت بيننا محادثة قصيرة ومهمة، مع أنها كانت مُصرَّة على ترك عالم العلاج، شعرتُ بأن نبرة الضغينة انحسرت قليلًا عن صوتها. قالت لي، من دون أن أسألها، إنها لم تتوقف عن العلاج فحسب، لكنها لم تعُد بحاجة إليه؛ لقد كانت تشعر بتحسُّن كبير، أفضل بكثير مما كانت عليه قبل ثلاثة أسابيع! أخبرَتني بصورة عابرة أنها رأت «ماثيو» بالأمس، وأن ذلك ساعدها على نحو لا يمكن وصفه!

فسألتها: «ماذا؟ «ماثيو»؟ كيف حدث ذلك؟».

- «أوه، لقد تناولنا القهوة ودار بيننا حديث لطيف، اتفقنا على الاجتماع كل شهر تقريبًا لكي ندردش سويًّا».

أصابتني نوبة فضول وطلبتُ منها تفاصيلَ دقيقة. في البداية، تقصَّدت إغاظتي بردِّها («قلتُ لك منذ البدء إن هذا ما كنت أحتاجه»)، ثم قالت لي ببساطة إنه لا يحقُّ لي توجيه أسئلة شخصية لها بعد اليوم. أدركتُ أنها لن تخبرني بالمزيد من المعلومات، فودَّعتها الوداع الأخير؛ قلت لها -بحكم التقاليد- إنني مستعدٌّ لاستقبالها دائمًا إذا غيرتْ رأيها يومًا ما، لكن كان واضحًا أنها لم تستطع تقبُّل نهجي العلاجي على الإطلاق، وفقدت التواصل معها بعد هذا اليوم.

بعد مرور ستة أشهر، أجرى فريق البحث مقابلةً مع «ثيلما»، وكرَّرَ مجموعة التجارب النفسية. عندما صدر التقرير النهائي للبحث، سارعتُ

إلى قراءة حالة «ثيلما هيلتون» كما عرضوها: «باختصار: ث. ه. هي امرأة قوقازية متزوجة تبلغ من العمر سبعين عامًا، ونتيجةً لبرنامج علاجيّ امتدّ إلى خمسة أشهر، بمعدل جلسةٍ واحدة أسبوعيًّا، كانت قد تحسَّنت تحسنًا ملحوظًا. في الواقع، من بين ثمانية وعشرين شخصًا مسنًّا من المشاركين في هذه الدراسة، كانت نتيجتها الأكثر إيجابية.

تضاءل اكتئابها تضاؤلًا ملحوظًا، وبالنسبة لميولها الانتحارية -التي كانت شديدة للغاية في البداية- فقد انحسرت كثيرًا، ولم تعد «ثيلما» تُصنف على أنها شخصٌ انتحاري. تحسَّنَ شعورها باحترام الذات، وكان هناك أيضًا تحسُّن كبير موازٍ في عدة مقاييس أخرى، مثل القلق، والهُجاس، والذهان، والسلوك الوسواسي.

لم يتمكن فريق البحث من تحديد طبيعة العلاج الذي أدى إلى هذه النتائج المدهشة؛ لأن المريضة كانت كَتومة لأسباب مجهولة بشأن تفاصيل هذا العلاج. يبدو أن المعالج نجح في اتباع خطةٍ علاجيةٍ فعَّالة مرتكزة على الأعراض من أجل توفير الراحة للمريض، بدلًا من السعي وراء التبصُّر العميق أو تغيير الشخصية. بالإضافة إلى ذلك، استخدم المعالج بشكل فعال نهجَ علاجِ الأنظمة الأُسرية (systems approach) وأشرك في عملية العلاج كلًّا من زوجها وأحد أصدقائها المخلصين (الذي كان بعيدًا عنها منذ فترة طويلة)».

يا للغِبطة! بشكل أو بآخر، منحتني هذه المعلومات القليل من الراحة.

2

لو كان الاغتصاب قانونيًّا ...

«إن مريضَك شخص أخرق تافه، وقد أخبرتُه بذلك في أثناء العلاج الجماعي الليلة الماضية، مستخدمةً هذه الكلمات تحديدًا». صمتَت هنا «سارة»، طالبةُ الطب النفسي المقيمة الشابة، وحدقَت بي متحديةً إيايَ على انتقادها.

من الواضح أن شيئًا استثنائيًّا كان قد حدث؛ فلستُ معتادًا على دخول طالبة إلى مكتبي بلا استئذان من دون أن يبدو عليها الانزعاج -طبعًا كانت فخورًا وجريئة- لتخبرني بأنها اعتَدَت لفظيًّا على أحد مرضايَ، خاصة عندما يتعلق الأمر بمريض مصاب بسرطان مستعصٍ.

- «حبذا لو جلستِ لكي تخبريني عما جرى يا «سارة». لديَّ بضع دقائق قبل وصول مريضي التالي».

شرعت «سارة» في الحديث وهي تبذل قصارى جهدها للحفاظ على هدوئها: «إن «كارلوس» هذا هو أوضع وأحقر إنسان قابلته في حياتي!».

- «حسنًا، كما تعلمين أنا أيضًا لا أفضِّله كثيرًا. لقد أخبرتك بذلك قبل أن أحيله إليك». كنت قد عالجت «كارلوس» في جلسات العلاج الفردية لمدة ستة أشهر تقريبًا، وقمت قبل بضعة أسابيع بإحالته إلى «سارة» لكي تُدرِجه في برنامج العلاج الجماعي الخاص بها. «على أي حال تابِعي، واعذريني على مقاطعتك».

- «بشكل عام، تصرفات «كارلوس» بغيضة جدًا. يتشمَّم النساء كما لو كان كلبًا وهنَّ كلبات في موسم التزاوج، ويتجاهل كل شيء آخر يحدث في المجموعة. الليلة الماضية تحدثت «مارثا» -وهي شابة هشَّة بشخصية حَدِّيَّة[1] (borderline personality)، وكانت قد التزمت الصمت طوال الوقت تقريبًا في المجموعة- عن تعرضها للاغتصاب العام الماضي. لا أعتقد أنها أخبرت أحدًا بذلك من قبلُ، ناهيك بالمجموعة. كانت خائفة جدًّا، وانهمرت دموعها بشدة، وواجهَت صعوبة كبيرة في الحديث عن هذا الأمر. كانت تتألم بشكل لا يُصدَّق. حاوَل الجميع مساعدتها على التحدث. وسواء أكان من الصواب أم كان من الخطأ، أخبرتُ المجموعة أنني تعرَّضتُ للاغتصاب قبل ثلاث سنوات عسى أن أهوِّن الأمر على مارثا».
- «لم يكن عندي علم بذلك يا «سارة»».
- «لم يكن أي أحد يعلم ذلك من قبلُ!».

صمتَت «سارة» هنا لبرهة وفرَكت عينيها. كان جليًّا أنها واجهت صعوبة في إخباري بهذا، لكني لم أستطع في تلك اللحظة أن أحدد أي أمر كان أسوأ بالنسبة إليها؛ إخباري بالاغتصاب، أم بَوْحها بمكنوناتها المبالغ فيه أمام مجموعتها. (لا شك في أن الوضع ازداد تعقيدًا بالنسبة إليها لأنني كنت أنا مدرب العلاج الجماعي في البرنامج)، أم إنها كانت مستاءة للغاية لأنها اضطرت إلى أن تقصَّ عليَّ بقية الحادثة؟ قررت أن أتعامل مع الأمر بموضوعية.

---

(1) يعاني صاحب الشخصية الحَدِّيَّة من مزاج متقلِّب وعواطف شديدة وسلوك متهوِّر والخوف من العزلة والهجر. (المترجم).

- «وماذا حدث بعد ذلك؟».

- «قرر «كارلوس» الخاص بك حشر أنفه في المحادثة».

«كارلوس» الخاص بي! يا للسخافة! تتكلم كما لو أنه طفلي وعليَّ أن أتحمل مسئولية أفعاله. (صحيح أنني شجَّعت «سارة» على قبوله؛ فقد كانت مترددة بشأن إدخال مريض مصاب بالسرطان إلى مجموعتها، ولكن عدد المرضى في مجموعتها انخفض إلى خمسة فقط، وكانت بحاجة إلى أعضاء جدد). كانت تتصرف بلا عقلانية وبأسلوب متحدٍّ جدًّا. لم يسبق لي أن رأيتها بهذا الشكل. كنتُ أخشى أن تشعر بالإحراج الشديد من تصرفاتها لاحقًا، ولم أشأ أن أزيد الطين بلَّةً بانتقادها بأي شكل من الأشكال.

- «ما الذي فعله؟».

- «راح يسأل «مارثا» عن الكثير من تفاصيل الحادثة؛ متى، وأين، وماذا، ومن. في البداية ساعدها ذلك على التحدث، ولكن بمجرد أن تحدَّثتُ عن الهجوم الذَي تعرَّضتُ له، تجاهل «مارثا» وبدأ يفعل الشيء ذاته معي، ثم صار يطلب منا أن نخبره عن تفاصيل أكثر حميمية؛ هل مزَّق المغتصب ملابسنا؟ هل قذف بداخلنا؟ هل استمتعنا في أي لحظة من اللحظات بالاغتصاب؟ سأل كل هذه الأسئلة بشكل خبيث جدًّا، فكان هناك فارق زمنيٌّ قبل أن تبدأ المجموعة أن تتنبَّه إلى أن هذا الموضوع كان يستثيره. لم يأبه البتة بي وبـ «مارثا». كان يسعى وراء إشباع خيالاته الجنسية فحسب. أعلم أنه يجب عليَّ أن أشعر بمزيد من التعاطف تجاهه، لكنه شخص منحرف!

- «وكيف انتهى الأمر؟».

- «فعل أفراد المجموعة الأمر الصواب أخيرًا وواجهوه بانعدام حساسيته، لكن لم تظهر عليه علامات الندم إطلاقًا، بل أصبح أكثر عدائية، واتهم «مارثا» وأتهمني (وجميع ضحايا الاغتصاب) بأننا نبالغ كثيرًا في هذا الأمر، وسألنا: «لماذا تُضخِّمن القضية بهذا الشكل؟» ثم زعم أنه لا يمانع أن تقوم امرأة جذابة باغتصابه. كانت ملاحظته الأخيرة للمجموعة هي أنه يرحب بمحاولة اغتصاب مِن قِبَل أي امرأة في المجموعة، فقلت له عندها: «إذا كنت تعتقد ذلك فعلًا، فأنت جاهل سخيف!».

- «ألم تقولي أن تدخُلك العلاجي كان وصفه بالأخرق التافه؟» خفَّف ذلك من توتر «سارة»، وابتسمنا.

- «قلتُ هذا أيضًا! لقد فقدتُ صوابي حقًّا».

حاولت جاهدًا العثور على كلمات داعمة وبنَّاءة، لكن كلماتي بدَت متحذلقة جدًّا بعكس ما كنت أطمح إليه. «تذكَّري، يا «سارة»، أنه غالبًا ما تكون هذه المواقف الحرجة نقاط تحوُّل مهمة إذا تم التعامل معها بعناية؛ إذ إن كل شيء يحدث خلال العلاج يمكن أن يعود بفائدة عليه. دعينا نحاول تحويل هذه الحادثة إلى تجربة تعليمية له. سألتقيه غدًا، وسأعمل على ذلك بجدٍّ، لكنني أريدك أن تعتني بنفسك. سأكون متاحًا إذا كنتِ تريدين أن تتحدثي إلى أحدهم، في وقت لاحق اليوم أو في أي وقت من هذا الأسبوع».

شكرتني «سارة» وقالت إنها بحاجة إلى وقت للتفكير في الأمر. عندما همَّت بمغادرة مكتبي قلتُ لها إنها حتى إذا قررت التحدث عن مشكلاتها الخاصة مع شخص آخر، فسأحاول مقابلتها لاحقًا عندما تستعيد رباطة جأشها لكي نرى إذا ما كان بإمكاننا جعل هذه تجربة تعليمية لها أيضًا. لا

بد أنها عانت الويلات مما حدث، وشعرتُ بالأسى تجاهها، لكن بدَا لي أنها أخطأت عندما حاولت الاستيلاء على جلسة علاج المجموعة لنفسها. رأيتُ أنه كان من الأفضل لها أن تتعامل مع هذا الأمر أولًا في جلسات علاجها الشخصية، وبعد ذلك، إذا كانت لا تزال تريد التحدث عنه في المجموعة -وهو خيار يمثِّل مشكلة كبيرة- فستتمكن من معالجة القضية بشكل يصبُّ في مصلحة جميع الأطراف المعنية.

ثم دخلَت مريضتي التالية، ووجَّهتُ انتباهي إليها، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من التفكير في «كارلوس»، وتأملت في كيفية التعامل معه في جلسته التالية. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتسلل فيها «كارلوس» إلى ذهني؛ فهو مريض غير عادي، ومنذ أن بدأت علاجه قبل بضعة أشهر لم يقتصر تفكيري فيه على الساعة أو الساعتين اللتين كنت أقضيهما في حضوره خلال الأسبوع.

««كارلوس» قطة بتسع أرواح، لكن يبدو الآن أنه يقترب من نهاية حياته التاسعة». كان هذا أول شيء قاله لي طبيب الأورام الذي أحاله إلى العلاج النفسي، وتابَع موضحًا أن «كارلوس» كان يعاني من سرطان نادر بطيء النمو أصاب غُدده الليمفاوية، وقد تسبَّب له الورم في العديد من المشكلات بسبب حجمه الهائل، وليس بسبب خبثه. تجاوب الورم بشكل جيد مع العلاج على امتداد عشر سنوات، ولكنه غزا رئتيه الآن وصار يؤثر على قلبه أيضًا. كان أطباؤه تنفد الخيارات منهم؛ لقد وصفوا له التعرض لأقصى درجات الإشعاع، واستنزفوا كل عوامل العلاج الكيميائي (chemotherapy agents) الواردة في دستور الأدوية. لقد سألوني إلى أيِّ مدًى يجب أن يتحلوا بالصدق معه؛ إذ بدَا أن «كارلوس» لم يُصغِ إليهم. لم يكونوا متأكدين إذا كان «كارلوس» سيصير متصالحًا مع

نفسه، لكنهم علموا أنه يعاني من اكتئاب شديد وأنه ليس لديه أحد يُمكنه اللجوء إليه للحصول على الدعم.

كان «كارلوس» يعيش في عزلة بالفعل. بصرف النظر عن ابنه وابنته اللذين يبلغان من العمر سبعة عشر عامًا -توءمان غير متطابقين يعيشان مع زوجته السابقة في أمريكا الجنوبية- وجد «كارلوس» نفسه في سن التاسعة والثلاثين وحيدًا تقريبًا في هذا العالم. نشأ طفلًا وحيدًا لأهله في الأرجنتين. تُوُفِّيَت والدته في أثناء ولادته، وقبل عشرين عامًا استسلم والده لسرطان الغُدد الليمفاوية ذاته الذي كان يَفْتِكُ بحياة «كارلوس» الآن. لم يكن لديه أي صديق ذَكَر. «لست بحاجة إليهم»، قال لي ذات مرة. «كل الذين قابلتهم كانوا مستعدين دائمًا للتظاهر بأنهم لا يعرفونني مقابل الحصول على دولار واحد أو وظيفة أو ليلة عابرة مع أنثى». لم يتزوج إلا لفترة وجيزة، ولم يَحظَ بأي علاقات عميقة أخرى مع النساء. «لا يمارس الجنس مع امرأة واحدة أكثر من مرة سوى المجانين!» أخبَرني دون أي خجل أو دليل على وعيه الذاتي أن هدفه في الحياة هو ممارسة الجنس مع أكبر عدد ممكن من النساء.

في لقائنا الأول لم أتمكن من استساغة شخصية «كارلوس»، أو حتى مظهره الجسدي. كان هزيلًا ومليئًا بالنتوءات (مع تضخم الغُدد الليمفاوية في المرفقين والرقبة وخلف أذنيه بشكل واضح جدًّا)، ونتيجة للعلاج الكيميائي كان قد فقد كل شعرة على جسده. وكانت جهوده التجميلية المثيرة للشفقة -قبعة «بَنَما» (Panama) العريضة الحافات، والحواجب المرسومة، والوشاح الذي ارتداه من أجل إخفاء التورُّمات في رقبته- سببًا في جذب انتباه الآخرين إليه بشكل غير مرغوب فيه.

من الواضح أنه كان يعاني من الاكتئاب -لسبب وجيه- وكان يتحدث بمرارة وسأم عن محنته المستمرة منذ عشر سنوات مع السرطان. قال لي إن سرطان الغُدد الليمفاوية كان يقتله على دفعات؛ فقد تمكّن بالفعل من قتل معظم كيانه؛ طاقته وقوته وحريته (كان عليه أن يعيش بالقرب من مستشفى «ستانفورد»، منفيًا كليًا من وسطه الثقافي).

والأهم من ذلك كله، قال إن السرطان قد قتل حياته الاجتماعية (يقصد حياته الجنسية)؛ فعندما كان يخضع للعلاج الكيميائي كان عاجزًا جنسيًا، وعندما أنهى دورة العلاج الكيميائي وعادت إليه رغباته الجنسية، لم ينجح في جذب أي امرأة بسبب صلَعه، وحتى عندما نما شعره مرة أخرى بعد أسابيع قليلة من انتهاء العلاج الكيميائي، قال إنه كان لا يزال غير قادر على إحراز أي تقدم في نشاطه الجنسي، حتى إن العاهرات رفضنه لأن تضخم الغُدد الليمفاوية جعلهن يعتقدن أنه مصاب بالإيدز. اقتصرت حياته الجنسية الآن بالكامل على الاستمناء في أثناء مشاهدة أشرطة الفيديو السادومازوخية المستأجَرة.

أخبَرني، بعد أن دفعتُه إلى ذلك، أنه كان معزولًا. نعم وصحيحٌ أن هذا كان يشكِل معضلة بالنسبة إليه، ولكن فقط لأنه كان أحيانًا أضعف من أن يهتم باحتياجاته الجسدية. بدَت فكرة المتعة المستمدة من التواصل الوثيق (غير الجنسي) مع البشر غريبة عليه، باستثناء التواصل مع ابنه وابنته فقط. وعندما تحدَّث «كارلوس» عنهما برزت العاطفة الحقيقية لديه بشكل واضح جدًا؛ تلك العاطفة التي يمكنني التضامن معها. لقد تأثرتُ بمشهد جسده الهزيل وهو ينهمر بالبكاء عندما كان يصف خوفه من أن يقوما هما أيضًا بالتخلي عنه؛ أن تنجح والدتهما أخيرًا في دسِّ سمها فيهما لينقلبا ضده، أو أن ينفرا من السرطان ويبتعدا عنه.

- «كيف يمكنني مساعدتك يا «كارلوس»؟».

- «إذا كنت تريد مساعدتي فعلِّمني كيف أكره «الأرماديلو»!».

لِلَحظة استمتع «كارلوس» بالحيرة التي عَلَت محيَّايَ، ثم شرع في شرح قصده. كان يمارس التصوير البصري (visual imaging)، وهو شكل من أشكال الشفاء الذاتي الذي يحاول العديد من مرضى السرطان اتباعه. تمثَّلت المجازات البصرية التي لجأ إليها في علاجه الكيميائي الجديد في حرفَي «د» و«خ» الهائلَي الحجم (أشار أطباء الأورام الخاصون به إلى هذه المجازات بـ «د. خ.») نسبة إلى الدببة والخنازير. كان قد تصوَّر عُقَده الليمفاوية السرطانية الصلبة على أنها حيوان «أرماديلو» مصفَّح. وهكذا، قام خلال جلسات التأمل الخاصة به بتصور الدببة والخنازير تهاجم «الأرماديلو»، لكنه واجه صعوبة في جعل دببته وخنازيره أشرارًا بما فيه الكفاية لتمزيق «الأرماديلو» وتدميره.

بصرف النظر عن سرطانه المرعب وروحه المخنوقة، انجذبتُ إلى «كارلوس»؛ ربما لأن الكرم كان يتدفق مني لدى ارتياحي لأنه هو، ولست أنا، الذي كان يُحتضَر، ربما بسبب حبه لأطفاله، أو الهيئة الحزينة التي أمسك بها يديَّ بكلتا يديه عندما كان يغادر مكتبي، أو ربما بسبب الغرابة في طلبه: «علِّمني كيف أكره «الأرماديلو»».

لذلك، عندما كنت أفكر إذا ما كان بإمكاني علاجه قلَّلتُ من العراقيل التي يمكن أن تعيق سَيْر العلاج وأقنعتُ نفسي بأنه كان شخصًا تنقصه التنشئة الاجتماعية (unsocialized) أكثر من كونه معاديًا للمجتمع (antisocial) بشكل خبيث، وأن العديد من سماته ومعتقداته المؤذية كانت ليِّنة العريكة وقابلة للتعديل. لم أفكِّر في قراري مليًّا، وحتى بعد أن عزمتُ أمري على قبول علاجه كنت لا أزال غير متأكد من الأهداف

المناسبة والواقعية لهذا العلاج. هل سأكتفي بمساعدته على خوض العلاج الكيميائي؟ (حال «كارلوس» هو حال العديد من المرضى، فَتَكَ المرض به وأصبح يائسًا في أثناء العلاج الكيميائي). أو، بفرض أنه كان على وشك الدخول في حالةٍ عُضال، فهل سألتزم بالوقوف بجانبه إلى أن يموت؟ هل سأكون راضيًا عن نفسي إذا اكتفيتُ بالوجود بقربه وتقديم الدعم له؟ (قد يكون ذلك كافيًا. يعلم الله أنه لم يكن لديه أي شخص آخر للتحدث معه!) طبعًا كانت عزلته مِن صُنْعه، لكن هل كنت سأساعده على التنبُّه إلى هذا الأمر أو تغييره؟ الآن؟ بدَت أفكاري هذه غير جوهرية في مواجهة الموت، لكن مهلًا، هل كان من الممكن أن يستطيع «كارلوس» إنجاز شيء ما أكثر «طموحًا» خلال العلاج؟ كلا، كلا، كلا! بأي منطق أفكِر في تقديم علاج «طموحٍ» لشخص قد يفارق الحياة، في أحسن الأحوال، بعد بضعة أشهر؟ مَنْ منا يرغب في استثمار الوقت والطاقة في مشروع مبنيٍّ على التلاشي والزوال؟

وافق «كارلوس» بلا تردد على مقابلتي. قال لي بأسلوبه الساخر المعتاد إن عقد التأمين الخاص به سيتكفل بدفع تسعين في المئة من رسومي، وإنه ما كان لِيرفض صفقة كهذه. إلى جانب ذلك، كان «كارلوس» يحب تجربة كل شيء مرة واحدة، ولم يسبق له أن تحدَّث إلى معالج نفسي. لم أوضح تفاصيل عقد العلاج بيني وبينه بشكل كامل، واكتفيتُ بقولِ إن وجود شخص يشاطرنا المشاعر والأفكار المؤلمة هو أمر مفيد دائمًا. اقترحتُ أن نلتقي ست مرات، ثم يمكننا أن نُقيِّم إذا ما كان العلاج يستحق العناء.

فاجأني «كارلوس» كثيرًا لأنه استطاع أن يستفيد من العلاج بامتياز. اتفقنا بعد ست جلسات على الاجتماع وفق برنامج علاجي مستمر. كان يأتي إلى كل جلسة بقائمة من القضايا التي كان يريد مناقشتها، مثل الأحلام والمشكلات المهنية (فقد كان محللًا ماليًا ناجحًا، وأراد أن يستمر في العمل طوال فترة مرضه). تحدَّث في بعض الأحيان عن آلامه الجسدية وكُرهه للعلاج الكيميائي، ولكن الأهم من ذلك كله هو أنه تحدَّث عن النساء والجنس، فكان يصف في كل جلسة جميع النساء اللواتي رآهن في ذلك الأسبوع (غالبًا كان الأمر يقتصر على جذب انتباه امرأة في متجر البقالة)، وتصوَّر بشكل هَوَسيَ الأفعال التي كان يمكن له أن يقوم بها لكي يبني علاقة مع هؤلاء النساء في كل حالة من تلك الحالات. كان يشغل نفسه كثيرًا بالتفكير في النساء، لدرجة أنه نسي إصابته بسرطانٍ نَشِطٍ كان يتسلل إلى جميع أرجاء جسده. كان هذا على الأرجح هو الهدف من وراء انهماكه في النساء، أي إنه ربما يستطيع نسيان السرطان المتفشي.

لكن هوَسه الراسخ بالنساء سبق إصابته بالسرطان بفترة طويلة. كان دائمًا يتصيَّد النساء ويفكر فيهن بطريقة جنسية مهينة للغاية، لذا فإن ما روته «سارة» عما فعله «كارلوس» خلال علاج المجموعة لم يدهشني، بصرف النظر عن أنه كان أمرًا صادمًا. كنت أعرف أنه قادر تمامًا على التصرف بهذا الشكل الشائن، وقد يفعل ما هو أسوأ من ذلك.

لكن كيف سأتعامل مع هذا الموقف في جلسته القادمة؟ فقَبْلَ كلِّ شيء كنت أرغب في حماية علاقتنا والحفاظ عليها. كنا قد أحرزنا بعض التقدم، وكنتُ أمثِّل العلاقة الإنسانية الأبرز في حياته، لكن كان من المهم أيضًا أن يستمر في حضور العلاج الجماعي. كنت قد وضعته في مجموعة قبل ستة أسابيع لكي أزوِّده ببيئة مجتمعية من شأنها أن تساعده على كسر

عزلته وأن تساعده أيضًا، من خلال تحديد بعض سلوكياته المكروهة اجتماعيًا وحثِّه على تغييرها، على إنشاء العلاقات في حياته الاجتماعية. خلال الأسابيع الخمسة الأولى استفاد «كارلوس» بشكل رائع من وجوده في المجموعة، ولكنني كنت متأكدًا من أنه سينفِّر جميع أعضاء المجموعة منه دونما رجعة ما لم يُغيِّر سلوكه بشكل كبير، وأخشى أن يكون قد فعل ذلك حقًّا!

بدأت جلستنا التالية بشكل عادي جدًّا، حتى إن «كارلوس» لم يذكر المجموعة. بدلًا من ذلك، أراد التحدث عن «روث» (Ruth)، وهي امرأة جذابة التقاها قريبًا خلال مناسبة في الكنيسة. (كان عضوًا في ست كنائس، لأنه كان يرى أن هذا الأمر سيوفر له فرصًا مثالية للتعرف على النساء). تحدَّث مع «روث» لفترة وجيزة قبل أن تستأذنه في المغادرة لأنها اضطرت إلى العودة إلى المنزل. ودَّعها «كارلوس»، لكنه أقنع نفسه لاحقًا بأنه فوَّت فرصة ذهبية عندما لم يعرض عليها مرافقتها إلى سيارتها. في الواقع، لقد أقنع نفسه بأنه ثمة فرصة كبيرة، ربما بنسبة خمسة عشر في المئة، لأن يتزوجها. راح يلوم نفسه طوال الأسبوع لأنه لم يتصرف بسرعة أكبر، واشتمل ذلك على اعتداءات لفظية على نفسه وإيذائه لجسده، حيث قرص لحمه وضرب رأسه بالحائط.

لم أوجِّه تركيزي نحو مشاعره تجاه «روث» (على الرغم من أنها كانت مشاعر غير عقلانية إلى حدٍّ كبير، فقررتُ تناولها لاحقًا في مرحلة ما) لأن الموضوع المُلحّ في رأيي كان مجموعة العلاج. أخبرته أنني تحدثتُ مع «سارة» عن ذلك الاجتماع. سألته: «هل كنت ستتحدث عن المجموعة اليوم؟».

- «كلا، لا أظن ذلك. هذا ليس مهمًا. على أي حال، لن أرتاد جلسات تلك المجموعة بعد اليوم. أنا أتفوق عليهم بمراحل».
- «ماذا تقصد؟».
- «جميعهم يفتقرون إلى الصدق ويمارسون الألاعيب هناك. لا أحد سوايَ يتحلى بما يكفي من الشجاعة لقول الحقيقة أمامهم. الرجال في المجموعة فاشلون، وإلا لما ارتادوا تلك الجلسات. إنهم حمقى جبناء، يجلسون ويتذمرون ولا يقولون أي شيء».
- «أخبِرني بما حدث في الاجتماع من وجهة نظرك».
- «تحدثَت «سارة» عن الاغتصاب. ألم تخبرك بذلك؟».

أومأتُ برأسي.

««مارثا» أيضًا. يا إلهي! يا لها من حالة استثنائية! إنها مضطربة ومريضة بكل معنى الكلمة. إنها مجنونة بحق، وتتناول المهدئات. ما هدف وجودي في مجموعة تحوي أشخاصًا مثلها على أي حال؟ لكن أَصغِ إليَّ. المهم في الأمر هو أنهما تحدثتا عن الاغتصاب، كلتاهما، وجلَس الجميع هناك بصمت وأفواه فاغرة ووجوه مشدوهة. لقد تجاوبتُ معهما على الأقل، وطرحتُ عليهما الأسئلة».

- «قالت «سارة» إن بعض أسئلتك لم تكن مفيدة».
- «كان لا بد أن يقوم أحدنا بحملهما على التحدث. إلى جانب ذلك، لطالما انتابني الفضول حول موضوع الاغتصاب. ألستَ مثلي؟ أليس كل الرجال كذلك؟ ألسنا فضوليين حول كيفية القيام بالأمر وحول تجربة ضحية الاغتصاب؟».

- «أوه، بالله عليك يا «كارلوس»! إذا كان هذا فعلًا ما كنتَ تبحث عنه فكان بوسعك أن تجده في كتاب ما، لكنك كنت تتعامل مع فتاتين حقيقيتين هناك، وهما ليستا مصادر للمعلومات. لا بد أنك كنت تسعى وراء شيء آخر».

- «ربما، وأعترف بذلك. عندما صرتُ جزءًا من المجموعة كانت تعليماتك لي هي أنني يجب أن أشاطر أعضاء المجموعة مشاعري بصراحة. صدِّقني، أقسم لك إنني كنت الشخص الوحيد الصادق في المجموعة خلال الاجتماع الأخير. لقد أثارني الموضوع، أعترف بهذا. كان أمرًا رائعًا أن أتصور «سارة» تتعرض للاغتصاب؛ أتمنى لو كنت موجودًا لكي أضع يديَّ على ثدييها. لم أسامحكَ بعدُ على منعي من مواعدتها». عندما انضمَّ إلى المجموعة أول مرة قبل ستة أسابيع تحدَّث بإسهاب عن افتتانه بـ «سارة» -أو بالأحرى بثدييها- وكان مقتنعًا بأنها ستكون على استعداد لمواعدته. لكي أساعد «كارلوس» على الاندماج في المجموعة قمتُ في الاجتماعات الأولى بتدريبه على السلوك الاجتماعي المقبول. تمكّنتُ من إقناعه بصعوبة أن التعامل مع «سارة» بشكل جنسيٍّ سيكون عديم الجدوى ومخلًّا بالحياء.

«لا تنسَ أيضًا أنه ليس سرًّا أن الرجال يُستثارون من الاغتصاب، وقد رأيتُ الرجال الآخرين في المجموعة يبتسمون في وجهي. خذ صناعة الأعمال الإباحية على سبيل المثال؛ هل سبق لك أن ألقيت نظرة من كثب على الكتب وأشرطة الفيديو حول الاغتصاب أو المازوخية؟ قم بذلك! اذهب لزيارة المتاجر الإباحية في حي «تندرلوين» (Tenderloin)، ستكون بمنزلة تجربة تعليمية جيدة بالنسبة إليك. لا بد أنهم يطبعون هذه

المواد لشريحة معينة، لا بد أن هناك سوقًا ما مستهدفًا بها. سأقول لك الحقيقة؛ لو كان الاغتصاب قانونيًا لمارسته بكل تأكيد، من حين لآخر».

صمَت «كارلوس» هنا وابتسم ابتسامة متعجرفة في وجهي، أم إنه كان يحرِّضني بنظرته تلك على سبيل دعوتي لكي أنضم بصحبته إلى أخوية المغتصبين؟

جلستُ صامتًا لعدة دقائق وأنا أحاول تحديد الخيارات المتاحة أمامي. أتفقُ مع «سارة» بكل تأكيد؛ فقد بدَا فاسد الأخلاق بالفعل. مع ذلك، كنت مقتنعًا بأن جزءًا من تصرفاته كان شكلًا من أشكال التبجُّح، وبأن هناك سبيلًا للتوصل إلى شيء أفضل وأسمى بداخله. كنتُ ممتنًّا لكلماته الأخيرة ومهتمًّا بها: «من حين لآخر». شعرتُ أن هذه الكلمات التي أضافها -بعد التفكير قليلًا- كانت تشير إلى أنه لا يزال لديه بقايا من الوعي الذاتي أو الشعور بالخجل.

«أنت تفخر بتحلِّيك بالصدق في المجموعة يا «كارلوس»، لكن هل كنت صادقًا حقًّا؟ أو ربما كنتَ صادقًا جزئيًا؟ أو إنك لم تبذل الجهد في صدقك؟ صحيح أنك كنت أكثر صراحةً من الرجال الآخرين في المجموعة. لقد عبَّرتَ عن بعض مشاعرك الجنسية الحقيقية، وأنت محق بشأن مدى انتشار هذه المشاعر؛ لا بد أن صُنَّاع الأعمال الإباحية يقدمون شيئًا يروق لبعض الدوافع الموجودة لدى جميع الرجال.

لكن هل أنت صادق تمامًا؟ ماذا عن كل تلك المشاعر الأخرى التي تدور بداخلك والتي لم تُفصِح عنها؟ دعني أخمن شيئًا ما: عندما قلتَ لـ «سارة» و«مارثا» إنهما «تضخِّمان قضية» اغتصابهما، فهل يا ترى كنتَ تفكِّر في سرطانك والأمور التي عليك مواجهتها طوال الوقت؟ لأن مواجهة شيء يهدد حياتك الآن أصعب بمراحل من مواجهة شيء حدث قبل عام أو عامين.

ربما كنتَ ترغب في الحصول على بعض الاهتمام من أفراد المجموعة، ولكن كيف لك أن تحقق ذلك وأنت تتصرف بهذه الفجاجة معهم؟ حتى إنك لم تتحدث بعدُ عن إصابتك بالسرطان». (كنتُ أحثُّ «كارلوس» خلال الفترة الماضية على أن يقول للمجموعة إنه مصاب بالسرطان، لكنه كان يماطل دائمًا؛ قال إنه يخشى أن يشعروا بالشفقة تجاهه، وقد يفقد بذلك فرصة الحصول على العلاقات الجنسية مع النساء في المجموعة).

ابتسم «كارلوس» في وجهي. «تلك محاولة جيدة يا دكتور! يبدو ذلك منطقيًا للغاية. إن تفكيرك صافٍ، لكنني سأكون صادقًا معك: لم أفكر في إصابتي بالسرطان مطلقًا، فمنذ أن توقَّفت عن العلاج الكيميائي قبل شهرين، يمضي الكثير من الأيام بين الحين والآخر من دون أن أفكر في السرطان. هذا أمر جيد جدًا، أليس كذلك؟ من الجيد أن أنسى الأمر وأتحرر منه، وأن أكون قادرًا على عيش حياة طبيعية لفترة من الوقت، صحيح؟».

سؤال جيد! لكن هل كان من الجيد أن ينسى؟ لم أكن متأكدًا من ذلك. على مدى الأشهر التي كنت ألتقي فيها «كارلوس» اكتشفتُ أنه كان بإمكاني تحديد مسار سرطانه بدقة مذهلة من خلال ملاحظة الأمور التي يفكر فيها. كلما تفاقم السرطان وكان يُواجِه الموت بشكل فعلي، أعاد ترتيب أولويات حياته واستغرق في التفكير وأصبح أكثر حساسية وأكثر حكمة. من ناحية أخرى، عندما كان سرطانه في حالة الهَدْأة[1] (remission)، كانت يسيطر عليه عضوه التناسلي، على حد تعبيره، ويصبح أكثر خشونة وسطحية بشكل ملحوظ.

(1) الهدأة هي خمود السرطان واختفاء أعراضه بنسبة كبيرة جدًا. (المترجم).

رأيتُ ذات مرة في إحدى الصحف رسمًا كاريكاتوريًا لرجل قصير وبدين تائه يقول: «من دون سابق إنذار، في يوم من الأيام عندما تكون في الأربعينيات أو الخمسينيات من عمرك، ترى كل شيء بوضوح، ثم يختفي ذلك الشعور مجددًا!» كان ذلك الرسم الكرتوني مناسبًا لـ «كارلوس»، باستثناء أنه كانت لديه حالات متكررة من الرؤية الواضحة، بدلًا من حالة واحدة، وكانت دائمًا تختفي بمجرد أن تظهر. غالبًا ما كنت أعتقد أنه إذا كان بمقدوري إيجاد سبيل لإبقائه على دراية بحقيقة موته وبـ «الصحوة» التي يولِّدها الموت، فسأتمكن من مساعدته على إحداث بعض التغييرات الملموسة في طريقة تعامله مع الحياة والآخرين. كان واضحًا من أسلوبه المخادع في الحديث اليوم، وقبل يومين في المجموعة، أن سرطانه كان قد هدأ مرة أخرى، وأن الموت -والحكمة المصاحبة له- كان بعيدًا عن ذهنه كليًّا.

حاولتُ سلوك مسار آخر. «قبل أن تبدأ في ارتياد جلسات المجموعة، يا «كارلوس»، حاولتُ أن أشرح لك الأسباب الموجِبة الرئيسية وراء العلاج الجماعي. هل تذكر عندما شدَّدتُ على أنه يمكننا استخدام ما يجري في المجموعة لمساعدتنا في تسيير العلاج الفردي؟» أومأ برأسه.

تابعت: «وتَذكُر أيضًا أن أحد أهم المبادئ التي تقوم عليها المجموعات هو أن المجموعة عبارة عن عالم مصغر، أيًّا كانت البيئة التي نخلقها في المجموعة فسوف تعكس أسلوب الحياة الذي اخترنا اتباعه، هل تَذكُر أنني قلتُ إن كل واحد منا يرسِّخ داخل المجموعة طبيعة العالم الاجتماعي ذاته الذي يعيشه في الحياة الحقيقية؟».

أومأ برأسه مرة أخرى. كان يصغي بانتباه.

«والآن انظر إلى ما يحدث لك في المجموعة! كانت بدايتك مع عدد من الأشخاص الذين كان من الممكن أن تشكِّل علاقات وثيقة معهم. آنذاك كنا -نحن الاثنين- متفقين على أنك بحاجة إلى أن تحسِّن من طريقة بناء العلاقات الاجتماعية، ولهذا السبب بدأتَ العلاج الجماعي، أتَذكُر؟ ولكن اليوم، بعد ستة أسابيع فقط، فإن جميع أعضاء المجموعة وأحد المعالجين المشاركين على الأقل غاضبون منك غضبًا شديدًا، وأنت جلبت هذا كله على نفسك. لقد تصرفتَ داخل المجموعة كما تتصرف خارجها! أجِبني بصراحة؛ هل أنت راضٍ عن نفسك؟ هل هذه هي العلاقات الاجتماعية التي تريد تشكيلها مع الآخرين؟».

- «أفهم قصدك تمامًا يا دكتور، ولكن هناك عِلَّة في حُجَّتك؛ فأنا لا آبه البتة. لا آبه نهائيًا بالناس في المجموعة. هؤلاء ليسوا أشخاصًا حقيقيين. لا يمكن أن أُصادِق فاشلين مثلهم مهما حدث. لا يعنيني رأيهم مطلقًا ولا أريد أن أشكِّل علاقات وطيدة معهم».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يُعرِض فيها «كارلوس» عن النقاش كليًّا. كنت أقول في نفسي إنه سيستعيد صوابه في غضون أسبوع أو أسبوعين. وفي ظل الظروف العادية كنت أتحلى بالصبر بكل بساطة، ولكن ما لم تَحدُث التغيُّرات بسرعة فإنه إما سينسحب من المجموعة وإما، بحلول الأسبوع المقبل، سيكون قد مزَّق بشكل نهائي جميع علاقاته مع سائر الأعضاء. ولأن الشك كان قد اعتراني -بعد تلك الحادثة البهية- فيما إذا كنت سأتمكَّن من إقناع معالج جماعي آخر بقبوله، فقد ثابرت في حديثي معه.

«أتفهَّم مشاعرك الغاضبة وإصدارك للأحكام على الآخرين بهذا الشكل، وأعلم أنك تشعر بذلك حقًّا، لكن حاوِل أن تضعها جانبًا لبرهة، يا «كارلوس»، لكي ترى إذا ما كان بإمكانك أن تشعر بأي شيء آخر. لقد عانت «سارة» و«مارثا» الويلات. ما المشاعر الأخرى التي اختبرتها تجاههما؟ ولا أقصد تلك المشاعر الرئيسية أو السائدة، بل الومضات الأخرى التي ربما لمستَ وجودها».

- «أعرف عمَّا تبحث. أنت تبذل قصارى جهدك من أجلي، وأريد مساعدتك حقًّا، لكنني سأختلق الكلام لو فعلتُ ذلك. أنت تَتقوَّل مشاعري نيابةً عني. هذا المكتب هو المكان الوحيد الذي يمكنني أن أقول فيه الحقيقة، والحقيقة هي أنني أرغب رغبة شديدة في أن أنكح هاتين الساقطتين! لقد عنيتُ كلامي عندما قلتُ إنه لو كان الاغتصاب قانونيًّا لمارستُه! وأعرف تمامًا من أين سأبدأ!».

كان يشير إلى «سارة» على الأرجح، لكنني لم أستفسر؛ فإن آخر أولوياتي هي الخوض في هذه الأحاديث معه. ربما كانت هناك منافَسة «أوديبية» (oedipal) بارزة تجري بيننا، مما صعَّب من عملية التواصل. لم يفوِّت أي فرصة لأن يصف لي بدقة ما يودُّ أن يفعله بـ «سارة»، كما لو كان يعتبر أننا نتنافس للظفَر بها. أعلمُ أنه يعتقد أنني أقنعته في وقت سابق بالعدول عن مواعدة «سارة» لأنني أردتُ الاحتفاظ بها لنفسي، لكن التفسيرات من هذا النوع ستكون عديمة الفائدة تمامًا الآن؛ فقد كان منغلقًا ودفاعيًّا بشدة. توجَّب عليَّ اللجوء إلى حجة أكثر إقناعًا لكي أتمكَّن من اختراق الحواجز التي وضعها أمامي.

كان النهج الأخير الذي استطعت التفكير فيه هو تفجُّر المشاعر الذي رأيته في جلستنا الأولى. بدَا ذلك التكتيك مبتكَرًا وبسيطًا جدًّا لدرجة أنني لم أتوقَّع النتيجة المدهشة التي يمكن أن يولِّدها.

«حسنًا يا «كارلوس». تعالَ نستعرض هذا المجتمع المثالي الذي تتخيله وتدافع عنه، مجتمع الاغتصاب القانوني هذا. فكِّر الآن لبضع دقائق في ابنتك؛ كيف سيكون حالها في المجتمع إذا صارت متاحة للاغتصاب القانوني كقطعة من اللحم ينال منها جميع المهتاجين جنسيًّا الذين يُشبِعون غرائزهم باللجوء إلى القوة واغتصاب الفتيات القاصرات؟».

فجأة تلاشت ابتسامة «كارلوس» العريضة. أجفل بشكل واضح وقال ببساطة: «ما كنتُ لِأقبل أن تتعرَّض لذلك».

- «ولكن أين ستعيش ابنتك في هذا العالم الذي تطمح إلى بنائه؟ هل ستكون سجينة في دير للراهبات؟ عليك خلق مكان يُمكِنها العيش فيه، فهذا ما يفعله الآباء؛ يبنون العالم لأطفالهم. لَمْ أسألك هذا من قبلُ، لكن ما المستقبل الذي تريده لها حقًّا؟».
- «أريدها أن تقع في حب رجل ما وأن تحظى بعائلة محبة».
- «ولكن كيف لذلك أن يحدث إذا كان والدها ينادي بوجود عالم يُشرِّع الاغتصاب؟ إذا كنت تريدها أن تعيش في عالم يملؤه الحب، فسيجب عليك أنتَ أن تقوم ببناء هذا العالم، ويجب أن تبدأ بتطوير سلوكك الخاص أولًا. لا يمكنك أن تكون خارجًا عن القوانين التي تسنُّها أنت. هذا هو أساس كل الأنظمة الأخلاقية».

تغيَّرت لهجة الجلسة تمامًا، وتخلَّصنا من التقارع أو الفظاظة. سيطرت الجدية على الأجواء بشكل كامل. شعرتُ وكأنني معلِّم فلسفة أو مرشد دينيٍّ بدلًا من أن أكون معالجًا، لكنني كنت أعلم أن هذا هو المسار الصحيح، كان عليَّ أن أقول هذه الأشياء من قبلُ. كثيرًا ما كان يمازحني بشأن تناقضاته. أتذكَّر أنه وصف ذات مرة، بنبرة مبتهجة، محادَثة جرَت على مائدة العشاء مع أطفاله (إذ كانوا يزورونه مرتين أو ثلاث مرات في السنة) عندما أخبَر ابنته أنه يريد أن يقابل أي صبي تخرج معه لكي يوافق على مواعدته إياها. «أما أنتَ»، مشيرًا إلى ابنه، «فَلَكَ أن تواعد ما شئتَ من الفتيات!».

لم يَعُدْ لديَّ أي شك الآن في أنني حظيت بانتباهه، لذا قررتُ زيادة أفضليتي هذه عن طريق التثليث[1] (triangulation)، وعالجتُ المشكلة ذاتها بطريقة أخرى.

«يتبادر إلى ذهني الآن أمر آخر يا «كارلوس». أتَذكُر حلمك عن سيارة الـ «هوندا» الخضراء قبل أسبوعين؟ دعنا نستعرضه مجددًا».

كان يستمتع بنقاش الأحلام، وشعر بالسعادة الكبيرة حين أُتيحت له فرصة الانكباب على الحديث عن هذا الحلم، تاركًا بذلك المحادثة المؤلمة عن ابنته.

كان «كارلوس» قد حلم بأنه ذاهب إلى وكالة تأجير السيارات لكي يستأجر سيارة ما، لكن السيارات الوحيدة المتاحة كانت من طراز «هوندا سيفيك» (Honda Civic)، وهي سيارة لا يحبذها نهائيًّا. أراد أن تكون السيارة باللون الأحمر، من بين العديد من الألوان المتاحة. ولكن

---

(1) التثليث هو استخدام طرق مختلفة ومصادر بيانات ووجهات نظر متعددة في عملية البحث العلمي. (المترجم).

عندما توجَّه إلى ساحة وقوف السيارات كانت السيارة الوحيدة المتاحة هي باللون الأخضر، وهو أقل ألوانه المفضلة! إن أهم شيء في الأحلام هو العواطف التي تولِّدها، وكان هذا الحلم، على الرغم من محتواه الحميد، مليئًا بالرعب؛ حيث جعله يستيقظ وأغرقَه في القلق لساعات وساعات.

لم نتمكن من تحليل هذا الحلم جيدًا قبل أسبوعين. حسبما أتذكَّر، راح «كارلوس» يستطرد في سرد الفكرة تلو الأخرى حول هوية الأنثى التي كانت تعمل في وكالة تأجير السيارات، لكنني نظرت إلى الحلم اليوم بشكل مختلف. منذ سنوات عديدة كان «كارلوس» قد تحوَّل إلى الإيمان الراسخ بالتقمُّص، وقد وفَّر له هذا الاعتقاد راحة كبيرة من قلق الموت. أحد المجازات التي استخدمها خلال جلساتنا الأولى هي أن الموت يقوم ببساطة على مقايضة جسد بجسد آخر، كما لو كان المرء يقايض بسيارته القديمة سيارة جديدة. ذكَّرتُه الآن بذلك المجاز.

«لنفترض، يا «كارلوس»، أن هذا الحلم يتعدَّى كونه مجرد حلم حول السيارات؛ فمن البديهي أن استئجار السيارات ليس نشاطًا مخيفًا، ولا يجب أن يتحوَّل إلى كابوس ويُبقِيك مستيقظًا طوال الليل. أعتقد أن هذا الحلم يدور حول الموت والحياة المستقبلية، ويستخدم صورتك الرمزية عن مقارنة الموت والولادة الجديدة بمقايضة السيارات. إذا نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة يمكننا أن نفهم الخوف الشديد الكامن في الحلم. كيف تفسِّر حقيقة أن الطراز الوحيد من السيارات الذي كان يمكنك الحصول عليه هو الـ «هوندا سيفيك» الخضراء؟».

- «أنا أكره اللون الأخضر وأكره الـ «هوندا سيفيك». سيارتي الجديدة ستكون من طراز «مازيراتي» (Maserati)».

- «ولكن بفرض أن السيارات هي رمز للأجساد في الحلم، فما سبب حصولك في ولادتك القادمة على الجسد الذي تكرهه أو الحياة التي تكرهها بدلًا من كل الخيارات الأخرى المتاحة؟».

وجد «كارلوس» نفسه مجبرًا على الرد. «يحصل المرء على ما يستحقه بناءً على أفعاله أو أسلوب حياته الحالي؛ إما أن يُعزِّز وإما أن يحط من مرتبته».

أدركَ الآن إلى أين تقودنا هذه المناقشة، وبدأ يتعرَّق. كانت طبقات الفظاظة والسخرية الكثيفة المحيطة به دائمًا ما تصدم الناس من حوله، ولكن جاء الآن دوره ليشعر بهذه الصدمة. لقد نجحتُ في اختراق معتقداته الأكثر عمقًا؛ حبّه لأطفاله وإيمانه بتناسخ الأرواح.

«تابع يا «كارلوس». هذا أمرٌ مهم. قم بتطبيق ذلك على نفسك وعلى حياتك».

كانت كل كلمة يقولها تخرج ببطء شديد. «مغزى الحلم هو أن أسلوب حياتي ليس على ما يرام».

- «أتفق معك، أعتقد أن هذا هو مغزى الحِلم. تحدَّثْ أكثر عن كيفية العيش بالطريقة الصحيحة كما تراها».

أردتُ أن أقدِم له المواعظ عن مكونات الحياة الجيدة في أي نظام ديني؛ الحب، والكرم، والاهتمام بالآخرين، والأفكار النبيلة، والسعي وراء فعل الخير، والإحسان، لكن لم يكن أيٌّ من ذلك ضروريًا. كان جليًّا من كلام «كارلوس» أنني أوضحت له وجهة نظري. قال إنه أُصيب بالدوار وإنه كان من الصعب عليه معالجة كل هذه المعطيات في يوم واحد. أراد أن يأخذ وقته ويفكِر في الأمر خلال الأسبوع. نوَّهتُ بأنه لا يزال لدينا خمس عشرة دقيقة، فقررت تناول أمور أخرى من وجهة مختلفة.

عدتُ إلى القضية الأولى التي طرحها خلال الجلسة؛ أي اعتقاده بأنه قد فوّت فرصة ذهبية مع «روث»، المرأة التي التقاها لفترة وجيزة في الاجتماع في الكنيسة، وما تبع ذلك من ضرب رأسه بالحائط وتأنيبه لذاته لأنه لم يرافقها إلى سيارتها. اعتقاده اللاعقلاني هذا كان يؤدي دورًا واضحًا جدًا. ما دام يظن أن فرصته قائمة دائمًا، بشكل مشوّق، لأنْ تُحبَّه وترغب فيه امرأة جذابة، فيمكنه أن يدعم إيمانه بأنه لا يختلف عن أي شخص آخر، وأنه لا يعاني من أي خطب كبير، وأنه لم يكن مشوَّهًا، وأنه لا يصارع مرضًا قاتلًا.

لم أقم في السابق بمحاولة التأثير على إنكاره للواقع؛ فمن الأفضل عمومًا عدم تقويض أي آلية دفاعية إلا إذا كانت المشكلات التي تخلقها أكثر من الحلول، وخصوصًا إذا كان المرء لا يملك شيئًا أفضل يقدمه عوضًا عنها. والتقمُّص مثال على ذلك؛ فعلى الرغم من أنني أعتبرُه شكلًا من أشكال إنكار الموت، كان هذا الاعتقاد يقدم خدمة كبيرة لـ «كارلوس» (مثلما يخدم الكثير من البشر). في الواقع، بدلًا من تقويض هذا الاعتقاد، كنت دائمًا أؤيده، وقمت بدعمه في هذه الجلسة من خلال حث «كارلوس» على ألا يناقض ذاته في تناول جميع الآثار المترتبة على تناسخ الأرواح.

لكن الوقت كان قد حان لكي أشكِّك في بعض الأجزاء الأقل فائدة في آليات الإنكار الخاصة به.

«هل تعتقد حقًا، يا «كارلوس»، بأنك لو كنت قد رافقت «روث» إلى سيارتها لَحظيتَ بفرصة بنسبةٍ عشرة إلى خمسة عشر في المئة للزواج بها؟».

- «كان من الممكن أن يؤدي شيء ما إلى شيء آخر. كانت هناك شرارة ما بيننا، شعرت بها، وأنا واثق من ذلك!».

- «لكنك تقول ذلك كل أسبوع، قلتَ ذلك عن السيدة في السوبر ماركت، وموظفة الاستقبال في مكتب طبيب الأسنان، وبائعة التذاكر في السينما، حتى إنك شعرت بذلك تجاه «سارة». أصغِ إليَّ. كم مرةً قمتَ أنتَ، أو أي رجل آخر، بمرافقة امرأة إلى سيارتها من دون أن يتزوجها؟».

- «حسنًا، حسنًا، ربما كانت الفرصة بنسبة واحد في المئة أو نصف في المئة، لكن الفرصة كانت لا تزال قائمة لو لم أتصرف بحماقة، حتى إنه لم يخطر في بالي أن أطلب مرافقتها إلى السيارة!».

- «يا لسخافة الأشياء التي تلوم نفسك بسببها! سأكون صريحًا معك للغاية يا «كارلوس»؛ إن ما تقوله يفتقر إلى المنطق بشكل مطلق. كل ما أخبرتني به عن «روث» -فقد تحدَّثتَ معها لمدة خمس دقائق فقط- هو أنها في الثالثة والعشرين من عمرها وأن لديها طفلين صغيرين وأنها طُلِّقَت مؤخرًا. لنكن واقعيين جدًّا، فكما تقول أنت، هذا هو المكان المناسب لنكون صادقين؛ بماذا ستخبرها عن وضعك الصحي؟».

- «عندما أتعرَّف عليها بشكل أفضل سأخبرها بالحقيقة؛ بأني مصاب بالسرطان، وأنه أصبح تحت السيطرة الآن، وأن الأطباء قادرون على علاجه».

- «وماذا أيضًا؟».

- «وأن الأطباء لا يعرفون تمامًا ما سيحدث، وأن هناك عدة أنواع جديدة من العلاج التي يتم اكتشافها كل يوم، وأنه من الممكن أن يعود لي السرطان في المستقبل أكثر من مرة».
- «ماذا قال لك الأطباء؟ هل قالوا إنه من الممكن أن يعود؟».
- «أنتَ على حق. إن عودته محتملة في المستقبل ما لم يُعثَر على علاج له».

«لا أريد أن أكون قاسيًا معك يا «كارلوس». على العكس، أريد أن أكون موضوعيًا. ضع نفسك في مكان «روث»، امرأة في الثالثة والعشرين من عمرها، لديها طفلان صغيران، وقد مرَّت بوقت عصيب، وأفترض أنها تبحث عن بعض الدعم الحقيقي لنفسها ولأطفالها. أنتَ شخص ليس لديه سوى أدنى درجات المعرفة، إضافةً إلى خوفك من السرطان. هل أنت مَن يُمثِّل ذلك الأمان والدعم اللذين تبحث «روث» عنهما؟ هل ستكون «روث» على استعداد للتعايش مع الشك المحيط بصحتك؟ هل ستخاطر بوضع نفسها في موقف قد تكون مُلزَمة فيه بالعناية بك؟ ما فرص أن تسمح لنفسها بالتعرف عليك بالطريقة التي تريدها وأن ترتبط بك؟».

- «أقل من واحد في المليون»، قال «كارلوس» بصوت حزين ومُرهَق.

كنتُ قاسيًا معه، لكن خيار عدم اللجوء إلى القسوة والاكتفاء بمسايرته والاعتراف ضمنيًا بأنه غير قادر على رؤية الواقع كان أشد قسوةً. لقد سمح له وَهْمُه حول «روث» بأن يشعر أنه لا تزال هناك فرصة لأن يتأثر به الآخرون وأن يهتموا بأمره، لذا كنت آمل أن يفهم أن استعدادي للتواصل معه من كثب، بدلًا من خداعه، كان تعبيرًا عن تأثري به واكتراثي بأمره.

كان أسلوبه المتبجح قد اختفى تمامًا. سألني «كارلوس» بصوت منخفض: «إذن إلامَ سيئول حالي الآن؟».

- «لو أن ما تريده حقًّا هو الحميمية، فقد حان الوقت لكي تتخلص من كل هذه الأفكار المتأججة حول العثور على زوجة لك. شاهدتك تلوم نفسك منذ أشهر بسبب هذا الموضوع. لقد حان الوقت لكي تتوقف عن إجهاد نفسك. لقد انتهيتَ الآن من دورة علاج كيميائي عسيرة. قبل أربعة أسابيع لم يكن بإمكانك تناول الطعام أو النهوض من السرير أو التوقف عن التقيؤ. لقد فقدتَ الكثير من الوزن، لكنك في طور استعادة قوتك. لا تتوقع أن تعثر على زوجة الآن؛ فأنتَ بذلك تُحمِّل نفسك عبئًا زائدًا. ضع أمامك هدفًا معقولًا. يمكننا القيام بذلك معًا. ركِّز على إجراء محادثات جيدة مع الآخرين. حاول تعميق صداقاتك مع الأشخاص الذين تعرفهم بالفعل».

رأيت ابتسامة ترتسم شيئًا فشيئًا على وجه «كارلوس»، وتوقَّعَ الجملة التي كنت على وشك قولها: «وهل هناك مكان أفضل من المجموعة للبدء في هذا الأمر؟».

تغيَّر «كارلوس» كليًّا بعد هذه الجلسة. كان موعد جلستنا التالية في اليوم الذي تلا الاجتماع القادم للمجموعة. أول شيء قاله هو أنني لن أصدِّق كم أحسن التصرف في المجموعة. تفاخرَ بأنه أصبح الآن أكثر الأعضاء دعمًا ومراعاة لمشاعر الآخرين. اتخذ قرارًا حكيمًا بإنقاذ نفسه من المشكلات من خلال إخبار المجموعة بإصابته بالسرطان. ادَّعى أن سلوكه قد تغيَّر بشكل كبير لدرجة أن أعضاء المجموعة صاروا يعتمدون عليه الآن للحصول على الدعم، وقد أكدت «سارة» ذلك بعد عدة أسابيع.

ثم أثنى «كارلوس» على جلستنا السابقة. «كانت الجلسة الأخيرة هي أفضل جلساتنا حتى الآن. أتمنى أن تكون كل جلساتنا القادمة مثلها. لا أتذكر ما تحدثنا عنه بالضبط، لكنه ساعَدني على التغيُّر كثيرًا».

كانت إحدى ملاحظاته طريفة بشكل ملحوظ.

«لا أعرف ما السبب، لكني أصبحتُ أتواصل بشكل مختلف مع الرجال في المجموعة. جميعهم أكبر مني سنًّا، لكن المضحك في الأمر هو شعوري بأنني أعاملهم كما لو كانوا أبنائي من لحمي ودمي!».

لم أنزعج كثيرًا لأنه نسي محتوى جلستنا الأخيرة؛ فأنا أفضِّل أن ينسى ما تحدثنا عنه على أن يحدث العكس تمامًا (وهو خيار أكثر شيوعًا بين المرضى)؛ أي أن يتذكر محتوى المحادثة بحذافيرها من دون أن يتغيَّر نهائيًّا.

تحسَّن «كارلوس» بشكل تصاعدي، وبعد أسبوعين بدأ جلستنا بقوله إنه كان قد حظي برؤيتين ثاقبتين خلال ذلك الأسبوع. كان فخورًا جدًّا برؤيتيه لدرجةِ أنه أطلق اسمًا على كل واحدة منهما. كان اسم الأولى (نظرَ نظرةً خاطفة على ملاحظاته) «كل واحد منا لديه قلب»، أما الثانية فكان اسمها «أنا لستُ حذائي».

قام أولًا بشرح «كل واحد منا لديه قلب»: «خلال اجتماع المجموعة الأسبوع الماضي، كانت النساء الثلاث يشاركن الكثير من مشاعرهن حول صعوبة العزوبية، والوحدة، ورثاء آبائهن وأمهاتهن، والكوابيس. لسبب ما لا أستطيع تحديده، صرت فجأةً أنظر إليهن بطريقة مختلفة! كُنَّ مثلي! يواجهن المشكلات ذاتها التي أواجهها في الحياة. كنت دائمًا أتخيَّل أن النساء يجلسن على جبل «أوليمبوس» (Olympus) مع صفٍّ من الرجال أمامهن لكي يقمن بفرزهم؛ أنتَ اذهب إلى غرفة نومي، وأنت لا!».

- «لكن في تلك اللحظة»، تابَع «كارلوس»، «رأيت قلوبهن مجردةً. اختفى الجدار الصدري، ذاب هكذا تاركًا وراءه تجويفًا مربع الشكل، باللونين الأزرق والأحمر، وجدرانًا بأضلاع، وفي الوسط كان القلب يلمع بلونٍ أحمر قاتم وينبض بنشاط. طوال هذا الأسبوع كنت أرى قلوب الجميع تنبض، وكنت أقول لنفسي: «كل واحد منا لديه قلب، كل واحد منا لديه قلب». كنت أرى القلب في صدور الجميع، حتى الأحدب المشوَّه الذي يعمل في غرفة الاستقبال، والسيدة العجوز التي تنظِّف الأرضيات، والرجال الذين أعمل معهم أيضًا!».

فرِحتُ كثيرًا من كلام «كارلوس» لدرجة أنني كنت على وشك البكاء. أعتقد أنه رأى الدموع في عينيَّ، لكنه لم يقل شيئًا ليجنِّبني الإحراج، وسارعَ في شرح الرؤية التالية «أنا لست حذائي».

ذكَّرني أننا ناقشنا في جلستنا الأخيرة قلقه الشديد بشأن عرض تقديميّ لاحق في عمله. لطالما واجه صعوبة كبيرة في التحدث أمام الناس؛ فهوَ حساس للغاية تجاه نقد الآخرين، وحسب قوله، كان غالبًا يجعل من نفسه أضحوكة بشنِّ هجوم مضاد شرس على أي شخص يشكك في أي جانب من جوانب عرضه.

لقد ساعدته على فهم حقيقة أنه قد نسي الالتزام بحدوده الشخصية تمامًا، وأخبرته أنه من الطبيعي أن يرد المرء بشكل عدائيّ على من يهاجمه في صميم ذاته. على العموم، يشعر الإنسان في حالة كهذه أن بقاءه أصبح على المحك، لكنني نوهت أيضًا بأن «كارلوس» كان قد وسَّع حدوده الشخصية لتشمل عمله، ومن ثم كان يرد على النقد المعتدل لأي وجه من أوجه عمله كما لو كان هجومًا مميتًا على كيانه وتهديدًا لبقائه تحديدًا.

كنت قد حثثت «كارلوس» على التميز بين ذاته المركزية وغيرها من السمات أو الأنشطة المحيطة بها، ثم قلت له إنه عليه أن «يتجاهل» الأجزاء التي لا تمثِّل ذاته، كالأمور التي يحبها أو يفعلها أو يقدِّرها، فهي ليست «كارلوس» بعينه، وليست كيانه المركزي.

أُعجِب «كارلوس» كثيرًا بهذا المفهوم، فإضافةً إلى أنه فسَّر أسلوبه الدفاعي في العمل، كان بإمكانه توسيع نموذج «التجاهل» هذا ليشمل جسده. صحيح أن جسده كان معرضًا للخطر، إلا أن ذاته، أي روحه الحقيقية، كانت سليمة.

ساعَده هذا التفسير على تخفيف الكثير من قلقه، وجرى عرضه التقديمي الأسبوع الماضي بشكل شفاف وكان خاليًا من أساليبه الدفاعية. لم يسبق له أن أدى عمله بشكل أفضل من ذلك. طوال عرضه التقديمي كان يتردد في ذهنه هذا الشعار القصير: «أنا لستُ عملي». عندما انتهى وجلس بجانب رئيس عمله كان يقول في نفسه: «أنا لست عملي. أنا لست كلامي. أنا لست ملابسي. أنا لست أيًّا من هذه الأشياء»، ثم وضع ساقًا فوق الأخرى ولاحظ حذاءه المتآكل والممزق: «وأنا لست حذائي أيضًا». وراح يهز قدميه وأصابع قدميه على أمل أن يجذب انتباه رئيس عمله لكي يقول له بكل وضوح: «أنا لست حذائي!».

الرؤيتان اللتان حظي بهما «كارلوس» -تمهيدًا للعديد من الرؤى اللاحقة- كانتا بمنزلة هدية لي ولطلابي. كل رؤية منهما ناتجة عن شكل مختلف من العلاج، وكلتاهما توضح بشكل مثالي الفرق بين ما يُمكِن للمرء أن يستمده من العلاج الجماعي الذي يركز على التواصل بين الأفراد، والعلاج الفردي الذي يركز على اتصال المريض بذاته الداخلية. ما زلت أستخدم العديد من رؤاه المفصَّلة في إيضاح محاضراتي.

خلال الأشهر القليلة المتبقية من حياته اختار «كارلوس» الاستمرار في العطاء، فقام بتنظيم مجموعة لمساعدة الذات (self-help group) خاصة بمرضى السرطان (ولا تخلو هذه المجموعة من المزاح حول أن هذا المكان كان «آخر محطةٍ» لتعارف الرجال والنساء)، وكان «كارلوس» أيضًا قائد مجموعة تهدف إلى تنمية المهارات البين-شخصية في إحدى الكنائس التي كان يرتادها، وقام بدعوة «سارة»، التي أصبحت من أهم داعميه، لكي تكون ضيفًا متحدثًا في إحدى مجموعاته، حيث شهدت على أدواره القيادية المسئولة والجديرة بالثقة.

لكن الأهم من ذلك كله أنه كان معطاءً تجاه ابنه وابنته، اللذين لاحظا التغيير الذي طرأ عليه وقررا العيش معه خلال ارتيادهما لفصل دراسي في كلية محلية. كان أبًا كريمًا وداعمًا بشكل مذهل. لطالما شعرتُ أن الطريقة التي يواجه بها المرء الموت تَحتذِي كثيرًا بالنموذج الذي يضعه الوالدان، لذا فإن آخر هدية يُمكِن أن يقدمها الوالد لأطفاله هي أن يعلمهم، عن طريق الأمثلة، كيفية مواجهة الموت برباطة جأش، وقد أعطى «كارلوس» بذلك درسًا استثنائيًا في السخاء. لم يكن موته مجرد رحيل مظلم وخفيّ وتآمري، فقد كان هو وأطفاله، إلى أن فارق الحياة، صادقين فيما بينهم بشأن مرضه وضحكوا معًا عندما كان يشخر، ويعقد حاجبيه، ويزمُّ شفتيه كلما أشار إلى إصابته بـ «الليمفوووما».

إلا أن أعظم هدية قدَّمها فكانت لي قبل وفاته بوقت قصير. تمثَّلت هديته هذه في الإجابة بصورة نهائية عن سؤالٍ إذا كان من المنطقي أو الملائم السعي وراء العلاج «الطموح» لهؤلاء الذين يعانون من الأمراض العضال. عندما زرته في المستشفى بدا ضعيفًا جدًا لدرجة أنه كان يستطيع التحرك بصعوبة، لكنه رفع رأسه، وأمسك يدي بقوة، وهمس لي: «شكرًا لك. شكرًا لك لأنك أنقذت حياتي».

3

أخطأ الموت في الاختيار

قبل بضع سنوات، في أثناء إعدادي لمقترح بحثيّ حول الفجيعة (bereavement)، نشرتُ مقالًا موجزًا في إحدى الصحف المحلية ينتهي بهذه الرسالة:

في المرحلة الأولية من التخطيط لبحثه، يرغب الدكتور «يالوم» في مقابلة الأفراد الذين لم يتمكنوا من التغلب على حزنهم. يُرجَى من المتطوعين الذين يرغبون في إجراء مقابلات معه الاتصال بالرقم 555 - 6352.

من بين خمسة وثلاثين شخصًا اتصلوا للحصول على موعد، كانت «بيني» (Penny) أولهم. أخبَرَت سكرتيرتي بأنها مطلَّقة تبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، وبأنها فقدت ابنتها قبل أربع سنوات، وبأنه من الضروري جدًّا أن أقابلها على الفور. قالت إنها تعمل ستين ساعة في الأسبوع سائقةً لسيارة أجرة، إلا أنها أكَّدت استعدادها لإجراء المقابلة في أي ساعة من النهار أو الليل.

بعد أربع وعشرين ساعة كانت تجلس أمامي في المكتب. كانت امرأة صلبة ومتينة البنية، نجَت من الكثير من المِحَن، وقد قاست ويلات الحياة. كانت فخورًا بذاتها، وكان جسمها يرتجف. من الواضح أنها عانت كثيرًا في السابق. ذكَّرَتني بـ «مارجوري مين» (Marjorie Main)، نجمة السينما التي كانت تتحدث بصوت جلف في الثلاثينيات، والتي أصبحت في عداد الأموات منذ وقت طويل.

كانت «بيني» تمر بأزمة، حسب قولها على الأقل، وقد شكَّل ذلك معضلة أمامي. لم يكن في مقدوري علاجها لأن جدولي كان محدودًا جدًا ولم يسمح لي باستقبال مريض جديد. كل دقيقة من وقتي كانت مخصصة لإكمال المقترح البحثي، وكان الموعد النهائي لتقديم الطلب من أجل الحصول على المنحة يقترب بسرعة. كانت تلك هي الأولوية القصوى في حياتي حينئذ، ولذلك السبب كنت قد بحثت عن متطوعين من خلال الإعلان. علاوةً على ذلك، نظرًا لأنني كنت سآخذ إجازة بعد ثلاثة أشهر، لم يكن لديَّ الوقت الكافي لتقديم برنامج علاج نفسيّ يفي بالغرض.

لذلك، لئلا يحدث أي سوء فهم، قررتُ توضيح المسألة المتعلقة بالعلاج على الفور قبل أن أتعمق في الحديث مع «بيني» وقبل أن أسألها لماذا، بعد مضي أربع سنوات على وفاة ابنتها، كانت بحاجة إلى رؤيتي على الفور.

بدأتُ بشكرها على تطوعها للتحدث معي لمدة ساعتين عن فقدان ابنتها، ثم أخبَرتُها أنه من المهم أن تعرف، قبل أن توافق على المضي قدمًا، أن هذه المقابلات التي أُجرِيها ستكون بغرض البحث العلمي، وأنها لن تكون جلسات علاجية، حتى إنني أضفت أنه على الرغم من أن الكلام قد يساعد أحيانًا، فمن الممكن أيضًا أن يعكِر راحتها النفسية لفترة وجيزة. مع ذلك، إذا ارتأيتُ أنها بحاجة إلى العلاج، فسيكون من دواعي سروري أن أساعدها في اختيار معالج.

توقفتُ عن الكلام ونظرت إلى «بيني». كنت راضيًا كليًّا عما قلته؛ فقد حصَّنتُ نفسي أمامها وكنتُ واضحًا بما يكفي لمنع أي التباس.

أومأت «بيني» برأسها، ثم نهضت من كرسيها. لوهلةٍ شعرتُ بالقلق لأنني اعتقدت أنها كانت تريد مغادرة المكتب، لكنها قامت ببساطة بفرد تنورتها القطنية الطويلة وعاودت الجلوس. سألَتْني إذا ما كان بإمكانها

التدخين. عندما أعطيتها منفضة سجائر أشعلت سيجارة وبدأت تتحدث بصوتها العميق القوي: «أنا بحاجة إلى الكلام، نعم، لكن لا يمكنني تحمُّل تكاليف العلاج. ليس لديَّ المال. لقد زرت معالجَين رخيصَين، أحدهما كان لا يزال طالبًا يداوم في عيادة المقاطعة، لكنهما كانا خائفَين مني. يبدو أن الجميع يرفض الحديث عن موت الأطفال. عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري ذهبت لزيارة مستشارة في عيادة للمدمنين على الكحول، وكانت هي مدمنة سابقة أيضًا. كانت بارعة في عملها، وطرحت الأسئلة الصحيحة، لذا ربما أحتاج إلى طبيب نفسي فَقَدَ طفله! ربما أحتاج إلى خبير حقيقي. أُكِنُّ الكثير من الاحترام لجامعة «ستانفورد»، لهذا السبب سارعت بالاتصال عندما رأيتُ الإعلان في الصحيفة. لطالما اعتقدتُ أن ابنتي كانت سترتاد «ستانفورد» لو أنها لم تفارق الحياة».

كانت تنظر إليَّ مباشرة وتتحدث من دون تردد. تعجبني النساء اللواتي يتمتعن بالصلابة، وأحببتُ أسلوبها. لاحظتُ أنني بدأتُ أتحدث بصرامة أكبر أيضًا.

«سأساعدك على التحدث، ويمكنني طرح أسئلة واقعية، لكنني لن أكون متاحًا لكي أنتشلك من الآلام النفسية».

- «سمعتُ ما قُلتَه قبل قليل. مهمتك هي مساعدتي على أخذ الخطوة الأولى فحسب. أنا سأعتني بنفسي. عندما كنت في العاشرة من عمري كنتُ من «أطفال المفاتيح»[1] (latchkey kid)».

(1) شاع هذا المصطلح خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كان الآباء يخوضون المعارك بعيدًا عن أوطانهم، وكانت الأمهات تعمل طوال اليوم من أجل تأمين لقمة العيش؛ الأمر الذي فرض على الكثير من الأولاد الاعتناء بأنفسهم في سن مبكرة، وتضمَّن ذلك امتلاكهم نسخة من مفتاح المنزل لكي يخرجوا منه ويعودوا إليه بمفردهم. يُستعمَل المصطلح اليوم بشكل عام لوصف الأولاد الذين يتحملون مسئولية رعاية أنفسهم لأن والديهم من الطبقة العاملة ولا يوجدون في المنزل خلال النهار. (المترجم).

- «حسنًا، لنبدأ بالسبب الذي جعلكِ تريدين رؤيتي على الفور. قالت لي سكرتيرتي إن صوتك بدَا يائسًا على الهاتف. ما الذي حدث؟».

- «قبل بضعة أيام، عندما كنت أقود سيارتي إلى المنزل بعد انتهائي من العمل -أنتهي في الواحدة صباحًا تقريبًا- غبت عن الوعي فجأة. حين استيقظت كنتُ أقود على الجانب الخطأ من الطريق وأصرخ مثل حيوان جريح! لو كانت هناك أي سيارات قادمة في الاتجاه الآخر لما كنت هنا اليوم».

كانت هذه بدايتنا. شعرتُ بالتوتر عندما تصوَّرتُ هذه المرأة وهي تصرخ مثل حيوان جريح، واستغرقني الأمر بضع لحظات قبل أن أتمكن من إزالة هذه الصورة من ذهني، ثم بدأتُ في طرح الأسئلة. كانت قد أُصيبت «كريسي» (Chrissie)، ابنة «بيني»، بنوع نادر من سرطان الدم عندما كانت في التاسعة من عمرها، وتُوُفِّيَت بعد ذلك بأربع سنوات، قبل يوم واحد من عيد ميلادها الثالث عشر. خلال تلك السنوات الأربع حاولت «كريسي» الالتزام بالدوام في المدرسة، لكنها كانت طريحة الفراش معظم الوقت تقريبًا، وكانت تدخل المستشفى كل ثلاثة أو أربعة أشهر.

تسبَّب لها كلٌّ من السرطان وعلاجه في آلام مبرحة. خلال سنوات مرضها الأربع نجح العديد من دورات العلاج الكيميائي في إطالة عمرها، ولكنها كانت في كل مرة تزيد من صلعها ومن حدة مرضها المؤلم. خضعت «كريسي» للعشرات من عمليات شفط نخاع العظم الموجِعة، وسحب الأطباء دمها عدة مرات، لدرجة أنهم لم يعودوا قادرين على إيجاد المزيد من الأوردة. في السنة الأخيرة من حياتها قاموا بتركيب قسطرة وريدية دائمة لها سمحت بالوصول إلى مجرى الدم بسهولة.

قالت «بيني» إن موت ابنتها كان مروعًا، ولم أستطع أن أتخيَّل حجم فظاعته بالنسبة إليها. بدأت «بيني» في البكاء في هذه الأثناء، ومن أجل أن ألتزم بوعدي بطرح أسئلة واقعية حثثتُها على إخباري بمدى هول وفاة «كريسي».

أرادت «بيني» أن أجعلها تخطو الخطوة الأولى، ولكن بمحض الصدفة، أطلق سؤالي الأول العنان لوابل من المشاعر. (اكتشفتُ في وقت لاحق أنني كنت أصل إلى آلام «بيني» العميقة بغض النظر عن المكان الذي كنتُ أبحث فيه). ماتت «كريسي» أخيرًا بسبب الالتهاب الرئوي؛ حيث فشل قلبها ورئتاها ولم تستطع التنفس. في النهاية كانت قد اختنقت بسبب تراكم السوائل في رئتيها.

أخبرتني وهي تذرف الدموع مِن حين لآخر، أن أسوأ ما عانت «بيني» منه، هو أنها كانت عاجزة عن تذكر وفاة ابنتها، كانت قد طمست ذكرى الساعات الأخيرة لـ «كريسي». كل ما تتذكره هو الذهاب إلى النوم في ذلك المساء بجانب ابنتها -في أثناء مكوث ابنتها في المستشفى كانت «بيني» تنام على سرير للأطفال بجانبها- وبعد مضي الكثير من الوقت وجدَت نفسها تجلس على مقدمة سرير ابنتها وهي تحضن جثتها بعد أن فارقت الحياة.

انتقلت «بيني» إلى الحديث عن الشعور بالذنب. كانت مهووسة بتصرفاتها في أثناء وفاة «كريسي»، ولم تستطع أن تسامح نفسها. أصبح صوتها أعلى، وظهر اتهام الذات في نبرتها بشكل بارز. شعرتُ وكأنها محامية ادِّعاء تحاول إقناعي بإهمالها.

قالت لي: «هل تصدق أنني لا أستطيع أن أتذكر متى أو كيف علِمتُ أن «كريسي» قد ماتت؟».

كانت واثقة من أن شعورها بالذنب بشأن سلوكها المخزي كان السبب في أنها لم تسمح لنفسها بنسيان «كريسي»، وأنه السبب في تجمُّد حزنها خلال السنوات الأربع الماضية. سرعان ما أقنعتني أنها كانت على حق.

كنتُ عازمًا على متابعة خططي البحثية؛ أي أن أجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الفجيعة المزمنة (chronic bereavement) وأن أصمم بروتوكولًا منظمًا لمقابلة المرضى المفجوعين. ومع ذلك، ربما لأن علاجها كان سيستغرق الكثير من الوقت، بدأت أنسى البحث شيئًا فشيئًا، واتخذت الوضعية العلاجية بالتدريج. نظرًا لأن الشعور بالذنب كان المشكلة الأساسية، سعيتُ خلال بقية المقابلة التي استمرت ساعتين إلى معرفة كل شيء سنح به الوقت عن ذنب «بيني».

سألتها: «ما ذنبك بالضبط؟ وما التُّهَم؟».

كانت التهمة الرئيسية التي وجَّهَتها ضد نفسها هي أنها لم تقف فعليًا بجانب «كريسي»؛ فعلى حدِّ تعبيرها كانت قد استغرقت كثيرًا في خيالاتها. لم تسمح لنفسها أبدًا بالاعتقاد بأنه من الممكن أن ينال الموت من ابنتها، مع أن الطبيب أخبرها أن حياة «كريسي» على المحك، وأنه لم يتعافَ أحد من هذا المرض من قبلُ. ومع أنه قال لها بكل وضوح، عندما دخلت «كريسي» المستشفى آخر مرة، إنها لن تعيش لفترة طويلة، رفضَت «بيني» تصديق أن «كريسي» لن تتعافى مجددًا، واستشاطت غضبًا عندما أشار الطبيب إلى الالتهاب الرئوي النهائي على أنه بمنزلة النعمة وأنه لا ينبغي التدخل فيه.

في الواقع، لم تتقبل «بيني» حقيقة أن ابنتها ماتت حتى الآن، بعد انقضاء أربع سنوات. قبل أسبوع واحد فقط، «استيقظَت» لتجد نفسها واقفة في طابور المحاسبة في الصيدلية وهي تحمل بيدها حيوانًا محشوًا

كهدية لـ «كريسي»، وفي مرحلة ما من مقابلتي معها قالت إن «كريسي» «ستبلغ» السابعة عشر الشهر المقبل، بدلًا من «كانت ستبلغ».

سألتُها: «وهل هذه جريمة؟ هل التمسك بالأمل جريمة؟ هل يمكن لأي أمّ أن تتقبل وفاة ابنتها؟».

أجابت «بيني» بأنها لم تتصرف بدافع الحب تجاه «كريسي»، ووضعت مصلحتها الذاتية أولًا. سألتُها كيف فعلَت ذلك، فقالت إنها لم تساعد «كريسي» أبدًا في التحدث عن مخاوفها ومشاعرها. كيف يمكن لـ «كريسي» أن تتحدث عن الموت مع أمها التي كانت تُنكِر واقع الأمر على الدوام؟ ومن ثم، أُجبِرَت «كريسي» على التعامل مع أفكارها وحدها. لم تصنع «بيني» أي فارق عندما كانت تنام بقرب ابنتها، فهي لم تكن سندًا لها بشكل فعلي. إن أسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان هو أن يموت بمفرده، وكانت «بيني» قد تركت ابنتها تموت على هذا النحو.

ثم أخبَرتني «بيني» أنها تؤمن إيمانًا عميقًا بالتقمص، وقد بدأ إيمانها بهذا الأمر منذ أن كانت مراهِقة بائسة فقيرة ومعذَّبة بشدة لأنها كانت تائهة في الحياة، لدرجة أن العزاء الوحيد الذي وجدَته كان فكرة حصولها على فرصة جديدة. كانت «بيني» على يقين بأن الحظ سيحالفها أكثر في المرة القادمة، وربما ستكون أكثر ثراءً. كانت واثقةً أيضًا من أن «كريسي» انتقلت إلى حياة أخرى تكون فيها أكثر صحة وسعادة.

لكنها لم تساعد «كريسي» في احتضارها. في الواقع، كانت «بيني» مقتنعة بأن موت «كريسي» استغرق وقتًا طويلًا بسبب «كريسي» ذاتها، حيث بَقِيَت على قيد الحياة، من أجل والدتها، لفترة طويلة، مما أدى إلى استمرار ألم والدتها وتأخير خلاصها. على الرغم من أن «بيني» لم تتذكر الساعات الأخيرة من حياة «كريسي»، كانت متأكدةً من أنها لم تقل ما

كان يجب أن تقوله لها: «هيا! هيا! حان وقت الرحيل. ليس عليك البقاء هنا من أجلي بعد اليوم».

بينما كانت تتحدث، بدأتُ أفكر في أحد أبنائي الذي في سن المراهقة، هل كان بمقدوري فعل ذلك لو كنت مكانها؟ أن أترك يده، وأن أساعده على الموت، وأن أقول له: «هيا! حان وقت الرحيل»؟ كان وجهه المشمس يحوم في مخيلتي، وطوَّقني شعور بالغَمّ لا يمكن وصفه.

«كلا!» قلت لنفسي، لكي أتحرر من هذه الفكرة. من المحتمل أن العواطف هذه قد غمرت أيضًا المعالجين الآخرين الذين لم يتمكنوا من مساعدتها. توجَّب عليَّ أن أتشبث بالمنطق بكل قوتي إذا أردتُ أن أساعد «بيني».

- «ما تقولينه إذن هو أنك تشعرين بالذنب تجاه أمرين رئيسيين. أولًا، لأنكِ لم تساعدي «كريسي» في التحدث عن الموت، وثانيًا، لأنكِ لم تتمكني من نسيانها بالسرعة الكافية».

أومأت «بيني» برأسها، حيث أيقظَتها نبرتي التحليلية، وتوقَّفَت عن البكاء.

لا شيء يمنح شعورًا بالأمان الزائف في العلاج النفسي أكثر من الملخصات، خاصةً إذا كان الملخص على شكل قائمة. لقد شجعتني الكلمات التي قلتُها، بدَت المشكلة فجأةً أكثر وضوحًا، بدَت مألوفةً أكثر، وشعرتُ بأن التعامل معها كان في متناول اليد. لم أعمل من قبلُ على علاج أي شخص كان قد فقد طفلًا، لكن لا بد أن أكون قادرًا على مساعدتها؛ إذ كان بالإمكان أن أختزل جزءًا كبيرًا من حزنها إلى الشعور بالذنب، فأنا أعرف الشعور بالذنب معرفة وثيقة على الصعيدين الشخصي والمهني.

في وقت سابق، كانت «بيني» قد أخبَرتني بأنها على اتصال دائم بـ «كريسي»، حيث كانت تزورها يوميًا في المقبرة وتقضي ساعة كل يوم في تحسين منظر قبرها والتحدث معها. لقد كرَّست «بيني» الكثير من الطاقة والاهتمام بـ «كريسي» لدرجة أنها أفسدت زواجها؛ إذ إن زوجها هجرها إلى الأبد قبل سنتين تقريبًا. وقالت «بيني» إنها لم تكد تشعر بأثر رحيله.

حافظت «بيني» على غرفة «كريسي» دون أي تغيير، على سبيل جَعْلها مثل نصب تذكاري لها، حيث بقيت كل ملابسها وممتلكاتها في أماكنها المعهودة، حتى إن واجبها المنزلي الأخير غير المكتمل كان لا يزال على المقعد. الشيء الوحيد الذي تغيَّر هو أنها أخذت سرير «كريسي» إلى غرفتها وصارت تنام عليه كل ليلة. بعد أن أجريتُ مقابلات مع المزيد من الآباء المفجوعين لاحقًا، تعلَّمت أن مثل هذا السلوك شائع جدًّا، ولكن بعد ذلك، بسبب سذاجتي، رأيتُ أن هذا أمر لا يُحتمَل وغير طبيعي، وأنه لا بد من تسويته.

«إذَن تتعاملين مع ذنبك الآن من خلال التمسك بـ «كريسي» وعدم المضي قدمًا في حياتك؟».

- «لا أستطيع نسيانها نهائيًا. هذا ليس شعورًا يمكنني تشغيله وإطفاؤه بضغطة زر!».

- «إن التخلي عنها ليس كنسيانها، وأنا لم أطلب منك أن تُطفِئي هذا الشعور». كنت مقتنعًا الآن أنه من الضروري أن أرد على «بيني» مباشرة؛ فعندما أحافظ على حزمي تصبح أكثر مرونة.

«نسيان «كريسي» يعني أنني لم أحبها في يوم من الأيام. إنه أشبه بأن تقول إن حبكَ لابنتكَ أنتَ كان شعورًا مؤقتًا فحسب، مثل شيء قابل للتلاشي. لن أنساها».

- «لن تنسيها. وهل يختلف هذا عن التحكم في المشاعر بضغطة زر كما قلتِ؟» كانت قد تجاهلت تمييزي بين النسيان والتخلي، لكنني تجاهلت الأمر. «قبل أن تتمكني من التخلي عن «كريسي»، عليكِ أن ترغبي في ذلك أولًا، عليكِ أن تكوني على استعداد لفعل ذلك. دعينا نحاول فهم هذا الأمر معًا. لنتظاهر حاليًا بأنك تتمسكين بـ «كريسي» لأنك اخترت ذلك بملء إرادتك. ما الفائدة التي تستمدينها من هذا التمسك؟».
- «لم أفهم قصدك».
- «بلى، تفهمين قصدي تمامًا! سايِريني قليلًا. ما الذي تجنينه من التشبث بـ «كريسي»؟».
- «لقد هجرتُها عندما كانت تُحتضَر، عندما كانت في أمسِّ الحاجة إليَّ. لن أهجرها مرة أخرى مهما حدث».

على الرغم من أن «بيني» لم تفهم المغزى بعدُ، كانت مأسورة في تناقض صارخ بين تصميمها على التمسك بـ «كريسي» وإيمانها بتناسخ الأرواح. كان حزن «بيني» مستعصيًا وغير قادر على التنفس. ربما إذا واجهَت هذا التناقض فستتمكن من أن تطلق العنان لمشاعر الحزن مجددًا.

«أنتِ تتحدثين إلى «كريسي» كل يوم يا «بيني». أين «كريسي»؟ أين توجد؟».

نظرَت «بيني» بعينين متسعتين. لم يسبق لأحد أن طرح عليها مثل هذه الأسئلة الصريحة. «في اليوم الذي ماتت فيه أحضرتُ روحها إلى المنزل مرة أخرى. شعرتُ بوجودها في السيارة معي. في البداية بقيَت بجواري. أحيانًا كانت تبقى في المنزل في غرفتها، ثم صرتُ أتواصل معها

في المقبرة على الدوام. كانت عادةً على دراية بما يحدث في حياتي، لكنها أرادت أن تعرف أخبار أصدقائها وإخوتها. بقيتُ على اتصال مع جميع أصدقائها لكي أتمكن من نقل أخبارهم إليها». صمتَت «بيني» لوهلة.

«والآن؟».

- «الآن أشعر بأنها تتلاشى، وهو شيء جيد، فهذا يعني أنها وُلِدت من جديد في حياة ثانية».
- «هل لديها أي ذكرى عن هذه الحياة؟».
- «كلا. إنها منشغلة بالحياة الجديدة. أنا لا أُومِن بهذه التُّرَّهَات حول استرجاع ذكريات الحَيَوات الماضية».
- «لذلك لا بد أن تحظى بحرية الانتقال إلى حياتها التالية، لكن هناك جزءًا منكِ يرفض السماح لها بالرحيل».

لزمَت «بيني» الصمت، واكتفت بالتحديق في وجهي.

«يا لكِ من قاضية قاسية يا «بيني»! لقد أمرتِ بمحاكمة نفسك بتهمة عدم السماح لـ «كريسي» بالرحيل عندما كانت تُحتضَر، وحكمتِ على نفسك بكراهية الذات. أعتقد أنك تقسين على نفسكِ كثيرًا. لا أعتقد أن أي والدة كان بإمكانها التصرف بطريقة مغايرة. أؤكد لك أنه لو كان طفلي أنا يموت، لَمَا استطعت التصرف بخلاف ذلك. لكن الأسوأ من هذا هو أن الحُكْم مجحف للغاية بحق نفسك. يبدو أن شعورك بالذنب والحزن قد فكّكا زواجك بالفعل. ويا لطول مدة هذا الحُكْم! هذا هو ما يدهشني حقيقة. لقد مرت أربع سنوات الآن. إلى متى سيدوم هذا الأمر؟ سنة أخرى؟ أم أربع سنوات؟ أم عشرًا؟ أم إلى مدى الحياة؟».

رتَّبتُ أفكاري محاولًا تحديد كيفية مساعدتها على رؤية ما كانت تفعله بنفسها. جلسَت «بيني» بلا حراك، وسيجارتها تشتعل في المنفضة التي كانت في حضنها. كانت تحدق بي بثبات بعينيها الرماديتين. بدَا أنها كانت تتنفس بصعوبة.

تابعتُ الكلام: «طوال فترة جلوسي هنا وأنا أحاول فهم واقع الأمر، وقد خطرت لي فكرة الآن. أنتِ لا تعاقبين نفسك على شيء فعلتِه مرة واحدة قبل أربع سنوات، عندما كانت «كريسي» على فراش الموت، بل تعاقبين نفسك على الشيء الذي تفعلينه اليوم، هذا الشيء الذي تستمرين في فعله حتى هذه اللحظة تحديدًا. تتمسكين بها، وتحاولين إبقاءها في هذه الحياة، مع أنك تعرفين أنها تنتمي إلى مكان آخر. إذا سمحتِ لها بالرحيل فلن يكون ذلك دليلًا على تخلِّيك عنها أو عدم حبك لها. على العكس تمامًا، تلك علامة على أنك تحبينها جدًّا، لدرجة أنك ستسمحين لها بالمضي إلى حياة أخرى».

واصلت «بيني» التحديق بي. لم تقل شيئًا، لكنها بدَت متأثرة بما قلته الآن. كانت كلماتي فعالة حقًّا. كان من الأفضل أن نجلس في صمت معًا، لكنني قررت أن أقول شيئًا آخر، وربما كنت مبالغًا فيه.

«ارجعي إلى تلك اللحظة يا «بيني»؛ تلك اللحظة التي كان يجب عليكِ أن تسمحي فيها لـ «كريسي» بالرحيل، تلك اللحظة التي أزلتِها فيها من ذاكرتك. أين تلك اللحظة الآن؟».

- «ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم».

- «أين هي؟ أين توجد؟».

بدَت «بيني» ضيقة الصدر وحادة المزاج قليلًا عندما سألتها بإلحاحٍ أو استجوبتها. «لم أفهم مغزى سؤالك. لقد انقَضَت وأصبحت جزءًا من الماضي».

- «هل هناك أي ذكرى لتلك اللحظة؟ ربما لدى «كريسي»؟ ألم تقولي إنها نسيت كل ما يتعلق بهذه الحياة؟».
- «كل شيء انتهى منذ زمن. فهي لا تتذكر، ولا أنا أتذكر. إذن ...؟».
- «إذن، أنت تستمرين في ممارسة جَلْد الذات بشأن لحظة لا وجود لها في أي مكان، بشأن لحظة وهمية. لو قابلتِ شخصًا آخر يفعل ذلك لاعتقدتِ أنه غبي».

عندما أنظر إلى الوراء الآن وأفكر في هذه المحادثة أجد الكثير من السفسطة في كلامي، لكن في تلك الأثناء شعرت بأنه كان مقنِعًا ومؤثرًا. جلسَت «بيني»، التي كانت تتحلى بحذاقة أولاد الشوارع وتستطيع الإجابة عن كل شيء، بصمت مرة أخرى كما لو كانت في حالة صدمة.

كانت الساعتان على وشك الانتهاء. لم تطلب «بيني» المزيد من الوقت، لكن كان من الواضح أنه كان علينا أن نلتقي مرةً أخرى؛ فقد حدث الكثير من الأمور. لو لم أمنحها ساعة إضافية لكنتُ غير مسئول من الناحية المهنية. لم تتفاجأ من عرضي هذا ووافقت على الفور على العودة الأسبوع المقبل في الوقت ذاته.

إن الاستعارة التي تنطبق غالبًا على الحزن المزمن هي «الجمود»، وهي استعارة مناسبة، حيث يصبح الجسم متخشبًا والوجه مشدودًا، وتعيق الأفكار الباردة والمتكررة عمل الدماغ. كانت «بيني» مجمدة هكذا، فهل سيتكسَّر هذا الجليد المتكتِّل على أثر محادثاتنا؟ كنتُ متفائلًا

بذلك. لم أستطع تخمين الشيء الذي سيتحرر من قبضة هذا الجمود، لكنني توقعتُ ظهور الكثير من الغضب خلال الأسبوع وانتظرتُ جلستها القادمة بفضول كبير.

عندما بدأت تلك الجلسة رمَت «بيني» بثقلها على الكرسي حين جلست، وقالت: «ياه! كم أنا سعيدة لرؤيتك! لقد كان أسبوعًا حافلًا».

واصلت الكلام ببهجة متكلَّفة، وقالت إن الخبر السار هو أن شعورها بالذنب قد خَفَّت وطأته خلال الأسبوع الماضي، وكان تعلقها بـ «كريسي» أقل من ذي قبلُ. أما الخبر السيئ فهو أنها تشاجرت شجارًا محتدمًا مع «جيم» (Jim)، ابنها الأكبر، وبسبب ذلك انتابتها موجات متقلبة بين الغضب والبكاء طوال الأسبوع.

كان لـ «بيني» طفلان على قيد الحياة، «برنت» (Brent) و«جيم». كلاهما قد ترك المدرسة ويعيش حياة محفوفة بالأخطار. كان «برنت» البالغ من العمر ستة عشر عامًا محتجَزًا في دار الأحداث بسبب مشاركته في عملية سطو، أما «جيم» البالغ من العمر تسعة عشر عامًا فكان مدمنًا شرهًا على المخدرات. وقد نشأ النزاع الحالي مع «جيم» في اليوم الذي تلا جلستنا الأخيرة عندما علمت «بيني» أنه توقَّف عن دفع ما كان مترتبًا عليه من ثمن قطعة الأرض لمقبرتهم.

أرض المقبرة؟ ظننتُ أنني لم أسمعها جيدًا فطلبت منها أن تكرر ما قالته. «أرض المقبرة» كان ما قالته فعلًا. قبل نحو خمس سنوات، عندما كانت «كريسي» لا تزال على قيد الحياة، مع تدهور حالتها الصحية، وقَّعت «بيني» عقدًا لشراء أرض باهظة الثمن لبناء مقبرة. كانت قطعة الأرض كبيرة، حسب قولها (كما لو أن ما قالته سيجعل الأمور تبدو طبيعية) «وتكفي لإبقاء جميع أفراد الأسرة معًا»؛ حيث وافق كل فرد

من أفراد الأسرة -«بيني» وزوجها «جيف» (Jeff) وابناها- بعد إلحاح شديد منها على المساهمة بجزء في المدفوعات التي كانت موزَّعة على سبع سنوات.

لكن، على الرغم من وعودهم، وقع كامل العبء المالي المترتِّب على قطعة الأرض على عاتقها. لقد مضى عامان على رحيل «جيف». لم يعد يكترث بأمر «بيني» نهائيًا، سواء أكانت حيةً أم كانت ميتة، ومن الواضح أن ابنها الأصغر المسجون لم يكن قادرًا على الالتزام بتسديد مدفوعاته (كان قد ساهم سابقًا بمبلغ صغير حصل عليه من عمله بعد المدرسة)، والآن اكتشفَت أن «جيم» كان يكذب عليها ولا يسدِّد مدفوعاته.

كنت على وشك أن أعقِّب على توقعها الغريب بأن هذين الشابين، اللذين يجدان صعوبات جلية في مرحلة النضوج، سيتمكنان من دفع ثمن أرض المقبرة، لكن «بيني» تابعت روايتها للأحداث المروعة لهذا الأسبوع.

في الليلة التي تلت مواجهتها مع «جيم»، جاء إلى منزلها رجلان يسألان عنه. كان من الواضح أنهما من تجار المخدرات. عندما أخبَرَتهما بأنه ليس في المنزل، أمرها أحدهما أن تطلب من «جيم» دفع الأموال المستحَقة عليه، وإلا فلن يتمكن من العودة إلى المنزل؛ أي إنه لن يتبقى له أي منزل ليعود إليه.

بالنسبة إلى «بيني»، كان منزلها أهم شيء في الوجود. بعد وفاة والدها، عندما كانت في الثامنة من عمرها، تنقَّلت والدتها بها وبأخواتها من شقة إلى أخرى عشرين مرة على الأقل، وغالبًا ما مكثوا لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فقط قبل أن يتم طردهم لعدم دفع الإيجار، ثم قطعت عهدًا على نفسها بأنها ستحصل يومًا ما على منزل حقيقي لعائلتها، وقد عمِلت

بجدٍ هائل للوفاء به. كانت مدفوعات القرض العقاري الشهرية مرتفعة، وبعد أن غادر «جيف» أصبحَت تتحمَّل هذا العبء برمَّته. نعم، كانت تعمل لساعات طويلة، لكنها تمكنت بمشقة من تدبُّر أمرها.

لذلك أساء لها الرجلان فيما قالاه. بعد أن غادرا وقفت مذهولة قرب الباب لبضع لحظات، ثم لعنَت «جيم» لأنه صرف أمواله لشراء المخدرات بدلًا من تسديد مدفوعاته. بعد ذلك، على حد تعبيرها، «فقدت صوابها كليًّا»، وهُرعَت لتلحق بهما. كانا قد انطلقا بالسيارة قبلها، لكنها عجَّلت بركوب شاحنتها الصغيرة المتينة وتبِعَتهما بسرعة عالية على الأوتوستراد، وحاولت إبعادهما عن الطريق. نجحت في حَرْف سيارتهما عدة مرات عن مسارها، ولم يتمكّنا من الهرب منها إلا بعد أن زادا من سرعة سيارتهما الـ «بي إم دبليو» لأكثر من مئة ميل في الساعة.

أبلغَت «بيني» الشرطة بالتهديد الذي تعرَّضَت له (لم تأتِ على ذكر مطاردتها لهم على الأوتوستراد طبعًا)، وخلال الأسبوع الماضي راقبت الشرطة منزلها على مدار اليوم. عاد «جيم» إلى المنزل في وقت لاحق من تلك الليلة، وبعد أن سمع بما حدث وضع على عُجالة بعض الملابس في حقيبة ظهره وغادر المدينة. لم يتصل بها منذ ذلك الحين. لم تُعرِب «بيني» عن أي شعور بالندم بسبب سلوكها –على العكس، بدَا أنها كانت تستمتع برواية القصة– لكن كان لحالتها النفسية طبقات قَصِيَّة. ففي وقت لاحق من تلك الليلة ازداد اضطرابها ولم تنم جيدًا، إضافةً إلى أنها رأت هذا الحلم العميق:

كنت أبحث في غُرَفٍ داخل مؤسسة قديمة. وراء آخر باب فتحتُه رأيتُ صبيَّينِ صغيرين يقفان على منصة، كما لو كانا معروضَينِ للناظرين. كانا يُشبِهان ولديَّ، لكن كان شعرهما طويلًا كالفتيات وكانا يرتديان

الفساتين. لم يكن أي شيء على ما يرام؛ كانت الفساتين متسخة ومعكوسة ومقلوبة من الداخل إلى الخارج، أما أحذيتهما فكانت كل فردة منها في القدم الخطأ.

شعرتُ بالارتباك، فمع وجود العديد من الأدلة المحتملة الواعدة، كنت بحاجة إلى التفكير قبل أن أتبع واحدًا منها. أولًا، فكرتُ في رغبة «بيني» اليائسة في إبقاء جميع أفراد العائلة معًا، وخلق تلك العائلة المستقرة التي لم تحظَ بها في طفولتها. تأملتُ كيف تجلّى كل ذلك في تصميمها الكبير على امتلاك منزل وقطعة أرض لبناء مقبرة. لم يعد هناك شك في أن حياتها غير قادرة على الصمود. لقد تحطَّمَت خططها وعائلتها؛ ماتت ابنتها، وهجرها زوجها، وكان أحد أبنائها في السجن، أما الآخر فكان متواريًا عن الأنظار.

لم أتمكَّن إلا من التعبير عما يجوب في بالي والتواصل مع «بيني». كنت أرغب بشدة في تخصيص الوقت الكافي لتحليل هذا الحلم، خاصة ذلك الجزء الأخير عن طفليها الصغيرين، فغالبًا ما تكون الأحلام الأُولى التي يبوح بها المرضى في جلسات العلاج -خاصةً تلك الأحلام الغنية والمفصَّلة- بمنزلة الشعلة التي تنير العتمة.

طلبت منها أن تصف أبرز مشاعرها في الحلم، فقالت إنها استيقظَت وهي تبكي، لكنها لم تستطع تحديد الجزء المحزن من الحلم.

«وماذا عن الصبيَّينِ الصغيرين؟».

أجابتني بأنها شعرت بشيء من الشفقة، وربما الحزن، تجاه هندامهما المبعثر؛ الأحذية في الأقدام الخطأ، والملابس القذرة المقلوبة من الداخل إلى الخارج. ولماذا كانا يرتديان الفساتين؟ وماذا عن الشعر الطويل والفساتين؟ لم تستطع «بيني» فهم أيٍّ من هذا، لكنها اعتقدت أن إنجابها

للطفلين كان خطأً كبيرًا. ربما كانت تتمنى إنجاب البنات بدلًا منهما؟ كانت «كريسي» طفلة تحلم بها جميع الأمهات؛ طالبة مجتهدة، وجميلة، وموهوبة موسيقيًا. من وجهة نظري، مثّلت «كريسي» أمل «بيني» في المستقبل، هي التي كان بإمكانها إنقاذ الأسرة من مصيرها الغارق في الفقر والجريمة.

«نعم»، تابعت «بيني» بحسرة، «لقد أصاب الحلمُ بشأن ولديَّ، وبشأن أحذيتهما وملابسهما. كل شيء يتعلق بهما هو ضرب من الخطأ. لطالما كان الأمر هكذا، لطالما جلبًا لي المتاعب. كان لديَّ ثلاثة أطفال؛ أحدهم كان ملاكًا، أما الاثنان الآخران فمثيران للشفقة؛ واحد في السجن والثاني مدمن مخدرات. كان لديَّ ثلاثة أطفال، وقد أخطأ الموت في اختياره».

شهقَت هنا «بيني» ووضعت يدها على فمها. «لقد فكرتُ في هذا من قبل ولكن لم يسبق لي أن تفوَّهت به».

- «وكيف يبدو لك؟».

خفضت رأسها حتى صار في حضنها تقريبًا. كانت الدموع تنهمر على وجهها وعلى تنورتها. «يبدو غير إنسانيّ».

- «كلا، على العكس تمامًا. أرى أنها مشاعر إنسانية صرفة. قد لا تبدو حسنةً، لكن هكذا بُنِيَت الطبيعة البشرية. وبالنظر إلى وضعك وأطفالك الثلاثة، هل هناك من شك في أن أي والدة أو والد سيقول إن الموت قد اختار الطفل الخطأ؟ بالنسبة إليَّ هذا ما سأقوله بكل تأكيد!».

لم أتمكن من دعمها إلا بهذه الطريقة، لكن لم يَبدُ عليها أنها سمعتني؛ لذلك كرَّرتُ ما قلته: «لو كنت مكانك لشعرتُ بهذا أيضًا».

بقي رأسها منخفضًا، لكنها أومأت به بشكل غير ملحوظ تقريبًا.

مع اقتراب ساعتنا الثالثة من نهايتها، لم تَعُدْ هناك أي جدوى من التظاهر بأن «بيني» لم تكن تتعالج على يدي، فأقررتُ بذلك علانيةً واقترحتُ أن نلتقي ست مرات أخرى وأن نبذل قصارى جهدنا. شدَّدتُ على أنه من غير الممكن أن نلتقي لأكثر من ست جلسات بسبب التزاماتي الأخرى وسفري. قبِلَت «بيني» عرضي لكنها قالت إن المال يمثِّل مشكلة كبيرة بالنسبة إليها، فسألتني إن كان بمقدورها توزيع المدفوعات على عدة أشهر. طمأنتُها بأنني لن أتقاضى منها أي رسوم، ما دام لقاؤنا الأول كان جزءًا من مشروعِ بحثيٍّ فلا يمكنني تغيير عقدنا فجأة وفرض رسوم عليها بضمير مرتاح.

في الواقع، لم يكن لديَّ أي مانع في علاج «بيني» بلا رسوم. كنت أرغب في معرفة المزيد عن الفجيعة، وقد أثبتت أنها معلِّمة من الطراز الأول. قدَّمت لي في تلك الجلسة بالتحديد مفهومًا من شأنه أن يخدمني كثيرًا في جميع أعمالي المستقبلية مع المفجوعين. إذا أراد المرء أن يتعلم كيفية التعايش مع الموتى، يجب عليه أولًا أن يتعلم كيفية التعايش مع الأحياء. لقد تعيَّن على «بيني» أن تبذل الكثير من الجهد في تحسين علاقاتها مع الأحياء، خاصةً مع ابنيها، وربما مع زوجها، لذا افترضتُ أننا سنقضي الجلسات الست المتبقية في تناول هذا الأمر.

أخطأ الموت في الاختيار. أخطأ الموت في الاختيار. في الجلستين التاليتين نظرنا في هذا الموضوع القاسي من عدة نواحٍ مختلفة، وهو إجراء يشار إليه في مهنة العلاج النفسي باسم «العمل الكليّ» (working through). عبَّرت «بيني» عن غضبها العميق تجاه ابنيها، ولم يكن غضبها نابعًا بسبب أسلوب حياتهما فحسب، بل لأنهما كانا على قيد

الحياة، لكن «بيني» لم تفقد الأمل في ابنيها إلا بعد أن نال الإرهاق منها وتجرَّأت على قول ما كانت تشعر به على مدى السنوات الثماني الماضية (منذ أن سمعت لأول مرة أن «كريسي» مصابة بسرطان عضال). كان «برنت» ذو السادسة عشرة ميئوسًا منه كليًّا، وقد صلَّت لسنوات لكي تحصل «كريسي» على جسد «جيم» (فما حاجته إلى جسده؟ كان سيتسبب في هلاكه قريبًا على أي حال بالمخدرات والإيدز. لماذا تمتَّع «جيم» بجسد سليم بينما نهش السرطان «كريسي» التي أحبت جسدها الصغير؟) عندما قالت «بيني» كل هذه الأشياء تمكنت من التريُّث والتفكير فيما قالته.

اكتفيتُ بالجلوس والاستماع لها، ومن وقت لآخر كنت أطمئنها بأن مشاعرها كانت إنسانية، وأن التفكير فيها نابع من طبيعتها البشرية ليس إلا. أخيرًا وجب عليَّ مساعدتها على توجيه تركيزها نحو ابنيها. كانت أسئلتي لطيفة في البداية، ثم أصبحت أكثر تحديًا بشكل تدريجي.

هل كان ابناها دائمًا صعبَي المراس؟ هل وُلِدا على هذا النحو؟ ما الذي حدث في حياتهما ودفعهما ربما إلى اتخاذ هذه الخيارات؟ كيف كان حالهما عند احتضار «كريسي»؟ ما مدى خوفهما؟ هل تحدَّث أي أحد معهما عن الموت؟ كيف كان شعورهما حيال شراء قطعة أرض من أجل المقبرة؟ وحيال الرقود بجانب «كريسي»؟ وكيف كانت ردة فعلهما تجاه تخلي والدهما عنهما؟

لم تستسغ «بيني» أسئلتي. في البداية شعرَت بالدهشة ثم بالغضب بسببها، ثم بدأت تدرك أنها لم تفكر يومًا في ما حدث للأسرة من وجهة نظر ابنيها. لم تَحظَ «بيني» بعلاقة إيجابية مع أي رجل في السابق، ومن المحتمل أن يكون ابناها قد دفعا ثمن ذلك. فكرتُ أنا وهي في الرجال

في حياتها؛ والدها الذي هجرها في الثامنة من عمرها عندما مات (قد تلاشى من ذاكرتها الشخصية، لكن والدتها ظلت تلعنه دائمًا)، وعشاق والدتها، تلك الشخصيات البغيضة التي ظهرت في الليل واختفت بحلول الفجر، ثم زوجها الأول الذي هجرها بعد شهر واحد من زفافهما عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، وأخيرًا زوجها الثاني الأحمق المدمن للكحول الذي هجرها في النهاية وهي تعاني من الحزن.

لقد أهملت ولديها على مدى السنوات الثماني الماضية لا محالة. عندما كانت «كريسي» مريضة أمضت «بيني» وقتًا طويلًا معها. وبعد وفاتها كانت «بيني» لا تزال بعيدة عن «جيم» و«برنت»؛ فغضبها تجاههما، غالبًا لأنهما كانا على قيد الحياة بدلًا من «كريسي»، خلق حالة من الصمت بينهم جميعًا. كبِر ولداها وأصبح قلباهما قاسيين ونَأيَا بأنفسهما عنها، لكنهما كانا قد أخبراها في السابق، قبل أن يُخفِيا مشاعرهما عنها، أنهما أرادا المزيد منها؛ أرادا تلك الساعة التي قضتها كل يوم، لمدة أربع سنوات، في العناية بقبر «كريسي».

ماذا عن تأثير الموت على ابنيها؟ كانا يبلغان من العمر ثمانية أعوام وأحد عشر عامًا عندما أُصيبت «كريسي» بمرض قاتل. لقد اعتراهما الخوف مما كان يحدث لأختهما، وكانا أيضًا يشعران بالحزن، ربما أصبحا يدركان حقيقة موتهما ويخشيان وقوعه، لكن «بيني» لم تفكِر في أيٍ من هذه الاحتمالات.

ثم تناولنا مسألة غرفة نوم «جيم» و«برنت». يحتوي منزل «بيني» المتواضع على ثلاث غرف نوم صغيرة، وكان الولدان يتشاركان دائمًا غرفة واحدة، بينما حظيت «كريسي» بغرفتها الخاصة. في رأيي، لا شك في أنهما كانا مستاءَيْن من هذا الوضع عندما كانت «كريسي» على قيد

الحياة، ولكن ماذا عن غضبهما الآن، حيث ترفض «بيني» السماح لهما باستخدام غرفة أختهما بعد وفاتها؟ ويا تُرى ما شعورهما تجاه رؤية وصيّة «كريسي» الأخيرة ملصقةً على الثلاجة بمغناطيس الفراولة المعدنية طوال السنوات الأربع الماضية؟

هل فكّرَت في امتعاضهما من محاولتها إبقاء ذكرى «كريسي» حيّة بالاحتفال بعيد ميلادها كل عام؟! وماذا قدمت لهما في أعياد ميلادهما؟ احمرَّ وجه «بيني» وردَّت بقسوة على سؤالي بصوت مغمغم: «الأشياء المعتادة». كنت واثقًا من أنني بدأتُ التأثير عليها.

ربما كان من المحتم أن يفشل زواج «بيني» و«جيف»، ولكن يبدو أنها لم تفكر مليًّا في أن الحزن هو الذي عجَّل من نهاية علاقتهما. تعامَل كلٌّ منهما مع الحزن بطريقة مختلفة؛ ففي الوقت الذي أغرقت «بيني» نفسها في ذكريات الماضي، فضَّل «جيف» الكبت وصرَف ذهنه إلى أشياء أخرى. لم يكن من المهم اتفاقهما في بقية جوانب الحياة في تلك المرحلة، لأنهما كانا متناقضين تمامًا من ناحية الحزن، فتصادم نهجها بنهجه. كيف يمكن لـ «جيف» أن ينسى ما حدث بعد أن قامت «بيني» بتغطية الجدران بصورة «كريسي»، ونامت على سريرها، وحوَّلت غرفتها إلى نصب تذكاري؟ وكيف لـ «بيني» أن تتغلب على حزنها في الوقت الذي رفض فيه «جيف» حتى التحدُّث عن «كريسي»؟ كما أنه رفض بعد ستة أشهر من وفاة «كريسي» حضور حفل تخرُّج دفعتها من المدرسة الإعدادية (الأمر الذي تسبَّب في مشاجرة مروعة بينهما).

خلال الجلسة الخامسة توقفنا عن فهم كيفية التعايش بشكل أفضل مع الأحياء لأن «بيني» طرحت سؤالًا مختلفًا، فكانت كلما تأمَّلَت عائلتها وابنتها الراحلة وابنيها دارت في ذهنها هذه الأفكار: ما الذي أعيش من

أجله؟ ما المغزى من هذا كله؟ كانت حياتها بأكملها مبنية على مبدأ واحد؛ أن تمنح أطفالها حياة أفضل من الحياة التي عاشتها، ولكن ما الذي جَنَتْه الآن بعد مرور عشرين عامًا؟ هل أهدرَت حياتها؟ هل هناك أي جدوى بعد اليوم من الاستمرار في إضاعة حياتها على هذا النحو؟ لماذا كانت تُرهِق نفسها لسداد مدفوعات الرهن العقاري؟ هل كان هناك أي مستقبل ينتظرها؟

لذلك وجَّهنا تركيزنا نحو أمر آخر، بعيدًا عن علاقة «بيني» بابنيها وزوجها السابق، وبدأنا نفكر في سمة أخرى مهمِة تتعلق بفجيعة الوالدين، ألا وهي فقدان المعنى في الحياة. إن فقدان أحد الوالدين أو صديق من أصدقاء الطفولة يعني فقدان الماضي في معظم الأحيان. قد يكون الشخص الذي مات هو الشاهد الآخر الوحيد على أحداث استثنائية وقعت منذ فترة طويلة، لكن فقدان الطفل يعني ضياع المستقبل. الأمر الذي يَفقِده المرء في هذه الحالة هو مخطط حياته، وكل ما كان يعيش من أجله، وتصوره للمستقبل، وتخطِّيه للموت (فلا شك في أن الإنسان يرى طفله بمنزلة المشروع الذي سيحقق له الخلود). وهكذا، بلغة العلاج النفسي، فإن فقدان الوالدين هو «فقدانُ الموضوع» (object loss) («الموضوع» هنا هو الشخصية التي لعبت دورًا أساسيًّا في تكوين العالم الداخلي للفرد)، في حين أن فقدان الطفل هو «فقدان المشروع» (project loss) (أي فقدان المبدأ الجوهري الذي يبني المرء عليه حياته، والذي لا يُجيب فقط عن سؤال «لماذا الحياة؟» بل أيضًا عن سؤال «كيف الحياة؟»)، فلا عجب أن فقدان الطفل هو الخسارة الأقسى على الإطلاق، وأن العديد من الآباء لا يزالون حزينين بعد مرور خمس سنوات، وأن بعضهم قد لا يتعافى أبدًا.

لكننا لم نحرز الكثير من التقدم في استكشافنا لهدف الحياة (طبعًا لا يمكن توقُّع إحراز التقدم من هذا النوع؛ فغياب الهدف هو معضلة تتعلق بالحياة بصورة عامة وليس بحياة فرد ما بعينه) لأن «بيني» غيَّرت مسار الحديث مرة أخرى. بحلول تلك اللحظة كنت قد اعتدت على قيامها بطرح قضية جديدة في كل جلسة. اعتقدتُ في البداية أنها كانت زئبقية الطابع وغير قادرة على الحفاظ على تركيزها، لكنني كنت مخطئًا. كانت «بيني» تَكشِف بشجاعة عن حزنها ذي الطبقات المتعددة، فكم طبقة ستُكشَف لي؟!

بدأت «بيني» إحدى جلساتنا -كانت السابعة على ما أعتقد- بالحديث عن أمرين؛ حلمٌ جليٌّ (vivid dream) رأته وفقدانها للوعي مرة أخرى.

بالنسبة إلى فقدان الوعي فقد «استيقظَت» في الصيدلية (الصيدلية ذاتها التي استيقظت فيها ذات مرة وهي تحمل الحيوان المحشو) وهي تبكي بشدة وتُمسِك ببطاقة تخرج لطلاب المدرسة الثانوية.

أما الحلم، فعلى الرغم من أنه لم يكن كابوسًا، كان مشبَعًا بالإحباط والقلق:

رأيتُ حفل زفاف. كانت «كريسي» تتزوج بصبيّ في الحي، ويا له من صبيّ مخيب للآمال! اضطررتُ إلى تغيير ملابسي. كنت في منزل كبير على شكل حدوة حصان فيه الكثير من الغرف الصغيرة. دخلتها واحدة تلو الأخرى لكي أعثر على الغرفة المناسبة من أجل أن أغيّر ملابسي. واصلت المحاولة، لكنني لم أتمكن من العثور على الغرفة المناسبة.

وبعد لحظات رأت جزءًا «مُلحَقًا» بالحلم:

كنتُ في قطار كبير، وبدأنا نتحرك بسرعة، ثم توجَّهنا نحو قوس كبير في السماء. كان مشهدًا جميلًا جدًّا، وأحاطت النجوم بنا من كل جانب. في مكان ما هناك، رأيت شيئًا يشبه العنوان الفرعي (لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، لأنني لا أستطيع تهجيته)، وكان فيه كلمة «التطور» (evolution). انتابني شعور عميق بشأن هذه الكلمة.

من جهة ما، كان الحلم يتعلق بـ «كريسي». تحدثنا لفترة من الوقت عن زواجها السيئ في الحلم. ربما كان العريس يرمز إلى الموت؛ فمن الواضح أنه لم يكن الزواج الذي تمنَّته «بيني» لابنتها.

وماذا عن التطور؟ قالت لي «بيني» سابقًا إنها لم تَعُدْ تشعر بالارتباط مع «كريسي» خلال زياراتها للمقبرة (وأصبحت تزورها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع فقط). ربما كانت كلمة «التطور»، في رأيي، تشير إلى أن «كريسي» قد رحلت بالفعل وانتقلت إلى حياة أخرى.

لكن كان لدى «بيني» تفسير أفضل لشعورها بالحزن عند فقدان الوعي وخلال الأحلام. عندما عاد إليها وعيها في الصيدلية، غلب عليها إحساس عارم بأن بطاقة التخرج في يدها لم تكن لـ «كريسي» (كان من المفترض أن تتخرج من المدرسة الثانوية في هذا الفترة)، بل لنفسها. لم تتخرج «بيني» من المدرسة مطلقًا، وكانت «كريسي» على وشك أن تفعل ذلك لكلتيهما (وكانت سترتاد جامعة «ستانفورد» لكلتيهما أيضًا).

رأت «بيني» أن حلم الزفاف وبحثها عن غرفة تبديل الملابس كان يتعلق بزيجاتها السيئة ومحاولتها الحالية لتغيير حياتها. وأكدت الارتباطات (associations) التي شكَّلتها مع المبنى في الحلم وجهة النظر هذه؛ حيث كان يشبه إلى حدٍّ كبير مبنى العيادة التي تضم مكتبي.

وكلمة «التطور»، أيضًا، أشارت إليها لا إلى «كريسي». كانت «بيني» مستعدة لأن تصبح إنسانًا آخر. كانت مصممة بشدة على التطور وإثبات نفسها وسط المجتمعات الراقية؛ فخلال السنوات العديدة الماضية، بين الزبون والآخر في سيارة الأجرة الخاصة بها، كانت تسعى إلى تحسين ذاتها من خلال الاستماع إلى أشرطة كاسيت حول تنمية المفردات والكتب العظيمة وتقدير الفن. لطالما شعرت بأنها موهوبة، لكنها لم تُطوِّر مواهبها قط؛ إذ ترتَّب عليها منذ سن الثالثة عشرة أن تكسب لقمة العيش. كانت تتمنى أن تتوقف عن العمل وتعتني بحاجاتها قليلًا، وأن تتخرج من المدرسة الثانوية، وأن ترتاد الكلية بشكل دائم، وأن تدرس «بلا توقف»، وأن «تنطلق» من هناك (كانت تقصد القطار في الحلم وهو «ينطلق» في الهواء!)

أصبحت «بيني» تركِز على شيء آخر، فبدلًا من الحديث عن مأساة «كريسي»، قضت الساعتين التاليتين في وصف مأساة حياتها. عندما اقترَبنا من جلستنا التاسعة والأخيرة، ضحَّيتُ بما تبقى من مصداقيتي وعرضتُ على «بيني» ثلاث جلسات إضافية إلى أن يحين موعد إجازتي. وجدتُ صعوبة في إنهاء علاجها لعدد من الأسباب، وأجبرني هول معاناتها على البقاء بجانبها. كنت قلقًا بشأن حالتها السريرية وشعرتُ بالمسئولية تجاهها. أسبوعًا تلو الأسبوع، مع ظهور المزيد من المعطيات، ازداد اكتئابها تدريجيًا. لقد أدهشتني طريقة استخدامها للعلاج، إذ لم أرَ من قبلُ أي مريض منتج مثلها. وأخيرًا -بكل صدق- أذهلتني الدراما التي كانت تتكشَّف أمامي، حيث قدَّم كلُّ أسبوع حلقة جديدة ومثيرة ويَصعُب التنبؤ بأحداثها مطلقًا.

تذكَّرَت «بيني» طفولتها في «أتلانتا» في ولاية «جورجيا»؛ طفولة كئيبة وفقيرة إلى أبعد الحدود. تعرَّضت والدتها؛ تلك المرأة الحانقة

والمثيرة للشك، إلى ضغوط هائلة من أجل إطعام وكسوة «بيني» وشقيقتيها. كان والدها يجني ما يكفي من المال بوصفه عامل توصيل للطلبات في متجر كبير، لكنه كان -حسب رواية والدتها طبعًا- رجلًا قاسيًا بائسًا مات بسبب إدمانه على الكحول عندما كانت «بيني» في الثامنة من عمرها. كل شيء تغيَّر عندما تُوُفِّي والدها. أصبحوا يفتقرون إلى المال، وعملت والدتها اثنتي عشرة ساعة في اليوم مُنظِّفةً للملابس وقضت معظم الليالي في شرب الكحول ومصاحَبة الرجال في حانة محلية. عندها أصبحت «بيني» من «أطفال المفاتيح».

كان ذلك آخر منزل تستقر فيه العائلة، حيث أصبحوا يتنقلون من شقة إلى أخرى، وكان أصحاب الشقق يطردونهم لعدم دفع الإيجار. حصلت «بيني» على أول وظيفة لها في سن الثالثة عشرة، وتركت المدرسة في الخامسة عشرة. وبحلول سن السادسة عشرة كانت قد أصبحت مدمنة على الكحول. تزوجت وطلقت زوجها قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، وتزوجت مرة أخرى وهربت إلى الساحل الغربي في التاسعة عشرة، حيث أنجبت ثلاثة أطفال، واشترت منزلها، ودفنت ابنتها، وطلقت زوجها، وسدَّدت أول دفعة من ثمن قطعة الأرض من أجل بناء المقبرة.

لقد أدهشني موضوعان مؤثران على وجه الخصوص في رواية «بيني» عن حياتها، أحدهما هو أن الحياة كانت ظالمة بحقها، وأن كل شيء عمِل ضدها عندما كانت في الثامنة من عمرها. كانت أعز أمنياتها لحياتها التالية، وحياة «كريسي» أيضًا، أن تكون «فاحشة الثراء».

أما الموضوع الآخر فكان «الهرب»، وليس الهرب من «أتلانتا» وعائلتها والفقر وإدمان الكحول فحسب، بل الهرب من مصير «السيدة العجوز المجنونة الفقيرة»، كما حدث مع والدتها، حيث علِمَت «بيني»

مؤخرًا أن والدتها دخلت عدة مستشفيات نفسية على مدى السنوات الماضية.

كان الهرب من مصيرها -مصير طبقتها الاجتماعية، ومصير «السيدة العجوز المجنونة الفقيرة»- دافعًا رئيسيًّا في حياة «بيني». لقد جاءت إلى عيادتي هربًا من الجنون؛ إذ كان في مقدورها التعامل مع الفقر، حسب قولها. فلا شك في أن رغبة «بيني» في الهرب من مصيرها هي التي غذَّت إدمانها على العمل وجعلتها تعمل لساعات طويلة مرهقة.

ومن دواعي السخرية أيضًا أن الهرب من مصير الفقر والفشل لم يتعثَّر إلا بعد أن اصطدم بمصير أعمق، ألا وهو المحدودية المتجذرة في هذه الحياة. مثل معظمنا، لم تتصالح «بيني» مع حتمية الموت قط، إلا أنها واجهت صعوبة أكبر. لقد كانت نشيطةً بطبيعتها -فكَّرتُ في مطاردتها لتجار المخدرات على الطريق السريع- وكان أحد أصعب الأشياء التي واجهتها عند وفاة «كريسي» هو عجزها.

كنتُ معتادًا على قيام «بيني» بالإفصاح عن أشياء جديدة ومهمة، إلا أنني لم أكن مستعدًّا للمفاجأة الصاعقة التي كشفَت عنها في جلستنا الحادية عشرة، أي ما قبل الأخيرة. كنا نتحدث عن نهاية رحلة علاجها، وكانت تصف لي كيف أنها أَلِفَت مقابلتي وأن وداعي الأسبوع المقبل سيكون أمرًا صعبًا، وأنها ستضيف خسارتي إلى سلسلة الخسائر التي تعرَّضَت لها، عندما قالت بصورة عابرة: «هل أخبرتك في السابق أنني أنجبت توءمين عندما كنت في السادسة عشرة من عمري؟».

أردت حينها أن أصرخ: «ماذا؟ توءمين؟ في السادسة عشرة؟ ماذا تقصدين بـ «هل أخبرتك في السابق؟» أنت تعرفين حق المعرفة أنك لم تخبريني بذلك!» ولكن بما أنه لم يكن لدينا سوى بقية هذه الجلسة

والجلسة التي تليها، تجاهلتُ الأسلوب الذي كشفَت به عن هذا الأمر وتعاملتُ مع محتوى الخبر بحدِّ ذاته.

«كلا، لم تخبريني. ألا تُطلعيني على ما جرى؟».

- «حسنًا. حبلت في سن الخامسة عشرة، ولهذا السبب تركت المدرسة. لم أخبر أحدًا إلا بعد أن فات الأوان، وكنت عاجزةً عن فعل أي شيء حيال ذلك، فقررت إنجاب الطفل، ليتبين أنني كنت حبلى بالفتاتين التوءمين». سكَتَت هنا «بيني»، ثم قالت إن خلْقها يؤلمها. من الواضح أن الحديث عن هذا الأمر كان أصعب بكثير مما كانت تتظاهر به.

سألتُها عن مصير التوءمين.

«قالت وكالة الرعاية الاجتماعية إنني لا أصلح لكي أكون أمًّا -كانوا على حق على ما أعتقد- لكنني رفضت التخلي عنهما وحاولت رعايتهما، إلا أنهم جرَّدوني منهما بعد نحو ستة أشهر. زرتهما عدة مرات إلى أن تم تبنِّيهما. انقطعت أخبارهما منذ ذلك الحين، ولم أحاول معرفة ما آل إليه مصيرهما. ثم غادرتُ «أتلانتا» ولم أنظر إلى الوراء نهائيًا».

- «هل تفكرين فيهما كثيرًا؟».

- «كلا، لم يحدث هذا قبل الآن. خطر ذكرهما على بالي عدة مرات بعد وفاة «كريسي» مباشرة، لكن لم أشغل نفسي بهما إلا في الأسبوعين الماضيين. أفكِر في مكان وجودهما وفي حالهما، وأتساءل إذا كانتا غنيَّتين أم لا. كان هذا هو المعروف الوحيد الذي طلبتُه من وكالة التبني. قالوا لي إنهم سيحاولون تلبيته. أقرأ اليوم في الصحف على الدوام عن أمهات فقيرات يَبِعْن أطفالهن لعائلات غنية، لكنني كنت أجهل هذه الأمور عندها».

قضينا بقية هذه الجلسة وجزءًا من جلستنا الأخيرة في استكشاف تداعيات المعلومات الجديدة. بطريقة غريبة، استطعنا التعامل مع نهاية العلاج بفضل بَوْحها هذا، لأنه أعادنا إلى نقطة البداية، وإلى ذلك الحلم الأول -الذي كان غامضًا حتى هذه اللحظة- حيث كان ابناها الصغيران يرتديان ملابسهما كالفتيات، ويقفان على منصة للعرض في مؤسسة ما. لا بد أن وفاة «كريسي» وخيبة أمل «بيني» العميقة في ابنيها أشعرتاها بالندم مجددًا بسبب تخليها عن ابنتيها، وجعلتاها تظن أنه إضافةً إلى أن الموت أخطأ في الاختيار، فإنها فقدت الطفلين الخطأ لوكالة التبني.

سألتُها إذا ما كانت تشعر بالذنب لأنها تخلَّت عن طفلتيها، فأجابتني بواقعيةٍ أن ما فعلَته كان الأفضل لها ولهما؛ فلو احتفظَت بهما في سن السادسة عشرة لكانت حكَمَت على نفسها بالحياة ذاتها التي عاشتها والدتها، وكان من الممكن أن يصبح ذلك كارثة بالنسبة إلى الطفلتين، فلم يكن بإمكانها أن تقدِم لهما أي شيء بوصفها أمًّا عزباء. هذه هي اللحظة التي عَلِمتُ فيها المزيد عن سبب امتناع «بيني» عن إخباري بقصة التوءمين في وقت سابق. كانت تشعرُ بالخجل لأنها لا تعرف هوية الأب، فقد ملأت الفوضى الجنسية سنوات مراهقتها. في الواقع، كانت «بيني» «الفاسقة الفقيرة البيضاء في المدرسة» (كانت هذه كلماتها)، لذلك ضاعت هوية الوالد الحقيقية بين عشرة صبية على الأقل. لا أحد يعرف شيئًا عن ماضيها أو عن توءميها أو سُمْعتها في المدرسة الثانوية، حتى زوجها، وكانت تحاول الهرب من هذا الواقع أيضًا.

أنهت «بيني» الجلسة عندما قالت: «لم أخبر أحدًا سواك بهذ القصة».

- «ما شعورك حيال ذلك؟».

- «مشاعري مختلطة بهذا الشأن. لقد فكَّرتُ كثيرًا في إخبارك، وتصوَّرتُ أنني أخوض في الأحاديث معك طوال هذا الأسبوع».

- «مختلطة إلى أي مدى؟».

- «شعرتُ بالخوف والارتياح والاستياء والتفاؤل والإحباط»، سردَت «بيني» هذه الكلمات بسرعة، لكن لأنها لا تحتمل تناول المشاعر الضعيفة، كان الانزعاج ينال منها. تنبَّهَت إلى نفسها وتريَّثَت: «كنت أخشى أن تحكم عليَّ على ما أعتقد. أريد اجتياز جلستنا الأخيرة الأسبوع المقبل مع الحفاظ على احترامك لي».

- «هل تعتقدين أنني لا أحترمك؟».

- «وكيف لي أن أعرف ذلك؟ كلُّ ما تفعله أنت هو طرح الأسئلة».

كانت على حق. كنا نقترب من نهاية الجلسة الحادية عشرة، ولم يعد بإمكاني الكتمان بسبب ضيق الوقت.

«اطمئني يا «بيني»؛ فكلما تكلَّمتِ أكثر، أُعجِبتُ بشخصيتك أكثر. أحترمك جدًّا على المصاعب التي غلبتِها والإنجازات التي حقَّقتِها في حياتك».

انفجرت هنا «بيني» بالبكاء، ثم أشارت إلى ساعتها لتذكِّرني بأن وقتنا قد انتهى، وهُرِعَت إلى خارج المكتب ووَجْهُها لا يزال مدفونًا في منديل «الكلينكس».

بحلول جلستنا الأخيرة قالت لي إنها أمضت معظم الأسبوع في البكاء. عندما كانت في طريقها إلى المنزل بعد الجلسة السابقة ذهبت إلى المقبرة وجلست بجوار قبر «كريسي»، وكما كانت تفعل في كثير من الأحيان، بكت على ابنتها، لكن الدموع في ذلك اليوم انهمرت بلا هوادة. استَلْقَت

«بيني» وعانقت شاهد قبر «كريسي»، وراحت تبكي بشدة أكبر. لم تَبكِ على «كريسي» فحسب، بل، أخيرًا، بكت على جميع خسائرها الأخرى.

بكَت على ابنيها، وعلى السنوات التي ذهبت سُدًى، وعلى حطام حياتهما. بكَت على ابنتيها اللتين خسرتهما ولم تعرفهما يومًا. بكَت على والدها، أيًّا كان، ومهما كان. بكَت على زوجها، وعلى الأوقات الواعدة التي عاشاها معًا في شبابهما. حتى إنها بكت على والدتها العجوز المسكينة والأخوات اللواتي أَقْصَتْهن من حياتها قبل عشرين عامًا. لكن الأهم من ذلك كله أنها بكَت على نفسها، وعلى الحياة التي حلمَت بها ولم تعشِها يومًا.

سرعان ما انتهى وقتنا. وقفنا وسرنا نحو الباب، ثم تصافحنا وافترقنا. شاهدتها تنزل الدرج، فرأتني وأنا أراقبها. استدارت وقالت لي: «لا تقلق بشأني، سأكون بخير. تذكّر ...» أمسكَت بسلسلة فضية كانت ترتديها حول رقبتها– «... كنتُ من أطفال المفاتيح».

الخاتمة

رأيت «بيني» مرة أخرى، بعد مُضِي عام واحد، عندما عدت من إجازتي. وشعرت بكثير من الارتياح لأنَّها كانت قد تحسَّنت كثيرًا. أعلم أنَّها طمأنتني سابقًا بأنها ستكون بخير، إلا أنني كنت قلِقًا للغاية بشأنها. كانت «بيني» أوّل مريضة لديَّ تكشف عن مكنوناتها المؤلمة في مثل هذا الوقت القصير. كما لم أعرف من قبلُ مريضةً تبكي بصوت مرتفع مثلها. (لقد اعتادت سكرتيرتي، التي يقع مكتبها بجوار مكتبي مباشرة، على أخذ استراحات طويلة لتناول القهوة خلال جلسات «بيني»).

في جلستنا الأولى، قالت لي «بيني»: «ما عليك سوى أن تضعني على الطريق الصحيح، وأنا سأعتني بالباقي». وهذا ما حدث فعلًا. خلال العام التالي لعلاجنا، لم تستشر «بيني» المعالج الذي اقترحتُه لها، لكنَّها استمرت في إحراز التقدم بمفردها.

لقد اتَّضح لي خلال جلسة المتابعة التي أجريناها أن حزنها، الذي كان مستعصيًا للغاية، أصبح أكثر مرونةً. صحيحٌ أنَّها لا تزال امرأةً مسكونةً لكنَّ شياطينها عاشت في الحاضر بدلًا من الماضي. وأصبحت تعاني اليوم بسبب إهمالها لابنيها في السابق، وليس لأنَّها نسيت الأحداث المحيطة بوفاة «كريسي».

في الواقع، إن سلوكها مع ابنيها أكثر الأدِلَّة الملموسة على التغيير، حيث عادا إلى المنزل، وعلى الرغم من أنَّ الصراع بين الأمِّ والولدين كان لا يزال محتدمًا، فقد تغيَّر طابعه. توقَّفت «بيني» وابناها عن الشجار حول تسديد مدفوعات أرض المقبرة وحفلات أعياد الميلاد لـ «كريسي»، وصاروا يتجادلون حول رغبة «برنت» في استعارة الشاحنة الصغيرة وحقيقة أنَّ «جيم» طُرد من كلِّ وظيفةٍ حصل عليها.

علاوةً على ذلك، استمرَّت «بيني» في فصل نفسها عن «كريسي»؛ أضحت زياراتها للمقبرة أقصر وأقلَّ تواترًا، وتبرَّعت أيضًا بمعظم ملابس وألعاب «كريسي» وأعطت غرفتها لـ «برنت». كما أزالت وصيَّتها الأخيرة عن الثلاجة، وكفَّت عن الاتصال بأصدقاء «كريسي» وتخيُّل الأحداث التي كانت ستعيشها ابنتها لو ظلت على قيد الحياة، مثل حفلة تخرجها أو تقدُّمها للجامعة.

كانت «بيني» شخصًا مكافحًا. وأعتقد أنني عرفت ذلك منذ البداية. تذكَّرت اجتماعنا الأوَّل، حيث كنت مصمِّمًا على ألا أُضطرَّ إلى عرض العلاج عليها. ومع ذلك، حصلت «بيني» على ما كانت تسعى للحصول عليه: العلاج، على يد أستاذ في جامعة «ستانفورد»، وبالمجَّان أيضًا. كيف حدث ذلك؟ هل سارت الأمور هكذا بشكل طبيعي؟ أم أنَّها ناورتني بمهارة عالية؟

أو ربَّمَا كنت أنا من قام بالمناورة؟ لا يهمُّني ذلك حقًّا. فأنا أيضًا استفدت من عَلاقتنا. كنت أرغب باكتساب المعرفة عن الفجيعة، وقد اصطحبتني «بيني» في غضون اثنتي عشرة ساعة فقط، طبقةً تلو الأخرى، إلى صميم الحزن.

أولًا، استكشفنا الشعور بالذنب، وهي حالة ذهنية لا يهرُب من قبضتها سوى عدد قليل من الناجين. شعرَتْ «بيني» بالذنب بسبب فقدان الذاكرة، ولأنها لم تتحدَّث أكثر عن الموت مع ابنتها. يشعر الناجون الآخرون بالذنب بسبب أشياء أخرى. مثلًا، لعدم قيامهم بما يكفي، وعدم الإسراع في طلب المساعدة الطبية، وعدم اعتنائهم بالآخر أكثر ورعايته بشكل أفضل. إحدى مريضاتي، التي كانت زوجة يقظةً جدًّا، لزمت جانب زوجها على الدوام تقريبًا لعدة أسابيع أثناء دخوله المستشفى للمرة الأخيرة، لكنها جلَدت ذاتها لعدة سنوات لأنه مات خلال الدقائق القليلة التي خرجت فيها لشراء صحيفة.

يبدو لي أن شعور المرء بأنه «كان عليه أن يُقدِّم أكثر من ذلك» يعكس رغبة كامنة في السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه. فإن إحساسه بالذنب بسبب التقصير في فعل شيءٍ ما يترتب عليه الإحساس بأن هناك أمرًا معينًا كان بالإمكان فعله: وهي فكرةٌ مريحة تُغوينا بعيدًا

من عجزنا الواضح في مواجهة الموت. نحن محاطون بوهم معقَّدٍ يجعلنا نعتقد أن لدينا قوةً ونموًّا غير محدودَيْن؛ ولذلك يؤمن كلُّ واحدٍ مِنَّا، إلى أن تحين أزمة منتصف العمر على الأقل، بأن الوجود عبارة عن مسار مُعبَّدٍ بالإنجازات يتصاعد إلى الأبد، ويعتمد على الإرادة وحدها.

قد يتحطم هذا الوهم المريح عندما يمُرُّ المرء بتجربةٍ ضرورية لا رجعة فيها، وغالبًا ما يشير إليها الفلاسفة باسم التجربة الحَدِّيَّة (boundary experience). من بين جميع التجارب الحَدِّيَّة الممكنة، لا شيء مثل دُنُوِّ موتنا -كما في قصة «كارلوس»: «لو كان الاغتصاب قانونيًّا ...»- يضعنا وجهًا لوجه وبقوةٍ كبيرة أمام زوالنا وعَرَضية وجودنا (ولا شيء مثله أكثر قدرةً على إحداث تغيير شخصي دراماتيكي فوري).

التجربة الحَدِّيَّة الشديدة الأخرى هي وفاة شخص نحبه عزيزٌ علينا، كالزوج أو الزوجة أو الصديق، مما يحطم وهمنا بأننا محصَّنون. لكن أكبر خسارة يصعُب تحمُّلها، بالنسبة لمعظم الناس، هي وفاة الأولاد. تبدو الحياة عندها وكأنها تشن هجومها على جميع الجبهات: يشعر الآباء بالذنب والخوف لعدم قدرتهم على التصرف؛ ويغضبهم عجز وبرودة الكوادر الطبية؛ قد يشتكون من ظلم القدر أو الكون (يفهم الكثيرون منهم في النهاية أن ما بدا لهم أنه ظلمٌ هو في الواقع لامبالاةٌ كونية). بالمقابل، يواجه الآباء المفجوعون حقيقة موتهم أيضًا: فهم لم يتمكنوا من حماية طفل عاجزٍ، ومع تعاقب الأيام تظهر لهم الحقيقة المرة المتمثِّلة في أنهم هم بدورهم لن يجدوا من يحميهم. «ومن ثَمَّ»، كما كتب «جون دون» (John Donne)، «لا تحاول أن تعرف لمن تُقرَعُ الأجراس؛ إنها تُقرَعُ من أجلك أنت».

لقد تجلى خوفُ «بيني» من موتها بشكل غير مباشر، مع أنه لم يظهر بوضوحٍ في جلسات العلاج. على سبيل المثال، كانت قلقةً للغاية من أن «ينفَد الوقت» قبل أن تكمل تعليمها وتأخذ إجازة وتتمكّن من ترك إرثٍ ملموسٍ بعد وفاتها؛ وقبل أن ننتهي من العمل على علاجها. علاوةً على ذلك، أظهرتْ في وقت مبكرٍ من العلاج أدلة بارزةً على قلق الموت في أحلامها. فقد واجهت الموت في حُلمين اثنين من خلال الغرق: في الأول، كانت تتشبَّث بألواحٍ خشبيةٍ عائمةٍ ضعيفةٍ، بينما ارتفع مستوى الماء بلا رحمةٍ نحو فمها. أمّا في الحلم الآخر، فقد رأتْ أنها تعانق بقايا منزلها العائمة وتطلب المساعدة من طبيب يرتدي ملابس بيضاء، لكنه دهس أصابعها بدلًا من إنقاذها من الماء.

عندما تناولنا هذين الحُلمين، لم أتطرَّق إلى مخاوفها بشأن الموت، لأن اثنتي عشرة ساعة من العلاج هي فترة موجَزةٌ جدًّا ولا تكفي للتحقُّق من قلق الموت والتعبير عنه والاستفادة منه. بدلًا من ذلك، استخدمتُ محتوى أحلامها لاستكشاف الموضوعات التي ظهرت سابقًا في علاجها، ويُعَد هذا الاستخدام العملي للأحلام أمرًا شائعًا في العلاج النفسي. فالأحلامُ مثل الأعراض، أي ليس لها تفسيرٌ واحد: تتعدد عواملها المسبِّبة[1] overdetermined وتحتوي على الكثير من مستويات المعنى. لا يمكن لأي معالجٍ أن يحلِّل الأحلام بشكل شامل، بل يتعامل معظم المعالجين مع الأحلام كما ينبغي من خلال تفحُّص موضوعاتها التي من شأنها أن تُسَرِّع عملية العلاج الآنية.

(1) تضافُر العلل overdetermination، وفقًا لنظرية «فرويد» في علم النفس، هو تعدُّد العوامل المستقلة التي تسبب التجارِب السيكولوجية وتظهر إما في الأحلام أو في الأفكار الواعية. (المترجم).

ومن هنا ركَّزتُ على موضوعات خسارة منزلها وانجراف أُسس حياتها في الماء. كما استخدمتُ الأحلام لتطوير عَلاقتنا الخاصة. فمن الشائع أن يرمز الغوص في المياه العميقة إلى فعل الغوص في أعماق اللاوعي. وبالطبع، كنت أنا الطبيب الذي كان يرتدي ملابس بيضاء ورفض مساعدتها وداس على أصابعها. استكشفت «بيني» بعد هذا النقاش، لأول مرة، رغبتها في الحصول على الدعم والتوجيه مني واستيائها من اعتباري إياها موضوعًا بحثيًا بدلًا من مريضة.

كان نهجي عقلانيًا في التعامل مع شعورها بالذنب وتشبثها العنيد بذكرى ابنتها: واجهتُها بالتناقض بين معتقداتها بتناسخ الأرواح وسلوكها. في حين أن التِماسَ العقل بهذا الشكل غالبًا ما يفتقر للفاعلية، كانت «بيني» في الأساس شخصًا متكاملًا وواسع الحيلة، واستجابت للخطاب الإقناعي.

في المرحلة التالية من العلاج، استكشفنا فكرة أنه «إذا أراد المرء أن يتعلَّم كيفية التعايش مع الموتى، يجب عليه أولًا أن يتعلم كيفية التعايش مع الأحياء». لقد نسيتُ ما إذا كانت هذه كلمات «بيني» أو كلماتي أو كلمات أحد زملائي، لكنني متأكدٌ من أنها هي التي جعلتني أدرك أهمية هذا المفهوم.

من نواحٍ كثيرة، كان ولداها هما الضحيتين الحقيقيتين لهذه المأساة، كما يحصلُ مع معظم أشقاء الأطفال الذين يموتون. في بعض الأحيان، كما هو الحال في عائلة «بيني»، يعاني الأطفال الناجون بسبب ارتباط قسطٍ كبير من طاقة الوالدين بالطفل الميت، الذي يُقدَّس وتُحيَى ذكراه. قد يشعر بعض الأطفال بالاستياء تجاه الشقيقة أو الشقيق الراحل بسبب استحواذه على وقت وطاقة الوالدين. وغالبًا ما يظهر الاستياء جنبًا إلى

جنب مع حزنهم وتفهُّمهم لمعضلة والديهما. إن المزيج هذا هو بمثابة التركيبة المثالية لشعور الطفل الناجي بالذنب وإحساسه بعدم قيمته وشره.

السيناريو الآخر المحتمل، الذي لم يحدث مع «بيني» لحسن الحظ، هو أن ينجب الوالدان على الفور طفلًا آخر، ليحل محل الطفل الراحل. تقود الظروف غالبًا إلى مثل هذا الإجراء، ولكنَّه يخلق المشاكل بدلًا من حلها أحيانًا. فقد يلحق الضرر بعَلاقة الوالدين مع الأطفال الذين لا يزالون على قيد الحياة. بالإضافة إلى ذلك، سيُعاني الطفل البديل، خاصةً إذا ظلَّ حزن الوالدين عالقًا؛ حيث ينشأ حاملًا آمال والدَيْه في تحقيق الأهداف التي لم يحقِقوها، وهو أمرٌ شاقٌّ بما فيه الكفاية، لكنَّ العبء الإضافي المتمثل في إيواء رُوح الشقيقة أو الشقيق الميت قد يَطغى على عملية تشكيل الطفل لهُويَّته.

هناك سيناريو شائع آخر أيضًا، وهو أن يفرط الآباء في حماية الأطفال الباقين على قيد الحياة. لقد عَلِمتُ في جلسة المتابعة أن «بيني» كانت قد وقعت فريسةً لهذه الديناميكية، فأصبحت تخشى أن يقود أيٌّ من ابنيها شاحنتها؛ لذلك ترددت في إعارتهم إياها، ورفضت رفضًا قاطعًا السماح لأيٍّ منهما بشراء دراجة نارية. علاوةً على ذلك، أصرت على أن يُجريا فحوصاتٍ طبية متكررة بلا داعٍ من أجل الكشف عن السرطان.

عندما ناقشنا ابنيها، شعرتُ أنه يجب عليَّ أن أتوخى الحذر وأن أقنَع بمساعدتها على فهم عواقب وفاة «كريسي» من وجهة نظرهما. لم أكن أريد أن «يكتشفَ» ذنب «بيني»، الذي تخلصَّنا منه مؤخرًا، إهمالَها الهائل لأولادها وأن يربط ذاته بهذا الموضوع الجديد. في نهاية المطاف، بعد مرور أشهر، شعرتْ بالذنب تجاه عَلاقتها بابنَيها، لكنها بحلول ذلك الوقت استطاعت تحمله وتطويره نحو الأفضل بتغيير سلوكها.

بالنسبة للمصير الذي آل إليه زواج «بيني»، فهو، للأسف، شائعٌ جدًّا في العائلات التي فقدت طفلًا. تُظهر الأبحاث -على عكس التوقعات بأن مأساة وفاة الطفل قد توحد الأسرة- أن العديد من الأمهات والآباء المفجوعين يتحدَّثون عن تزايد الخلاف في حياتهم الزوجية. لذا فإن تسلسل الأحداث في زواج «بيني» هو تسلسلٌ نموذجي: ينهج الزوج والزوجة طرقًا مختلفة للتعامل مع الحزن تتعارض فيما بينها كليًّا، وغالبًا ما يكونان غير قادرَيْن على فهم ودَعم أحدهما الآخر؛ وهكذا، يتدخل حِدادُ كل من منهما بحداد الآخر؛ مما يسبب الاحتكاك والاغتراب، والانفصال في النهاية.

يمكن أن يقدم العلاج النفسي الكثير للآباء الثَّكالى. مثلًا، قد يسلط علاج الأزواج الضوء على مصادر التوتر في الحياة الزوجية ويساعد كل شريك على التعرُّف على طريقة حزن الآخر واحترامها.

أما إذا كان حزن الفرد ذا خلل وظيفي، فقد يساعده العلاج على تغيير هذا الحال. وعلى الرغم من حذري الدائم من تعميم المفاهيم، فغالبًا ما يكون تنميط الذكور والإناث في هذه الحالة صحيحًا. تحتاج العديد من النساء، مثل «بيني»، إلى تجاوز التعبير عن خسارتهن بشكل متكرِّر والانغماس مرةً أخرى مع الأحياء والمشاريع المستقبلية وكل الأشياء التي يمكن أن تجعل لحياتهن الخاصة معنى. بالنسبة للرجال، يجب تعليمهم كيفية التعايش مع حزنهم ومشاركته (بدلًا من قَمعه والتهرب منه).

في المرحلة التالية من تعاملها مع الحزن، سمحتْ «بيني» لحُلمَيْها -القطار المُحلِّق في السماء، والتطور، والزفاف، والبحث عن غرفة تغيير الملابس- بإرشادها إلى اكتشافٍ مهم للغاية، وهو أن حزنها على

«كريسي» كان ممزوجًا بالحزن على نفسها وعلى رغباتها غير المحققة وإمكاناتها التي تعذَّر استغلالها.

لقد أدَّت نهاية علاقتنا إلى عثور «بيني» على آخر طبقة ممكنة من الحزن: كانت تخشى نهاية العلاج لعدة أسباب. فبطبيعة الحال، ستفتقد إلى إرشاداتي المهنية، وستفتقدني أنا شخصيًا؛ لأنها لم تكن على استعداد للثقة برجل وقبول المساعدة منه قبل أن تلقاني. لكن فوق ذلك كله، إنَّ مجرد الانتهاء من العلاج أثار لديها ذكرياتٍ حية عن جميع الخسائر المؤلمة الأخرى التي تحمَّلتها من دون أن تسمح لنفسها باختبار المشاعر والحِداد.

الكثير من التغيير العلاجي الذي طرأ على «بيني» كان ذاتيَّ المصدر والوجهة، وهذه حقيقةٌ تحتوي على درسٍ جَللٍ لجميع المعالجين النفسيين: في أولى سنوات تدريبي، حاول أحد أساتذتي مواساتي، حين قال لي: «تذكر أنك لن تتمكن من القيام بكل شيء. كن راضيًا عن نفسك بمساعدة المريض على إدراك ما يجب فعله، ومن ثَمَّ ثِقْ في رغبته بالنمو والتغيير».

4

السيدة البدينة

من المعروف أن أفضل لاعبي التنس في العالم يتدربون خمس ساعات يوميًا للتخلص من نقاط الضعف في أسلوب لعبهم. ويطمح معلِّمو «الزِّن» إلى الهدوء الذهني، أما راقصة الباليه فتطمح إلى تحقيق التوازن المثالي، فيما يراقب الكاهن ضميره طوال حياته. إذ إن كل مهنةٍ تحتوي على فسحة من الاحتمالات؛ حيث يسعى الممارس للوصول إلى الكمال. بالنسبة لاختصاصي العلاج النفسي، يشار إلى هذا المجال – تلك المدرسة الأبدية القائمة على تحسين الذات التي لا يمكن للمعالج أن يتخرج منها أبدًا– باسم التحويل المضاد. في حين أن مصطلح «التحويل» يشير إلى المشاعر التي يربطها المريض خطأً بالمعالج النفسي (أي «ينقلها» إليه) –رغم أنها نشأت نتيجة علاقات سابقة– فإن التحويل المضاد هو العكس تمامًا: أي إنه يتجسد بالمشاعر اللاعقلانية المماثلة التي يشعر بها المعالج النفسي تجاه المريض. في بعض الأحيان، يكون التحويل المضاد دراماتيكيًا ويجعل العلاج العميق أمرًا مستحيلًا: تخيل يهوديًا يعالج نازيًا، أو امرأةً تعرضت للاعتداء الجنسي في الماضي تعالج مغتصبًا. ولكن، عندما يكون أخف وطأةً، يتسلَّل التحويل المضاد إلى جميع دورات العلاج النفسي.

اليوم الذي دخلت فيه «بيتي» مكتبي، في لحظةَ رؤيتي لها وهي تتجه ببدنها الثقيل ذي المئتين وخمسين رطلًا، وبطولها البالغ خمسة أقدام وبوصتين نحو كرسي مكتبي العصري النظيف، عرفتُ فورًا أن بلاءً مهولًا اسمه التحويل المضاد كان بانتظاري.

لطالما نفَرتُ من النساء البدينات، كما أجد أنهن مقزِّزات، بسبب تمايلهن الغريب من جانب إلى جانب، وغياب معالم الجسد لديهن: الأثداء والأفخاذ والأرداف والأكتاف وخط الفك وعظام الخد؛ كل ما أحب أن أراه في المرأة يختفي في كومة من اللحم. وأكره ملابسهن، تلك الفساتين الفَضفاضة عديمة الشكل، أو الأسوأ منها حتى، أي بناطيل الجينز الزرقاء الضخمة والقاسية. كيف يجرؤْنَ على فرض هذا الجسد علينا جميعًا؟

من أين تأتي مشاعري المؤسفة هذه؟ لم يخطر لي يومًا الاستفسار عن ذلك. فهي عميقة جدًّا لدرجة أنني لا أعتبرها تحاملًا عليهن. ولكن إذا طُلِبَ مني أن أشرحها، فيمكنني ربما أن أشير إلى النساء البدينات المتسلطات اللواتي شكّلن جزءًا من عائلتي، بما في ذلك والدتي، في السنوات الأولى من حياتي. كانت السِمنة المتفشية في عائلتي واحدةً من الأمور التي تَوَجَّب عليَّ تركها خلف ظهري عندما قررتُ -كوني أمريكيًّا من الجيل الأول بطموحات كبيرة- أن أنفُضَ غبار مستوطنات الـ «شتيتل» (Shtetl) الروسية عن أقدامي إلى الأبد.

أستطيع تخمين أسبابٍ أخرى أيضًا. إذ لطالما كنت معجبًا بجسد المرأة، ربما أكثر من العديد من الرجال. أنا لست معجبًا بجسد المرأة فحسب، كلا؛ بل لطالما عظَّمته وقدَّسته وافتُتنت به، واضعًا إياه في مكانةٍ عاليةٍ، وجاعلًا منه هدفًا يتجاوز كل أشكال المنطق. هل أشعر

بالسخط على المرأة البدينة بسبب تدنيسها لرغباتي، ونفخها واستباحتها لكل السمات الجميلة التي أقدِرها؟ هل أشعر بالاستياء لأنها جرَّدتني من وهمي اللذيذ وكشفت قاعدته اللحمية وهي في حالةٍ من الاهتياج؟

كنتُ قد نشأتُ في العاصمة «واشنطن» عندما كانت مقسَّمةً عِرقيًا، وكنت الابن الوحيد لعائلة بيضاء لم يكن هناك سواها في حي يقطنه السود. لقد هاجمني السود في الشوارع بسبب بياضي، وهاجمني البيض في المدرسة لأنني يهودي. لكن السِمنَة كانت في كل مكان؛ الأطفال البدينون أصحاب المؤخرات الكبيرة، هؤلاء الذين كانوا مَحطَّ السخرية، الذين نادرًا ما كان يقع الاختيار عليهم عند تشكيل الفرق الرياضية، الذين لا يستطيعون الركض حول المضمار؛ كنت بحاجةٍ إلى أن أكره أحدهم. ربما كانت هذه هي بداية المشكلة.

بالطبع، أنا لستُ وحيدًا في تحيُّزي. فالمحيط الثقافي يعزِّز هذا الأمر أينما ذهبنا. من منا يستطيع قول كلمةٍ طيبةٍ لسيدةٍ بدينة؟ ولكن ازدرائي أنا يتجاوز جميع المعايير الثقافية. في بداية حياتي المهنية، عملتُ في سجنٍ شديدِ الحراسة، حيث كانت أدنى جريمة ارتكبها أيٌّ من مرضاي هي جريمة القتل. إلا أنني لم أواجه صعوبةً كبيرةً في تقبُّل هؤلاء المرضى.

لكن عندما أرى سيدة بدينة تتناول الطعام، فجأةً أنزِل بضع درجات إلى الأسفل على سُلَّم التفاهم الإنساني، وتنتابني رغبةٌ بقذف الطعام بعيدًا عن يدِها وإغلاق فكيها بالأسلاك: «توقفي عن حشو معدتك! بحق الله، ألم تأكلي بما فيه الكفاية؟».

أحمد الله أن «بيتي» المسكينة لم تكن على دراية بذلك نهائيًا، عندما كانت تتقدَّم ببراءة نحو مقعدي. أخفضتْ جسدها ببطء، ورتَّبتْ طيات جسمها. ثم، من دون أن تطأ بقدميها الأرض بشكل كامل، نظرتْ إليَّ بعيونٍ مترقبة.

سألت نفسي: لماذا لم تصل قدماها إلى الأرض؟ فهي ليست قصيرة. كانت تجلس منتصبةً في الكرسي، كما لو كانت تجلس في حضنها. هل يمكن أن تكون مؤخرتها وفخِذاها منتفخين جدًّا لدرجة أن عليها أنْ تمُد قدميها أكثر لتصل بهما إلى الأرض؟ أزحتُ هذه المعضلةَ بسرعة عن ذهني؛ لأن «بيتي» جاءت إليَّ طلبًا للمساعدة. لكن بعد لحظة واحدة، وجدت نفسي أفكر بالشخصية الكرتونية الصغيرة البدينة في فيلم «ماري بوبينز» (Mary Poppins) –تلك الشخصية التي تغني أغنيةَ «سوبرك اليفراجيليستيسإكسبيادوشيوس» (Supercalifragilisticexpialido cious)– لأن «بيتي» تذكِرني بها. وبذلتُ بعض المجهود أيضًا لكي أتخلَّص من هذه الفكرة. مضت هذه الجلسة بأكملها هكذا وأنا أُبعِد الأفكار المهينة عن ذهني واحدةً تلو الأخرى من أجل أن أكرِّس انتباهي الخالص لـ «بيتي». تصورتُ أن «ميكي ماوس»، الذي يلعب دور تلميذ الساحر في فيلم «فانتازيا» (Fantasia)، كان يخلِّصني من الأفكار المُشتتة، حتى إنني اضطُرِرت إلى تحرير ذهني من تلك الصورة أيضًا لكي أعتني بأمر «بيتي».

كالعادة، بدأتُ بتحديد مساري عن طريق طرح الأسئلة الديموغرافية. أخبرتني «بيتي» أنها عزباء تبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، وأنها تعمل في قسم العلاقات العامة لصالح سلسلة متاجر كبيرة مقرها «نيويورك»، وقد نُقِلت «بيتي» قبل ثلاثة أشهر إلى «كاليفورنيا»، لمدة ثمانية عشر شهرًا، لكي تساعد الشركة على افتتاح فرعٍ جديد.

نشأتْ وحيدةً لوالديها في مزرعة صغيرة بسيطة في «تكساس»، حيث عاشت والدتها بمفردها منذ وفاة والد «بيتي» قبل خمسة عشر عامًا. كانت «بيتي» طالبة مُجِدة، وتخرَّجت من الجامعة الحكومية، ثم عملت

لمدة عامين في متجر في «تكساس»، وبعد ذلك نُقِلَت إلى المكتب الرئيسي في «نيويورك». على الرغم من أنها لطالما عانت من البدانة، ازداد وزنها بشكل ملحوظ في أواخر سني المراهقة. وباستثناء فترتين أو ثلاث فترات قصيرة عندما خسرت أربعين أو خمسين رطلًا باتِّباع نظام غذائي قاسٍ، كان وزنها يتراوح بين مئتين ومئتين وخمسين رطلًا منذ أن كان عمرها 21 عامًا.

شرعت بالعمل فورًا وسألت سؤالي الافتتاحي المعتاد: «ما المشكلة؟».

- «كل شيء»، أجابت «بيتي». كل شيء كان مضطربًا في حياتها، لا بل لم يكن لديها أي حياة، حسب قولها. كانت تعمل ستين ساعة في الأسبوع، ولم يكن لديها أصدقاء، ولا أي حياة اجتماعية أو أنشطة في كاليفورنيا. إذ إن حياتها كما اعتادت عليها كانت في «نيويورك»، لكنها إذا تقدمت بطلب نقلٍ الآن فستكون قد قضت على حياتها المهنية، التي كانت على المحك أساسًا؛ لأن «بيتي» لم تحظَ بشعبيةٍ كبيرة بين زملائها في العمل. كانت الشركة قد درَّبتها إلى جانب ثمانية مبتدئين آخرين من خلال دورة مكثَّفة استمرت ثلاثة أشهر. لكنها كانت مشغولةَ البال لدرجة أنها لم تؤدِ عملها على النحو المطلوب ولم تتدرج في وظيفتها من خلال الترقيات مثل زملائها الثمانية. كانت تعيش في شقةٍ مفروشة في الضواحي ولا تقوم بأي شيء سوى العمل والأكل، وتقضي الأيام عبثًا منتظرةً انتهاء الثمانية عشر شهرًا.

عندما كانت في «نيويورك»، زارت طبيبًا نفسيًا اسمه الدكتور «فاربر» Farber لمدة أربعة أشهر، وعالجها بالأدوية المضادة للاكتئاب. استمرت في تناولها إلا أنها لم تساعدها قَطُّ؛ كانت مكتئبةً للغاية. تبكي كل مساء

وتتمنى الموت، وتنام بشكل متقطع، وتستيقظ دائمًا بحلول الساعة الرابعة أو الخامسة صباحًا. تتجول «بيتي» في جميع أنحاء المنزل على الدوام، وفي أيام الأحد، أي يوم العطلة، لا ترتدي ملابسها نهائيًا، وتقضي اليوم في تناول الحَلْوَيات أمام التلفزيون. اتصلتْ بالدكتور «فاربر» في الأسبوع الماضي، فأعطاها اسمي واقترح عليها الاتصال للحصول على استشارة مني.

قلت لها: «أخبريني بالمزيد عن التحديات التي تواجهينها في حياتك».

فأجابت «بيتي» ضاحكةً: «لا يمكنني التوقف عن الأكل»، وأضافت: «أعلم أن تناولي للطعام دائمًا ما كان خارج نطاق السيطرة، لكنني وصلت الآن إلى طريقٍ مسدود حقًّا. لقد ازداد وزني عشرين رطلًا تقريبًا في الأشهر الثلاثة الماضية، وأصبح حجمي يَحُول دون قدرتي على ارتداء معظم ملابسي».

لقد فاجأني كلامها هذا. فقد بدت ملابسها عديمة الشكل ومطاطةً إلى ما لا نهاية، لدرجة أنني لم أتصور أن ملأها بشكل كامل شيءٌ ممكن.

«ما هي الأسباب الأخرى التي دفعتك للقدوم إلى مكتبي الآن؟».

- «زرت طبيبًا الأسبوع الماضي بسبب الصداع، وأخبرني أن ضغط دمي مرتفع بشكل خطير -٢٢٠ على ١١٠ تقريبًا- وأنه يجب عليَّ أن أبدأ في إنقاص الوزن. بدا عليه الاستياء، لكن لستُ واثقةً تمامًا مما إذا كان عليَّ أن آخذه على محمل الجِد، فالجميع في «كاليفورنيا» مهووسون بالصحة. وكان يرتدي الجينز وأحذية الركض في مكتبه».

تفوهت «بيتي» بكل هذه الكلمات بنبرة ضحوك غير رسمية، وكأنها تتحدَّث عن شخص آخر، أو كما لو كنت أنا وهي طالبَيْن في السنة الثانية في الكلية نتبادل الأحاديث في السكن الجامعي بعد ظهر يوم أحدٍ ماطر. أرادت حقًّا أنْ أنضم إلى حديثها المرح، وراحت تُلقي النكَات. كانت تتمتع بموهبةٍ في تقليد اللهجات، وقلدت طبيبها الهادئ في «مارين كاونتي» (Marin County) وعملاءَها الصينيين ورئيس عملها الذي ينحدر من الغرب الأوسط. أعتقد أنها ضحكت عشرين مرة على الأقل خلال الجلسة، وظلت معنوياتها مرتفعةً رغم أني رفضت رفضًا صارمًا أن تُرغمني على الضحك معها.

دائمًا ما أتعامل بجدية مع المرضى عندما يتعلق الأمر بعقد العلاج. فبمجرد أن أقبل علاج شخصٍ ما، فإنني ألتزم بمساندته على الدوام، وأكرِّس كل وقتي وطاقتي الضروريَّيْن لتحسين حالة المريض. والأهم من ذلك كله، ألتزم بالتواصل معه بوُدٍّ وصدق.

لكن هل بمقدوري أن أحقِّق أي صلةٍ مع «بيتي»؟ ألا يكفي أنني كنت أحاول جاهدًا رؤية وجهها متعدِّد الطبقات والمغطَّى باللحم؟ ناهيك عن تعليقاتها السخيفة المنفرة أيضًا. بحلول نهاية جلستنا الأولى، كان قد تملَّكني الغضب والملل. هل كان من الممكن أن أكون ودودًا معها؟ كانت «بيتي» أكثر إنسانٍ لم أرغب في التعامل بود معه. لكن هذه كانت مشكلتي أنا، ولا علاقة لـ «بيتي» بها. لقد مضى خمسة وعشرون عامًا على ممارستي هذه المهنة، وقد حان وقت التغيير بالنسبة لي. مثَّلت «بيتي» أصعب تحدٍّ واجهته في التعامل مع التحويل المضاد؛ ولهذا السبب بالذات عرضتُ عليها في ذلك الوقت أن أكون معالجها.

بكل تأكيد، لا يمكن لأحدٍ أن ينتقد المعالج الذي يصبو إلى إصلاح أسلوبه. ولكن، تساءلتُ بقلق، ماذا عن حقوق المريض؟ أليس هناك فرقٌ بين المعالج -الذي يحاول إزالة اللطخات التي تركها التحويل المضاد المَعيب- وبين الراقصة ومعلم «الزِن» اللذين يهدفان لتحقيق الكمال في تخصُّصاتهم؟ إن سعي لاعب كرة المضرب وراء تحسين إعادة إرسال الكرة بظهر المضرب يختلف الاختلاف كله عن محاولة أحدهم صقل مهاراته على حساب شخص آخر هش ومضطرب.

خطرت لي كل هذه الأفكار، لكنني رفضتها. لا شك أن «بيتي» وفَّرت لي الفرصة لتشذيب مهاراتي الشخصية كمعالج، لكن مرضاي المستقبليين سيستفيدون أيضًا من أي تقدُّم يمكنني تحقيقه. إلى جانب ذلك، فلطالما تدرب الحرفيون في مجال الخدمات الإنسانية على المرضى الأحياء. ولا يوجد بديلٌ لهذا. فكيف يمكن للتعليم الطبي، على سبيل المثال، أن ينجو من دون التدريب السريري للطلاب؟ ثم إنني دائمًا ما وجدت أن المعالجين المبتدئين الذين يتحلَّون بالمسئولية ويُشعرون الآخرين بإحساسهم بالفضول والحماس غالبًا ما يشكِلون علاقات علاجية ممتازة، وقد يتمتعون أحيانًا بفاعلية المحترفين المخضرمين ذاتها.

أُمسِكُ بمسبحتي المهنية وأردِّد: العلاقة هي التي تساعد على الشفاء؛ العلاقة هي التي تساعد على الشفاء؛ العلاقة هي التي تساعد على الشفاء. أقول هذه الجملة لطلابي كثيرًا. وأتحدَّث معهم أيضًا حول طرق التواصل مع المريض؛ كإبداء الاحترام الإيجابي غير المشروط، والتقبل الخالي من إطلاق الأحكام، والمشاركة الحقيقية، والتفاهم الوجداني. إذن كيف سأكون قادرًا على شفاء «بيتي» من خلال عَلاقتنا؟ إلى أي مدى سأكون صادقًا أو صريحًا أو متعاطفًا معها أو متقبلًا لها؟ كيف سأرد عندما

ستسألني عن مشاعري تجاهها؟ كنت آمل أن أتغير مع تدرج «بيتي» في علاجها (أو، بالأحرى، علاجنا). في الوقت الحالي، بدا لي أن تفاعل «بيتي» مع محيطها الاجتماعي كان بدائيًا وسطحيًا، ولن يكون هناك حاجة لإجراء تحليلٍ استقصائي للعَلاقة بين المعالج والمريض.

كنت أتمنى سرًا أن تُغطي سماتها البين-شخصية بطريقةٍ ما على عيوب مظهرها الخارجي -أي من خلال الحيوية أو الرشاقة العقلية التي وجدتُها لدى عددٍ قليلٍ من النساء البدينات- لكن، وا أسفاه! لم يحصل ذلك. فكلما عرفتها أكثر، قل اهتمامي بها.

خلال الجلسات القليلة الأولى، وصفتْ «بيتي» بالتفصيل الممل جدًا المشاكل التي واجَهتْها في الوظيفة مع العملاء والزملاء ورؤساء العمل. غالبًا ما وصفتْ لي، رغمًا عن تأوهاتي الداخلية، بعض المحادثات المبتذلة جدًا من خلال تقليد العديد من أطراف هذه المحادثات (لطالما كرهتُ ذلك). كما وصفتْ، بالتفصيل الممل أيضًا، جميع الرجال الجذابين في مكان عملها وكل المكائد الدقيقة المثيرة للشفقة التي كانت تنفذها لكي تتبادل معهم بضع جملٍ فقط. قاومتْ «بيتي» كل الجهود التي بذلتُها من أجل أن أفهم مكنوناتها بعض الشيء.

ولم يقتصر الأمرُ على أن محادثتنا الأولى التجريبية الطويلة جدًا كانت كالثرثرة في حفلة كوكتيل؛ بل كان لديَّ شعورٌ قوي بأننا حتى إذا تجاوزنا هذه المرحلة سنظل مُستمرين في المحادثات السطحية. شعرتُ أيضًا أنه سيكون محكومًا علينا -في جميع الجلسات- بالتحدُّث عن الأرطال والوجبات الغذائية وشكاويها التافهة عن العمل وأسبابِ عدم انضمامها إلى حصة التمارين الرياضية في المدرسة. يا رباه، أي ورطةٍ هذه التي أوقعت نفسي فيها؟!

تحتوي كل ملاحظةٍ من ملاحظاتي عن هذه الجلسات الأولى على عبارات مثل: «جلسةُ أخرى مملة»، «نظرتُ إلى الساعة كل ثلاث دقائق اليوم»، «أكثرُ مريضةٍ مملةٍ رأيتها في حياتي»، «كدتُ أغفو اليوم. اضطُرِرتُ إلى الجلوس منتصبًا في الكرسي لكي أبقى مستيقظًا»، «كدتُ أسقط عن كرسيِّي اليوم».

بينما كنت أفكر بجلب كرسي صُلب وغير مريح إلى مكتبي، خطر لي فجأةً أنه عندما كنت أخضع للعلاج على يد «رولو مي»[1] (Rollo May)، كان قد اعتاد الجلوس على كرسي خشبي مستقيم الظهر. قال لي حينها إنه يعاني من آلام في ظهره، لكنني عرَفته جيدًا لسنوات عديدة بعد ذلك وما سمعته يومًا يشتكي من هذه الآلام. هل من الممكن أن يكون قد ظن أنني أنا ...؟

ذكرتْ «بيتي» أنها لم تستسغ الدكتور «فاربر» لأنه غالبًا ما كان ينام خلال جلستها: الآن عرَفتُ السبب! عندما تحدَّثتُ إلى الدكتور «فاربر» عبر الهاتف، لم يأتِ على ذكر تلك القيلولات، بالطبع، لكنه قال لي طوعًا إن «بيتي» لم تتمكن من الانتفاع من العلاج. ليس من الصعب إذن فهم السبب الذي دفعه لوصف الأدوية لها؛ فنحن المعالجين غالبًا ما نلجأ لذلك عندما نعجز عن تحقيق أي شيء خلال العلاج.

من أين سأبدأ؟ وكيف سأبدأ؟ كافحتُ بحثًا عن دعامةٍ أستند إليها. فلم يكن هناك أي جدوى من التطرق إلى موضوع وزنها. ورغم أن «بيتي» أوضحتْ على الفور أنها كانت تأمُل أن تفكر بجدية في إنقاص وزنها على أثر العلاج، فإنها كانت لا تزال بعيدةً جدًّا عن هذه المرحلة. «عندما أكون مكتئبةً إلى هذا الحد، لا شيء سوى تناول الطعام يساعدني على الصبر».

(1) عالم نفس أمريكي بارز (1909 - 1994)، من مؤسسي علم النفس الوجودي. كان أحد أصدقاء «يالوم» أيضًا. (المترجم).

لكن عندما سلَّطتُ الضوء على اكتئابها، أقنعتْني بأن الاكتئاب كان استجابةً طبيعيةً للحياة التي كانت تعيشها. فمن مِنَّا لن يشعر بالاكتئاب منعزلًا في شقةٍ صغيرة مفروشة في إحدى ضواحي «كاليفورنيا» المجهولة لمدة ثمانية عشر شهرًا، بعيدًا عن حياته الحقيقية ومنزله، وأنشطته الاجتماعية، وأصدقائه؟

لذلك حاولتُ مساعدتها على التعامل مع وضع حياتها الراهن، لكنني لم أستطع إحراز أي تقدُّم يُذكَر. كان تفسيرها للأمور مروِّعًا. لم تكوِّن «بيتي» الصداقات بسهولة: مثل جميع النساء البدينات (لم تكُن بحاجة إلى إقناعي بهذه النقطة)، إضافةً إلى أن الناس في كاليفورنيا يتكتَّلون في جماعاتٍ صغيرة خاصة بهم ولا يرحِّبون بالغرباء. لذا اقتصرتْ عَلاقاتها الاجتماعية على مكان عملها، حيث كان زملاؤها مستائين من دورها الإشرافي. إلى جانب ذلك، كانوا يحبون ممارسة النشاطات الجسدية (كسائر سكان «كاليفورنيا») مثل ركوب الأمواج والقفز بالمِظلات. هل يمكنني تصوُّرها تفعل ذلك؟ وجدت نفسي أُبعد عن مخيلتي صورةً لها وهي تغرق ببطء على لوح ركوب الأمواج، واعترفتُ بأن لديها وجهة نظر. من الواضح أن هذه الرياضات لا تناسبها.

سألتْني «بيتي» ما خياراتها الأخرى المتاحة؟ فجميع من يعانون من السمنة المفرطة يجدون حياة العازب مستحيلة. ولكي تثبت هذه النقطة، وصفتْ لي موعدًا غراميًّا يائسًا حظيتْ به الشهر السابق، وهو أول موعدٍ لها منذ سنوات عدة. كانت قد شاهدت إعلانًا في القسم الشخصي في صحيفة محلية اسمها «ذا بي غارديان» (The Bay Guardian)، حيث نصت معظم إعلانات الرجال صراحةً على أنهم يبحثون عن امرأة «نحيفة»، باستثناء واحدٍ منها. فاتصلتْ ومهَّدت لتناول العشاء في الخارج

مع رجلٍ يدعى «جورج»، الذي طلب منها أن تضع وردة في شعرها وأن تقابله في حانةِ مطعمٍ محلي.

عندما رآها أول مرة بدا عليه الإحباط، لكنه اعترف بأنه كان بالفعل «جورج» (وهو أمرٌ يستحق عليه الثناء إلى الأبد) ثم تصرَّف كرجل نبيل طَوال وجبة العشاء. ومع أنه لم يتصل بها مرة أخرى، فقد كانت «بيتي» تفكر به كثيرًا. عندما حاولت الخروج في مواعيد مماثلة في الماضي، لم يحضر الرجال، وأغلب الظن أنهم رأوها من بعيد ثم غادروا من دون أن يتحدثوا إليها.

حاولتُ يائسًا، بشتى السبل، أن أمُد يد العون لـ «بيتي». وربما (لكي أخفي مشاعري السلبية) بالغتُ في المحاولة، وارتكبتُ خطأً يرتكبه المبتدئون، مقترحًا عليها خياراتٍ أخرى: هل فكرتْ يا تُرى بارتياد نادي «سييرا» (Sierra)؟ كلا، فهي لا تحتمل المشي لمسافات طويلة. ماذا عن مجموعة «النهِمون المجهولون»[1] (Overeaters Anonymous)؟ فقد يوفِّر لها دائرة اجتماعية صغيرة. كلا، فهي تكره الانضمام للمجموعات. جميع اقتراحاتي الأُخرى لقيَتْ مصيرًا مماثلًا. كان لا بد من وجود طريقةٍ ما.

إن الخطوة الأولى نحو تحقيق التغيير في العلاج هي تحمُّل المسئولية. فإذا كان المرء لا يشعر بأي حال من الأحوال بأنه مسئول عن ورطته، فكيف له أن يغير مجرى واقعه؟ هكذا كان حال «بيتي»

(1) مجموعة دعم نفسي يرتادها الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات الأكل؛ سعيًا للتخلص من هذه الاضطرابات واتِّباع أنظمة غذائية صحية. سُميت بـ «النهِمون المجهولون»؛ لأن الفرد الذي يرتادها عادةً ما يُبقِي كنيته سرًّا، ولا يشارك معلومات قد تكشف عن هويته، كما هو الحال في معظم مجموعات الدعم النفسي. (المترجم).

بالضبط: لقد قامت بتخريج[1] (externalize) المشكلة بأكملها. برأيها، لم تكن المشكلة من صُنعها، وألقت اللوم على انتقال مكان عملها، أو مجتمع كاليفورنيا العقيم، أو انعدام المناسبات الثقافية، أو رواج النشاطات الرياضية في المشهد الاجتماعي، أو الموقف التعيس الذي يتّخذه المجتمع تجاه البدينين. بذلتُ قصارى جهدي، لكن «بيتي» أنكرت تسبُّبها في كون حياتها بائسةً على هذا النحو.

أوه، نعم، كانت تتّفق من الناحية الفكرية أنها إذا توقفت عن الأكل وفقدت الوزن، فقد يعاملها العالم بشكل مغاير. لكنها كانت بعيدةً البعد كُلَّه عن فعل ذلك، ليس قبل أن تقطع أشواطًا طويلة، كما بدا أن تناولها للطعام كان خارجًا عن إرادتها. أضف إلى هذا أنها جنَّدت حُجَجًا أخرى لكي تعفي نفسها من المسئولية، مثل العامل الوراثي (إذ كانت البدانة شائعة في عائلة والدها ووالدتها)، والأبحاث الجديدة التي تعرِض الاضطرابات الفيزيولوجية لدى البدناء، اضطراباتٌ تتراوح بين انخفاض معدلات الأيض الأساسية (basal metabolic rates) إلى وزن الجسم الحالي المُبرمَج الذي لا يمكن التأثير عليه نسبيًا. كلا، لن يجدي هذا نفعًا. سيتعين عليَّ عاجلًا أم آجلًا مساعدتها على تحمل مسئولية مظهرها الخارجي، لكنني لم أجِد بعدُ النفوذ اللازم لتحقيق ذلك. كان لا بد أن أبدأ بشيء أكثر اقترابًا من الوقت الحاضر، وكان في جَعبتي أسلوب معين.

إن الأداة الفعَّالة الوحيدة الأكثر قيمةً للمعالج النفسي هي التركيز على «العملية». فكر هنا بالعملية بدلًا من المحتوى، حيث يتكوَّن المحتوى في أي محادثة من الكلمات الفعلية الملفوظة، وقضايا النقاش الجوهرية؛

---

(1) التخريج هو أن يفسر المرء مشاكله بالنظر إلى العوامل الخارجية، رافضًا التأمل بسلوكياته أو العوامل الداخلية التي قد تكون مسئولةً عن معاناته. (المترجم).

أما العملية فهي كيفية التعبير عن المحتوى، بالتركيز على ما يكشفه نمط التعبير هذا عن العَلاقة بين الأفراد المشاركين في النقاش.

ما توجَّب عليَّ فعله إذن هو الابتعاد عن المحتوى؛ كان عليَّ أن أتوقف، على سبيل المثال، عن محاولة تقديم حلول مبسطة لـ «بيتي»، لكي أوجِه انتباهي إلى العملية، وإلى كيفية تواصل أحدنا مع الآخر. وكانت هناك سمةٌ واحدة بارزة في عَلاقتنا، ألا وهي الملل. يدخل هنا التحويل المضاد لكي يزيد من تعقيد الأمور: كان عليَّ أن أكون واضحًا مع ذاتي، فالملل مشكلتي أنا، كما أنني سأشعر بالملل بصحبة أي امرأة بدينة.

لذلك باشرتُ العمل بحذرٍ شديد جدًّا؛ إذ إن مشاعري السلبية ثبَّطتني. كنتُ خائفًا جدًّا من الإفصاح عن نفوري. وما كنتُ لِأنتظر طويلًا لو أنها مريضٌ استسغته أكثر. حفَّزت نفسي على التصرف بسرعة. فإذا أردتُ مساعدة «بيتي»، كان عليَّ أن أتعامل مع مشاعري وأثق بها وأتصرف بناءً عليها.

الحقيقة هي أن «بيتي» كانت بالفعل امرأةً مملة، وكان من الضروري أن أواجِهَها بذلك بشكل مقبول. بإمكانها إنكار مسئوليتها عن كل شيء -غياب الأصدقاء في حياتها الحالية، وصعوبة العزوبية، وهول العيش في الضواحي- لكنني لن أسمح لها بإنكار مسئوليتها عن شعوري بالملل.

لم أكن أجرؤ على نطق كلمة «مملة»، فهي كلمة غامضةً جدًّا ومؤذية للغاية. لذا استوجبت الحاجة أن أكونَ دقيقًا وبَنَّاءً. تساءلت في نفسي: ما الشيء الممل حول «بيتي» بالضبط؟ ثم حدَّدتُ سِمَتين واضحتين. أولًا: لم تكشف عن أي شيءٍ يرتبط بها ارتباطًا وثيقًا. وثانيًا: قهقهتها اللعينة، وتظاهرها بالبهجة، وامتناعها عن أخذ الأمور على محمل الجِد كما يجب.

شعرتُ أنه لن يكون من السهل البتة أن أجعلها تُدرِك هذه السمات من دون أن أجرح مشاعرها. لذا عوَّلتُ على اتِّباع إستراتيجية عامة: سيكون موقفي الأساسي هو أنني أرغب في التقرب منها، لكن سلوكياتها كانت تعترض طريقي؛ فقد اعتقدتُ أنه من غير الوارد أن تشعر بالإهانة من انتقادي لتصرفاتها إذا طرحته في هذا السياق. بل يجب أن تكون سعيدة لأنني أرغب في معرفتها عن كثَب. قررتُ أن أبدأ بمعالجة افتقارها إلى الكشف عن مكنوناتها، ومع اقتراب نهاية هذه الجَلسة التي هاجمني فيها النعاس كثيرًا، أخذتُ زمام المبادرة.

«سأشرح لاحقًا لماذا أطلب منك هذا، يا «بيتي»، لكنني أوَدُّ منك تجربة شيء جديد اليوم. أريد أن تمنحي نفسك درجةً من واحد إلى عشرة حول مدى إفصاحك عن مكنوناتك خلال جَلستنا هذه، بحيث يمثل الرقم عشرة أبرز شيء يمكنك الكشف عنه، مهما كان، أما الرقم واحد فيمثل نوع الشيء الذي يمكنك أن تفصحي عنه، مثلًا، أمام الغرباء في طابور الانتظار في السينما».

لكنني أخطأت هنا. فقد أمضت «بيتي» عدة دقائق وهي تشرح لي لماذا لا ترتاد السينما بمفردها. تخيلتُ أن الناس سيُشفقون عليها لأن أصدقاءها ليسوا بصحبتها، وشعرتُ أن الذعر سيدب فيهم لمجرد فكرة أنها قد تزاحمهم على الجلوس بجانبهم. تصوَّرتُ الفضول والذهول على وجوههم وهم يشاهدونها لمعرفة إذا ما كان بإمكانها إقحام جسدها في مقعد واحدٍ ضيق. عندما بدأتْ في الاستطراد أكثر -وتناولت أيضًا مقاعد شركات الطيران وكيف تشحب وجوه الركاب الجالسين من الخوف عندما تمشي في الممر بحثًا عن مقعدها- قاطعتُها، وكررتُ طلبي، وعرَّفت لها الرقم «واحد» على أنه «محادثة غير رسمية في مكان العمل».

ردت «بيتي» بإعطاء نفسها درجة «عشرة». شعرتُ بالدهشة (إذ كنت أتوقع «اثنين» أو «ثلاثة») وأخبرتُها بذلك. لكنها دافعت عن تقييمها على أساس أنها أخبرتني بأشياء لم تشاركها مع أحدٍ من قبل: على سبيل المثال، أخبرتني أنها سرقتْ ذات مرة مجلةً من الصيدلية، وأنها كانت تخشى الذهاب بمفردها إلى المطعم أو إلى السينما.

كرَّرنا السيناريو ذاته عدة مرات. وأصرت «بيتي» على أنها كانت تخاطر كثيرًا، لكنني قلت لها: «تقيّمين نفسك بـ «عشرة»، يا «بيتي»، إلا أنني لا أشعر بذلك حقًّا. لم أشعر بأنك كنتِ تجازفين نهائيًّا في مصارحتك لي».

- «لم أخبر أي شخص غيرك بهذه الأشياء، ولا حتى الدكتور «فاربر»، على سبيل المثال».
- «ما شعورك إزاء إطْلاعي عليها؟».
- «أشعر بأنني بخير».
- «هل يمكنك استخدام كلمة أخرى غير «الخير»؟ لا بد أنك شعرتِ بالخوف أو التحرر عندما تحدثتِ عن هذه الأشياء لأول مرة!».
- «أشعر أنني على ما يرام. أعلم أنك مُصغ محترف: أنا على ما يرام. هذا هو شعوري. لا أعرف ماذا تريدً مني بالضبط».
- «ما الذي يجعلك واثقةً من أنني أصغي إليك باحترافية؟ ليس لديك أي شكوك؟».

احذر! احذر! لم أكن مستعدًّا للتعامل معها بصراحةٍ أكبر من ذلك، فمن المستحيل أن تتقبل كشفي عن المشاعر السلبية تجاهها. نفت

«بيتي» وجود أي شكوك لديها، ثم أخبرتني عن نوم الدكتور «فاربر» خلال جلساتها، وأضافت أنني أبدو أكثر اهتمامًا بها منه.

لكن، بالفعل، ماذا كنت أريد منها؟ كان عليَّ أن أعرف الجواب الدقيق. فمن وجهة نظرها، كانت تكشف لي عن الكثير من خفاياها. لماذا لم أتأثر بطبيعة الأسرار التي كشفتها؟ الأمرُ الذي أذهلني هو أنها كانت دائمًا تكشف عن أشياء حدثت في مكان آخر ووقت آخر. كانت غيرَ قادرةٍ على (أو غير راغبة في) الكشف عن ذاتها في الوقت الحاضر الذي كنا نتشاركه نحن الاثنين. لذلك كانت تتهرب من خلال الرد بكلمات «بخير» أو «على ما يرام» كلما سألت عن مشاعرها الآنية.

كان هذا اكتشافي الأول المهم عن «بيتي»: كانت معزولةً إلى أبعد الحدود، ولم تنجُ من هذه العزلة إلا بفضل تَكرار أسطورتها القائلة بأن حياتها الاجتماعية كانت في مكان آخر. لم يكن أصدقاؤها ودائرة معارفها هنا، بل في «نيويورك»، و«تكساس»، والماضي. حقيقةً، كان كل شيء ذا مغزى بالنسبة لها في مكان آخر. بدأتُ أشك لأول مرة بأن «بيتي» لا ترى أي شكلٍ من أشكال «الحاضر».

هناك شيء آخر أيضًا: بِفرَض أنها كانت تكشف لي عن مكنونات صدرها أكثر مما كشفت لأي شخص آخر، فما هي يا تُرى طبيعة علاقاتها الوثيقة؟ ردت «بيتي» بأنها شخصٌ يسهُل التحدث إليه. قالت لي إننا -أي أنا وهي- نمارس المهنة ذاتها؛ إذ كانت بمثابة المعالِجة النفسية لجميع من حولها، وأضافت أن لديها الكثير من الأصدقاء، لكن لا أحد منهم يعرف من هي حقًّا. تميَّزت «بيتي» بأنها تجيد الإصغاء وتسلية الناس. رغم أنها كرِهت هذا الأمر، بقيتْ هذه الصورة النمطية المحيطة بها صحيحة: لقد كانت المرأة البدينة المرحة.

وهذا ما أدى، بالطبع، إلى السبب الرئيسي الآخر الذي جعلني أجد «بيتي» مملةً جدًّا: كانت تتصرف بسوء نية معي. لم تكن على طبيعتها نهائيًا في محادثاتنا وجهًا لوجه، بل ظلت مزيفةً وتصنعت البهجة.

«أنا حقًّا مهتم بما قلتِه عن كونك شخصًا مرحًا (أو، بالأحرى، مهتمٌ بتظاهرك بذلك). أعتقد أنك تصممين على أن تكوني مرحةً بصحبتي، وتُلزمين نفسك بهذا إلى أقصى الحدود».

- «هممم، يا لها من نظرية مشوِّقة، يا دكتور «واتسون»[1] (Dr. Watson)!».

- «منذ جلستنا الأولى وأنتِ تتصرفين على هذا النحو. تتحدثين عن حياتك التي سيطر عليها اليأس، لكنك تفعلين ذلك بحيوية كبيرة كما لو أنك تقولين: ألسنا نحظى بوقتٍ ممتعٍ هنا؟».

- «هذه هي طبيعتي».

- «لكن عندما تسلكين هذا الطريق المرح على الدوام فإنك تجعلينني أغفُلُ عن حجم الألم الذي تعانين منه».

- «أفضِّل هذا على أن أتمرغ فيه».

- «لكنك أتيتِ إلى هنا طلبًا للمساعدة. لماذا تجدين الترفيه عني أمرًا ضروريًّا جدًّا بالنسبة لك؟».

احتقن وجه «بيتي» بالدماء. بدت مذهولةً من مواجهتي لها وغرقت في جسدها هربًا من المواجهة. مسحتْ جبينها بمنديل صغير، وماطلت لبعض الوقت.

---

(1) إشارةٌ إلى الشخصية الخيالية «جون هـ. واتسون» (John H. Watson) التي تظهر في «مغامرات شيرلوك هولمز» (The Adventures of Sherlock Holmes) لـ «آرثر كونان دويل» (Arthur Conan Doyle). (المترجم).

«يرغب المشتبه به في استدعاء التعديل الخامس من الدستور».[1]

«لن أكل أو أمل اليوم، يا «بيتي». ماذا سيحدث لو أقلعتِ عن محاولة الترفيه عني؟».

- «ما الضير في المرح قليلًا؟ لماذا علينا أن نعامل كل شيء ... هكذا ... لست أعلم ... أنتَ دائمًا جادٌّ جدًّا. لا تنسَ أيضًا أن هذه هي أنا، هذه هي طبيعتي. لم أفهم عمّاذا تتحدّث تمامًا. محاولتي الترفيه عنك؟ ماذا تقصد؟».

- «هذا الأمرُ بالغ الأهمية، يا «بيتي». إنه أهم ما توصلنا إليه حتى هذه اللحظة. لكنك على حق. عليك أولًا أنْ تفهمي بالضبط ما أعنيه. هل ستكونين على ما يرام إذا قاطعتك –من الآن فصاعدًا خلال جلساتنا المستقبلية، لكي أنوهِ إلى اللحظات التي تسعين فيها لتسليتي– لحظة حدوث ذلك؟».

وافقت «بيتي»، فلم يكن بوسعها رفضي. والآن أصبح تحت تصرفي صلاحيةٌ هائلة لكي أطلق العِنان لنفسي. أستطيع الآن مقاطعتها على الفور (وتذكيرها، بالطبع، باتفاقنا الجديد) كلما ضحكتْ، أو تكلّمت بلكنة ساذجة، أو حاولت تسليتي أو استسخفت الأمور على نحوٍ يشتِّت الانتباه.

اختفى سلوكها «المسلي» في غضون ثلاث أو أربع جلسات. وشرعتْ، لأول مرةٍ، في الحديث عن حياتها بالجدية المطلوبة. قالت لي، بعد التفكير بإمعان، إنها كانت مجبرةً على تسلية الآخرين لكيلا يفقدوا

(1) ينص التعديل الخامس من الدستور الأمريكي على حق المواطن في رفض الاعتراف بأي شيء قد يدينه ما لم تصدر مذكرة رسمية باتهامه أو إدانته. وقد شاع في اللغة الأمريكية المحكية قول: (I'd like to plead the Fifth) أو (I'd like to take the Fifth)، أي استدعاء التعديل الخامس من الدستور، عندما يرغب الشخص بعدم الرد على سؤالٍ طُرِحَ عليه. (المترجم).

الاهتمام بها. فعقّبتُ على ذلك قائلًا بأنه في هذا المكتب، كان العكس هو الصحيح: كلما حاولت الترفيه عني، شعرتُ بأنني أكثر بُعدًا عنها وأقل اهتمامًا بها.

لكنها قالت إن هذه كانت شخصيتها الوحيدة، وإن الشيء الذي كنتُ أطلبه منها هو التخلُّص من حصيلة مهاراتها الاجتماعية بأكملها. كيف ستكشف عن ذاتها؟ إذا فعلتْ ذلك، فما الذي ستُظهره للآخرين؟ ليس عندها ما تقدِّمه: كان صميمها فارغًا (مع استمرار جلسات علاجها، ظهرتْ كلمة «فارغة» (empty) بشكل متكرِّر، فـ «الفراغ» النفسي هو مفهوم شائع عند علاج أولئك الذين يعانون من اضطرابات الأكل (eating disorders)).

قدَّمت لها الدعم قدر الإمكان في هذه المرحلة. الآن، أشرتُ إلى «بيتي»، الآن بدأت بالمجازفة. الآن كادت تصل إلى ثماني أو تسع درجات على «مقياس الكشف عن الذات». سألتُها: هل تشعرين بالفرق؟ وفهمت قصدي بسرعة. قالت إنها تشعر بالخوف، كما لو كانت تقفز من طائرة دون مظلة.

بحلول هذا الوقت، كان إحساسي بالملل قد انحسر. لم أعُد أنظر إلى الساعة مرارًا وتكرارًا، وصرتُ أتحقَّق من الوقت بين الآونة والأخرى خلال جلسة «بيتي» ليس من أجل حساب عدد الدقائق التي كان عليَّ تَحمُّلها -كما كنت أفعل من قبل- ولكن لمعرفة ما إذا كان الوقت المتبقي كافيًا لنقاش قضية جديدة.

لم أعد مضطرًا أيضًا إلى التخلص من الأفكار المهينة حول مظهرها. ما عدت ألحظ جسدها حتى، وأصبحتُ أنظر إلى عينيها عوضًا عن ذلك. في الواقع، انتابتني الدهشة عندما تنبهت لأول مرة لتحرك مشاعر التعاطف

بداخلي تجاهها. حدث ذلك حين أخبرتني عن ذهابها إلى حانة غرب البلاد، حيث وقف رجلان قرويان خلفها وأصدرا صوت البقرة سخريةً منها. اشتعلتُ غضبًا لأجلها وأخبرتُها بذلك.

أرغمتني مشاعري الجديدة تجاه «بيتي» على تذكر رِدَّة فعلي الأولية تجاهها، وأحسست بالخجل. انكمش جسدي إحراجًا عندما فكرت بجميع النساء البدينات الأخريات اللواتي كان موقفي تجاههن رجعيًّا.

لقد دلَّت كل هذه التحولات عليٍ أننا نحرز تقدمًا ملحوظًا، حيث أخذنا نعالج بنجاح عزلة «بيتي» وتعطُّشها للتقرب من الناس. كنتُ آمل أنْ أبدي لها أن هناك شخصًا آخر يرغب بمعرفتها على حقيقتها ولا يزال يكترث لأمرها.

شعرتْ «بيتي» الآن بأنها منخرطة في العلاج دون أدنى شك؛ إذ أصبحت تفكر في نقاشاتنا بين الجلسة والأخرى، وتجري محادثات خيالية مطوَّلة معي خلال الأسبوع، كما تطلعتْ إلى جلساتنا، وشعرتْ بالغضب وخيبة الأمل عندما كانت تُضطَرُّ إلى تفويت بعض الجلسات بسبب رحلات السفر المتعلقة بعملها.

لكن، في الوقت ذاته، تعاظم كربها لأسباب مجهولة، وصارت تشعر بالمزيد من الحزن والقلق. انتهزتُ الفرصة لكي أفهم هذا التطور الحاصل. فعندما تظهر الأعراض على المريض في إطار عَلاقته مع المعالج، يكون العلاج عندها قد بدأ بالفعل، ويفضي البحث في هذه الأعراض إلى تمهيد الطريق لتناول القضايا المركزية.

تَمثَّل قلق «بيتي» في خوفها من الاعتماد المفرط أو الإدمان على العلاج، لأن جلساتنا باتت أهم شيء في حياتها، ولم تكن تعرف كيف سيصبح حالها من دون «جرعتها» الأسبوعية. بدا لي أنها كانت لا تزال

تقاوم التقرب من الآخرين عندما أشارت إلى العلاج على أنه «جرعة» بدلًا من الإشارة إليَّ أنا، وواجهتُها تدريجيًا بهذه النقطة.

«برأيك، أين يكمن الخطر إذا قمتِ بتثمين مكانتي في حياتك؟».

- «لستُ متأكدة. إنه لشعورٌ مخيف؛ ربما سأحتاج إلى وجودك أكثر من اللازم. ولا أدري إذا كنت سأجدك بجانبي عندها. تذكر أنني سأُضطر إلى مغادرة كاليفورنيا بعد عام».

- «عامٌ كامل، وفي ذلك متسعٌ من الوقت. إذن تتحاشينني الآن لأني لن أكون متاحًا على الدوام؟».

- «أعلم أن هذا منافٍ للمنطق. لكنني أتعامل مع «كاليفورنيا» بالطريقة ذاتها. فأنا أحب «نيويورك» ولا أريد أن أقع في حب «كاليفورنيا». إذا صار لديَّ أصدقاء هنا وبدأت بالانسجام في هذا المكان، قد لا أرغب في مغادرته، وأخشى حدوث ذلك. كما يعتريني إحساسٌ آخر يجعلني أقول في نفسي: ما الغرض من بذل العناء؟ فأنا هنا لوقت قصيرٍ جدًّا. مَن منا يريد تكوين صداقات مؤقتة؟».

- «المشكلة في اتخاذ موقفٍ كهذا هو أنك ستجعلين حياتك حياةً غير مأهولة. وقد يفسر هذا الأمر جزئيًا سبب شعورك بالفراغ داخليًا. بطريقة أو بأخرى، كل العَلاقات الاجتماعية مصيرها الزوال. ليس هناك أي شيء مضمونٌ مدى الحياة. ما تقولينه هو أشبه بأن يرفض أحدُهم الاستمتاع بمشاهدة شروق الشمس لأنه يكرَه رؤيتها تغرُب».

- «يبدو الأمر جنونيًا عندما تضعه في هذا السياق، لكن هذا ما أفعله. عندما ألتقي بشخص جديد أحبه، أبدأ على الفور بتخيُّل مشهد وداعي له».

كنت أعلم أن هذه قضية بالغة الأهمية وأننا سنعود لمناقشتها لاحقًا. يصف «أوتو رانك»[1] (Otto Rank) هذا الموقف من الحياة بجملة مذهلة: «البعض منا يرفض قرض الحياة لكي يتجنب دَيْن الموت».

دخلت «بيتي» في مرحلة اكتئاب قصيرة الأمد، لكنها أدت إلى منعطفٍ غريب ومتناقض. صحيحٌ أنها تنشطت من خلال الانسجام والانفتاح فيما بيننا، لكن بدلًا من السماح لنفسها بالاستمتاع بهذا الشعور، أصابها الحزن لدى إدراكها أن حياتها كانت قبل هذه اللحظة خاليةً من المَوَدَّة.

ذكرني ذلك بمريضٍ آخر كنتُ قد عالجته في العام السابق: طبيبةٌ في الرابعة والأربعين من عمرها لديها حس مفرط بالمسئولية وتأنيب الضمير. في إحدى الليالي، في خضم خلاف زوجي، أسرفتْ في شرب الكحول على غير عادتها وخرجت عن طورها، فراحت تلقي الأطباق على الحائط، وكادتْ تصيب زوجها بطبق فطيرة الليمون. عندما رأيتها بعد يومين، بدا عليها الشعور بالذنب والاكتئاب. حاولت مواساتها، وأشرتُ إلى أن فقدان السيطرة ليس دائمًا أمرًا كارثيًا. لكنها قاطعتني وأخبرتني بأنني قد أسأت فهمها: لم تكن تشعر بالذنب، بل غلب عليها الندم لأنها انتظرت حتى بلغت سن الرابعة والأربعين قبل أن تتخلى عن سيطرتها على الأمور وتحرُّر بعض المشاعر الحقيقية.

---

(1) محلل نفسي وكاتب نمساوي (1993 - 1884). (المترجم).

كان وزن «بيتي» مئتين وخمسين رطلًا، لكننا نادرًا ما ناقشنا تناوُلها الطعام ووزنها. تحدثتْ كثيرًا عن صراعاتها المحتدمة (وغير المفيدة) مع والدتها ومع أصدقاء آخرين حاولوا مساعدتها على التحكم بسلوك أكلها. وكنتُ مصممًا على عدم لعب هذا الدور؛ بالنسبة لي، وضعت ثقتي بفرضية أنه إذا كان بإمكاني مساندتها في إزالة العَقَبات التي تكمُن في طريقها، ستأخذ «بيتي» زمام المبادرة للاعتناء بجسمها.

حتى الآن، من خلال معالجة عزلتها، كنت تخلّصت من بعض العقبات الرئيسية فعلًا: فقد ولى اكتئاب «بيتي» عنها. وبعد أن أسست حياة اجتماعية خاصة بها، لم تعُد تعتبر الطعام المصدر الوحيد الذي يُشعِرُها بالرضا. لكنها لم تتمكّن من اتخاذ القرار في اتباع الحمية الغذائية قبل أن يتجلى لها اكتشافٌ غير عادي حول مخاطر فقدان الوزن. جرت الأحداث على هذا النحو.

عندما انقضت بضعة أشهرٍ على بدئها العلاج، ارتأيتُ أن التقدم الذي كانت تحرزه قد يتسارع إذا ارتادتْ جلساتٍ علاجيةٍ ضمن مجموعة، إضافةً إلى علاجها الفردي. كنتُ على يقين أنه سيكون من باب الحكمة إذا كوّنت مجتمعًا داعمًا يساندها خلال الحِمْية الغذائية الصعبة التي كانت ستأخذ مجراها لاحقًا. علاوةً على ذلك، ستوفِّر مجموعة العلاج لـ «بيتي» فرصةَ استكشاف القضايا البين-شخصية التي طرحناها في جلسات العلاج: إخفاءها لأسرارها، وحاجتها لترفيه الناس، وشعورها بأنه ليس لديها ما تقدِّمه. على الرغم من أن «بيتي» كانت خائفةً للغاية وقاومت اقتراحي في البداية، وافقت بشجاعة ودخلت مجموعةً علاجية يترأسها اثنان من الأطباء النفسيين المقيمين.

كانت إحدى جلساتها الجماعية الأولى جلسة استثنائية، حيث قام «كارلوس» -مريضي في العلاج الفردي أيضًا (انظر قصة «لو كان الاغتصاب قانونيا ...»)- بإخبار المجموعة عن سرطانه العضال. كان والد «بيتي» قد تُوُفِّي بالسرطان عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، ومنذ ذلك الحين سيطر الخوف من هذا المرض عليها. حين كانت طالبةً في الجامعة اختارتْ في البداية منهاجَ التحضير لكلية الطب، لكنها تراجعت عن ذلك خوفًا من الالتقاء بمرضى السرطان.

خلال الأسابيع القليلة التالية، أثار الاحتكاك بـ «كارلوس» الكثير من القلق لدى «بيتي» لدرجة أنني اضطُرِرت إلى رؤيتها في عدة جلسات طارئة، وواجهتُ صعوبة في إقناعها بالاستمرار في العلاج الجماعي. ظهرت عليها أعراضٌ جسدية مؤلمة، كالصداع (حيث تُوُفِّي والدها بسبب سرطان الدماغ) وآلام الظهر وضيق النفَس، وكان هاجس إصابتها هي أيضًا بالسرطان يؤرِّقها. نظرًا لأنها كانت ترهَبُ رؤية الأطباء (بسبب خجلها من جسدها، نادرًا ما أجرت أي فحص بدني ولم تخضع يومًا لفحص الحوض)، طمْأَنَتُها بشأن صحتها كانت مهمة معقَّدة.

عندما رأت «بيتي» بأم عينها فقدان «كارلوس» المقلق للوزن، تذكَّرتْ كيف شاهدت والدها على مدى اثني عشر شهرًا يتقلَّص من رجل بدين إلى هيكلٍ عظمي ملفوف بطياتٍ كبيرة من الجلد الهزيل. رغم أنها أقرت بأن تفكيرها كان غير عقلاني، أدركتْ أنها منذ وفاة والدها كانت تظن أن خسارة الوزن ستجعلها عرضةً للإصابة بالسرطان.

كما عبَّرت عن خوفها الشديد من تساقط الشعر أيضًا. عندما انضمتْ إلى المجموعة، كان «كارلوس» (الذي فقَد شعره نتيجة للعلاج الكيميائي) يرتدي شعرًا مستعارًا، ولكن في اليوم الذي أبلغ فيه المجموعة عن إصابته

بالسرطان، جاء أصلعَ إلى الجلسة، فشعرت «بيتي» بالرعب وتخيَّلت صلع والدها، حيث كان قد حلق شعره من أجل إجراء عملية جراحية في الدماغ. تذكرت أيضًا الرعب الذي اعتراها عندما عانت هي نفسها من تساقط الشعر بكثرة خلال اتباعها للحميات الغذائية الشاقة في السابق.

تفاقمت المشاكل المتعلقة بوزن «بيتي» إلى حَدٍّ كبير بسبب هذه المشاعر المقلقة. بالنسبة لها، لم يكن الطعام المصدر الوحيد الذي أمدَّها بالرضا فحسب، ولم يقتصر على كونه وسيلةً لتخفيف شعورها بالفراغ، كما أن النحول لم يكتفِ بإيقاظ وفاة والدها المؤلمة؛ بل شعرت «بيتي»، في لاوعيها، أن فقدان الوزن سيؤدي إلى وفاتها هي.

مع مرور الوقت، هدأَ قلقها الحاد. لم تتحدَّث من قبلُ بصراحة عن هذه القضايا: لذا ربما كان مجرد التنفيس عنها بمثابة العون لـ «بيتي»؛ أو ربما كان من المفيد لها أن تدرك الطبيعة السحرية لتفكيرها؛ ربما نُزِعت الحساسية من بعض أفكارها المرعبة ببساطة عندما بدأت تتحدَّث عنها بوضوحٍ وهدوءٍ وعقلانية.

لعب «كارلوس» دورًا مفيدًا جدًّا في هذه الأثناء. في الماضي، كان والدا «بيتي» قد أصرَّا حتى النهاية على إنكار خطورة مرض والدها، ودائمًا ما يعيث هذا النكران الجسيم فسادًا بحياة الناجين. لم تكن «بيتي» مستعدةً لموته كما لم تتسنَّ لها فرصة وداعه. أما «كارلوس» فقد صاغ نهجًا مختلفًا تمامًا لمصيره: كان شجاعًا وعقلانيًّا وصادقًا مع مشاعره حول مرضه واقتراب موته. إضافةً إلى ذلك، كان لطيفًا للغاية مع «بيتي»، ربما لأنه كان يعرف أنها مريضتي، أو أن وجودها تَزامن مع حالة «كارلوس» الذهنية السخية («كل واحد منا لديه قلب»)، أو ربما لأنه -بكل بساطة- كان مولعًا بالنساء البدينات (أشعر بالإحراج مما سأقوله لكن لطالما اعتقدتُ أن هذا الشيء كان دليلًا آخر على انحرافه).

لا بد أن «بيتي» شعرتْ بأن العوائق التي كانت تَحُول دون فقدانها للوزن قد أُزِيحت بما فيه الكفاية، لأنها قدمت دليلًا لا لبس فيه على استعدادها لشن حملة كبرى، وقد أدهشني نطاق التحضيرات ودقتها.

أولًا، الْتحقتْ ببرنامج اضطرابات الأكل في العيادة التي عملتُ فيها، وأكملتْ بروتوكولهم الصعب، الذي تَضمَّن فحصًا بدنيًا معقدًا ومجموعةً من الاختبارات النفسية. ثم أفرغت شقتها من الأطعمة: كل المعلبات والصناديق والزجاجات. كما وضعت خُططًا للقيام بأنشطة اجتماعية بديلة، حيث قالت لي إن التخلص من وجبات الغداء والعشاء يُعيق قدرة المرء عن تنظيم تقويمه الاجتماعي. لقد أدهشتني بانضمامها إلى مجموعةٍ راقصةٍ تمارس «رقصة المربع» (square dance) (قلت في نفسي: يا لها من سيدة شجاعة!) والتحقت بدوري بـ «بولينغ» أسبوعي -اعتادت أن تلعب «البولينغ» مع والدها عندما كانت طفلة، كما أوضحت لي- واشترت دراجة تمارين ثابتة مستعملة ووضعتها أمام التلفزيون. ثم قالت وداعها الأخير لأصحابها القُدامى: آخر كيس من بطاطس «غراني غوس» (Granny Goose) المطهوَّة على طريقة سكان هاواي، وآخرَ قطعةٍ من شوكولا «مستر فيلدز» (Mr. Fields)، والأصعب من ذلك كله، ودعت آخر قطعةٍ من قطع الـ «دونَت» المُغطَّى بالعسل.

كما استعدت «بيتي» جيدًا جدًّا على الصعيد النفسي، الأمر الذي لم تتمكن من وصفه بسهولة، إذ قالت إنها كانت «تحشد عزيمتها الداخلية» وتنتظر اللحظة المناسبة للبدء بالحِمية الغذائية. نفد صبري، فرحتُ أُسلِّي نفسي بتصور مصارع «سومو» ياباني هائل الحجم يسير بسرعة، ثم يتخذ وضعية خاصة، ويشخرُ لكي يُعد نفسه للانطلاق.

فجأةً، شرعت «بيتي» بحملتها! اتبعت نظامًا غذائيًا قائمًا على تناول سائل «أوبتيفاست» (Optifast)، وامتنعت عن أكل الأطعمة الصُّلبة، وركبت الدراجة الثابتة لمدة أربعين دقيقة كل صباح، كما مشت ثلاثة أميال بعد ظهر كل يوم، ولعبت البولينغ ومارست «رقصة المربع» مرة واحدة في الأسبوع. شيئًا فشيئًا بدأت الدهون التي غطتها بالتفكك، وانسلَّت «بيتي» من جسمها المتكتل. طياتٌ كبيرة من اللحم المتدلي انفصلت عنها وانجرفت بعيدًا. سرعان ما تدفَّقت الأرطال منها كما لو كانت سيولًا صغيرة: صارت تخسر رطلين، أو ثلاثة، أو أربعة، وأحيانًا خمسة أرطال في الأسبوع الواحد.

بدأت «بيتي» كل جلسة من جلساتنا بسرد تقرير عن رحلتها: خسارةُ عشرة أرطال، ثم عشرين، ثم خمسة وعشرين، ثم ثلاثين رطلًا. انخفض وزنها إلى مئتين وأربعين رطلًا، ثم إلى مئتين وثلاثين، ثم إلى مئتين وعشرين. بدا الأمر سريعًا وسهلًا بشكل مذهل. شعرت بالسعادة من أجلها وأثنيتُ بشدة على جهودها كل أسبوع. لكنني في تلك الأسابيع الأولى كنتُ أسمع صوتًا قاسي القلب بداخلي يقول: «يا إلهي، إنها تفقد وزنها بهذه السرعة الكبيرة. تصور الكميات الهائلة من الطعام التي كانت تلتهمها!».

مضت الأسابيع واستمرت الحملة. بعد ثلاثة أشهر، أصبح وزنها مئتين وعشرة، ثم وصل إلى مئتين، أي إنها خسرت خمسين رطلًا! ثم وصلت إلى مئة وتسعين. كانت معركتها مع الأرطال معركة وطيسة. في بعض الأحيان كانت تأتي إلى مكتبي وهي تبكي بعد أسبوع كاملٍ خالٍ من الطعام، ومن دون تعويضٍ للوزن المفقود. كان كل رطلٍ يقاوم بشراسة، لكن «بيتي» التزمت بالنظام الغذائي.

كانت تلك الأشهر فترةً مروِّعة كرهتْ فيها كل شيء، وتحولت فيها حياتها إلى ضربٍ من ضروب العذاب: الطعام السائل المثير للاشمئزاز، والدراجة الثابتة، وآلام التضور من الجوع، وإعلانات همبرغر «ماكدونالدز» الشريرة على التلفزيون، والروائح... كانت الروائح في كل مكان: رائحة الفشار في الأفلام، و«البيتزا» في صالة «البولينغ»، و«الكرواسان» في مركز التسوق، وسرطان البحر عند مرسى الصيادين. ألم يكن هناك أي مكان في العالم خالٍ من الروائح؟

كان كل يوم يومًا بائسًا، واختفت المتعة من جميع جوانب حياتها. استسلم الآخرونَ في مجموعة إنقاص الوزن في عيادة اضطرابات الأكل، لكن «بيتي» صمدت بقوة كبيرة. صرت أحترمها أكثر فأكثر.

أنا أيضًا أحب أن آكل. غالبًا ما أتطلَّع طوال اليوم إلى تناول وجبة مميزة؛ وعندما تشتد شهيتي، لا يمكن لأي شيء أن يوقفني من الذهاب إلى مطعم الـ «ديمسَم»[1] (dim sum) أو كشك المثلَّجات الإيطالية. ولكن مع استمرار محنة «بيتي»، بدأتُ أشعر بالذنب أثناء تناول الطعام، كما لو أنني كنت أتصرف بسوء نية تجاهها. كنت أفكر بها كلما جلستُ لتناول «البيتزا» أو «الباستا» بصوص «البيستو» أو الـ «إنتشِلادا كون سالسا فيردي» (enchiladas con salsa verde) أو المثلجات بطعم كعكة الشوكولا الألمانية، أو أي من الأطعمة اللذيذة الأخرى التي تحبها «بيتي». كنت أرتجف كلما تصورتها تتناول سائل «أوبتيفاست» وهي تمسك بفتاحة العلب بيدها. أحيانًا كنت أفوت بعض الوجبات على شرفها.

(1) طريقة طبخ صينية يكون فيها الطعام بحجم لقمة الفم. (المترجم).

خلال هذه الفترة، تجاوزت الحد الأعلى للوزن الذي أسمح به لنفسي، واتبعت حميةً غذائيةً لمدة ثلاثة أسابيع. نظرًا لأن وجباتي الغذائية تقوم أساسًا على إقصاء المثلجات والبطاطس المقلية، لم أستطع أن أقول لـ «بيتي» إنني كنت أتضامن وأتعاطف معها من خلال الامتناع عن الطعام. ومع ذلك، خلال هذه الأسابيع الثلاثة أحسستُ بحرمانها بشكل أكبر. لقد تأثّرتُ عندما أخبرتني كيف كانت تبكي إلى أن يغلبها النوم، وشعرت بالألم لأجلها عندما وصفت لي الطفل الجائع الذي كان يصرخ بداخلها: «أطعميني! أطعميني!».

مئة وثمانون رطلًا؛ ثم مئة وسبعون؛ لقد فقدت من وزنها ثمانين رطلًا! أصبح مزاج «بيتي» متقلبًا جدًا، وتزايد قلقي تجاهها. كانت تشعر أحيانًا بالفخر والبهجة لفترات وجيزة (خاصةً أثناء تسوقها من أجل شراء ملابس بقياسٍ أصغر)، لكنها عانت من الإحباط الشديد على وجه الخصوص لدرجة أنه بات الشيء الوحيد الذي كان يدفعها للعمل كل صباح.

في بعض الأحيان كانت سريعة الانفعال، وأثارت عددًا من شكاواها القديمة مني. هل قمتُ بإحالتها إلى المجموعة العلاجية لكي أتخلّص منها أو، على الأقل، لكي أُقاسم الآخرين عِبئها وأسلِّم أمرها جزئيًّا لهم؟ لماذا لم أستفسر أكثر عن عادات أكلها؟ كان الأكل في صميم حياتها، لذلك توجب عليَّ أن أرحب بها هي وسلوكها في تناول الطعام. (الحذر ثم الحذر، إنها تقترب أكثر فأكثر). لماذا لم أعارضها عندما سردت الأسباب التي جعلتها تمتنع عن اختيار كلية الطب (مثل سنها، وكسلها، وعدم قدرتها على التحمُّل، وأنها لم تلتحق سوى بعددٍ قليلٍ من الدورات التدريبية الأساسية، ونقص الأموال)؟ وأخبرتني أنني قد حطَطْتُ من قدرها عندما اقترحت أن التمريض مهنةٌ ملائمة لها، واتّهمتني بأن مضمون

كلامي كان: «هذه الفتاة ليست ذكية بما يكفي لارتياد كلية الطب، لذا فلتصبح ممرضة!».

في أحيانٍ أخرى، برزت عليها الشراسة وملامح النكوص (regression). ذات مرة، على سبيل المثال، عندما استفسرتُ عن سبب فتور نشاطها في مجموعة العلاج، اكتفت بالتحديق بي ورفضت الإجابة. وحين طالبتُها بإصرارٍ أن تعبر عما كان يدور في ذهنها بوضوح، قالت بنبرة طفوليةٍ غنائية: «إذا لم تقدم لي قطعة من البسكويت، فلن أفعل أي شيء من أجلك».

خلال إحدى الفترات التي عانت فيها من الاكتئاب، رأت حلمًا جليًا:

كنت في مكانٍ ما يقصده الناس لكي ينتحروا بشكل قانوني، وكانت بصحبتي صديقة مقربة، لكنني لا أتذكر مَن هي. كانت على وشك الانتحار بالقفز في نفق عميق. فوعدتُها أن أستعيد جثتها. لكن، في وقت لاحق، أدركتُ أنه من أجل أن أقوم بذلك كان عليَّ أن أزحف إلى أسفل هذا النفق المرعب المليءِ بكل أنواع الأجساد الميتة والمتحللة، ولم أستطع تنفيذ الأمر.

حين سعت «بيتي» إلى تشكيل ارتباطاتٍ بهذا الحلم، قالت إنها كانت تفكر، في بداية اليوم الذي رأت فيه الحلم، كيف أنها قد طرحتْ جسدًا كاملًا: لقد فقدت ثمانين رطلًا، وهو وزن زميلةٍ لها في العمل. كانت تتخيل إجراء تشريح وإقامةَ جنازةٍ «للجثة» التي طرحتها. فظنت «بيتي» أن هذه الفكرة المروِّعة انعكست في الحلم على شكل صورةِ استعادةِ جثة صديقتها من النفق.

لقد أوضحت لي صور الحلم وعمقه إلى أين وصل الأمر بـ «بيتي». كان من الصعب عليّ تذكر تلك المرأة السطحية الضحوك التي رأيتُها قبل بضعة أشهر. حظيت «بيتي» الآن باهتمامي الكامل، في كل دقيقة من كل جلسة. لم أكن أتخيل أنه قد يخرج هذا الشخص المتفكر والعفوي والحساس من المرأة التي أصابتني وطبيبها النفسي السابق بالملل بسبب ثرثرتها التافهة.

مئة وخمسة وستون رطلًا: كان هناك تطورٌ جديد يكشف عن نفسه ذات يوم عندما كانت في مكتبي، نظرتُ إلى «بيتي» ولاحظتُ، لأول مرة، أن لديها حضنًا. نظرتُ مرة أخرى. هل كان دائمًا موجودًا؟ ربما أصبحتُ أُولِيها الكثير من الانتباه الآن. كلا، لا أعتقد ذلك: لطالما كان محيط جسدها، من الذقن إلى أصابع القدم، كروي الهيئة بوضوح. بعد مرور أسبوعين، رأيتُ علامات واضحة على بروز الثديين. وبعد أسبوع آخر، ظهر خط الحَنَك، ثم الذقَن، ثم الكوع. كان كل شيء موجودًا: كان هناك شخص ما، كانت هناك امرأةٌ حسنة المنظر مدفونة تحت تلك الطبقات طوال الوقت.

لاحظ الآخرون -خاصة الرجال- التغير الحاصل، وصاروا يتواصلون معها جسديًّا ويخزونها بأصابعهم أثناء المحادثات. رافقها في إحدى المرات زميلها في العمل إلى سيارتها. وقام مصفف شعرها بتدليك فروة رأسها، بالمجّان. كما كانت متأكدةً من أن رئيس عملها صار ينظر إلى ثدييها.

«مئة وتسعة وخمسون»، قالت لي «بيتي» في يوم من الأيام، وأضافت أن هذه كانت تجربةً جديدة، «كتجربة العذارى»، فهي لم تصل إلى وزن المئة والخمسين منذ المدرسة الثانوية. فسألتُها عما إذا كانت قلقة بشأن

دخول «منطقة فقدان العذرية» -كانت تلك نكتة سيئة- إلا أننا بدأنا بسببها نقاشًا مهما حول الجنس.

نعم، كانت «بيتي» تتمتع بحياة جنسية نشطة في مخيلتها، إلا أنه لم يسبق لها أن احتكت جسديًّا بأي رجلٍ في السابق: لا عناق، ولا قبلة، حتى أن أحدًا لم يمسك بجسدها بشهوانية من قبلُ. كانت دائمًا تتوق إلى ممارسة الجنس، وعبَّرت عن غضبها الدائم من موقف المجتمع تجاه البدانة، الذي حكم على حياتها الجنسية بالفشل. لم تدرك في السابق أنها تخاف من الجنس كثيرًا. لكنها بدأت تدرك ذلك الآن، فقد كانت تقترب من تحقيق الوزن الذي من شأنه أن يدعو الآخرين لممارسة الجنس معها؛ وأصبحت أحلامها تعج بشخصياتٍ ذكورية خطيرة (مثل طبيب ملثَّم يغرز إبرةً كبيرة تحت الجلد في بطنها، ورجلٍ يزيل قشرةَ جُرحٍ كبيرٍ في البطن).

انبجس من هذه النقاشات طُوفانٌ من الذكريات المؤلمة حول رفضها من قِبَلِ الذكور طيلة حياتها. لم يطلب منها يومًا أيُّ رجل أن تخرج معه في موعد غرامي ولم تحضر أيًا من حفلات الرقص أو المناسبات المدرسية. كانت دائمًا تتقن لعب دور كاتمة أسرار أصدقائها وساعدت العديد منهم في التخطيط لحفلات زفافهم. لقد تزوَّج معظمهم بحلول هذا الوقت، ولم تعُد قادرةً على أن تخفي عن نفسها أنها ستلعب إلى الأبد دور الناظرة من بعيد التي لا يختارها أحد.

سرعان ما انتقلنا من الحديث عن الجنس عمومًا إلى أعماق هُوِيَّتها الجنسية الأساسية. كانت «بيتي» تعلم أن والدها أراد أن ينجب ابنًا في الحقيقة، وعبَّر عن خيبة أمله بصمتٍ عندما وُلِدت هي. في إحدى الليالي، رأت حُلمَين حول أخٍ توأم لها كان مفقودًا. في الحلم الأول، ارتدت هي وهو شارات تعريفٍ واستمرَّا بتبديلها فيما بينهما. ثم أجهزت عليه في

الحلم الآخر، حيث انحشر في مصعد مزدحم لم تستطع هي دخوله (بسبب حجمها). تحطَّم المصعد بعد ذلك، ومات جميع من فيه. فوجدت نفسها تبحث في رفاته بيديها.

في حلم آخر، أعطاها والدها فرسًا اسمها «إنها سيدة» (She's a Lady). لطالما رغبت أن يهديها حصانًا، وفي هذا الحلم لم تتحقق رغبة الطفولة هذه فحسب، بل قام والدها رسميًّا بتعميدها كسيدة.

أثارت محادثاتنا حول النشاط الجنسي وهُوِيَّتها الجنسية الكثير من القلق وشعورًا موجعًا بالفراغ لديها لدرجة أنها أفرطت في تناول البسكويت والدونَت في أكثر من مناسبة. في الوقت الحالي، كان مسموحًا لـ «بيتي» تناول بعض الأطعمة الصُّلبة -وجبة عشاء واحدة في اليوم بموجب الحِمْية الغذائية- لكن صعوبة اتباع هذا الروتين كانت أكبر من صعوبة النظام الغذائي القائم على تناول السوائل فقط.

لاحت في الأفق أمامنا علامةٌ رمزيَة مهمة، ألا وهي فقدان مئة رطل. إن هذا الهدف المحدد، الذي لم تحقِّقه قَطُّ، كان له دلالات جنسية قوية. قبل أشهر من الآن، أخبرها «كارلوس» ممازحًا بعض الشيء أنه سيأخذها إلى هاواي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عندما تفقد مئة رطل. علاوةً على ذلك، كانت «بيتي» قد أقسمت -على سبيل إعداد نفسها ذهنيًّا قُبيل الحمية الغذائية- بأنها إذا خسرت مئة رطل فستتواصل مع جورج، ذلك الرجل الذي اتَّصلتْ به عندما رأت إعلانه الشخصي، لكي تفاجئه بجسدها الجديد وتكافئه على سلوكه النبيل بممارسة الجنس معه.

حاولتُ الحد من قلقها، وحَثَثْتها على الاعتدال مقترحًا أن تتعامل مع الجنس بخطوات أقل تطرفًا: على سبيل المثال، من خلال قضاء الوقت في التحدث إلى الرجال. أو من خلال تثقيف نفسها حول التشريح

الجنسي والميكانيكا الجنسية والاستمناء، واقترحتُ عليها قراءة بعض الكتب، كما شجعتها على زيارة طبيبة نسائية واستكشاف هذه القضايا مع صديقاتها ومجموعة العلاج الخاصة.

طوال هذه الفترة التي تخلَّلها فقدان الوزن بسرعة، تكشَّفتْ أمامنا ظاهرة استثنائية أخرى، حيث عادت إلى «بيتي» ذكريات عاطفية من الماضي وصارت تقضي الكثير من جلسات العلاج في تناول ذكريات حية بشكل مدهش، مثل ذلك اليوم الذي غادرت فيه تكساس وانتقلت إلى «نيويورك»، أو تخرجها من الكلية، أو غضبها من والدتها بعد أن منعها خجلها وخوفها الشديدان من حضور تخرُّجها من المدرسة الثانوية.

في البداية بدا أن هذه الذكريات، بالإضافة إلى التقلبات المزاجية المستفحلة المصاحبة لها، كانت حوادث فوضوية وعشوائية فحسب. ولكن بعد عدة أسابيع، أدركت «بيتي» وجود نمطٍ مترابطٍ لهذه الذكريات: فعندما كانت في طور فقدان وزنها، عاشت مجدَّدًا تلك الأحداث الصادمة أو العالقة في حياتها التي طرأت عندما كانت تبلغ وزنًا معينًا. ومن ثَمَّ، فإن نقصان وزنها من مئتين وخمسين رطلًا أعادها إلى الماضي لتعيش مرة أخرى الأحداث المشحونة عاطفيًّا في حياتها: مغادرة «تكساس» إلى «نيويورك» (210 أرطال)، تخرجها من الكلية (190 رطلًا)، امتناعها عن البرنامج التمهيدي لكلية الطب (والتخلي عن حلم اكتشاف علاجٍ للسرطان الذي قتل والدها) (180 رطلًا)، عزلتها خلال حفل التخرجِ من المدرسة الثانوية، وشعورها بالحسد تجاه البنات والآباء الآخرين، وعدم مرافقة أي شاب لها إلى الحفلة الراقصة لطلاب السنة الأخيرة في الثانوية (170 رطلًا)، تخرجها من المرحلة الإعدادية واشتياقها لوالدها في ذلك الحفل (155 رطلًا). يا له من دليلٍ مذهل على وجود عالم اللاوعي! فقد تذكر جسد «بيتي» ما نسيه عقلها منذ زمن بعيد.

تغلغلتْ ذكريات والدها ومضات الماضي هذه. كلما أمعنّا النظر، اتّضح لنا أن كل الطرق أدت إليه، وإلى وفاته، وإلى «بيتي» ذات المئة والخمسين رطلًا في ذلك الوقت. الآن، كلما اقتربت «بيتي» من هذا الوزن، تفاقم اكتئابها واكتظت زوايا عقلها بمشاعر وذكريات ترتبط بوالدها.

سرعان ما صرنا نمضي جلسات كاملة في الحديث عنه. وكان الوقت قد حانَ للكشف عن كل شيء، فأغرقتُها في الذكريات وشجّعتها على البوح بكل التفاصيل التي استطاعت تذكّرها عن مرضه ووفاته وتواجده في المستشفى آخر مرةٍ رأته فيها، وتفاصيل جنازته، والملابس التي كانت ترتديها، وكلمة القسيس، والأشخاص الذين حضروا.

سبق وأن تحدَّثتُ أنا و«بيتي» عن والدها، لكننا لم نتناول ذكراه بكثافة وعمق كما كنا نفعل الآن. أصبحتْ تشعر بفقدانه بشدة أكبر من السابق، وعلى مدى أسبوعين، بكت بشكل متواصل تقريبًا. التقينا ثلاث مرات أسبوعيًّا خلال هذه الفترة، وحاولتُ مساعدتها على فهم سبب بكائها. فقالت إنها بكت جزئيًّا بسبب خسارة والدها، لكن السبب الأبرز الذي دفعها للبكاء هو أنها اعتبرت حياته مأساة كبيرة؛ لم يحصل يومًا على التعليم الذي كان يحلم به (أو الذي أرادته هي له)، وتُوُفِّيَ قبل تقاعده مباشرة، فلم يستمتع أبدًا بسنوات الرفاهية التي كان يتطلع إليها. ومع ذلك، كما قلت لها، لقد أعطى وصفها لطبيعة حياته -عائلته الكبيرة الممتدة، ودائرته الاجتماعية الواسعة، وجلسات النقاش اليومية مع أصدقائه، وحبه للوطن، وشبابه في البحرية، وممارسة صيد الأسماك بعد الظهر- صورةً عن حياة كاملة، كان والدها منغمسًا فيها وسط مجتمعٍ من الأشخاص الذين عرَفوه وأحبوه.

عندما حرضتها على مقارنة حياته بحياتها، أدركتُ أن شيئًا من حزنها كان في غير محله؛ أي إن حياتها هي التي كانت مأساويةً، وليست حياة والدها، لأن أهدافها كانت حبرًا على ورق. كم من حزنها، إذًا، كان على آمالها التي لم تتحقق؟ كان هذا السؤال مؤلمًا على وجه الخصوص بالنسبة لـ «بيتي»، التي كانت قد زارت طبيبة نسائية مؤخَّرًا وعلمت أنها تعاني من اضطراب في الغدد الصماء جعلها غير قادرة على إنجاب الأطفال.

شعرتُ أنني قسوت عليها خلال هذه الأسابيع بسبب الألم الذي كان يتكشَّف خلال جلسات العلاج. كل جلسة كانت بمثابة محنة، وكثيرًا ما غادرت «بيتي» مكتبي وهي مزعزَعةٌ داخليًّا. نوباتٌ من الهلع الحاد والعديد من الأحلام المزعجة بدأت تقض مضجعها، وعلى حد تعبيرها، كانت تموت ثلاث مرات على الأقل في الليلة الواحدة. ولم تستطع تذكر الأحلام، باستثناء حُلمين متكررين كانا قد بدآ في سنين مراهقتها، بعد وفاة والدها بوقت وجيز. في أحد هذين الحلمين، رقدت مشلولة في خزانة صغيرة كان أحدهم يغلقها بالقرميد من الخارج. في الحلم الآخر، استلقت على سرير في مستشفى، وكانت هناك شمعة -تمثِّل روحها- تحترق عند مقدمة السرير: كانت تعلم أنها ستموت مع انطفاء شعلة الشمعة، وشعرتْ بالعجز وهي تشاهدها تتضاءل شيئًا فشيئًا.

من الواضح أن الحديث عن وفاة والد «بيتي» أثار مخاوفها من حقيقة موتها. طلبتُ منها أن تتكلم عن أولى تجاربها ومفاهيمها عن الموت، ونظرًا لأنها نشأت في مزرعة، لم تكن غريبة عن الموت. ووفقًا لوالدتها (إذ إن «بيتي» لا تتذكر ذلك)، فقد طمأنها والداها بأن من يموتون هم كبار السن فحسبُ، لكنها بعد ذلك ضايقتهم لأسابيع وهي تردِّد أنها لا تريد أن تكبر ولم تكف عن سؤال والديها عن أعمارهما.

إلا أنها لم تدرك حتمية موتها إلا بعد مضي وقت قصير من وفاة والدها. وتذكرت تلك اللحظة بدقة.

«حدث ذلك بعد يومين من الجنازة، وكنت منقطعةً عن الدوام المدرسي. لكن المعلمة قالت إنه يجب أن أعود إلى المدرسة عندما أكون مستعدة. كان بإمكاني فعل ذلك وقت سابق، لكن لم يبدُ من الصواب العودة بتلك السرعة. كنت قلقةً من أنْ يظن الناس أنني لم أكن حزينة بما فيه الكفاية. كنت أسير في الحقول خلف المنزل، وسط البرد القارس الذي رأيت فيه أنفاسي، وكان المشي صعبًا بسبب تلبُّد الأرض وتجمُّد التراب المحروث. كنت أفكر في والدي المستلقي تحت الأرض وفي شدة البرد هناك، عندما سمعت فجأةً صوتًا من الأعلى يقول لي: «أنتِ التالية!»».

صمتت «بيتي» ونظرت إلي. «هل تعتقد أنني مجنونة؟».

- «كلا، لقد أخبرتك من قبلُ. لا يليق الجنون بك».

ابتسمتْ. «لم أخبر هذه القصة لأي أحدٍ من قبل. في الواقع، لقد نسيتها منذ سنوات، ولم أتذكرها حتى هذا الأسبوع».

- «تبدو قصةً مهمة، وينتابني شعورٌ جيد لأنك تريدين ائتماني عليها. أخبريني بالمزيد عن كونك «التالية»».

- «بدا الأمر كما لو أن والدي لم يعُد هنا ليحميني. بشكلٍ ما، كان هو الذي يَحُول دون دخولي القبر. لذا، في غيابه، كنتُ أنا التالية» حَنتْ «بيتي» كتفيها وارتجفت. «هل تصدق أنني ما زلت أشعر بالخوف عندما أفكر بذلك؟».

- «ماذا عن أمك؟ أين كانت وسط كل هذا؟».

- «كما أخبرتك من قبل، لم تكن قريبةً مني البتة. نعم، كانت تطهو وتطعمني -كانت بارعةً في ذلك- لكنها كانت ضعيفة: أنا التي

قمت بحمايتها. هل رأيت في حياتك شخصًا من «تكساس» لا يستطيع قيادة السيارة؟ بدأتُ القيادة في سن الثانية عشرة عندما مرض والدي لأنها كانت تخشى تعلم القيادة».

- «إذن لم يكن هناك من يحميك؟».
- «لذلك عانيتُ من الكوابيس: لا بد أنني رأيتُ الحلم عن الشمعة عشرين مرة على الأقل».
- «يقودني هذا الحلم إلى التفكير فيما قلتِه سابقًا عن خوفك من فقدان الوزن. كنتِ مضطرةً إلى الحفاظ على وزنك الثقيل لكي تتجنبي الموت بالسرطان مثل والدك. فعندما تبقى شعلة الشمعة ثخينةً، تبقَيْنَ أنتِ على قيد الحياة».
- «ربما، ولكن تبدو لي فكرة مستبعدة».

قلت في نفسي إن هذا كان مثالًا جيدًا آخر على عدم جدوى اندفاع المعالج إلى تفسير المَجْرَيات، حتى إن كان تفسيره منطقيًا. كما أن المرضى، حالهم كحال الجميع، يستفيدون أكثر من الحقيقة التي يكتشفونها بأنفسهم.

تابعت «بيتي»: «في مرحلةٍ ما من ذلك العام، تراءت لي فكرة موتي قبل أن أبلغ الثلاثين. وأعتقد أنني ما زلت أؤمن بذلك».

لقد قوَّضَتْ هذه النقاشات إنكارها للموت، وبدأتْ تشعر بعدم الأمان. لطالما كانت متأهبة للتعرُّض للإصابات، عند قيادة السيارة وركوب الدراجات وعبور الشارع. لكنها شغلت كل تفكيرها الآن بمزاج الموت المتقلب: «يمكن أن أموت في أي لحظة، عندما لا أتوقع ذلك نهائيًا». في الماضي، كان والدها يدَّخر المال ويخطط لرحلة عائلية إلى أوروبا ليتفاجأ بإصابته بورم في الدماغ قبل وقت قصير من تاريخ المغادرة. هي

وأنا وأي شخصٍ آخر يمكن أن يصعقه الموت على حين غرة. كيف يمكن لأي أحدٍ، كيف يمكنني أنا التعامل مع هذا الفكرة؟

بعد أن التزمتُ بأن أكون «حاضرًا» بكل جوارحي بجانب «بيتي»، حاولت ألا أجفل أمام أيٍّ من أسئلتها. أخبرتها عن الصعوبات التي واجهتُها على الصعيد الشخصي في التصالح مع الموت: لا يمكننا تغيير حقيقته، إلا أن موقف المرء تجاه الموت يمكن أن يخضع للكثير من التأثير. لقد تعلمتُ، من خلال تجربتي الشخصية والمهنية، أن الخوف من الموت يكون دائمًا أعظم لدى أولئك الذين يشعرون أن حياتهم ما زال ينقصها تحقيق الأهداف. تظهر لدينا هنا صيغة فعالة: كلما كانت الحياة تفتقر للتجارب، أو الإمكانات غير المحققة، ازداد قلق المرء من الموت.

أخبرتُ «بيتي» أن حدسي كان أنها ستتخلص من رعبها من الموت بعض الشيء عندما تدخل الحياة من أوسع أبوابها. (إذ إن القلق بشأن الموت لا يتلاشى بشكل كامل. فهو بمثابة تعرفة الدخول إلى عالم الوعي الذاتي).

أعربت «بيتي» أحيانًا عن غضبها لأنني كنت أجبرها على التفكير في مواضيع مروعة. «ما هدف التفكير في الموت؟ لا يمكننا فعل أي شيء حيال ذلك!» حاولت مساعدتها على فهم أنه على الرغم من أن حقيقة الموت بعينها تدمِّرنا، فإن فكرة الموت يمكن لها أن تنقذنا. أي إنه يمكن لوعينا بالموت أن يمنحنا منظورًا مختلفًا عن الحياة ويحرِّضنا على إعادة ترتيب أولوياتنا. لقد تعلَّم «كارلوس» هذا الدرس، وهذا ما قصدَهُ على فراش الموت عندما قال إنني أنقذت حياته.

بدا لي أن العبرة المهمة التي يمكن أن تتَّعِظ منها «بيتي» على أثر وعيها بالموت هو أنه عليها أن تعيش حياتها الآن، ولا يمكنها تأخير ذلك

إلى أجل غير مسمى. كان من السهل أن أوضح لها السُّبُل التي اتبعتْها لكي تتجنب الحياة: ترددها في الانخراط مع الآخرين، (لأنها كانت تخشى الانفصال عنهم)، الإفراط في تناول الطعام والبدانة؛ مما أدى إلى ابتعادها أكثر فأكثر عن الحياة، وتجنبها للحاضر من خلال الانسلال بسرعة إلى الماضي أو المستقبل. ولم أواجه صعوبةً أيضًا عندما قلتُ لها إنه كان في وسعها تغيير النمطية هذه. في الواقع، كانت قد شرعت بالقيام بذلك فعلًا؛ إذ أنها تفاعلت معي في ذلك اليوم بالذات!

شجَّعتُها على الانغماس في حزنها؛ لأنني أردتها أن تتفحصه وتعبر عن كل جانب من جوانبه. سألتها السؤال ذاته مرارًا وتكرارًا: «على من، وعلامَ، تحزنين؟».

فأجابت «بيتي»: «أعتقد أنني حزينة على فقدان الحب. فقد كان والدي الرجل الوحيد الذي عانقني؛ بل كان الشخص الوحيد الذي أخبرني أنه يحبني. أشعر أنني لن أحظى بهذه الأشياء مرة أخرى».

كنت أعرف أننا على وشك دخول منطقةٍ لم أجرؤ على الذهاب إليها في السابق. أيُعقَل أنه قبل أقل من عام من الآن كنت لا أطيق حتى النظر إلى «بيتي»؟ أصبحت أشعر بالمودةً تجاهها دون أدنى شك. حاولت جاهدًا إيجاد طريقة للرد عليها، لكنها كانت أقل مما طمحتُ إليه.

«إن تلقي الحب لا يحدث بمحض الصدفة أو القدر، يا «بيتي». يمكنك إخضاعه لتأثيرك، أكثر مما تعتقدين. أنتِ متاحةٌ للحب الآن أكثر مما كنت عليه قبل بضعة أشهر. أرى ذلك، وأستطيع أن أشعر بالفرق. تبدين بحالٍ أفضل، وتحسَّنَتْ قدرتك على التواصل مع الآخرين. أنتِ الآن أقرب إلى القلب وأكثر ودًا من ذي قبل».

تقبَّلت «بيتي» برحابة صدرٍ مشاعرها الإيجابية تجاهي، وأسَرَّت لي بأحلام يقظتها المستغرقة التي أصبحتْ فيها طبيبةً أو معالجةً نفسية، وعملنا جنبًا إلى جنب على إنجاز مشروع بحث علمي. كانت تتمنى لو كنت أنا والدها، وقادتنا هذه الأمنية إلى آخر جانبٍ من جوانب حزنها، الذي تَسبَّب لها دائمًا بالكثير من المعاناة. صحيحٌ أنها أحَبَّت والدها، لكن كان لديها مشاعر سلبية أيضًا تجاهه: كانت تشعر بالخجل منه، ومن مظهره (كان بدينًا للغاية)، ومن افتقارِه إلى الطموح والتحصيل العلمي، ومن جهله بالسلوكيات الاجتماعية المقبولة. عندما قالت لي هذه الأشياء، انهارت «بيتي» باكيةً. أخبرتني أن الإفصاح عن هذه المشاعر كان أمرًا صعبًا؛ لأن العار كان قد تَمَلَّكها بسبب خجلها من والدها.

بينما كنت أفكر برَدٍّ ملائم، تذكرتُ شيئًا قالته لي «أوليف سميث» (Olive Smith)، أول محلِّلة نفسية زرتُها. كان ذلك قبل أكثر من ثلاثين عامًا. (أتذكر ما قالته جيدًا، على ما أعتقد، لأنه كان الشيء الشخصي الوحيد، والأكثر فائدة، الذي قالته لي خلال ستمئة ساعة قضيناها سويًّا). كنت حينها تحت وطأة صدمةٍ شديدةٍ لأنني بحتُ ببعض المشاعر الوحشية تجاه والدتي، فانحنتْ أوليف سميث على الأريكة وقالت لي بلطف: «يبدو أن طبيعتنا البشرية بُنيت على هذا النحو».

قدرتُ تلك الكلمات كثيرًا. والآن، بعد مرور ثلاثين عامًا، قدَّمتُ الهدية ذاتها إلى «بيتي». وبدا أن توالي العقود على كلام «سميث» لم يسلِبْه من قوته الترميمية؛ إذ زفرت «بيتي» بعمق، وهدَّأتْ من روعها، وجلست على كرسيها. ثم أضفتُ أنني أعرف استنادًا إلى تجربتي الشخصية مدى صعوبة تفاهم البالغين ذوي الشهادات العليا مع آبائهم أو أمهاتهم غير المتعلمين الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة.

كان تكليف «بيتي» الذي استمر عامًا ونصف العام في «كاليفورنيا» قد شارف على الانتهاء. لكنها لم ترغب في ترك العلاج، فطلبتْ من الشركة تمديد مهمتها في «كاليفورنيا». عندما فشلت تلك المحاولة، فكرت في البحث عن وظيفة في «كاليفورنيا». لكنها قررت أخيرًا العودة إلى «نيويورك».

يا له من توقيت اضطَرَّت فيه للتوقف عن العلاج؛ فقد كنا في خضم تناول القضايا المهمة، وكانت «بيتي» لا تزال عاجزةً عن الوصول إلى وزن المئة والخمسين رطلًا! في البداية، اعتقدتُ أن هذا التوقيت سيئ للغاية. لكنني أدركت بعد التأمل أكثر في الأمر أن «بيتي» قد انغمست بعُمق في العلاج بسبب إطارنا الزمني الضيق بالذات، وليس على الرغم منه. هناك تقليد قديم في العلاج النفسي، يعود إلى «كارل روجرز»، وإلى «أوتو رانك» من قبله، يفيد بأن تاريخ الإنهاء المحدَّد مسبقًا غالبًا ما يزيد من كفاءة العلاج. على سبيل المثال، لو لم تكن «بيتي» تعلم أن وقتها في العلاج كان محدودًا لاستغرقتْ ربما وقتًا أطول بكثير قبل أن تتوصل إلى الإرادة والعزيمة الداخلية التي كانت تحتاجها من أجل أن تبدأ في فقدان الوزن.

إلى جانب ذلك، لم يكن من الواضح بأي حال من الأحوال ما إذا كنا سنحقِّق أكثر بكثير مما حقَّقناه. ففي الأشهر الأخيرة من العلاج، بدت «بيتي» مهتمة بحل القضايا التي تناولناها في الأساس أكثر من اهتمامها بالكشف عن قضايا جديدة. عندما أوصيتها بمواصلة العلاج في «نيويورك» وعرضتُ عليها اسم معالج مناسب، بدت غير ملتزِمة، وأشارت إلى أنها لم تحزِم أمرها بعد بشأن متابعة العلاج، وأنها ربما فعلت بما فيه الكفاية.

دلّتني علاماتٌ أخرى أيضًا على أن «بيتي» قد لا تصل إلى أبعد من هذه النقطة. فعلى الرغم من أنها تخلّصت من عادة الانغماس في تناول الطعام، لم تعد تتبع الأنظمة الغذائية. لذا اتفقنا على أن تبذل جهدها لكي تحافظ على وزنها الجديد: المئة والستين رطلًا، وسعيًا وراء هذه الغاية، اشترت «بيتي» مجموعة ملابس جديدة كليًا.

كما رأت «بيتي» حُلمًا سلّط الضوء على هذا المنعرِج من العلاج:

حلمتُ أنني كلفت مجموعة من الدهانين بطلاء الحوافِ الخارجية لمنزلي. لكنهم سرعان ما انتشروا في جميع أرجاء المنزل. وقف عند كل نافذة رجلٌ منهم يحمل مسدسَ رذاذٍ. ارتديت ملابسي بسرعة وحاولت منعهم. كانوا يقومون بطلاء الجزء الخارجي من المنزل بأكمله. رأيت خيوط الدُّخَان تتصاعد في جميع أنحاء المنزل من بين ألواح الأرضية. ورأيت دهانًا يرتدي جوربًا نسائيًّا على وجهه، ويرش الطلاء داخل المنزل. أخبرته بأنني أريد طلاء الحواف فحسب. فقال إن لديه أوامرَ بطلاء كل شيء، من الداخل والخارج. سألته: «ما هذا الدخان؟» قال لي إنها كانت بكتيريا، ثم أضاف أنهم كانوا في المطبخ يستنبتون البكتيريا القاتلة. شعرتُ بالخوف وكرّرتُ على مسمعه مرة تلو الأخرى: «كل ما أردته هو طلاء الحواف».

في بداية العلاج، كانت «بيتي» بالفعل ترغب بطلاء الحواف فحسب، لكنها انجذبت من غير أن تضعف أو تتراجع إلى ترميم الجزء الداخلي الدفين من المنزل. ثم قام الدَّهّان/المعالج برش الموت -موت والدها وموتها هي- في منزلها. أصبحت ترى الآن أنها أحرزت ما فيه الكفاية من التقدم، وأنه آنَ أوانُ التوقف عن العلاج.

مع اقترابنا من جلستنا الأخيرة، شعرتُ بارتياح وبهجة متزايدَيْن، كما لو أنني قد أفلتُّ من شيء ما. إحدى بديهيات العلاج النفسي أن المشاعر المهمة التي يُكِنُّها المرء للآخر تصل له دائمًا بوسيلة أو بأخرى، بشكل لفظي أو غير لفظي. لطالما علمتُ طلابي أنه إذا كانت هناك قضية كبيرة في العلاقة العلاجية لا يتم التحدُّث عنها -من قبل المريض أو المعالج- فإنهما لن يتمكَّنا من تناول أي موضوعٍ آخر مهم أيضًا.

مع ذلك، عندما بدأتُ بعلاج «بيتي» كانت مشاعري تجاهها سلبية جدًا. لم أخبرها عن تلك المشاعر قط ولم تلاحظها هي نهائيًا. لكن لا شك في أننا تناولنا مسائل مهمة، وأننا حقَّقنا بعض النتائج خلال العلاج. هل دحضتُ تعاليمي يا تُرى؟ أما من حقائقٍ مُطلَقة في العلاج النفسي؟

خصصنا الجلسات الثلاث الأخيرة لمعالجة الكرب الذي انتاب «بيتي» بسبب انفصالنا الوشيك. الأمر الذي كانت تخشاه في بداية العلاج أصبح حقيقةً: لقد سمحت لنفسها بالاكتراث لأمري، وكانت على وشك أن تخسرني. لماذا وثِقتْ بي من الأساس؟ ما الهدف من ذلك؟ كما قالت «بيتي» في البداية: «إذا لم ينخرط المرء في العلاقة مع أحدهم فلن يعاني من الانفصال عنه»..

لم أشعر بالحيرة إزاء ظهور المشاعر القديمة مجددًا. ففي المقام الأول، لا بد من نكوص المرضى مؤقتًا عندما يشارف العلاج على النهاية (إذن هناك حقيقةٌ مطلقة بالفعل). ثانيًا، لا يمكن حل جميع المشاكل إلى الأبد خلال العلاج، إذ لا بد من قيام المعالج والمريض بتكييف وتعزيز ما تعلَّماه سويًا، مرارًا وتكرارًا. ولهذا السبب بالذات يُطلق أحيانًا على العلاج النفسي اسم «العلاج الدوري» (cyclotherapy).

من أجل أن أعالج شعور «بيتي» باليأس، واعتقادها بأنها عندما تنفصل عني فإن كل جهدنا سيذهب سُدًى، قمت بتذكيرها بأن نموها لا يكمُن فيَّ أنا ولا في العالم الخارجي، بل كان جزءًا منها، وسوف تأخذه معها. على سبيل المثال، إذا كان بمقدورها وضع ثقتها بي والكشف عن مكنوناتها لي أكثر من أي شخص آخر، فإنّها تكتنز في نفسها تلك الخبرة إضافةً إلى قدرتها على القيام بذلك مجددًا. ولكي أوضح وجهة نظري أكثر، حاولت في جلستنا الأخيرة أن أستخدم نفسي كمثال.

«أشعر كما تشعرين أنت، يا «بيتي». أنا أيضًا سأفتقد جلساتنا. لكنني أصبحت شخصًا مختلفًا بسبب معرفتي بك».

كانت تبكي، بعيون حزينةٍ مُسدَلة، لكنها توقفت عن البكاء عندما سمعت كلماتي ونظرت نحوي بترقب.

«وعلى الرغم من أننا لن نلتقي مرةً أخرى، فسوف أحتفظ بهذا التغيير».

- «عن أي تغييرٍ تتحدث؟».
- «حسنًا، كما ذكرت لك، إن خبرتي المهنية ضئيلة عندما يتعلق الأمر بـ ... آه ... بمشكلة البدانة ...» رأيتُ «بيتي» تنظر إلى أسفل بخيبةِ أمل، ووبَّخت نفسي بصمت بسبب عدم مراعاتي لمشاعرها.

«حسنًا، ما أريد قوله هو أنني لم أتعامل من قبل مع مرضى بدينين، وقد تكوَّن لديَّ فهم جديدٌ لمشاكل الـ ...» لاحظتُ من خلال تعبيرها أن خيبة الأمل كانت تبتلعها أكثر فأكثر. «أقصدُ أن موقفي من البدانة قد تغير كثيرًا. عندما بدأنا بالعمل على علاجك لم أكن أشعر بالراحة مع الأشخاص الذين يعانون من السمنة المفرطة ...».

قاطعتني «بيتي»، بعبارات مشاكسة لم أعتَدْ عليها: «ها ها ها! «لم أكن أشعر بالراحة»؛ يا لها من جملة لطيفة. أتدركُ أنك بالكاد نظرت إليّ خلال الأشهر الستة الأولى؟ وأنك لم تلمسني قط خلال عام ونصف، ولا مرة واحدة؟ حتى إنك لم تصافحني!».

تملّكني الإحباط فجأةً. يا إلهي، إنها على حق! فأنا لم ألمسها ولا مرة. لم أدرك ذلك. ولا أعتقد أنني نظرت إليها كثيرا أيضًا. لم أتوقع أن تنتبه!

تلعثمتُ: «كما تعلمين، لا يجب أن يلمسَ الأطباء النفسيون المر...».

- «دعني أقاطعك هنا قبل أن تختلق المزيد من الأكاذيب ويكبر أنفك أكثر مثل «بينوكيو»»، بدت «بيتي» مستمتعةً بالإحراج الذي أصابني. «تذكر أنني في المجموعة ذاتها مع «كارلوس»، وغالبًا ما نتحدث عنك بعد انتهاء الجلسات».

أوه. أصبحتُ محاصَرًا الآن. لم أكن أتوقع حدوث ذلك. كان «كارلوس»، بسبب سرطانه العضال، معزولًا للغاية، وكان يشعر أنه منبوذٌ جدًّا لدرجة أنني صرت ألمسه كلما سنحت لي الفرصة لكي يشعر بدعمي له. كنت أصافحه قبل وبعد كل جلسة، وعادة ما وضعت يدي على كتفه وهو يغادر المكتب. ذات مرة، عندما علم بانتشار السرطان في دماغه، قمت بمعانقته وهو يبكي.

كيف سأرد على «بيتي»؟ كان «كارلوس» حالة خاصة، وكان بحاجة إلى التواصل الجسدي، لكنني لم أستطع أن أقول ذلك لها. يعلم الله أنها كانت بحاجة لذلك أيضًا. شعرت بتدفُّق الدم إلى وجهي. الخيار الوحيد الذي كان أمامي هو الاعتراف بالحقيقة.

«حسنًا، إن ما تشيرين إليه هو أحدُ نقاطي العمياء! هذا صحيح. أو بالأحرى، كان صحيحًا: خلال المرحلة الأولية من جلساتنا، كان جسدك يشعرني بالنفور».

- «أُدرك ذلك، صدِّقني. لم تتمكن من إخفاء مشاعرك بما فيه الكفاية».

- «إذن أخبريني، يا «بيتي». لماذا قرَّرتِ البقاء، مع أنك كنتِ تعلمين أنني لم أنظر إليك، أو أنني كنت غير مرتاح معك؟ لماذا لم تتوقفي عن زيارتي لكي تجدي معالجًا آخر؟ فهنالك العديد من الأطباء النفسيين» (دائمًا ما تنقذنا الأسئلة من الجلوس على صفيحٍ ساخن!).

«حسنًا، هناك سببان على الأقل. أولًا: تذكر أنني معتادة على هذا الأمر، فلا أرفع سقف توقعاتي. يعاملني جميع الناس بهذه الطريقة، ويكرهون مظهري. لا أحد يلمُسني قط. ولهذا السبب فوجئت عندما قام مصفف الشعر بتدليك فروة رأسي. أتذكر؟ وعلى الرغم من أنك لم تنظر إليَّ، بدا لي أنك كنتَ مهتمًّا بما كنت أقوله؛ كلا، كلا، هذا ليس صحيحًا؛ كنتَ مهتمًّا بما يمكن أن أقوله إذا كففتُ عن التصرف بمرح. في الواقع، كان ذلك أمرًا مفيدًا، إضافةً إلى أنك لم تغفُ خلال جلساتي. لقد تفوَّقت على الدكتور «فاربر» في هذا الجانب».

- «قلتِ إن هناك سببين».

- «السبب الثاني هو أنني تفهمتُ طبيعة مشاعرك. أنا وأنت متشابهان إلى حدٍّ كبير، من ناحية واحدة على الأقل. هل تذكر عندما كنتَ تدفعني إلى الانضمام إلى مجموعة «النهمون المجهولون»

لكي أقابل أشخاصًا آخرين يعانون من السمنة المفرطة، وأكوِّن صداقات جديدة، وأحظى ببعض المواعيد الغرامية؟».

- «نعم، أتذكر. قلتِ لي إنك تكرهين المجموعات».

- «هذا صحيح. أنا أكره المجموعات. لكنني لم أخبرك بالحقيقة الكاملة. السبب الحقيقي هو أنني لا أستطيع تحمل الأشخاص البدينين. أشعر بالاشمئزاز منهم. ولا أريد أن يراني الناس بصحبتهم. فكيف لي أن أغضب منك لشعورك بالأمر ذاته؟».

كنا كلانا متشوِّقين جدًّا عندما نظرتُ إلى الساعة وكانت الجلسة قد انتهت. لقد حبستْ هذه المحادثة أنفاسنا، وحزنتُ على نهايتها؛ لم أكن أرغب في التوقف عن علاج «بيتي». أردت أن تستمر المحادثات بيننا وأن أعرفها أكثر فأكثر.

عندما نهضنا لكي نغادر ومدَدتُ كلتا يدي لكي أصافحها، قالت لي: «أوه، كلا! كلا! أريد أن تعانقني! لا يمكنك أن تكفِّر عن أفعالك إلا بهذه الطريقة».

عندما تعانقنا، فوجِئْتُ أنه كان بإمكاني أن أحيطها بكلتا ذراعي بشكل كامل.

5

محصنةٌ أنا

رحبتُ بـ «إلفا» في غرفة الانتظار الخاصة بي، وسرنا معًا مسافة قصيرة إلى مكتبي. شعرتُ أن شيئًا ما قد حدث. فقد كانت مختلفة اليوم؛ مشت بخطواتٍ مرهقةٍ محبَطةٍ فاقدة للعزيمة، على عكس الأسابيع القليلة الماضية، حيث كانت تمشي بخطوات واثبة. لكنها عادت اليوم لتتحوَّل إلى تلك المرأة البائسة المتثاقلة التي قابلتها أول مرة قبل ثمانية أشهر. أتذكر كلماتها الأولى: «أعتقد أنني بحاجة إلى المساعدة. فعلى ما يبدو، هذه الحياة لا تستحق العيش. لقد مضى على موت زوجي عام كامل، لكنْ لا شيء يتحسن. أظن أنني بطيئة التعلّم».

لكنها أثبتت عكس ذلك: فلم تكن بطيئة التعلم. في الواقع، لقد أحرزت نتائجَ ملحوظة في العلاج. ربما كانت الأمور تسير بسهولة كبيرة. ما الذي يمكن أن يتسبب لها بنكسةٍ كهذه؟

تنهدت «إلفا» في كرسيها وقالت: «لم أعتقد أن ذلك قد يحدث لي يومًا».

كانت قد تعرَّضت لنشل محفظتها. ووفقًا لوصفها بدا أن حالة السرقة هذه لم تكن أمرًا خارقًا للعادة. مما لا شك فيه أن اللص رآها في المطعم على شاطئ البحر في «مونتيري» (Monterey) تدفع الحساب نقدًا عن أصدقائها الثلاث، اللواتي كُنَّ أراملَ مُسِنَّات. ولا بد أنه تَبِعها إلى موقف السيارات، بخطواتٍ مكتومة بسبب هدير الأمواج، ثم عَدَا بسرعة، ومن دون أن يتوقف، انتزع حقيبتها منها قبل أن يهرع إلى ركوب سيارته القريبة.

على الرغم من تورُّم ساقيها، فقد عادت «إلفا» أدراجها إلى المطعم لطلب المساعدة، ولكن بالطبع كان الوقت قد فات. بعد ساعات قليلة، عثرت الشرطة على حقيبتها فارغةً متدليةً من شُجَيْرة على طريق جانبي.

ثلاثمئة دولار كان مبلغًا كبيرًا بالنسبة لها، ولبضعة أيام شغلت «إلفا» بالها بالمال الذي فقدته. مع أن هذا القلق تبخَّر تدريجيًّا، كانت الآثار التي تركها ذات مرارةٍ لاذعة؛ وقد عبَّرت «إلفا» عن هذه الآثار بجملة: «لم أعتقد أن ذلك قد يحدث لي يومًا». فإلى جانب حقيبتها والثلاثمئة دولار، انتزع اللص من «إلفا» وهمَها بأن لها مكانة خاصة[1]. لطالما عاشت في دائرة اجتماعية من أصحاب الامتيازات، بعيدًا عن منغِّصات الحياة، والمشقات البشعة التي يتعرض لها الناس العاديون: تلك الجماهير الغفيرة في الجرائد ونشرات الأخبار التي تتعرض للنشل أو التشويه كل يوم.

تغيَّر كل شيء بعد هذه السرقة. ولَّى عهد الراحة والطمأنينة من حياتها، واختفى الشعور بالأمان. دائمًا ما كان منزلها يُغريها بالوسائد والحدائق والألحفة والسجاد الثخين، أما الآن فقد عَجَّ بالأَقفال والأبواب وأجهزة الإنذار والهواتف. اعتادت «إلفا» في السابق أن تمشي مع كلبها كل يوم في السادسة صباحًا. لكن سكون الصباح هذا بدا الآن محفوفًا بالمخاطر، وتوقَّفت هي وكلبها من وقت لآخر ترقبًا لأي تهديد.

لا شيء يلفت النظر في هذه التغيرات. فقد أصيبت «إلفا» بصدمة، وكانت تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة الشائع. بعد وقوع حادث أو اعتداء، يميل معظم الناس إلى الشعور بعدم الأمان، كما تنخفض عتبةُ الاستجابةِ الإجفالية[2] (startle threshold) لديهم، ويشعرون باليقظة

(1) انظر الحاشية رقم 4 في توطئة المؤلف. (المترجم).

(2) العَتَبة الإجفالية هي استجابة الفرد اللاواعية للمُثيرات أو المنبِّهات الخارجية التي تُنذر بالخطر، كالضجة أو الحركة الفجائية. كلما ارتفعت العتبة أصبح الفرد بحاجة إلى منبِّهات أكثر شدة لكي يشعر بالإجفال، والعكس صحيح كلما انخفضت. (المترجم).

المفرطة (hypervigilance). تزول ذكرى الحادثة مع مرور الوقت، ويستعيد الضحايا تدريجيًّا حالة الاطمئنان التي كانوا يشعرون به سابقًا.

لكن بالنسبة لـ «إلفا» لم يكن الأمر مجرد اعتداء بسيط. لقد تصدعت نظرتها تجاه العالم: في كثير من الأحيان، كانت «إلفا» تقول: «طالما أن للناس عيونًا وآذانًا وأفواهًا، يمكنني تنمية الصداقة بيني وبينهم»، لكنها لن تقول هذا بعد اليوم؛ لأنها فقدت إيمانها بالإحسان وبحصانتها الشخصية. أصبحت تشعر بأنها مكشوفة وعادية وغير محمية. كان التأثير الفعلي لتلك السرقة هو تحطيم وَهمِها وترسيخ وفاة زوجها بطريقة وحشية.

بالطبع، كانت تعلم أن «ألبرت» (Albert) قد مات، وأنه مستلقٍ في قبره منذ أكثر من عام ونصف. كما أنها مرَّت بجميع المراحل التي تمر بها الأرامل مثلها؛ من تشخيص سرطان زوجها، إلى العلاج الكيميائي الفظيع السام ذي الآلام المبرِّحة، إلى زيارتهما الأخيرة معًا إلى مدينة «كارمل» (Carmel)، مرورًا بآخر رحلة لهما على طريق «إل كامينو ريال» (El Camino Real)؛ ناهيك عن سرير المستشفى الذي وضعاه في المنزل، وأخيرًا: الجنازة، والمعاملات الورقية التي تلتها، ودعوات العشاء التي تضاءل عددها باستمرار؛ والنوادي الاجتماعية للأرامل نساءً ورجالًا؛ وجميع الليالي الطويلة التي قضتها وحيدةً. عانت «إلفا» من هذه الكارثة المروِّعة بجميع تفاصيلها.

لكنها، على الرغم من كل هذا، حافظت على شعورها باستمرارية وجود ألبرت، وبذلك حافظت على سلامتها ومكانتها الخاصة. عاشت «إلفا» وفقًا لمبدأ «كأن»[1] (As if)؛ أي كما لو أن العالم كان آمنًا،

---

(1) يقول الفيلسوف الألماني «هانس فايهينغر» (1852 - 1933) (Hans Vaihinger)، واضع النظرية «الكأنية»: إن الإنسان عادةً ما يفترض وجود بعض الأشياء والنماذج الفكرية؛ ومن ثَمَّ يقنع نفسه بأن افتراضاته تطابق الحقيقة ويعيش حياته بناءً على ذلك. (المترجم).

كما لو أن «ألبرت» كان على قيد الحياة، هناك في ورشة عمله المجاورة للمرأب.

طبعًا، ضع في اعتبارك أنني لا أتحدث عن التوهُّمات الذهانية (delusion)؛ إذ إن «إلفا» كانت بكامل قواها العقلية وتعرف أن ألبرت قد مات، لكنها ما زالت تعيش حياتها الروتينية خلف حجاب من الوهم (illusion) الذي خدَّر آلامها وخفَّف من وهج الحقيقة. منذ أكثر من أربعين عامًا، كانت قد أبرمت عقدًا مع الحياة تآكل أصله وشروطه الصريحة مع مرور الوقت، لكن طبيعته الأساسية بقيت جليةً: سوف يعتني «ألبرت» بـ «إلفا» إلى الأبد. وبناءً على هذه الفرضية اللاواعية، أسست «إلفا» عالمها الافتراضي بالكامل: عالم يمتاز بالأمان والأبوية الخيرة.

كان «ألبرت» يمتهن إصلاح الأشياء؛ فاختص في بناء الأسقف وميكانيكا السيارات، وبَرَع في القيام بعدة مِهَنٍ يدوية، إضافة إلى كونه مقاولًا. استطاع إصلاح كل شيء. وكان دائمًا يذهب إلى ورشته ليصنع نُسَخًا من قطع الأثاث أو الأدوات التي تجذبه صورها في الجرائد أو المجلات. استمعتُ لحديث «إلفا» -أنا الذي لطالما كنت أعجز عن القيام بأي شيء يدوي- وكلي انبهار. لا بد أن الحياة لمدة واحد وأربعين عامًا مع شخصٍ يُصلح كل شيء كانت مريحةً إلى أبعد الحدود. فهمتُ بسهولة سبب تشبُّث «إلفا» بشعور أن «ألبرت» لا يزال هناك في الورشة، يعتني بها ويصلح الأشياء. كيف لها أن تتخلى عنه؟ وما الداعي إلى ذلك؟ فقد نسجت تلك الذكرى -التي عززتها تجربة امتدت واحدًا وأربعين عامًا- شرنقة حول «إلفا» حَمَتْها من الواقع، إلى أن سُرِقت حقيبتها.

عندما قابلتُ «إلفا» لأول مرة قبل ثمانية أشهر لم أعجب بها كثيرًا؛ فهي امرأة قصيرة وغير جذابة، نصفها قزم ونصفها الآخر كالعفريت، وكِلا النصفين سيئ المزاج. أذهلتني لَدَانَة وجهها؛ تغمز وتتجهم وتجحظُ بعينيها، إما معًا وإما بكل واحدة منهما على حِدَة، كما بدَا كأن جبينها يعجُّ بشقوق كبيرة تشبه شقوق ألواح الغسيل. أما لسانها، الذي كان ظاهرًا دائمًا، فتغيّر حجمه جذريًّا في أثناء دخوله وخروجه من فمها أو دورانه حول شفتيها المطّاطيتين الرطبتين. أتذكر أنني سلّيت نفسي عندما تخيلت تعريفها على المرضى الذين يتناولون أدوية مهدئة طويلة الأمد بسبب إصابتهم بخلل الحركة المتأخر (tardive dyskinesia) (وهو خلل في عضلات الوجه ينتج عن تناول بعض الأدوية)، حيث سيشعر هؤلاء المرضى، في غضون ثوانٍ، بالإهانة الشديدة لأنهم سيعتقدون أن «إلفا» تسخر منهم.

لكن الأمر الذي لم يعجبني حقًّا في «إلفا» هو غضبها. كانت تتصبَّب غضبًا، وفي الساعات القليلة الأولى التي قضيناها معًا قالت كلامًا شريرًا عن كل شخص تعرفه، باستثناء «ألبرت» طبعًا. كانت تكره أصدقاءها الذين توقفوا عن دعوتها إلى منازلهم، كما كرهت أولئك الذين لم يوفِّروا لها الراحة. وسواء رحَّب بها الناس أو رفضوها، فكل شيء سيَّان بالنسبة إليها، فدائمًا ما كانت تجد في الجميع شيئًا توجِّه كرهها نحوه. كرهت الأطباء الذين أخبروها أن «ألبرت» محكوم عليه بالموت، وكرهت بشكل أكبر أولئك الذين منحوها آمالًا كاذبة.

كانت تلك الساعات شاقَّة بالنسبة إليَّ؛ فقد أمضيت ساعات مطوَّلة في شبابي أكره بصَمتٍ لسان أمي الخبيث. وعندما كنت طفلًا، كنت ألعب ألعابًا خيالية تمثَّلت في اختراع أشخاص لم تكرههم والدتي؛ عمة لطيفة؟ جَدٍّ يروي لها القصص؟ طفل يكبرها سنًّا يلعب معها ويدافع عنها؟ لكنني

لم أتمكن من تخيل أحد، باستثناء والدي بالطبع، لأنه كان جزءًا منها، والناطق الرسمي باسمها، و«الأنيموس»[1] (animus) الخاص بها. كان من صنعها، ووفقًا لقانون «أسيموف» (Asimov) الأول للروبوتات، لم يكن في استطاعته الانقلاب على صانعه، رغم أنني كنت أدعو أن يضربها ولو لمرة واحدة؛ مرة واحدة فقط يا أبي، أرجوك.

بالنسبة إلى «إلفا»، لم يكن بوسعي سوى أن أنتظر، وأنصت، وأصبر إلى أن تنتهي الجلسة بطريقة ما، وأن أحشد كل براعتي لكي أقول لها كلامًا داعمًا؛ مثل التعليقات المبتذلة حول مدى صعوبة تحمُّلها هذا القدر الهائل من الغضب. استفسرتُ في بعض الأحيان، بشكل خبيث تقريبًا، عن الآخرين في عائلتها. لا بد أن هناك شخصًا ما يستحق الاحترام منهم؛ لكنها كرهتهم جميعًا. ماذا عن ابنها؟ قالت عنه إنه أبله؛ كان «شارد الذهن»، حتى عندما يكون بقربها يبقى «شارد الذهن». ماذا عن زوجة ابنها؟ على حد تعبير «إلفا»، كانت «أميرة أمريكية يهودية». حين يكون ابنها عائدًا بسيارته إلى المنزل يتصل بزوجته ليقول إنه يريد العشاء على الفور. حسنًا، يمكنها فعل ذلك، تسع دقائق فقط -أكدت لي «إلفا»- هي الوقت الذي تكرِّسه لتحضير العشاء، تسع دقائق فقط لكي «تفجِّر» في الميكروويف وجبة جاهزة منخفضة السعرات الحرارية لأصحاب الذوق الرفيع.

كانت «إلفا» تطلق الألقاب على كل مَن تعرفه. حفيدتها «الحسناء النائمة» (همست «إلفا» همسًا، بغمزة كبيرة وإيماءة بالرأس) كان لديها

(1) في فلسفة عالم النفس السويسري «كارل يونغ» (1875 - 1975) (Carl Jung)، «الأنيموس» هي الطبيعة الذكرية لدى الأنثى، وتقابلها «الأنيما» (anima)، الطبيعة الأنثوية لدى الذكر. (المترجم).

حمَّامان اثنان؛ اثنان، تذكَّرْ ذلك. أما مدبرة منزل «إلفا» -«لوني تونز» (Looney Tunes)- التي وظَّفَتْها لتخفِّف من شعورها بالوحدة، فكانت غبية جدًّا، لدرجة أنها حاولت إخفاء حقيقة أنها مدخِّنة عن طريق نفخ الدخان في المرحاض المزوَّد بالسيفون. شريكةُ «إلفا» في لعبة الـ «بريدج»[1] (bridge) كانت السيدة «مِي ويتي» (Dame May Whitey) (واتسمت السيدة «مِي ويتي» بالذكاء مقارنة بالبقية؛ أي مخلوقات الزومبي المصابين بألزهايمر والسكارى الآفلين الذين يشكِّلون مجتمع لاعبي الـ «بريدج» في «سان فرانسيسكو»، وفقًا لـ «إلفا»).

لكننا اجتزنا هذه الجلسات، على الرغم من أحقادها ونفوري منها ومن استحضارها والدتي. تحمَّلتُ غضبي، واقتربتُ منها قليلًا، وتخلَّصتُ من تحويلي المضاد عبر فصل والدتي عن «إلفا»، وبشكل تدريجي، ببطء شديد، بدأت أشعر بالود تجاهها.

أعتقد أن نقطة التحول هذه جاءت ذات يوم عندما ارتمت «إلفا» بقوة على الكرسي وهي تقول: «ياه! أنا متعبة». حين رأتني أرفع كِلَا حاجبيَّ أوضحت لي أنها انتهت الآن من لعبة غولف -على ملعبٍ مؤلَّف من ثماني عشرة حفرة- مع ابن أخيها البالغ من العمر عشرين عامًا. (كانت «إلفا» امرأة في الستين من عمرها، طولها 4 أقدام و11 إنشًا، وتزن مئة وستين رطلًا على الأقل).

«وكيف كان أداؤك؟» استفسرتُ منها بنبرة مرحة لكي أشارك في المحادثة.

---

(1) لعبة ورق مشهورة في الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

انحنت «إلفا» إلى الأمام ووضعت يدها أمام فمها كما لو كانت تريد أن تمنع أحدًا في الغرفة من سماعها، وقالت، مُظهِرةً الكثير من أسنانها الهائلة الحجم: «لقد لقَّنت ذلك اللعين درسًا لن ينساه!».

بدَا لي ما قالته مضحكًا جدًا وأخذتُ أقهقه إلى أن امتلأت عينايَ بالدموع. أحبَّت «إلفا» ضحكاتي، وأخبرتني لاحقًا أنه كان أول شيء عفوي يقوم به «السيد الطبيب البروفيسور» (كان ذلك لقبي أنا!) وضحكنا معًا. بعد ذلك دام الانسجام بيننا إلى أقصى الحدود. صرتُ أقدِّر «إلفا» بحسِّها الفكاهي المذهل، وذكائها، وجرأتها، والحياة الغنية المليئة بالأحداث التي عاشتها. جمَعَنا الكثير من أوجه الشبه؛ فكانت مثلي، حيث حققت قفزة نوعية بين الأجيال. هاجر والدايَ المفلسان إلى الولايات المتحدة من روسيا في العشرينيات من عمرهما؛ ووالداها هي أيضًا مهاجران أيرلنديان فقيران. لقد نجحت «إلفا» في سد الفجوة بين سكان الأحياء الأيرلندية في جنوب «بوسطن» وبطولات الـ «دوبليكيت بريدج» (duplicate bridge) في «نوب هيل»، «سان فرانسيسكو».

في بداية علاجها تطلَّبت مني كل جلسة مع «إلفا» الجهد الكبير. كنت أمشي بخطوات متثاقلة كلما توجهتُ لإحضارها من غرفة الانتظار، لكن كل ذلك تغيَّر بعد بضعة أشهر؛ إذ أصبحتُ أتطلع إلى قضاء الوقت معها، وتخلَّل الضحك جميع جلساتنا. قالت لي سكرتيرتي إن ابتسامتي صارت دليلًا على قدوم «إلفا» إلى مكتبي في أي يوم من الأيام.

التقينا أسبوعيًّا لعدة أشهر، وسار العلاج على ما يرام. يحدث هذا عادةً عندما يستمتع المعالج والمريض بالوقت الذي يقضيانه معًا. تحدثنا عن ترمُّلها، وتغيُّر دورها الاجتماعي، وخوفها من الوحدة، وحزنها على غياب الحميمية الجسدية من حياتها. لكن الأهم من ذلك كله أننا تحدثنا

عن غضبها وكيف أدى إلى إبعاد عائلتها وأصدقائها عنها. مع مرور الوقت تخلَّصَت منه، وباتت أكثر ليونة ولطفًا، وتضاءل شعورها بالعداوة في حكاياتها عن «لوني تونز»، و«الحسناء النائمة»، والسيدة «مِي وِيتي»، وجحافل لاعبي الـ «بريدج» المصابين بألزهايمر. مع انحسار غضبها بدأت المصالحات وعاد أصدقاؤها وعائلتها إلى الوجود في حياتها. كانت تُبلِي بلاءً حسنًا جدًّا لدرجة أنني كنت أفكر -قبل أن تحصل حادثة السرقة- في طرح فكرة إنهاء العلاج.

لكن عندما تعرَّضَت للسرقة شعَرَتْ كما لو أنها عادت إلى نقطة الصفر؛ إذ إن أهم شيء أدَّت إليه السرقة هو تسليط الضوء على حقيقة أنها إنسان عادي. لقد عكست جملتها «لم أعتقد أن ذلك قد يحدث لي يومًا» فقدانها لمعتقد المكانة الخاصة. بالطبع كانت لا تزال مميَّزة من منطلق أنها تتمتع بصفات ومواهب استثنائية، وأنها عاشت حياة فريدة، وأنه لا يوجد أحد على وجه البسيطة يشبهها تمامًا، هذا هو الجانب العقلاني للمكانة الخاصة، لكن هناك أيضًا جانبًا غير عقلاني لها، وقد يشتد هذا الشعور أكثر لدى بعض الأشخاص. إنه أحد أساليب إنكار الموت الرئيسية؛ إذ يتولَّد الاعتقاد اللامنطقي بأننا غير معرَّضين للخطر من ذلك الجزء في عقولنا الذي يعمل على تهدئة رهابنا من الموت، وعلى جعلنا نظن أن الأشياء البشعة، مثل الشيخوخة والموت، قد تكون من نصيب الآخرين فحسب، وأن قانون الطبيعة والمصير البشري والبيولوجي لا ينطبق علينا.

لا شك في أن ردة فعل «إلفا» تجاه انتزاع المحفظة منها بدَت لا منطقية (على سبيل المثال، قالت إنها ليست مؤهلة للعيش على الأرض، لأنها صارت تخاف من مغادرة منزلها)، لكن بدا من الواضح أن ما كانت تعاني منه فعلًا هو تجريدها من لاعقلانيتها. كل سبل الخداع الذاتي التي

أدت مهمتها بشكل جيد جدًّا -إحساسها بالمكانة الخاصة، وبأنها تحت تأثير سحري، وبأنها حالة استثنائية محمية إلى الأبد- فجأةً فقدت قدرتها الإقناعية. أدركت «إلفا» حقيقةَ أوهامها، وكل الأشياء التي كانت تحميها هذه الأوهام تجسَّدت الآن أمامها بِعُرْيِها وهولها.

أصبح الجرح الذي تسبَّب فيه حزنها مكشوفًا بالكامل، لذا ارتأيتُ أن هذا هو الوقت المناسب لفتحه على مصراعيه من أجل تطهيره والسماح له بالشفاء كما ينبغي.

قلت لها: «أعرف تمامًا ما تقصدينه عندما تقولين إنك لم تتوقعي أن يحدث هذا لك أنتِ، ومن الصعب جدًّا بالنسبة إليَّ تقبُّل حقيقة أنني أنا أيضًا سأتعرَّض لكل هذه الآلام؛ آلام الشيخوخة والخسارة والموت».

أومأت «إلفا» برأسها، ودلَّني جبينها المشدود على أنها فوجئت لدى تحدُّثي عن مشاعري الشخصية.

«لم يكن هناك مهرب من شعورك بأنه لو كان «ألبرت» على قيد الحياة لَمَا حدث لك هذا قط». تجاهلت تعليقها العابر بأنه لو كان زوجها على قيد الحياة لَمَا اصطحبت ثلاث أرامل مُسِنَّات لتناول الغداء. «لذا فإن تعرُّضك للسرقة جعل رحيله واضحًا لك وضوح الشمس».

امتلأت عيناها بالدموع، لكنني شعرت بأن لديَّ الحق، أو أنني مُفوَّض، في المتابعة: «كنتِ على دراية بذلك من قبلُ، أعلم ذلك، لكن جزءًا منك أنكر حقيقة الأمر، والآن بتِّ تعرفين أنه مات حقًّا. إنه ليس في الباحة الخلفية، ولا في ورشة العمل. لا وجود له إطلاقًا إلا في ذكرياتك».

انفجرت «إلفا» بالبكاء حقًّا الآن، وارتعد جسدها القصير بالنحيب لعدة دقائق. كانت هذه أول مرة تبكي هكذا في حضوري. جلستُ هناك وتساءلت: «والآن ماذا سأفعل؟» لكن غرائزي قادتني، لحسن الحظ، إلى

القيام بمناورة مدهشة. توجَّه نظري مباشرة إلى محفظتها، تلك المحفظة الممزقة ذاتها التي انتهكها السارق كثيرًا، وقلت: «إن سوء الحظ أمر اعتيادي، لكن ألستِ تَدْعِين السارقين إلى نشلك عندما تحملين شيئًا بهذا الحجم؟» لم تتردد «إلفا»، بجرأتها المعتادة، في لفت انتباهي إلى جيوبي المحشوَّة والفوضى العارمة على الطاولة بجانب مقعدي، ثم وصفت المحفظة بأنها «متوسطة الحجم».

فأجبتها: «لو كانت أكبر مما هي عليه لاحتاجت إلى حامل الأمتعة ليتمكَّن من تحريكها».

فقالت متجاهلةً تعليقي الساخر: «كما أنني أحتاج إلى وضع كل شيء فيها».

- «دَعكِ من المزاح! لِنَرَ ما فيها!».

دبَّت الحماسة في «إلفا»، فوضعت حقيبتها على طاولتي وفتحتها بشكل كامل، ثم بدأتْ في تفريغها. أول العناصر التي أخرجتها كان ثلاثة أكياس فارغة.

سألتها: «هل أنت بحاجة إلى اثنين إضافيين تحسبًا لحالات الطوارئ؟».

ضحكت «إلفا» واستمرت في إفراغ أحشاء المحفظة. فمنا معًا بتفحُّص ومناقشة كل عنصر فيها. اعترفت «إلفا» بأن عبوات الـ «كلينكس» الثلاث والاثني عشر قلمًا (بالإضافة إلى الأقلام الرصاص الثلاثة الصغيرة) كانت بالفعل غير ضرورية، لكن موقفها كان حازمًا بشأن زجاجتي الكولونيا وفُرَش الشعر الثلاث، كما رفضتْ، بإيماءة صارمة من يدها، تشكيكي في حاجتها إلى مصباحها اليدوي الكبير ودفاتر الملاحظات الضخمة وحزمة الصور الكبيرة.

نجادلنا بشأن كل شيء في محفظتها؛ رزمة الخمسين دولارًا المؤلَّفة من قطع معدنية صغيرة، وأكياس الحلوى الثلاثة (المنخفضة السعرات الحرارية بالطبع) -ضحكتْ عندما سألتها: «هل تعتقدين يا «إلفا» أنك إذا أكثرتِ من تناولها فستصبحين أنحل؟»- وكيس بلاستيكي فيه قشور برتقال قديمة («مَن يدري يا «إلفا»؟ قد تحتاجين إليها في أي وقت») ومجموعة من إبر الحياكة (قلت لها: «ست إبر تبحث عن كنزة صوفية»)، وكيس الخميرة الأم، ونصف روايةٍ لـ «ستيفن كينغ» (Stephen King) (حيث مزقت «إلفا» أجزاء من الصفحات خلال قراءتها، وأوضحت قائلةً: «لم تكن هناك قيمة في الاحتفاظ بها»)، ودباسة أوراق صغيرة («يا للجنون يا «إلفا»!») وثلاث نظارات شمسية، وهناك، بعيدًا في زوايا الحقيبة السحيقة، كان لديها عملات معدنية متنوعة، ومشابك ورقية، وقصاصات وبضعة مبارد للأظفار، ومادة ما تشبه نسالة القطن إلى حد كبير.

عندما أفصحت الحقيبة العظيمة أخيرًا عن كل مكنوناتها، رحنا نحدق باستغراب في محتوياتها التي تموضعت في صفوف على طاولتي. شعرنا بالأسى لأن الحقيبة صارت فارغة ولم يَعُدْ فيها أي شيء يمكننا إخراجه. استدارت نحوي وابتسمتْ، ونظرنا بمودة أحدنا إلى الآخر. كانت لحظة حميمية استثنائية. بشكل أو بآخر، لقد فعلت ما لم يفعله أي مريض من قبل؛ حيث كشفت لي كل شيء، وتقبَّلتُ أنا كل شيء وطلبتُ المزيد. تتبَّعتُها في كل صغيرة وكبيرة، وكلي دهشة أن محفظة امرأة عجوز يمكن أن تكون بمثابة وسيلة للتعبير عن كلٍّ من العزلة والحميمية؛ العزلة المطلقة التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من الوجود، والحميمية التي تشتِّت رهبة العزلة، أو حتى حقيقة العزلة بعينها.

لقد تمخَّضت عن تلك الجلسة نقلة نوعية؛ إذ إن الدقائق الحميمية التي عشناها معًا -سمِّها حبًا، أو سمِّها ممارسة الحب- كانت كفيلة بتحقيق الخلاص لـ «إلفا». خلال ساعة واحدة، انتقلت «إلفا» من شعورها بأنها مهجورة إلى الشعور بالثقة، عادت الحياة إليها واقتنعت مرة أخرى بقدرتها على الإحساس بالحميمية.

أعتقد أن تلك الجلسة كانت أفضل جلسة علاجية لي على الإطلاق.

6

لا تكن لطيفًا[1]

لم يسبق لأي مريض أن طلب مني الاحتفاظ برسائل الحب الخاصة به. وقفتُ عاجزًا عن الرد. وقد علَّل «ديف» طلبه بوضوح وصراحة؛ فمن المعروف أن الرجال البالغين من العمر تسعة وستين عامًا يموتون فجأة. في حالة كهذه ستجد زوجته الرسائل وستتألم كثيرًا لدى قراءتها. لم يعرف «ديف» أي شخص آخر يمكنه الاحتفاظ بها، ولم يجرؤ على إخبار أي صديق عن هذه العلاقة السِّرِّية؛ حبيبته «ثُريا» (Soraya)! لقد تُوُفِّيَت منذ ثلاثين عامًا في أثناء الولادة. «لم أكن أنا والد الطفل»، أوضح «ديف» بسرعة. الله وحده يعلم مصير الرسائل التي أرسلها هو إليها!

سألته: «ماذا تريدني أن أفعل بهذه الرسائل؟» .

«لا شيء. لا شيء على الإطلاق. ما عليك سوى الاحتفاظ بها».

- «متى كانت آخر مرة قرأتها فيها؟».

- «لم أقرأها منذ عشرين عامًا على الأقل».

قلتُ له مجازفًا: «يبدو لي أنها محفوفة بالمخاطر. لماذا تحتفظ بها من الأساس؟».

---

(1) عنوان هذه القصة (Do Not Go Gentle) مُقتبَس من عنوان قصيدة للشاعر الويلزي «ديلان توماس» (Dylan Thomas: Do not go gentle into that night). (المترجم).

نظر إليّ «ديف» نظرة ارتياب، وأعتقد أن القليل من الشك قد اعتراه. هل كنتُ حقًا غبيًا لهذه الدرجة؟ هل أخطأ عندما ظن أنني حسَّاس بما فيه الكفاية لكي أَمُدَّ إليه يد العون؟ مرت بضع ثوانٍ ثم قال: «من المحال أن أتخلَّص من هذه الرسائل».

كان كلامه هذا حادًّ اللهجة قليلًا، ودلَّ على ظهور التوتر لأول مرة في العلاقة التي كنا نعمل على تكوينها خلال الأشهر الستة الماضية. لقد أخطأتُ خطأً فادحًا بتعليقي، لذا تراجعتُ إلى الوراء واتبعتُ نمطًا من الأسئلة أكثر تصالحية وانفتاحًا على الأجوبة. «أخبِرني بالمزيد عن هذه الرسائل وعن قيمتها بالنسبة إليك يا «ديف»».

بدأ «ديف» في الحديث عن «ثُريا»، وفي غضون دقائق قليلة تلاشى التوتر وعادت إليه طبيعته المرحة العفوية الثابتة. لقد التقاها «ديف» عندما كان مديرًا لفرع شركة أمريكية في بيروت. كانت أجمل امرأة «غزاها» على الإطلاق. «الغزو» كان كلمته هو. لطالما فاجأني «ديف» بطريقة كلامه هذه؛ فيها شيء من البراعة وشيء من السخرية. كيف له أن يقول: «غزوتُها»؟ هل كان أقل وعيًا بذاته مما كنت أعتقد؟ أم إنه كان متفوقًا عليّ جدًا وسخر من نفسه –ومني أيضًا– بالتهكم الحذق؟

أحبَّ «ديف» «ثُريا»، أو على الأقل كانت الحبيبة الوحيدة (من بين الأعداد الهائلة من حبيباته) التي قال لها: «أنا أحبك». امتدت علاقتهما اللذيذة بسِرِّيَّتها أربع سنوات. (لم تكن لذيذة وسِرِّية، بل سِرِّية بلذة، لأن السِّرِّية كانت محور شخصية «ديف» الذي دار حوله كل شيء آخر، وسأتناول هذه القضية أكثر بعد قليل. لقد أثارته السِّرِّية وأَسَرَتْه، وغالبًا ما سعى وراءها على حساب حياته الشخصية، حيث تشابك وتمزَّق العديد من علاقاته، خاصة مع زوجاته الثلاث السابقات وزوجته الحالية، بسبب إحجامه عن الوضوح أو الصراحة بشأن أي شيء).

بعد أربع سنوات قامت الشركة بنقل «ديف» إلى جزء آخر من العالم، وعلى مدى السنوات الست التالية، أي حتى وفاتها، تقابَل «ديف» و«ثُريا» أربع مرات فقط، لكنهما كانا يتراسلان يوميًّا تقريبًا، ولطالما أخفى رسائل «ثُريا» (التي يبلغ عددها المئات) بشكل جيد جدًّا. في بعض الأحيان كان يضعها في خزانة ملفات وفقًا لتبويبات غريبة (مثلًا، دلَّ حرف (G) على «الذنب» (guilt)، وحرف (D) على «الاكتئاب» (depression)، لكي يقرأها عندما يغمره الاكتئاب الدفين).

ذات مرة، على امتداد ثلاث سنوات، احتفظ بها في خزينة ودائع آمنة. تساءلتُ في نفسي عن العلاقة بين زوجته ومفتاح خزينة الودائع الآمنة. بما أن «ديف» يميل إلى السِّرِّية والمكايد، استطعت أن أتخيل ما يمكن أن يحدث؛ قد يسمح لزوجته برؤية المفتاح عن طريق الخطأ، ثم يُلفِّق قصة واهية من أجل أن يثير فضولها، وبعد أن يتملَّكها القلق والفضول سيُعبِّر عن احتقاره لها بسبب تطفُّلها وتضييق خناقها عليه بهذه الشكوك غير اللائقة؛ فقد قام «ديف» سابقًا بحياكة هذا النوع من السيناريوهات.

«ازداد شعوري بالتوتر في هذه الآونة بشأن رسائل «ثُريا»، وتساءلت إذا ما كان بإمكانك الاحتفاظ بها، هذا كل ما في الأمر».

نظر كلانا إلى حقيبته الكبيرة المحشوة برسائل «ثُريا»؛ «ثُريا» العزيزة التي رحلت منذ فترة طويلة والتي تلاشى دماغها وعقلها، ودُفِنت جزيئات حمضها النووي المتناثرة مرة أخرى في أعماق الأرض؛ «ثُريا» التي لم تفكِّر في «ديف» أو أي شيء آخر منذ ثلاثين عامًا.

تساءلت إذا ما كان في استطاعة «ديف» أن يأخذ بضع خطوات إلى الوراء ليصبح شاهدًا على نفسه، لكي يرى كم كان سخيفًا ومثيرًا للشفقة، وكم كان وثنيًّا في تصرفاته؛ رجلًا مسنًّا على أبواب الموت لا

عزاء له إلا في مجموعة من الرسائل، تلك الرسائل التي حملها كما لو كان يحمل لافتة تقول إنه أحبَّ فتاة وإنها بادلته الحب أيضًا، ذات مرة، قبل ثلاثين عامًا. هل سيكون من المفيد لـ «ديف» أن يرى هذه الصورة؟ هل سأتمكّن من مساعدته على أن يكون «الشاهد على نفسه» من دون أن يشعر بأنني أُهِينه وأحطُّ من قدر الرسائل؟

في رأيي، إن العلاج «الجيد» (الذي أساوي بينه وبين العلاج العميق (deep therapy) أو العلاج النافذ[1] (penetrating therapy)، وليس العلاج الفعال أو حتى -يؤسفني أن أقول هذا- العلاج المفيد) الذي يتلقاه مريض «جيد»[2] هو في الأساس مشروع يهدف إلى البحث عن الحقيقة. عندما كنت مبتدئًا، كانت حقائق الماضي فريستي، فرُحتُ أتتبَّع جميع إحداثيات حياة المريض لكي أحدِّد بدقة وضعها الحالي وأفسِّره، وأفهم باثولوجيا المريض، ودوافعه، وأفعاله.

كنت أتمتع بثقة كبيرة. يا لغطرستي! والآن، أي نوع من الحقيقة هذا الذي كنت أسعى وراءه؟ أعتقد أن فريستي كانت مجرد وهم. الحرب التي أشنُّها هي ضد السحر. أعتقد أن الوهم دائمًا ما يضعف الروح ويقيِّدها، بغض النظر عن الراحة والبهجة التي كنت أستمدها منه.

لكن لا بد من التوقيت السليم والحكمة. إياك أن تسلب المريض من أي شيء إذا لم تكن تملك شيئًا أفضل تقدمه. احذر من نزع أوهام المريض الذي لا يستطيع تحمُّل جفاء الواقع، ولا ترهق نفسك بمبارزة السحر الروحاني؛ فأنت لست أهلًا لذلك، لأن التعطش للدين شديد للغاية، وجذوره عميقة جدًّا، وتعزيز المحيط الثقافي له هائل التأثير.

---

(1) العلاج النافذ أو العلاج العميق هو العلاج الذي يركز على فهم لاوعي المريض. (المترجم).

(2) القصد في هذا السياق هو المريض المتجاوب، أو الذي يعرف كيفية الاستفادة من العلاج. (المترجم).

طبعًا أنا لستُ مجردًا من الإيمان كليًا، فالتعويذة السقراطية -«الحياة التي لا نتفحصها غير صالحة للعيش»- هي بمثابة شعاري الديني، لكن «ديف» لا يمتُّ بصلة إلى العقيدة هذه، لذلك اضطررت إلى كبح فضولي. لم يتساءل «ديف» كثيرًا عن المعنى الحقيقي لتشبُّثه بالرسائل، والآن، بعد أن أصبحت قبضته ضيقة وهشة عليها، لن يتقبل التحقيق في هذا الأمر، كما لن يكون التحقيق من هذا النوع مفيدًا، لا الآن ولا في أي وقت آخر.

إلى جانب ذلك، افتقرت أسئلتي إلى الصدق التام؛ فقد رأيت انعكاسًا واضحًا لذاتي في «ديف»، لذا إن لنفاقي حدودًا. أنا أيضًا كانت لديَّ حقيبة من الرسائل من علاقة حب فقدتها منذ زمن طويل، وأنا أيضًا أخفيتها ببراعة (وفقًا لطريقتي، حرف (B) يشير إلى «البيت الموحش» (Bleak House)؛ رواية «ديكنز» المفضلة لديَّ التي أقرؤها عندما تكون حياتي في الحضيض)، وأنا أيضًا لم أعاوِد قراءة الرسائل. كلما حاولت فعل ذلك جلبت لي الأوجاع بدلًا من الراحة. لقد رقدَت في مكانها دون أن يمسَّها أحد لمدة خمسة عشر عامًا، وأنا أيضًا لم أستطع التخلص منها.

لو كنت أنا مريضي (أو معالِجي) لقلتُ: «تخيَّل أن الرسائل قد اختفت أو احترقت أو ضاعت، كيف سيكون شعورك؟ انغمِس في هذا الشعور، واستكشِف معالمه»، لكنني لم أستطع. فكَّرت كثيرًا في حرقها، لكن هذه الفكرة دائمًا ما تثير آلامًا لا يمكن وصفها. كنت أعرف مصدر اهتمامي الكبير بـ «ديف» وتدفُّق فضولي وافتتاني بهذه الحالة؛ كنت أريد أن يقوم «ديف» بالمهمة نيابة عني، أو بمهمتنا نيابة عنا.

لقد انجذبت إلى «ديف» منذ البداية. في جلستنا الأولى، قبل ستة أشهر، سألته بعد تبادل أطراف الحديث: «ما المشكلة؟».

فأجابني: «أصبحت أعاني من عجز الانتصاب!».

شعرت بالدهشة؛ إذ أذكُر أنني نظرت إليه ورأيت جسده الطويل النحيل الرياضي ورأسه المكسو بالشعر الأسود اللامع وعينيه المفعمتين بالحيوية، تدحض حقيقة أنه في سن التاسعة والستين، وقلت في نفسي: «أُحيّيك!» كان والدي في الثامنة والأربعين من العمر عندما أصيب بنقص التروية القلبية أول مرة. آمل أن أصل إلى سن التاسعة والستين من عمري وأنا كلي نشاط وحيوية لئلًا أقلق بشأن «عجز الانتصاب».

كنا أنا و«ديف» نميل إلى إضفاء الطابع الجنسي على بيئتنا المحيطة بشكل كبير، لكنني احتويت هذا الأمر بشكل أفضل منه، وتعلّمت منعه من السيطرة على حياتي منذ فترة طويلة، كما أنني لا أشاطره شغفه بالسِّرِّية، وأشارك كل شيء مع العديد من أصدقائي وزوجتي أيضًا.

بالعودة إلى الرسائل، ما الذي ينبغي عليَّ فعله؟ هل يجب أن أحتفظ برسائل «ديف»؟ ولِمَ لا؟ ألم تكن تلك علامة تبشِّر بأنه على استعداد لوضع ثقته بي؟ لم يكن في مقدوره ائتمان أحد على أسراره في السابق، خاصة الذكور. كان العجز الجنسي هو السبب الرئيسي الذي دفعه إلى استشارتي، لكنني شعرتُ أن المهمة الحقيقية في علاجه هي تحسين الطريقة التي يتعامل بها مع الآخرين. وبما أن العلاقة المبنية على الثقة والائتمان هي شرط أساسي يسبق الشروع في العلاج، فقد تكون في حالة «ديف» عنصرًا فعالًا في تغيير حاجته المَرَضية إلى السِّرِّية، لذلك فإن احتفاظي بالرسائل من شأنه أن يوطِّد الثقة بيننا.

قد تمنحني الرسائل أفضلية إضافية أيضًا؛ إذ إنني لم أشعر في السابق أن «ديف» مرتاح في العلاج، على الرغم من أننا تعاملنا بشكل جيد مع عجزه الجنسي. كان التكتيك الذي اتبعتُه هو التركيز على الخلاف

الزوجي، واقترحت أن العجز الجنسي كان أمرًا متوقعًا في علاقة يحتلُّها الكثير من الغضب والشك المتبادل. وصف لي «ديف»، المتزوج حديثًا (للمرة الرابعة)، زواجه الحالي مثلما وصف زيجاته السابقة؛ كان يشعر أنه في السجن، وأن زوجته هي حارسة هذا السجن، تتنصت على محادثاته الهاتفية وتقرأ بريده وأوراقه الشخصية. لقد ساعدتُه على إدراك أنه إذا كان يشعر بأنه سجين فلا بد أنه هو الذي قام ببناء سجنه بيده. لا عجبَ أن زوجته حاولت الحصول على معلومات عنه، ولا عجب أن الفضول تملَّكها بشأن أفعاله ومراسلاته، لكن هو الذي أثار فضولها لأنه رفض مشاركتها حتى أبسط المعلومات حول حياته.

تجاوب «ديف» جيدًا مع هذا النهج وسعى بشكلٍ مدهش إلى مشاركة زوجته المزيد عن حياته ومشاعره الداخلية، وتمكَّن بذلك من تحطيم الحلقة المفرغة. لانَت له زوجته، وتضاءل غضبه، وتحسَّن أداؤه الجنسي.

بحلول هذا الوقت كنت قد وجَّهت نظري في رحلته العلاجية إلى دوافعه اللاواعية. ما الشيء الذي كان يستمدُّه «ديف» من الاعتقاد بأنه سجين لدى امرأة؟ ما الذي غذَّى شغفه بالسِّرِّية؟ ما الذي منعه من تكوين حتى علاقة وثيقة واحدة لاجنسية مع رجل أو امرأة؟ ماذا حدث لرغبته في التقرب من الآخرين؟ هل يمكن أن نستخرج هذه الرغبة الآن، حتى وإن كان في سن التاسعة والستين، وإعادة إحيائها وجعلها جزءًا من الواقع؟

لكن هذه الأفكار بدَت لي مشروعًا يخصُّني أكثر «ديف». كنت أشعر أنه وافق على استكشاف الدوافع اللاواعية، إلى حد ما، ليسايرني فحسب. أَحبَّ التحدث معي، لكنني أعتقد أن الأمر الرئيسي الذي جذبه إلى ذلك كان فرصة الاستغراق في الماضي، والحفاظ على شعلة انتصاراته الجنسية في عصره الذهبي. شعرتُ أن علاقتي به كانت مؤقتة، وأنني إذا

تفحَّصتُ أعماقه أكثر، واقتربت من قلقه، فسوف يختفي بكل بساطة، سوف يتخلف عن موعده التالي، ولن أتمكن من الاتصال به مرة أخرى.

إذا احتفظت بالرسائل يمكن أن تصبح بمثابة سلك التثبيت[1]؛ أي لن يكون قادرًا على أن يطفو بعيدًا ويختفي، أو -على الأقل- إذا أراد إنهاء العلاج فسيجب عليه مصارحتي، وسيواجهني مباشرة لكي يطلب استعادة الرسائل.

إلى جانب ذلك، شعرت أن قبول الرسائل محتم عليَّ، لأن «ديف» شخصٌ حسَّاسٌ للغاية. كيف يمكنني أن أرفض الرسائل من دون أن يشعر أنني كنت أرفضه شخصيًّا؟ كما أنه كان يتسرع في إطلاق الأحكام، لذا فإن الخطأ هنا سيكون قاتلًا؛ نادرًا ما منح «ديف» الناس فرصة ثانية.

طبعًا كنت أشعر بعدم الارتياح بشأن طلب «ديف»، وبدأت أفكِّر في أسباب وجيهة تجعلني أرفض رسائله. إن قبولي لطلبه سيكون بمثابة عقد اتفاقٍ مع ظِلِّه[2]؛ أي التحالف مع دوافعه المرَضية. كان طلبه تآمريًّا إلى حدٍّ ما، لذلك من الممكن أن تجعل هذه الرسائل علاقتنا مثل علاقة صبيَّين صغيرين مشاكِسين. هل سأتمكن من بناء علاقة علاجية صلبة على مثل هذه الأسس الواهية؟

كنت أعتقد أن الاحتفاظ بالرسائل سيجعل إنهاء العلاج أمرًا صعبًا على «ديف»، لكنني أدركت بسرعة أن هذا محض هراء. لقد رفضت هذه النظرة لأنها كانت مجرد رأي شخصي؛ كانت حيلة من حِيَلي الغبية

---

(1) سلك أو خيط التثبيت الذي يشير إليه هنا مجازيًّا هو السلك الذي يُستخدَم في تثبيت الخيمة في مكانها عند التخييم في الغابات. (المترجم).

(2) وفقًا لـ «يونغ»، الظِّلّ (the Shadow) هو الجزء اللاواعي الذي يحتوي على أفكارنا ومشاعرنا المكبوتة ونقاط ضعفنا وغرائزنا، إلخ. (المترجم).

المتهورة التلاعبية التي تأتي دائمًا بنتائج عكسية. لن تساعد الحِيَل «ديف» على التواصل مع الآخرين بشكل مباشر وحقيقي. كان عليَّ أن أنصرف وفقًا لسلوك صريح وصادق.

علاوة على ذلك، إذا أراد إيقاف العلاج فسيجد طريقة لاستعادة الرسائل. أتذكر مريضة استشارتني قبل عشرين عامًا، كان علاجها تشويه الازدواجية، كانت تعاني من تعدُّد الشخصيات، حيث شنَّت شخصيتاها (اللتان سأُسمِّيهما «الخجول» (Blush) و«الوقحة» (Brazen)) حربًا خادعة، إحداهما ضد الأخرى. الشخصية التي عالجتُها كانت «الخجول»، وهي شابة مقيَّدة ومتزمِّتة، أما «الوقحة»، التي نادرًا ما كشفت عن نفسها، فكانت تشير إلى نفسها بعبارة «السوبر ماركت الجنسي»، وكانت على علاقة بملك الأفلام الإباحية في «كاليفورنيا». غالبًا ما كانت «تستيقظ» «الخجول» لتجد أن «الوقحة» قد أفرغت حسابها المصرفي واشترت فساتين مثيرة وملابس داخلية من الدانتيل الأحمر وتذاكر طيران إلى «تيهوانا» (Tijuana) و«لاس فيغاس». في أحد الأيام، شعرَت «الخجول» بالخطر عندما عثرت على تذكرة طيران للسفر حول العالم فوق خزانة ملابسها، وظنَّت أنها تستطيع إيقاف هذه الرحلة بالإبقاء على جميع ملابس «الوقحة» المثيرة حبيسةً في مكتبي. شعرتُ بالحيرة إلى حدٍّ ما، وكنت على استعداد لتجربة أي شيء لمرة واحدة، فوافقت على طلبها واحتفظتُ بملابسها تحت طاولة المكتب. بعد أسبوع وصلت صباحًا إلى عملي لأجد بابي مخلوعًا ومكتبي مخرَّبًا. كانت الملابس قد اختفت، واختفت معها مريضتي أيضًا. لم أرَ «الخجول» (أو «الوقحة») مرة أخرى.

لنفترض أن «ديف» مات فجأة؟ مهما كانت صحته جيدة، فلقد كان في التاسعة والستين، والناس يموتون في هذه السن غالبًا، ماذا سأفعل برسائله بعد ذلك؟ وأين سأخزِّنها بحق الجحيم؟ لا بد أن الرسائل هذه تزن عشرة أرطال. تخيلت لِلَحظة أن أقوم بوضعها مع رسائلي أنا. إذا عثر عليها أحد فقد تغطي حقيقة الأمر.

لكن المشكلة الرئيسية حقًّا في الاحتفاظ بهذه الرسائل كانت تتعلق بالعلاج الجماعي؛ فقد اقترحت على «ديف» قبل عدة أسابيع أن يصبح جزءًا من مجموعة علاجية، وخلال الجلسات الثلاث الماضية ناقشنا هذا الأمر بإسهاب. بدَا لي أن بيئة العلاج الجماعي كانت مناسبة جدًّا لتناول جميع سماته؛ ميله إلى السِّرِّية، وإضفاء الطابع الجنسي على جميع علاقاته مع النساء، وخوفه من جميع الرجال وشكِّه فيهم. وافق «ديف» مُكرَهًا على الانضمام إلى مجموعة العلاج التي كنت أرأسها، وكانت جلستنا في ذلك اليوم هي آخر اجتماع فردي بيننا.

كان لا بد من النظر في الأمر الذي طلبه «ديف» مني -أي أن أحتفظ بالرسائل- من خلال هذا السياق. أولًا، من المحتمل أن يكون العامل الرئيسي وراء هذا الطلب هو انتقاله الوشيك إلى العلاج الجماعي. لا شك في أنه تحسَّر على فقدان علاقته الحصرية بي وشعر بالاستياء من فِكرة مشاركتي مع سائر أعضاء المجموعة، ومن ثم قد يكون طلبه أن أحتفظ برسائل «ثُريا» بمثابة وسيلة لإدامة علاقتنا المميزة والخاصة.

حاولت التعبير عن هذه الفكرة بحذر شديد جدًّا كي لا أستفز حساسية «ديف» الخارقة الحادة، وحرصتُ على عدم الحطِّ من شأن الرسائل، قائلًا إنه كان يستخدمها كوسيلة لتحقيق غاية في نفسه. كنت حريصًا

أيضًا على ألّا أبدو وكأنني أبالغ في التفكُّر في علاقتنا؛ فقد كان هذا هو الوقت المناسب لتعزيز نموها.

لكن «ديف»، الذي كان بحاجة إلى وقت طويل في العلاج قبل أن يتعلم كيفية الانتفاع منه، سخِر من تفسيري بدلًا من التفكير فيما إذا كان يحمل في طياته شيئًا من الحقيقة، وأصرَّ على أنه طلب مني الاحتفاظ بالرسائل في هذا التوقيت لسبب واحد فقط؛ كانت زوجته تقوم بتنظيف المنزل على نطاق واسع وقد أوشكت بكل تأكيد على دخول مكتبه، حيث أخفى الرسائل.

لم أقتنع بردِّه، لكن اللحظة الراهنة استوجبت الصبر لا المواجهة، فتجاهلت كلامه. كنت قلقًا جدًّا من أن الاحتفاظ بالرسائل قد يخرب التطور الذي سيحرزه في المجموعة. كنت أعرف أن العلاج الجماعي مشروع غني بالمكاسب بالنسبة إلى «ديف»، لكنه أيضًا محفوف بالمخاطر، لذلك أردت أن أسهِّل عليه الانضمام إلى المجموعة.

قد يعود عليه العلاج الجماعي بفوائد كبيرة، قد تكون المجموعة بمثابة المجتمع الآمن الذي سيمكِّن «ديف» من تحديد مشكلاته البين-شخصية وتجربة سلوكيات جديدة. على سبيل المثال، من المحتمل أن يكشف المزيد عن نفسه، ويتقرب من الرجال الآخرين، ويرتبط بالنساء بوصفهن مخلوقات بشرية ولسن أعضاء جنسية. كان «ديف» يظن في لاوعيه أن كلًّا من هذه الأفعال سيتسبَّب له في بعض الكوارث، لذلك كانت المجموعة بمثابة الفسحة المثالية لدحض فرضياته.

من بين المخاطر المتعددة، كنت أخشى حدوث هذا السيناريو بالذات؛ تخيلت أن «ديف» سيرفض مشاركة معلومات مهمة (أو حتى تافهة) عن نفسه بطريقة خجول أو استفزازية، ليَشْرع أعضاء المجموعة

الآخرون في طلب المزيد منه، حيث سيردُّ «ديف» بالمشاركة بشكل أقل، عندها سيغضب الأعضاء منه وسيتهمونه بممارسة الألاعيب معهم، مما سيُشعِره بالأذى والحصار، وستكون النتيجة هي تأكيد شكوكه ومخاوفه من أعضاء المجموعة. سوف ينسحب من العلاج الجماعي، ويصبح أكثر عزلةً وإحباطًا مما كان عليه سابقًا.

بدَا لي أن احتفاظي بالرسائل يعني تواطئي بطريقة مضادة للعلاج النفسي مع ميله إلى السِّرِّية، كما سيضعه ذلك في مؤامرة معي تستبعد الأعضاء الآخرين حتى قبل أن ينضم إلى العلاج الجماعي.

وأخيرًا، بعد أن وضعت كل هذه الأمور بعين الاعتبار، اخترت كيفية الردِّ.

«أفهمُ لماذا تُقدِّر هذه الرسائل يا «ديف»، وأشعر بالرضا أيضًا لأنني الشخص الذي ترغب في ائتمانه عليها. ومع ذلك، أعرف من خلال تجربتي أن العلاج الجماعي يجري بشكل أفضل إذا كان كل فرد في المجموعة، بمن فيهم قائد المجموعة، واضحًا قدر الإمكان. صدِّقني، أريد أن تعود عليك المجموعة بالنتائج الإيجابية، لذلك أعتقد أنه من الأفضل أن نسلك هذا السبيل. يسعدني أن أحتفظ بالرسائل في مكان آمن ومغلق لأطول فترة ممكنة، شريطة أن توافق على إخبار المجموعة عن صفقتنا هذه».

علا الذهول مُحَيَّا «ديف». لم يكن يتوقع هذا الرد. هل سيقوم بهذه المغامرة؟ تأمَّلَ في الأمر لبضع دقائق. «لا أعرف. يجب أن أفكر مليًّا. سأخبرك بقراري لاحقًا». غادر «ديف» مكتبي، جارًّا وراءه حقيبته ورسائله المشردة.

لم يُخبِرني «ديف» بقراره بشأن الرسائل قط، على الأقل ليس كما كنت أتوقع، لكنه انضم إلى المجموعة وحضر الاجتماعات الأولى بإخلاص. لقد أذهلتني حماسته حقيقةً. بحلول الاجتماع الرابع قال لنا إن جلسات المجموعة كانت الشيء الوحيد الذي يتطلع إليه خلال الأسبوع، وكان ينتظر كل جلسة بفارغ الصبر. لكن، للأسف، لم يكن السبب وراء الحماسة هذه هو تشوُّقه إلى اكتشاف الذات، بل النساء الجذابات الأربع في المجموعة. صبَّ كل تركيزه عليهن، وعلِمنا لاحقًا أنه حاول أن يشكِّل علاقات اجتماعية مع اثنتين منهن خارج المجموعة.

وكما توقعت، أخفى «ديف» ذاته جيدًا عن سائر الأعضاء، كما تلقَّى بعض الدعم حول سلوكه من عضو متحفظ آخر: امرأة جميلة وفخور بنفسها مثله. كانت تبدو أصغر بعقود من سنها الحقيقي. في أحد الاجتماعات طُلِب منها هي و«ديف» الإفصاح عن أعمارهما، لكنهما رفضا ذلك بالاستناد إلى مراوغة بارعة؛ لم يرغبا في أن يعاملهما الآخرون على أساس العمر. منذ فترة طويلة (عندما كان يشار إلى الأعضاء التناسلية بـ «الأعضاء الخاصة»)، كانت مجموعات العلاج تتردد في الحديث عن الجنس، لكن في العقدين الماضيين أصبح الحديث عنه في هذه المجموعات أكثر شيوعًا، وأصبح المال هو الموضوع الخاص. هناك الآلاف من جلسات العلاج الجماعي التي يُفترَض أن يقوم فيها الأعضاء بالكشف عن كل شيء، لكنني لم أسمع بعدُ أي عضو في أي مجموعة يتكلم بصراحة عن دخله.

أما في مجموعة «ديف»، فالسِّرُّ الكبير كان العمر. صحيحٌ أن «ديف» مازَح الآخرين حول هذا الموضوع، لكنه رفض بشدة الإفصاح عن عمره، لأنه لم يكن يرغب في المجازفة بفرصه في إقامة علاقة جنسية

مع إحدى النساء في المجموعة. عندما ألحّت عليه إحدى الأعضاء لإخبارها بعمره، عرض «ديف» صفقةً عليها: رقم هاتف منزلها مقابل بوحه بعمره الحقيقي.

مع مرور الوقت تزايد قلقي بشأن حجم المقاومة[1] (resistance) في المجموعة؛ إذ لم يقتصر الأمر على تخلِّي «ديف» عن العمل بجد في العلاج الجماعي، بل تسبَّب مزاحه ومغازلته للنساء في تدني طبيعة الحوار بأكمله في المجموعة إلى مستوى سطحي.

لكن، في أحد الاجتماعات، اكتسبت نبرة العلاج طابعًا جديًا عميقًا عندما قالت إحدى النساء أن حبيبها قد علم مؤخرًا أنه مصاب بالسرطان. كانت مقتنعة بأنه سيموت قريبًا، مع أن الأطباء زعموا أن تشخيصه لم يكن ميئوسًا منه، بغض النظر عن حالته الجسدية المنهكة وتقدُّمه في السن (كان في الثالثة والستين).

تألمتُ لـ «ديف»! كان ذلك الرجل ذو الثلاثة والستين عامًا -«المتقدم في السن»- يصغره بست سنوات، لكن «ديف» لم يُظهِر أي ردة فعل. في الواقع، صار يتحدث بصدق أكبر.

«قد يكون هذا هو الشيء الذي يجب أن أتحدث عنه في المجموعة. أنا أخاف جدًّا من المرض والموت. وأرفض رؤية الأطباء؛ أقصد الأطباء الحقيقيين»، قال وهو يشير إليَّ بخبث. «آخر فحص بدني خضعت له كان منذ أكثر من خمسة عشر عامًا».

قال له أحد الأعضاء: «تبدو بصحة جيدة يا «ديف» مهما كان عمرك».

---

(1) في سياق العلاج النفسي، وخاصة في المجموعات، المقاومة هي رفض البوح وعدم مشاركة الأفكار والمشاعر. (المترجم).

- «شكرًا لك، فأنا أبذل جهدي للعناية بصحتي. أمارس الرياضة ساعتين في اليوم على الأقل، بين السباحة والتنس والمشي. أتعاطفُ معكِ ومع حبيبكِ يا «تيريزا» (Theresa)، لكنني لا أعرف كيف يمكنني أن أمُدَّ إليك يد العون. أفكر كثيرًا في الشيخوخة والموت، إلا أن أفكاري مروعة للغاية، بحيث لا يمكنني التحدث عنها. بصراحة، لا أحب حتى زيارة المرضى أو الاستماع إلى الناس وهم يتحدثون عن المرض. يقول لي الدكتور ...» أشار إليّ مرة أخرى «إنني أتجنب الجدية دائمًا في المجموعة. ربما هذا هو السبب!».

سألته: «سبب ماذا؟».

- «حسنًا، إذا بدأتُ في تناول القضايا الجدية هنا، فسأخوض في الأحاديث عن مدى كرهي للتقدم في السن ومدى خوفي من الموت. سأخبركم في يوم من الأيام عن كوابيسي، على ما أعتقد».

- «هذه المخاوف تعترينا جميعًا يا «ديف». قد يجد المرء العزاء أحيانًا عندما يعلم أن الجميع «في قارب واحد»».

- «هذا ليس صحيحًا. كل واحد منا وحيد على متن قاربه. هذا هو أفظع ما في الموت. على المرء أن يموت بمفرده».

قال له عضو آخر: «ومع ذلك، حتى عندما تكون وحيدًا على متن قاربك ستشعر بالراحة دائمًا عندما ترى أضواء القوارب الأخرى تتحرك إلى أعلى وأسفل بمحاذاتك».

حين شارفت هذه الجلسة على النهاية كنت متفائلًا للغاية. شعرت كأن نقلة نوعية حدثت خلالها. كان «ديف» يتحدث عن شيء مهم. لقد تحركت مشاعره وأصبح حقيقيًا، ورد الأعضاء الآخرون بالمثل.

في الاجتماع التالي أخبرنا «ديف» عن حلم عميق رآه في الليلة التي تلت الجلسة السابقة. كان هناك طالب في الجلسة دوَّن الحلم كما رواه «ديف» بحذافيره:

الموت يحيطني من كل جانب. أشتَمُّ رائحته. لديَّ علبة فيها ظرف محشور بداخلها. يحتوي الظرف على شيء محصَّن ضد الموت أو الاضمحلال أو التلف. أخفيه سِرًّا عن الآخرين. أذهبُ للإمساك به وأتحسَّسه. فجأة أجد أن الظرف أصبح فارغًا. ينتابني شعور بالأسى الشديد حيال ذلك، وألاحظ أن أحدهم قام بفتحه. في وقت لاحق أعثر في الشارع على شيء ظننتُ أنه الشيء الذي كان في الظرف، لكنه كان حذاءً قديمًا متسخًا نعله منسلخ من مكانه.

صعقني حلم «ديف» كليًّا. لقد فكرت كثيرًا في رسائله الغرامية وتساءلت إذا ما كنتُ سأحظى بفرصة أخرى لاستكشاف معناها معه.

بقدر ما أحب العلاج الجماعي، فإن صيغته تعاني من عيب واحد مهم بالنسبة إليَّ؛ في كثير من الأحيان لا يسمح العلاج الجماعي باستكشاف القضايا الوجودية العميقة. خلال وجودي في المجموعات، دائمًا ما أتطلع بحرقة إلى الوصول إلى طريق جميل يقودني إلى مكنونات الأفراد، لكنني مجبَر على الاكتفاء بأداء المهمة العملية (الأكثر نفعًا) المتمثلة في التخلص من العلاقات البين-شخصية التي تنمو كالخمائل. مع ذلك، لم أستطع أن أحرم نفسي من هذا الحلم؛ فقد كان بمثابة «الطريق الملكي»[1] (Via Regia) إلى قلب الغابة. لم أسمع كثيرًا عن حلم مثله عرض بكل شفافية الإجابة على لغز دفين في اللاوعي.

---

(1) طريق ثقافي أوروبي (European Cultural Route) تاريخي طوله 4.500 كلم، يبدأ في موسكو ويعبر وسط وغرب أوروبا، وينتهي في غرب إسبانيا. (المترجم).

لم يعرف «ديف» ولا أفراد المجموعة كيف يفسِّرون الحلم. تلعثموا لبضع دقائق، ثم قدمتُ لهم بعض التوجيهات حين وجهت سؤالًا عاديًا لـ «ديف» عن إذا ما كان لديه أي ارتباطات بصورة الظرف الذي كان يحتفظ به سرًا في الحلم.

كنت أعلم أن في ذلك مجازفة. سيكون خطأً، وربما خطأً فادحًا، أن أُجبِر «ديف» على البوح بسِرِّه في وقت غير مناسب أو أن أقوم أنا بالكشف عن المعلومات التي ائتمنني «ديف» عليها خلال علاجه الفردي قبل أن يبدأ الانضمام إلى المجموعة، لكنني شعرتُ أن سؤالي كان سليمًا بعض الشيء؛ فقد تناولت محتوى الحلم بواقعية، ويمكن لـ «ديف» أن ينفي بسهولة وجود ارتباطات متصلة بالحلم.

لكنه شرع في الحديث بجرأة لا تخلو من خجله المعتاد. قال إنه من الممكن أن الحلم يرتبط بمجموعة رسائل -«تعود إلى علاقة معينة»- كان يحتفظ بها سرًا. أثار «ديف» فضول الأعضاء الآخرين، فاستجوبوه إلى أن روى بعض التفاصيل عن علاقته القديمة مع «ثُريا» ومشكلة إيجاد مكان مناسب لكي ترقد فيه الرسائل بسلام. لم يقل إن العلاقة انتهت منذ ثلاثين عامًا، كما لم يذكر مفاوضاته معي وعرضي الاحتفاظ بالرسائل إذا وافق على إخبار المجموعة عنها.

ركَّزت المجموعة على مسألة السِّرِّية؛ لم أكن مهتمًّا كثيرًا بهذه القضية آنذاك، مع أنها قضية علاجية ذات صلة. تساءل الأعضاء عن حب «ديف» للخفاء. وفي حين أن بعضهم تفهَّم رغبته في إبقاء الرسائل سرًّا عن زوجته، لم يستوعب أيٌّ منهم إفراطه في السِّرِّية. على سبيل المثال، لماذا رفض «ديف» إخبار زوجته أنه كان يتلقى العلاج؟ لم يقتنع أحد من الأعضاء بعذره الواهي بأنها إذا علِمت أنه يخضع للعلاج فستشعر

بالتهديد الشديد لأنها ستعتقد أنه قصَد العلاج لكي يشكو منها، كما أنها ستنغصُّ عليه عيشته باستجوابه كل أسبوع حول ما قاله في جلسة المجموعة.

قالوا له أيضًا إنه إذا كان فعلًا يهتم بشأن راحة بال زوجته، فعليه أن يفكر في مدى الغضب الكبير الذي كانت تشعر به لأنها لا تعرف أين يذهب كل أسبوع. عليه أن يمعن النظر في الأعذار الضعيفة التي تحجَّج بها أمام زوجته لكي يغادر المنزل كل أسبوع من أجل حضور الجلسة (إذ إنه متقاعد وليس لديه أي عمل يُبقِيه خارج المنزل بشكل مستمر). وماذا عن المكايد التي كان يدبرها من أجل إخفاء فاتورة العلاج التي كان يدفعها كل شهر؟ لِمَ كل هذه التصرفات التآمرية؟! حتى إن نماذج شركات التأمين كانت تُرسَل إلى رقم صندوق بريده السِّرِّي، كما شكا الأعضاء أيضًا من سرِّية «ديف» في المجموعة، حيث شعروا بالإقصاء لأنه كان مترددًا في الوثوق بهم. لماذا قال لهم «رسائل تعود إلى علاقة معينة» في وقت سابق من الاجتماع؟

واجَهوه مباشرة: «بحقك يا «ديف»، ماذا ستخسر إذا قلت «رسائل غرامية»؟!».

كان أعضاء المجموعة –بُورِكت قلوبهم– يقومون بمهمتهم الأساسية على أكمل وجه؛ فقد اختاروا ذلك الجزء من الحلم –موضوع السِّرِّية– الذي كان أكثر شيء مرتبط بالطريقة التي تواصَل بها «ديف» معهم، وحاولوا تفحُّصه ببراعة. بدَا «ديف» قلقًا بعض الشيء، إلا أنه تفاعَل معهم كما لم يفعل من قبل. لا مزيد من ألاعيبه لهذا اليوم.

لكن الجشع سيطر عليَّ. كان هذا الحلم ذهبًا خالصًا وأردت استخراجه. سألتهم: «هل لدى أحدكم أيُّ حدس حول بقية الحلم؟ على

سبيل المثال، حول رائحة الموت، وحقيقة أن الظرف يحتوي على شيء «محصّن ضد الموت أو الاضمحلال أو التلف»؟».

صمتت المجموعة لبضع لحظات، ثم التفت إليَّ «ديف» وقال: «ما رأيك أنتَ يا دكتور؟ أنا متشوِّق جدًّا لسماع تفسيرك».

شعرت بأنني محاصر. لم يكن بمقدوري الإجابة من دون أن أكشف عن بعض المعلومات التي شاركها «ديف» معي في جلستنا الفردية. على سبيل المثال، لم يُخبِر أعضاء المجموعة أن «ثُريا» ماتت منذ ثلاثين عامًا، وأنه كان في التاسعة والستين من عمره، وأنه استشعر الموت، وأنه طلب مني أن أكون حارس الرسائل، لذا إذا كشفتُ عن هذه الأشياء فسيشعر «ديف» بالخيانة، وربما يترك العلاج. هل كنتُ على وشك الوقوع في فخ؟ بدَا لي السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو الصدق التام.

قلت له: «يصعب عليَّ حقًّا أن أجيبك عن سؤالك يا «ديف». لا أستطيع أن أُخبِرك بأفكاري حول الحلم من دون الإفصاح عن المعلومات التي شاركتها معي قبل انضمامك إلى المجموعة. أعلم أن خصوصيتك بالغة الأهمية بالنسبة إليك، ولا أريد أن أخون ثقتك بي. ماذا عسايَ أن أفعل؟».

انحنيت إلى الوراء وكلي رضًا عن نفسي. يا لها من تقنية ممتازة! هذا هو ما أقوله لطلابي على الدوام: «إذا واجه المعالج معضلة ما، أو تخالَج في صدره شعوران قويان متضاربان، فإن أفضل ما يمكنه فعله هو مشاركة المعضلة -أو كلا الشعورين- مع المريض».

فقال لي «ديف»: «قل ما لديك. أعطيك الضوء الأخضر، كما أنني أدفع لك مقابل سماع رأيك. ليس لديَّ ما أخفيه، وأي شيء قلته لك هو مفتوح كالكتاب. لم أذكر ما دار بيننا حول الرسائل لكي لا أضعك في موقف محرج. أعتقد أن طلبي منك وعرضك المضاد كانا سخيفين بعض الشيء».

بعد أن حصلت على إذن «ديف»، شرعت في سرد خلفية الأحداث المرتبطة بالحلم على أعضاء المجموعة، الذين أصيبوا بالحيرة مما سمعوه حينذاك. أخبرتهم عن الأهمية الكبيرة للرسائل بالنسبة إلى «ديف»، ووفاة «ثُريا» قبل ثلاثين عامًا، ومشكلة «ديف» التي تمثَّلت في إيجاد مكان لتخزين الرسائل، وطلبه مني أن أحتفظ بها، وعرضي، الذي رفضه «ديف» حتى اللحظة، للاحتفاظ بها شريطة أن يخبر المجموعة بجميع تفاصيل اتفاقنا. كنت حريصًا على احترام خصوصية «ديف» ولم أكشف عن عمره أو أي معلومات غير ذات صلة.

ثم تناولت الحلم. في رأيي، فسَّر هذا الحلم لماذا كانت الرسائل تحمل الكثير من المعاني في طياتها بالنسبة إلى «ديف»، كما أجاب عن أهمية رسائلي بالنسبة إليَّ، لكنني لم أتحدث عن رسائلي، لأن شجاعتي تقف عند حدود معينة. وأستطيع تبرير ذلك بكل تأكيد؛ يأتي المرضى إلى الجلسات من أجل علاجهم هم وليس علاجي أنا، كما أن الوقت ثمين في العلاج الجماعي -ثمانية مرضى وتسعون دقيقة فقط لا غير- ولا فائدة من قضائه في الاستماع إلى مشكلات المعالج. لا بد أن يثق المرضى بأن المعالجين يواجهون مشكلاتهم الشخصية ويعملون على حلها بمفردهم.

لكن واقع الحال هو أن هذه ليست إلا تبريرات. كانت القضية المحورية هي افتقاري إلى الشجاعة. لطالما وقعت في الخطأ نفسه؛ فلا أكشف عن ذاتي إلا قليلًا جدًا، على عكس مَن يبالغ في الكشف عن ذاته، ولكن عندما أُفصِح بالكثير عن مكنوناتي، يستفيد المرضى دائمًا من معرفة أنني مثلهم، في صراع مستمر مع مشكلات وجودي الإنساني.

تابعت قائلًا إن الحلم كان حلمًا عن الموت؛ حيث بدأ بـ «الموت يحيطني من كل جانب. أشتَمُّ رائحته»، وكانت الصورة المركزية هي

الظرف؛ ذلك الظرف الذي يحتوي على شيء محصَّن ضد الموت والتلف. ألم يكن كل شيء واضحًا؟ كانت رسائل الحب بمثابة التميمة، أو أداة لإنكار الموت، أبعدَت الشيخوخةَ عن «ديف» وأبقت على شغفه عالقًا في الماضي. أن يكون المرء محبوبًا حقًا، وأن يتذكره الآخرون، وأن ينصهر مع شخص آخر إلى الأبد، يعني أن يكون محصنًا ضد الفناء وأنه محمي من العزلة التي تشكِّل صميم الوجود.

مع استمرار الحلم، رأى «ديف» أن الظرف كان مفتوحًا وفارغًا. لكن لماذا؟ هل شعر أن الرسائل ستفقد تأثيرها إذا شاركها مع الآخرين؟ ليس هناك شك في أن قدرة هذه الرسائل على درء الشيخوخة والموت كانت لامنطقية في سِرِّيتها، كما لو أن فيها سحرًا أسود يتبخر بمجرد أن يوضع تحت ضوء العقلانية الواقعي.

سأل أحد أعضاء المجموعة: «ماذا عن الحذاء القديم القذر والنعل (sole) الذي كان منسلخًا من مكانه؟».

لم أكن أعرف الجواب، ولكن قبل أن أتمكَّن من الردِ بأي شكل من الأشكال، قال عضو آخر: «إنه يرمز إلى الموت. كان الحذاء يفقد روحه (soul). أي (S-O-U-L)».

نعم! روحه، وليس نعله. ما أجمل هذا التفسير! كيف لم يخطر على بالي؟ كنت قد فهمت القسم الأول. أعرف أن الحذاء القديم المتسخ يمثل «ديف»، كما اعتقدت أن أفراد المجموعة أوشكوا في مناسبتين سابقتين على وصف «ديف» بأنه «رجل عجوز قذر» (على سبيل المثال، عندما طلب من امرأةٍ تصغره بأربعين عامًا رقم هاتفها). تألمتُ لأجله، وكنت سعيدًا لأنهم لم يرددوا هذا اللقب على مسمعه، لكن خلال المناقشة الجماعية أخذ «ديف» الأمر على عاتقه.

«يا إلهي! رجل عجوز قذر على وشك أن تنسلخ روحه عنه، هذا أنا بكل تأكيد!» أخذ يضحك على نفسه. وبما أنه كان يحب الكلمات (وكان يتحدث عدة لغات)، أبدى تعجبه من التبادل الواقع بين كلمتي «الروح» و«النعل».

على الرغم من مزاح «ديف»، من الواضح أن المشاعر التي طافت به كانت مؤلمة للغاية. طلب منه أحد الأعضاء أن يسهب في تناول إحساسه بأنه رجل عجوز قذر، وسأل آخر عن شعوره حول إخبار المجموعة عن حقيقة الرسائل؛ هل سيغيِّر ذلك موقفه تجاهها؟ وذكَّره آخر بأن الجميع يواجهون الشيخوخة والموت، وحثَّه على الحديث أكثر عن المشاعر هذه.

لكن «ديف» لم يَعُدْ قادرًا على المتابعة؛ لقد بذل كل الجهد المطلوب منه ذلك اليوم. «أعتقد أنني اكتفيت لهذا اليوم. أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير في كل هذا. لقد استحوذتُ على خمسة وسبعين في المئة من الجلسة، وأعلم أن الآخرين يريدون أن يحظوا ببعض الوقت اليوم».

تركْنا «ديف» وشأنه رغمًا عنا وتناولنا أمورًا أخرى. لم نعرف آنذاك أننا كنا قد ودَّعناه الوداع الأخير؛ إذ لم يحضر «ديف» جلسات المجموعة بعد ذلك اليوم. (كما اتضح أنه لم يكن على استعداد لاستئناف العلاج الفردي معي أو مع أي معالج آخر).

استجوب جميع أفراد المجموعة أنفسهم، وكنت أنا على رأس القائمة. ماذا فعلنا حتى نَفَر منا «ديف»؟ هل جرَّدناه من الكثير من أسراره؟ هل تعجَّلنا في محاولة جعل ذلك الرجل العجوز الأحمق حكيمًا؟ هل قمتُ بخيانته؟ هل وقعت في الفخ؟ هل كان من الأفضل ألا نتحدث عن الرسائل وأن ننسى أمر الحلم؟ (كان تفسير الحلم ناجحًا، لكن المريض اختفى).

ربما كان بإمكاننا تدارك رحيله، لكنني أشك في ذلك. بحلول هذا الوقت كنت على يقين أننا سنصل إلى النتيجة ذاتها في النهاية بسبب طبيعة «ديف» الحذرة وتجنُّبه الآخرين وإنكاره، ناهيك بأن احتمالية استمراره في المجموعة كانت محل شك كبير بالنسبة إليَّ منذ البداية. (لقد نجحتُ في تنبؤ ما حدث أكثر مما نجحت في علاجه. مَنَحَني ذلك القليل من العزاء).

شعرت بالحزن أكثر من أي شيء آخر. حزنت على «ديف»، وعلى عزلته، وعلى تمسُّكه بالوهم، وعلى افتقاره إلى الجرأة، وعلى امتناعه عن مواجهة حقائق الحياة العارية والمؤلمة.

ثم دخلت إلى عالم من أحلام اليقظة حول رسائلي أنا. ماذا سيحدث إذا (كلمة «إذا» جعلتني أبتسم) متُّ وعُثِر عليها؟ ربما عليَّ حقًّا أن أعطيها لـ «مورت» (Mort) أو «جي» (Jay) أو «بيت»[1] (Pete) لكي يحتفظ بها أحدهم. ما الذي يجعلني أستمر في إزعاج نفسي بشأن تلك الرسائل؟ لماذا لا أُعفِي نفسي من كل هذه الأزمة المتفاقمة وأحرقها؟ لماذا لا أقوم بذلك الآن؟ حالًا؟ إلا أنني أتألم عندما أفكِّر في الأمر، وكأن أحدًا طعنني في عظم القص. لكن لماذا؟ لماذا كل هذه الأوجاع بسبب رسائل قديمة مصفرة؟ لا بد أن أعالج هذا الأمر، يومًا ما.

(1) المقصود هنا هو أي أحد لا على التعيين، على غرار «زيد وعمرو» في اللغة العربية. (المترجم).

7

ابتسامتان

إن التعامل أكثر سهولة مع بعض المرضى، خصوصًا أولئك الذين يَحضُرون إلى مكتبي وهم مستعدون للتغيير، فيبدأ العلاج من تلقاء ذاته. في بعض الأحيان لا يتطلب الأمر مني سوى القليل من الجهد، لدرجة أنني اضطر إلى ابتداع شيء أقوم به، كطرح الأسئلة أو تقديم التفسيرات فقط لأُطَمئِنَ نفسي والمريض بأن وجودي ضروري في هذه العملية.

لم تكن «ماري» من بين هؤلاء المرضى، حيث إن كل جلسة معها تطلَّبت مني جهدًا هائلًا. عندما جاءت لرؤيتي أول مرة قبل ثلاث سنوات، كان قد مضى على وفاة زوجها أربعة أعوام، لكن حزنها ظل جامدًا. وتجمدت تعابير وجهها، وكذلك كان حال خيالها وجسدها وحياتها الجنسية، وكل جانب من جوانب حياتها. ظلت «ماري» لفترة طويلة كالجثة الهامدة في العلاج، ووجَب عليَّ القيام بمهمة شخصين. حتى هذه اللحظة، رغم أن اكتئابها قد انحسر منذ مدة بعيدة، لا يزال الجمود يعيق تقدمنا، ولا تزال علاقتنا العلاجية تعاني من البرودة والتنافر اللذين لم أتمكَن من تغييرهما نهائيًا.

كنت في عطلةٍ هذا اليوم، وكانت «ماري» ستقابل مستشارًا نفسيًا وفقًا لموعد مسبق، لذا تمكَّنت من الاستمتاع بمشاركة الجلسة معها وأنا «خارج ساعات العمل». لقد حثثتها في الأسابيع الماضية على استشارة معالج بالتنويم المغناطيسي. على الرغم من أنها قاومت الخوض في أي

تجربة جديدة تقريبًا، وكانت تخاف من التنويم المغناطيسي على وجه الخصوص، وافقت أخيرًا بشرط أن أكون حاضرًا طوال الجلسة، ولم أمانع ذلك. في الواقع أحببت فكرة الاسترخاء ومشاهدة المستشار النفسي، «مايك سي» (Mike C)، الذي كان صديقي وزميلي، يقوم بعمله.

علاوة على ذلك، فإن لعبي دور المراقب سيوفِر لي فرصة استثنائية لإعادة تقييم «ماري»، فبعد مرور ثلاث سنوات كان من المحتمل أن نظرتي تجاهها قد أصبحت مقيَّدة وضيقة النطاق. ربما تغيَّرت بشكل كبير من دون أن أتنبَّه إلى الأمر، وقد يتمكَّن الآخرون من تقييمها بشكل يختلف تمامًا عن طريقة تقييمي. كان الوقت قد حان لمحاولة تكوين وجهة نظر جديدة كليًّا عنها.

كانت «ماري» من أصل إسباني؛ حيث هاجرت من «مكسيكو سيتي» قبل ثمانية عشر عامًا. أما زوجها، الذي التقته وهي طالبة في الجامعة في المكسيك، فكان جرَّاحًا، ولقي حتفه في حادث سيارة ذات مساء في أثناء إسراعه إلى المستشفى لتلبية حالة طارئة. كانت «ماري» امرأة جذابة جدًّا، طويلة كالتماثيل، أنفها منحوت بوضوح، وشعرها الأسود الطويل كان مربوطًا عند مؤخرة رأسها على شكل دوامة. كم كان عمرها؟ يمكن للناظر أن يخمِّن أنها في الخامسة والعشرين، وإذا أزالت مكياجها قد تبدو في الثلاثين من العمر، لكن من المستحيل أن يظن المرء أنها تبلغ أربعين عامًا.

كان لـ «ماري» حضور منيع، وشعَر معظم الناس بالرهبة والإقصاء من جمالها وغرورها. أما أنا فقد انجذبت إليها بشدة، وتأثرت بها. أردت أن أريحها. تخيَّلتُ أنني أحتضنها لأشعر بانزياح الجمود عن جسدها بين ذراعي. لطالما تساءلت في الماضي عن قوة جاذبيتي. وقد ذكَّرتني «ماري» بعمتي الجميلة التي كانت تصفِّف شعرها بنفس الطريقة؛ تلك

العمة التي لعبت دورًا رئيسيًا في تخيلاتي الجنسية عندما كنت مراهقًا. ربما كان هذا هو السبب، ربما شعرتُ بالإطراء لكوني الشخص الوحيد المقرَّب من هذه المرأة الجليلة والحارس لها.

تمكَّنت «ماري» من إخفاء اكتئابها جيدًا. لا يمكن لأحد أن يخمن أنها كانت تشعر أن حياتها انتهت، وأنها وحيدة للغاية، وأنها تبكي كل ليلة، وأنها في السنوات السبع التي تَلَت وفاة زوجها لم تَحظَ بعلاقة واحدة -ولم تتحدث- مع أي رجل.

في السنوات الأربع الأولى من فجيعتها، تمنَّعت «ماري» عن الرجال بشكل كامل. وعلى مدى العامين الماضيين، بعد أن خفَّت وطأة اكتئابها، استنتجت أن السبيل الوحيد لخلاصها هو تكوين علاقة رومانسية جديدة، لكنها كانت فخورًا بذاتها ومهيبة جدًّا، مما جعل الرجال يعتقدون أن وصالها أمر مستحيل. حاولتُ خلال الأشهر الماضية التشكيك في اعتقادها بأن الحياة، أي الحياة الحقيقية، لا تستحق العيش إلا إذا أحبها رجل ما. حاولت مساعدتها على توسيع آفاقها، وتنمية الاهتمام بأمور جديدة، وتقدير علاقاتها مع النساء لكن إيمانها كان راسخًا. استسلمتُ في النهاية لعنادها، وركَّزتُ على تعليمها كيفية التعرف على الرجال والتفاعل معهم.

إلا أن كل التقدم الذي أحرزناه تعثَّر قبل أربعة أسابيع عندما سقطت «ماري» من «التليفريك» في «سان فرانسيسكو» فانكسر فكُّها، وعانت من أضرار جسيمة في الوجه والأسنان وتمزقات عميقة في وجهها ورقبتها. بعد دخولها المستشفى لمدة أسبوع، شرعَت في علاج أسنانها على يد جرَّاح للفم. كانت عتبة الألم (pain threshold) منخفضة لدى «ماري»، خاصة بالنسبة لآلام الأسنان، وكانت تخاف كثيرًا من زياراتها المتكررة لجرَّاح الفم. كما تضرر أحد الأعصاب في وجهها وعانت من

أوجاع شديدة في المنطقة المصابة من الوجه. لم يكن للدواء أي قيمة تُذكَر، فكان تخفيف آلامها هو الأمر الذي دفعني إلى اقتراح التنويم المغناطيسي.

أعرف أن «ماري» -في ظل الظروف العادية- مريضة صعبة المراس، ولكن بعد حادثها أصبحت عنيدة وحادَّة المزاج بشكل لا يُوصَف.

«التنويم المغناطيسي لا ينفع إلا الأشخاص الأغبياء أو ذوي الإرادة الضعيفة. ألهذا السبب تقترحه عليَّ؟».

- «كيف يمكنني أن أقنعك بأن التنويم المغناطيسي لا علاقة له بقوة الإرادة أو الذكاء يا «ماري»؟ إن إمكانية خضوع المرء للتنويم المغناطيسي هي سمة فطرية بكل بساطة. أين الخطورة في ذلك؟ ألا تقولين إن آلامك لا تُطاق؟ هنالك احتمال كبير أن تشعري ببعض الراحة خلال ساعة واحدة من التنويم مغناطيسيًا».

- «قد يبدو الأمر بسيطًا بالنسبة إليك، لكنني لا أريد أن أجعل من نفسي أضحوكة. لقد شاهدتُ التنويم المغناطيسي على شاشة التليفزيون، يبدو الضحايا كالبُلْهِ. يعتقدون أنهم يسبحون وهم لا يزالون على المسرح الجاف، أو أنهم يجدفون قاربًا وهم جالسون على المقاعد. حتى إنني رأيت مريضة أخرجت لسانها ولم تستطع إعادته إلى داخل فمها».

- «لو كنت أظن أن شيئًا كهذا قد يحدث لي لَشعرتُ بالقلق مثلك، ولكن هناك فرقًا هائلًا بين التنويم المغناطيسي الذي يعرضونه على التلفاز والتنويم المغناطيسي الطبي. لقد أخبرتك بما سيجري بالضبط. لن يتحكم فيك أحد، هذا أهم ما في الأمر. ستتعلمين أن تضعي نفسك في حالة ذهنية تُمكِّنك من التحكم في آلامك.

يبدو لي أنك ما زلتِ تواجهين صعوبة في الوثوق بي وبالأطباء الآخرين».

- «لو كان الأطباء جديرين بالثقة لَفكَّروا في استدعاء جرّاح الأعصاب في الوقت المناسب ولَظَلَّ زوجي على قيد الحياة!».

- «لدينا الكثير من القضايا لهذا اليوم؛ آلامك، وتخوفك من التنويم المغناطيسي (ومفاهيمك الخطأ عنه)، وقلقك من الظهور بمظهر الحمقاء، وغضبك وعدم ثقتك بالأطباء، بمن فيهم أنا. لا أعرف أين أركِز اهتمامي. هل تشعرين بحيرتي؟ من أين سنبدأ اليوم في رأيك؟».

- «أنت الطبيب هنا، ولست أنا».

وهكذا شرعنا في العلاج. كانت «ماري» هشَّة وسريعة الانفعال، وعلى الرغم من إعرابها عن الامتنان لي، فغالبًا ما كان سلوكها ساخرًا أو استفزازيًا. لم تتمكن من التركيز على أي قضية بعينها، وسرعان ما انتقلت إلى التذمر من قضايا أخرى. من حين لآخر كانت تتنبَّه إلى تصرفاتها وتعتذر عن كونها مشاكِسة، لكن سرعة الانفعال والشفقة على الذات كانتا تتملكانها بعد بضع دقائق فقط. كنت أعلم أن أهم شيء يمكنني القيام به لأجلها، خاصة في هذه الفترة الحرجة، هو الحفاظ على علاقتنا وعدم السماح لها بإبعادي عنها. لقد تحمَّلتُ هذه المتاعب حتى اللحظة، لكن صبري بدأ في النفاد، وشعرت بالارتياح لمشاركة عبئي مع «مايك».

كما أنني لطالما سعيت إلى الحصول على الدعم من زميلي. هذا هو الدافع الخفي لاقتراحي. أردت أن يشهد شخص آخر على معاناتي مع «ماري»، أن يقول لي شخص ما: «إنها صعبة المراس. لقد بذلت جهدًا كبيرًا في علاجها». إن هذا الجزء المتطلِّب مني لم يصبَّ في مصلحة

لم أكن أرغب أن يحظى «مايك» بجلسة سهلة وسلسة، أردته أن يعاني كما عانيت أنا. نعم، أعترف بذلك، جزء مني كان يتمنى أن تتسبَّب «ماري» في الكثير من المتاعب لـ «مايك»: «هيا يا «ماري»، أريني ما لديك!».

لكنها أدهشتني؛ فقد سارت الجلسة بشكل جيد. أدت «ماري» دورها في التنويم المغناطيسي بشكل جيد، وتمكن «مايك» من التأثير عليها بمهارة كبيرة، وعلَّمها كيف تضع نفسها في الغَشْيَة التنويمية (trance)، ثم عالَج ألمها باستخدام تقنية تخديرية؛ أوحى إليها بأن تتخيل نفسها على كرسي طبيب الأسنان وهو يحقنها بالنوفوكائين (novocaine).

«تصوَّري أن الشعور بالخَدَر ينتشر في فكِّك وخدِّك. الآن أصبح خدُّك مخدَّرًا جدًّا. المِسيه بيدك واشعُري بذلك. تصوَّري أن يدك تخزن الخدر، ستصبح مخدَّرة عندما تلمِس خدَّك، وستتمكَّن من نقل هذا الخدر إلى أي جزء من جسمك».

انطلاقًا من هنا استطاعت «ماري» بسهولة أن تنقل خدرها إلى جميع المناطق المؤلمة في وجهها ورقبتها. يا للروعة! لقد رأيت الشعور بالارتياح يطفو على وجهها.

ثم ناقش «مايك» الألم معها، مبتدئًا بوصف وظيفة الألم، وكيف أنه كان بمثابة تحذير يُعلِمها بمدى قدرتها على تحريك فكِّها، ومدى شدة المضغ المسموح بها. كان هذا النوع من الألم وظيفة ضرورية، على عكس الألم غير الضروري الناجم عن الأعصاب المتهيِّجة والمرضوضة الذي لا فائدة منه إطلاقًا.

اقترح «مايك» أن الخطوة الأولى لـ «ماري» كانت معرفة المزيد عن ألمها؛ أي التمييز بين الألم الوظيفي والألم غير الضروري، وأفضل سبيل لتحقيق ذلك هو البدء في طرح الأسئلة الصحيحة ومناقشة ألمها بعمق مع جرَّاح الفم، لأنه الشخص الوحيد الذي يعرف أكبر كَمٍّ من المعلومات عما كان يحدث في وجهها وفمها.

كان كلامه واضحًا بشكل مدهش، وقد جمع بين الاحتراف والأبوية على أتم وجه. تبادل «مايك» النظرات مع «ماري» لوهلة. ثم ابتسمَتْ وأومأت برأسها، ففهم أنها استوعبت قصده وحفظته جيدًا.

من الواضح أنه كان سعيدًا بردِّها، ثم شرع في مهمته الأخيرة. كانت «ماري» مدخِّنة شرِهة، وقد وافقت على استشارته لكي يساعدها على الإقلاع عن التدخين، فبدأ «مايك» -الخبير في هذا المجال- في مناقشة هذا الأمر بحِرْفية وبراعة، مشددًا على ثلاث نقاط رئيسية؛ أنها تريد أن تعيش، وأنها بحاجة إلى جسدها لتعيش، وأن السجائر كانت تُسمِّم هذا الجسد.

على سبيل الإيضاح، اقترح «مايك» ما يأتي: «فكِّري في كلبك، أو إذا لم يكن لديك كلب فتخيَّلي أنَّ لديك كلبًا محبوبًا للغاية. الآن، تخيَّلي أن عُلَب طعام الكلاب ملصقة عليها كلمة «سُم». من منا يرغب في إطعام كلبه طعامًا مسمومًا؟!».

مرة أخرى تبادل «ماري» و«مايك» النظرات، وابتسمت «ماري» وأومأت برأسها مجددًا. على الرغم من أن «مايك» فهم أن مريضته قد استوعبت الفكرة، فإنه شدَّد على صلب الموضوع: «إذن لماذا لا تعاملين جسدك كما تعاملين الكلب؟».

في الوقت المتبقي من الجلسة دعم «مايك» تعليماته حول التنويم المغناطيسي الذاتي وعلَّمها كيفية التعامل مع التعطُّش إلى التدخين بالتنويم المغناطيسي التلقائي ورفع سوية إدراكها («الإدراك الزائد» على حد تعبيره) لحقيقة أنها بحاجة إلى جسدها لكي تعيش وأنها كانت تُسمِّمه بالسجائر.

لقد كانت جلسة استشارية ممتازة، وقام «مايك» بعمل رائع؛ حيث شكَّل علاقة جيدة مع «ماري» وحقَّق بفعالية جميع أهدافه. غادرَت «ماري» المكتب وهي راضية، على ما يبدو، عن «مايك» والعمل الذي قاما به معًا.

تأملتُ فيما بعدُ هذه الساعة التي تشاركناها نحن الثلاثة. على الرغم من أن استشارته أرضتني من الناحية المهنية، لكن لم أحظَ بالدعم والتقدير الشخصيين اللذين كنت أبحث عنهما. طبعًا لم يكن لدى «مايك» أي فكرة عما أردته منه حقًّا؛ إذ لا يمكنني الاعتراف باحتياجاتي الطفولية لزميل يصغرني سنًّا، إضافةً إلى أنه كان من المستبعد جدًّا أن يخمِّن كم كانت «ماري» مريضة مُرهِقة وأنني قمت بعمل بطوليّ خلال علاجها. ربما من باب العناد فحسب لعبت «ماري» دور المريض النموذجي في حضرة «مايك».

بالطبع ظلت كل هذه المشاعر مخفية عن «مايك» و«ماري»، ثم فكَّرتُ فيهما؛ في رغباتهما التي لم تتحقق، وتأملاتهما السِّرِّية، وآرائهما حول الجلسة. لنفترض أننا قمنا -أنا و«مايك» و«ماري»- بعد عام من الآن بكتابة ذكرياتنا عن الوقت الذي قضيناه معًا، فإلى أي مدى سيكون هناك توافق بيننا؟ أظن أن كل واحد منا سيكون قادرًا بصعوبة على تمييز أحداث الجلسة بناءً على وصف الآخر. لكن لماذا بعد سنة؟ لنفترض أننا

قمنا بذلك بعد أسبوع من الآن، أو في هذه اللحظة بالتحديد، هل سنكون قادرين على تذكر وتدوين التفاصيل الحقيقية الدقيقة لهذه الساعة؟

سؤالًا عابرًا، فبناءً على المعطيات التي يختار المريض عرضها حول الوقائع القديمة، يرى المعالج أن بإمكانه تصوُّر حياة المريض من جديد، واكتشاف الأحداث المصيرية في سنوات نموه، والطبيعة الحقيقية لعلاقته مع كلٍّ من والديه، والعلاقة بين والديه، وبين أشقائه، ونظام أسرته، والتجربة النفسية المصاحِبة للمخاوف والصدمات التي شهدتها أولى سنوات حياته، وطبيعة صداقاته في الطفولة والمراهقة.

لكن، هل يمكن للمعالج أو المؤرِّخ أو كاتب السيرة الذاتية إعادة تصوُّر حياة كاملة بأيِّما درجة من الدقة إذا كان عاجزًا عن تذكُّر الحقائق المتعلقة بساعة واحدة فقط؟ منذ سنوات خَلَت، أجريت تجربة كتبتُ فيها أنا ومريضتي وجهة نظرنا الخاصة بكل ساعة من ساعات العلاج التي كنا نُجريها، ثم قمنا في وقت لاحق بمقارنة وجهات النظر، ووجدنا صعوبة أحيانًا في تصديق أننا كنا نَصِفُ الساعة ذاتها، حتى إن وجهات نظرنا حول الأمور المفيدة تباينت. وماذا عن التفسيرات المنمَّقة التي قدَّمتُها؟ لم تكن قد سمعتها قط! بل تذكرت تعليقاتي غير الرسمية الشخصية الداعمة وقدَّرَتها.

في مثل هذه الأوقات، يتوق المرء إلى وجود حَكَم يفصل في وقائع الأمور، أو لقطة فوتوغرافية رسمية شديدة الوضوح للجلَسة. كم هو مُقلِق أن ندرك أن الواقع هو مجرد وهم، أو أنه في أحسن الأحوال إضفاء للطابع الديمقراطي على الإدراك بالاستناد إلى إجماع المشاركين!

لنفترض أنني قمت بكتابة ملخَّصي عن تلك الساعة، فسيتمحور هذا الملخص حول لحظتين «حقيقيتين» فعلًا؛ أي حين تبادل «مايك»

و«ماري» النظرات وابتسمت «ماري» وأومأت برأسها. أتت الابتسامة الأولى بعد أن اقترح «مايك» على «ماري» الحديث عن ألمها بالتفصيل مع جرّاح الفم. أما الثانية فكانت عندما شدد «مايك» على فكرة أنها لا يمكن أن تُطعِم الكلب الطعام المسموم.

في وقت لاحق، كان لي حديث طويل مع «مايك» حول تلك الجلسة، حيث اعتبرها جلسة استشارية ناجحة من الناحية المهنية. لقد خضعت «ماري» للتنويم المغناطيسي بشكل جيد، وحقق كل هدف من أهدافه العلاجية، ثم إنها كانت تجربة جيدة على الصعيد الشخصي بالنسبة إلى «مايك» بعد أن كان قد مرَّ بأسبوع بائس لأنه تسبَّب في دخول مريضين إلى المستشفى واصطدم برئيس القسم على أثر ذلك. شعر «مايك» بالرضا عن ذاته لأنني رأيته يؤدي عمله بكفاءة وفعالية. كان أصغر مني، وكان دائمًا يحترم مسيرتي، لذا قدَّر رأيي الجيد فيه كثيرًا. يا للمفارقة! فقد حصل مني على الشيء ذاته الذي كنت أريده منه.

سألته عن الابتسامتين، وتذكَّرهما جيدًا. كان مقتنعًا بأنهما أشارتا إلى الفعالية والتواصل اللذين حدثا بينهما. كانت الابتسامتان -اللتان ظهرتا كنقاط قوة في سرده لما حدث- دليلًا على أن «ماري» فهمت الرسالة التي أراد إيصالها وتأثرت بها.

لكن نتيجةً لعلاقتي الطويلة مع «ماري»، كان تفسيري للابتسامتين مختلفًا تمامًا. لنفكِّر في الابتسامة الأولى، عندما اقترح «مايك» أن تحصل «ماري» على المزيد من المعلومات من جرَّاح الفم، الدكتور «زي» (Dr. Z)، كانت هناك قصة مدهشة وراء علاقة «ماري» بهذا الطبيب!

التقته أول مرة قبل عشرين عامًا عندما كانا زميلين جامعيين في «مكسيكو سيتي». في ذلك الوقت حاول جاهدًا أن يتقرب منها دون أي جدوى، وانقطعت عنه إلى أن تعرَّض زوجها لحادث السيارة. كان الدكتور «زي»، الذي سافر إلى الولايات المتحدة أيضًا، يعمل في المستشفى الذي دخله زوج «ماري» بعد الحادث، وأصبح حينها مصدرها الرئيسي للمعلومات الطبية والداعم الأبرز لها خلال الأسبوعين اللذين ظلَّ فيهما زوجها طريح الفراش على أثر الغيبوبة النهائية والإصابة القاتلة في رأسه.

بعد وفاة زوجها مباشرةً عاود الدكتور «زي» التودد إلى «ماري»، وحاول التقرب منها جنسيًا رغم أنه متزوج ولديه خمسة أطفال. رفضته «ماري» بغضب، لكنه لم يرتدع؛ فراح يتصل بها، ويغمزها، ويحدق فيها بشبقٍ في الكنيسة، وحتى في قاعة المحكمة (حيث إنها رفعت دعوى قضائية ضد المستشفى بسبب الإهمال الذي أدى إلى وفاة زوجها). اعتبرت «ماري» سلوكه بغيضًا وازدادت نبرة الغضب في صدِّها له بشكل تدريجي. لم ينتهِ الدكتور «زي» عن مضايقتها إلا عندما أخبرته بأنها تشعر بالاشمئزاز منه، وأنها لا يمكن أن تقيم معه علاقة غرامية مهما حدث، كما أنها ستبلغ زوجته؛ تلك المرأة المرعبة، إذا استمر في إزعاجها.

عندما سقطت «ماري» من التليفريك، اصطدم رأسها بالأرض وفقدت الوعي لمدة ساعة تقريبًا. استيقظت على آلام مبرحة، وشعرت بالوحدة المطلقة؛ لم يكن لديها أصدقاء مقربون، وكانت ابنتاها تقضيان إجازتهما في أوروبا. عندما سألتها الممرضة في غرفة الطوارئ عن اسم طبيبها، قالت لها: «اتصلوا بالدكتور «زي»». لقد كان -بالإجماع العام- جرَّاح الفم الأكثر موهبة وخبرة في المنطقة، لذا شعرت «ماري» أن المراهنة على جرَّاح غير معروف ستعرِّضها للخطر.

سيطر الدكتور «زي» على مشاعره خلال قيامه بالإجراءات الجراحية الرئيسية الأوَّلية (وقد قام بعمل ممتاز على ما يبدو)، لكنها تدفقت منه خلال الدورة العلاجية التي تَلَت الجراحة. كان ساخرًا ومتسلطًا، وفي رأيي كان ساديًّا أيضًا. بعد أن أقنع نفسه بأن «ماري» كانت تبالغ في ردة فعلها بشكل هستيري، رفض وصف الأدوية الملائمة لتخفيف أو تخدير آلامها، كما بثَّ في قلبها الرعب عندما تحدَّث مرتجلًا حول المضاعفات الخطيرة أو التشوهات التي يمكن أن تلازم وجهها، وهددها بالتخلي عن علاجها إذا استمرت في التذمر كثيرًا. عندما تحدَّثتُ إلى الدكتور «زي» عن حاجتها إلى تخفيف الألم، تصرَّف بعدوانية، وذكَّرني بأن معرفته عن الآلام الجراحية تفوق معرفتي بأضعاف، وأضاف قائلًا إنني ربما سئمت من ممارسة العلاج المبني على الكلام وكنت أرغب في تغيير مجالي التخصصي. كان الخيار الوحيد المتاح أمامي هو تخدير «ماري» بشكل سرِّي.

استمعتُ لساعات مطوَّلة إلى شكاوى «ماري» من ألمها ومن الدكتور «زي» (كانت مقتنعة بأنه سيعاملها بشكل أفضل إذا رضيت بمبادراته الجنسية، حتى إن كانت تعاني الويلات من الآلام في وجهها وفمها). كانت جلساتها في عيادة طبيب الأسنان مهينةً للغاية؛ كلما غادرت مساعدته الغرفة أدلى بتعليقات جنسية الطابع وتمكَّن من تمرير يديه على صدرها في أكثر من مناسبة.

بعد أن وجدتُ نفسي عاجزًا عن مساعدة «ماري» بشأن الدكتور «زي»، حثثتها بشدة على اللجوء إلى طبيب غيره، أو على استشارة جرَّاح فم آخر، وزوَّدتُها بأسماء جرَّاحين ممتازين. كَرِهَت «ماري» الوضع برمَّته، وكَرِهَت الدكتور «زي»، لكنها ردَّت على كل اقتراحاتي بـ «لكن» أو «نعم، لكن»، وبرعَت في ذلك (يُسمَّى هذا النوع من المرضى في مهنتنا

بـ «المتذمر الرافض للمساعدة»). كانت الـ «لكن» الرئيسية بالنسبة إلى «ماري» هي أن الدكتور «زي» كان الوحيد الذي يعرف تمامًا حالة فمها لأنه هو من بدأ علاجها. لقد أصيبت بالذعر من احتمالية تشوه وجهها أو فمها بشكل دائم. (كانت دائمًا قلقة للغاية بشأن مظهرها الجسدي، وازداد قلقها الآن بعد أن أصبحت عزباء). لا الغضب ولا الكبرياء ولا تعرُّض ثدييها للتحرُّش العدائي تمكَّنت من أخذ الأسبقية على تعافيها الوظيفي والتجميلي.

هناك أمر مهم آخر يجب وضعه في عين الاعتبار؛ بسبب ترنُّح التليفريك الذي أدى إلى سقوط «ماري» في أثناء خروجها منه، قامت برفع دعوى قضائية ضد المدينة، ونتيجة لإصابتها كانت قد فقدت وظيفتها وأصبح وضعها المالي في خطر كبير، فمنَّت نفسها بتسوية مالية هائلة، وكانت تخشى خصام الدكتور «زي» لأن شهادته المؤثرة حول مدى إصابتها ومعاناتها قد تلعب دورًا هامًّا في فوزها بالدعوى.

لذا كانت مشكلة «ماري» مع الدكتور «زي» مشكلة عويصة، تضمَّنت تفاصيلها جرَّاحًا منبوذًا، ودعوى قضائية هدفها الحصول على مليون دولار، وفكًا مكسورًا، والعديد من الأسنان المحطَّمة، وأثداء تتعرَّض للتحرش. في خضم هذه البلبلة الخارقة للعادة، اقترح «مايك» -الذي لم يكن يعرف أي شيء عن هذا- ببراءة وعقلانية أن تطلب «ماري» مساعدة طبيبها في فهم ألمها، ثم جاءت ابتسامة «ماري».

المرة الثانية التي ابتسمت فيها كانت ردًّا على سؤال «مايك» البريء أيضًا: «من منا يرغب في إطعام كلبه طعامًا مسمومًا؟».

تلك الابتسامة أيضًا كانت وراءها قصة ما. قبل تسع سنوات، اقتَنَت «ماري» وزوجها «تشارلز» كلبًا ألمانيًا قبيحًا يُدعَى «إلمر» (Elmer).

مع أن الكلب كان لـ «تشارلز» في الحقيقة، ومع أن «ماري» كانت تكره الكلاب، فإنها أحبَّت «إلمر» مع مرور الوقت، ونام في سريرها لعدة سنوات.

تقدَّم «إلمر» في السن، وأصبح سيئ الطباع، وأُصيب بالتهاب المفاصل، وبعد وفاة «تشارلز» استحوذ «إلمر» على الكثير من اهتمام «ماري»، وربما كان ذلك عونًا لها؛ ففي الكثير من الأحيان يكون الانشغال القسري صديقًا للمفجوعين. وانشغالها بـ «إلمر» في المراحل الأولى من حِدَادها كان بمثابة النعمة. (في ثقافتنا يأخذ هذا الانشغال أيضًا شكل الترتيبات للجنازة، والأوراق الخاصة بالتأمين الطبي، والتوصل إلى تسوية بشأن أملاك الفقيد).

انقشع اكتئاب «ماري» بعد خضوعها للعلاج النفسي لمدة عام تقريبًا، وباتت تركِّز على إعادة بناء حياتها. كانت مقتنعة بأنها لن تنال السعادة إلا من خلال الاقتران بأحدهم. كل شيء آخر كان تمهيدًا لحدوث ذلك، كل صداقاتها وتجاربها الأخرى كانت مجرد سبل لتمضية الوقت إلى أن تنبعث حياتها من جديد مع رجل آخر.

كانت مصرَّة على الارتباط برجل ما، لكن «إلمر» وقف حاجزًا بين «ماري» وحياتها الجديدة، واعتقد أن المنزل ليس بحاجة إلى رجل غيره. كان يعوي في وجه الغرباء ويقضمهم برفق، خاصة الرجال. كما أصبح منحرفًا في التعامل مع سلس البول، رافضًا قضاء حاجته في الهواء الطلق، منتظرًا الدخول إلى المنزل ليغمر سجادة غرفة المعيشة بسوائله. لم يُجدِ أي نوع من التدريب أو التأنيب نفعًا معه؛ فإذا تركته «ماري» في الخارج كان يعوي باستمرار مُجبِرًا الجيران -حتى أولئك القاطنين على بعد عدة أبواب- على الاتصال بها، متوسلين إليها أو مطالبين إياها بفعل شيء ما

حيال عوائه، وإذا عاقبَتْه بأي شكل من الأشكال انتقم «إلمر» بالتبول على السجاد في الغرف الأخرى.

تغلغلت رائحته في كل أرجاء المنزل، كان الزوار يَشتَمُّونها عند الباب الأمامي، ولم تنفع أي كمية من الهواء أو الشامبو أو المواد المزيلة للروائح الكريهة أو العطور في تطهير منزل «ماري». أصبحت تستحيي من دعوة أي شخص إلى الداخل، وحاولت في البداية ردَّ دعوات الناس باستضافتهم في المطاعم، لكنها يئست تدريجيًا من تكوين أي حياة اجتماعية حقيقية.

أنا لست من محبي الكلاب، لكن «إلمر» بدَا أسوأ من معظمها. رأيته مرة واحدة عندما أحضرَتْه «ماري» إلى مكتبي. كان مخلوقًا فظًّا، أمضى الجلسة بكاملها وهو يزمجر ويلعق أعضاءه التناسلية بصخب. ربما كانت تلك هي اللحظة التي قرَّرتُ فيها أن على «ماري» التخلي عن كلبها. ما كنت لأسمح له بتدمير حياتها، أو حياتي أنا.

لكن العقبات كانت هائلة، ولم تكن المسألة مسألة عجز «ماري» عن اتخاذ القرار الحاسم؛ فقد تسبَّب شخص آخر في الروائح الكريهة في المنزل! حسب رواية «ماري»، كانت هناك مستأجرة تتبع نظامًا غذائيًا قائمًا على تناول الأسماك المتحللة. في هذه الحالة تصرَّفت «ماري» بسرعة، وطبَّقت نصيحتي بمواجهة المستأجرة مباشرة، وعندما رفضت تغيير عاداتها في الطهي، لم تتردد «ماري» نهائيًا في مطالبة المرأة بالانتقال من المنزل.

لكن في حالة «إلمر»، شعرت «ماري» بأنها مقيَّدة. كان «إلمر» كلب «تشارلز»، وفيه عاش القليل من ذكراه. استعرضتُ أنا و«ماري» الخيارات المتاحة أمامها باستمرار، لم تكن هناك أي قيمة تُذكَر للإجراءات

التشخيصية المكثفة والمكلِّفة لسلس البول التي قام بها البيطري، وكذلك كان حال الزيارات إلى مدرِّب وطبيب الحيوانات الأليفة النفسي. شيئًا فشيئًا أدركت «ماري» بحزن (بعد تحريض مني بالطبع) أنها قد وصلت إلى مفترق طرق مع «إلمر». اتصلت بجميع أصدقائها لتسأل إذا ما كانوا يريدونه، لكن لا أحد منهم كان أحمق بما فيه الكفاية لتبنِّي هذا الكلب، فوضعَت «ماري» إعلانًا في الجريدة وعرضت فيه أنها ستتكفل بطعامه على نفقتها، لكن حتى إغراء كهذا فشل في التوصل إلى أي حل محتمل.

كان القرار النهائي يَلُوح في الأفق؛ فقد حثَّها أصدقاؤها وبناتها وطبيب «إلمر» البيطري على أن تُنهِي حياة «إلمر» رأفة به. بالطبع، وراء الكواليس، كنت أوجِّهها ببراعة خفية نحو اتخاذ هذا القرار. وافقت «ماري» في نهاية المطاف على الحد من آلامه، وذات صباح كئيب اصطحبت «إلمر» إلى الطبيب البيطري للمرة الأخيرة.

في الوقت نفسه واجهنا مشكلة جديدة على جبهة أخرى. كان والد «ماري»، الذي عاش في المكسيك، قد أصبح ضعيفًا جدًّا؛ الأمر الذي دفعها إلى التفكير في دعوته إلى العيش معها. بدَا لي أنَّ هذا الحل لم يكن مناسبًا، لأنَّها كانت تخشى والدها وتكرهه لدرجة أنَّها لم تتواصل معه إلا قليلًا على امتداد السنين. في الواقع، كانت رغبة الهرب من طغيانه الدافع الرئيسي الذي جعلها تهاجر إلى الولايات المتحدة قبل ثمانية عشر عامًا. لذا فإن الشعور بالذنب -وليس الحب أو القلق- هو الذي حفزها على دعوته إلى العيش في منزلها. بعد أن جذبتُ انتباه «ماري» إلى هذا شككتُ في جدوى انتزاع رجل يبلغ من العمر ثمانين عامًا -لا يتحدث اللغة الإنجليزية- من محيطه الثقافي. تلاقت آراؤنا في النهاية، وعمِلَت «ماري» على تأمين السكن لوالدها في مركز رعاية في المكسيك.

ماذا عن وجهة نظر «ماري» في الطب النفسي؟ في كثير من الأحيان كانت تمازح أصدقاءها قائلة: «عليكم باستشارة الأطباء النفسيين. يا لروعتهم! أولًا، سيطلبون منكم طرد المستأجر من منزلكم، ثم سيقنعونكم بوضع آبائكم في دور رعاية المسنين، وأخيرًا سيجعلونكم تقتلون كلابكم!».

كما أنها ابتسمت عندما انحنى «مايك» وسألها بلطف: «من منا يرغب في إطعام كلبه طعامًا مسمومًا؟».

لذلك، من وجهة نظري، لم تكن ابتسامتا «ماري» إشارة على توافقها مع «مايك»، بل كانتا ابتسامتين ساخرتين تقولان: «لو عرفتَ الحقيقة...». وعندما اقترح «مايك» عليها أن تتحدث مع جرَّاح الفم تخيَّلتُ أن حال لسانها كان يقول: «محادثة مطوَّلة مع الدكتور «زي»! يا سلام! نعم، لا شك في أنني سأتحدث! بعد أن أتعافى وأفوز بالدعوى سوف أتحدث إلى زوجته وإلى كل شخص أعرفه، سوف أفضح ذلك اللقيط بصوت مدوٍ لدرجة أن أذنيه لن تتوقفا عن الطنين».

وبكل تأكيد، اتسمت ابتسامتها حول طعام الكلاب المسموم بنفس القدر من السخرية. لا بد أنها قالت في نفسها: «أوه، كلا. لن أطعمه طعامًا مسمومًا إلا إذا أصبح كبيرًا في السن وسيئ الطباع، عندها سأقضي عليه بسرعة كبيرة!».

عندما تناولنا جلسة التنويم المغناطيسي خلال جلستنا التالية سألتها عن الابتسامتين، وتذكَّرَتهما بشكل جيد. «عندما نصحني الدكتور «سي» بإجراء محادثة طويلة مع الدكتور «زي» حول ألمي، شعرت فجأة بالخجل الشديد، وبدأت أتساءل إذا ما كنتَ قد أخبرتَه بكل شيء عني وعن الدكتور

لقد أحببت الدكتور «سي» كثيرًا؛ إنه جذاب للغاية. أرغب أن أحظى برجل مثله في حياتي».

- «ماذا عن الابتسامة يا «ماري»؟».

- «حسنًا، من الواضح أنني شعرت بالإحراج. هل تعتقد أن الدكتور «سي» سيظن أنني ساقطة؟ لو فكرتُ في الأمر مليًا (وهو شيء لا أفعله عادةً)، أعتقد أنه يتلخص في عملية مقايضة؛ فأنا أساير الدكتور «زي» وأدعه يلمسني بعض اللمسات المثيرة للاشمئزاز مقابل مساعدته في دعوتي القضائية».

- «ماذا قالت ابتسامتك إذن؟».

- «قالت مهلًا. ما سبب اهتمامك بابتسامتي إلى هذه الدرجة؟».

- «تابِعي من فضلك».

- «أعتقد أن ابتسامتي قالت: «من فضلك يا دكتور «سي»، تحدَّثْ عن شيء آخر. لا تُوجِّه إليَّ المزيد من الأسئلة حول الدكتور «زي». آمل أنك لا تعرف ما يجري بيني وبينه»».

أما الابتسامة الثانية، فلم تكن تلك الابتسامة، كما اعتقدتُ، إشارة ساخرة إلى عبء «إلمر» الجاثم على صدرها، بل دلَّت على شيء آخر تمامًا.

«عندما استمر الدكتور «سي» في الحديث عن الكلب والسم، وجدت الأمر مضحكًا. كنت أعلم أنك لم تخبره عن «إلمر»، وإلا لما اختار الكلاب على سبيل الإيضاح».

- «وماذا بعد؟».

- «حسنًا، يصعب عليَّ قول هذا. مع أنني نادرًا ما أُبدِي لك ذلك -فأنا لا أجيد شكر الآخرين- لكنني حقًّا أقدِّر ما فعلتَه لأجلي في الأشهر الماضية. ما كنت لِأنجح لولا مساعدتك. لقد أخبرتك بنكتتي عن الطبيب النفسي (أصدقائي يحبونها)؛ أولًا ينالون من المستأجر، ثم من والدك، ثم يجعلونك تقتل كلبك!».

- «إذن؟».

- «أعتقد أنك تجاوزت حدودك بوصفك طبيبًا. قلتُ لك إن التحدث عن هذا ليس بالأمر السهل عليَّ. ظننتُ أن تقديم المشورة بشكل مباشر ليس من شِيَم الأطباء النفسيين، لذا ربما سمحتَ لمشاعرك الشخصية تجاه الكلاب والآباء أن تخرج عن السيطرة!».

- «وماذا قالت الابتسامة؟».

- «يا إلهي! كم أنت عنيد! هذا ما قالته الابتسامة: «نعم، نعم، يا دكتور «سي»، فهمت قصدك. والآن دعنا ننتقل إلى موضوع آخر بسرعة. لا تطرح المزيد من الأسئلة عن كلبي، لِئلَّا أضع الدكتور «يالوم» في موقف محرج»».

كانت مشاعري مختلطة حول ردها هذا. هل كانت على حق؟ هل سمحتُ لمشاعري أن تقف عثرة في طريقي؟ كلما فكرت في الأمر تنامَت قناعتي بأن تفسيرها كان خطأً. لطالما كانت مشاعري تجاه والدي حميمة، ولو كنت مكانها لرحَّبتُ بفرصة دعوته إلى العيش في منزلي. لكن ماذا عن الكلاب؟ صحيح أنني لم أتعاطف مع «إلمر»، لكنني كنتُ أعي أنني لا أهتم بأمر الكلاب، وكنت أراقب مشاعري من كثب، إضافةً إلى أن جميع الناس مِن حولها نصحوها بالتخلص من «إلمر». نعم، كنتُ

واثقًا من أنني تصرفت واضعًا مصلحتها في الحسبان، لذلك لم أتمكَّن أن أتقبَّل برحابة صدر قيام «ماري» بحماية مهنيتي. بدَا الأمر برُمَّته تآمريًا، كما لو أنني قد اعترفت بأن لديَّ ما أخفيه. مع ذلك، أدركتُ أيضًا أنها أعربت عن امتنانها لي، ومنحني ذلك شعورًا جيدًا.

نتجت عن محادثاتنا حول الابتسامتين معطيات غنية جدًا، لدرجة أنني نحَّيتُ جانبًا تأملاتي حول وجهات النظر المختلفة عن الواقع وساعدت «ماري» على استكشاف ازدرائها لذاتها بسبب تعريض نفسها للخطر في علاقتها مع الدكتور «زي»، كما تفحَّصَت مشاعرها تجاهي بصدق أكثر من ذي قبل؛ مخاوفها من الاتكال عليَّ، وامتنانها لي، وغضبها مني.

ساعدها التنويم المغناطيسي على تحمُّل الألم لمدة ثلاثة أشهر، حينها تماثل فكها المكسور للشفاء، وانتهت من تجميل أسنانها، وتضاءلت آلام وجهها، كما انحسر اكتئابها، وخفَّ شعورها بالغضب. لكن على الرغم من كل هذه التطورات، لم أتمكَّن من تغيير «ماري» كما كنت أتمنى؛ فقد ظلَّت فخورًا بذاتها، وتُطلِق الأحكام على الناس إلى حدٍ ما، وتقاوم الأفكار الجديدة. استمرت جلساتنا، لكن مع مرور الوقت بدَا أنه لم يعد هناك الكثير لنتحدث عنه. أخيرًا، بعد عدة أشهر، اتفقنا على أن عملنا هنا قد انتهى. جاءت «ماري» لرؤيتي خلال بعض الأزمات البسيطة كل بضعة أشهر على مدى السنوات الأربع التالية. لم نلتقِ بعد ذلك قط.

استمرت الدعوى لمدة ثلاث سنوات، وتوصَّلَت «ماري» إلى تسوية كانت نتيجتها مبلغًا صغيرًا مخيبًا للآمال. بحلول ذلك الوقت، كان غضبها تجاه الدكتور «زي» قد تبدد، ونسِيَت أنها أرادت رفع صوتها في وجهه. تزوَّجت في النهاية برجل مُسِنٍ لطيف. لست واثقًا تمامًا إذا ما شعَرَت بالسعادة الحقيقية مرة أخرى، لكنها أقلعت عن التدخين كليًا.

إن ساعة التنويم المغناطيسي التي خضعت لها «ماري» هي دليل حيٌّ على أن المعرفة شيء محدود. صحيحٌ أن «ماري» و«مايك» وأنا تشاركنا الجلسة، إلا أن كل واحد منا حظي بتجربة مختلفة تمامًا لا يمكن التنبؤ بها. كانت تلك الساعة مثل لوحة ثلاثية (triptych)؛ كل لوحة منها عكست منظور وألوان واعتبارات صانعها. ربما لو كنتُ قد تحدثت إلى «مايك» أكثر عن «ماري» لتشابهت لوحته مع لوحتي كثيرًا، لكن من بين المئة ساعة التي قضيتها معها، ما الأشياء التي وَجَبَ عليَّ أن أشاركها معه؟ غضبي؟ أم نفاد صبري؟ أم شفقتي على ذاتي لأني كنت مُجبرًا على علاج «ماري»؟ سعادتي بالتقدم الذي كانت تُحرِزه؟ مشاعري الجنسية؟ فضولي الفكري؟ أم رغبتي في تغيير منظور «ماري» وتعليمها أن تبحث في أعماق ذاتها وأن تحلم وأن تتخيل وأن توسّع آفاقها؟

لكن حتى لو كنت قد أمضيت عشرات الساعات مع «مايك» وشاركته كل هذه المعلومات، لَمَا استطعت أن أنقل له تجربتي مع «ماري» كما يجب، لأن انطباعاتي عنها –سعادتي تجاهها ونفاد صبري منها– لم تكن مثل أي انطباعات أخرى عرفتها في السابق. أحاول جاهدًا العثور على الكلمات والاستعارات والتشبيهات المناسبة، لكنها لا تفي بالغرض قط؛ فهي في أحسن أحوالها مقارَبات ضعيفة من الصور الغنية التي كانت تجوب ذهني.

إن النظر إلى الآخر من خلال عدة موشوراتٍ مُشتتة[1] (distorting prism) يحجب عنا معرفته. قبل اختراع السماعة الطبية كان الأطباء

---

(1) تستخدم الموشورات المُشتتة في خلق الخدع البصرية، حيث تبدو الأشياء من خلالها ممددة أو مضغوطة أو ملتوية، إلخ. (المترجم).

يستمعون إلى نبضات القلب الحي بضغط الأذن على القفص الصدري للمريض. تخيَّل الآن أن هناك عقلين مضغوطين بإحكام أحدهما على الآخر، ليقوما بتبادل الصور الذهنية مباشرة مثلما تتبادل كائنات البراميسيوم النوى الدقيقة، سيكون ذلك اتحادًا منقطع النظير.

قد يحدث اتحاد مثل هذا في غضون ألف عام، ليكون بمثابة الترياق النهائي للعزلة والضربة القاضية الأخيرة للخصوصية، أما في الوقت الحالي فهناك عقبات هائلة أمام قيام هذا الاقتران الذهني.

أولًا، هناك حاجز بين الصورة واللغة؛ إذ إن العقل يفكِر بالصور، لكن من أجل أن نتواصل مع الآخرين علينا أن نحوِل الصورة إلى فكرة [illegible] إلى شكلٍ لُغوي. إن هذه المسيرة، من الصورة إلى الفكرة إلى [illegible]ي مسيرة غدَّارة، وتُخلِّف وراءها الضحايا؛ نسيج الصورة الغني والسلس، ومرونتها ولدونتها الاستثنائية، وألوانها العاطفية الخاصة التي تحنُّ إلى الماضي، كل ذلك يذهب أدراج الرياح عندما تُحشَر الصور في اللغة.

يحاول الفنانون العظماء استحضار صور مماثلة لصورهم الذهنية لدى القارئ من خلال الإيحاء والاستعارات والبراعة اللغوية، لكنهم يدركون في النهاية أن الأدوات التي بحوزتهم لا يمكنها إنجاز هذه المهمة. استمع إلى حسرات «فلوبير» في روايته «مدام بوفاري» (Madame Bovary):

الحقيقةُ هي أنَّ الروح المشبعة قد تَغرَق أحيانًا في التفاهة المطلقة للُغة، لأنه لا يمكن لأحد منا أن يُعبِّر بدقة عن حجم احتياجاته أو أفكاره أو أحزانه، إضافةً إلى أن اللغة البشرية أشبه بإبريق متصدع ننقر عليه لنُصدِر إيقاعات بدائية ترقص الدببة على وقعها، في الوقت الذي نتوق فيه إلى خلق موسيقى تذوب فيها النجوم.

السبب الآخر الذي يمنعنا من معرفة الآخر بشكل كامل هو أن الناس يَنتَقُون الأشياء التي يبوحون بها بحذر؛ فالأهداف التي دفعت «ماري» إلى التماس مساعدة «مايك» كانت أهدافًا غير شخصية؛ السيطرة على الألم والتوقف عن التدخين، لذا اختارت أن تكشف له القليل عن نفسها؛ الأمر الذي جعله يخطئ في تفسير ابتسامتيها. كنت أعرف الكثير عن «ماري» وعن الابتسامتين، لكنني أنا أيضًا أخطأت في فهمها، لأن معلوماتي عنها لم تُشكِل غير جزء ضئيل من الحقيقة الكاملة التي كان بإمكانها إخباري بها.

ذات مرة رأستُ مجموعة علاجية كان فيها مريض نادرًا ما خاطبني مباشرة خلال عامين من العلاج. في أحد الأيام فاجأني «جي» (Jay) - وفاجأ الأعضاء الآخرين أيضًا- حين قال (أو «اعترف» على حد تعبيره) إن كل ما قاله في جلسات المجموعة -ملاحظاته للآخرين، وكشفه عن ذاته، وكل كلماته الغاضبة والعطوف- كان موجَّهًا إليَّ أنا. قام «جي» في جلسات العلاج الجماعي بإعادة تمثيل تجارب حياته العائلية، حيث كان يتوق إلى حب والده من دون أن يحصل عليه قط. كما شارك في العديد من المحادثات الدراماتيكية خلال الجلسات، لكن دافعه كان دائمًا أن يحصل مني على أي شيء. كان يتظاهر بالتحدث إلى الأعضاء الآخرين في المجموعة، إلا أنه تحدث معي من خلالهم لأنه سعى باستمرار إلى الحصول على استحساني ودعمي.

لحظة الاعتراف تلك كانت كفيلة بنسف كامل المفهوم الذي شكّلته عن «جي». كنت أعتقد أنني عرفته جيدًا قبل ذلك بأسبوع، أو شهر، أو ستة أشهر، لكنني لم أكن أعرف من هو «جي» الحقيقي؛ «جي» المستتر. بعد اعترافه اضطررت إلى إعادة بناء تصوري عنه وإضفاء معانٍ جديدة

على تجاربه السابقة، لكن كم سيدوم وجود «جي» الجديد؛ «جي» البديل؟ كم من الوقت سيمضي قبل أن يتراكم لديه المزيد من الأسرار؟ متى سيكشف عن هذه الطبقة الجديدة؟ كنت أعلم أن المستقبل سيحمل نُسَخًا لا تُعَدُّ ولا تحصى من شخصيات «جي»، وأنني لن أتمكن من اللحاق بـ «جي الحقيقي» مهما حدث.

الحاجز الثالث الذي يَحُول دون قدرتنا على معرفة الآخر بشكل كامل لا علاقة له بالطرف الذي يُعبِّر عن نفسه، بل بالمتلقي الذي سيتعين عليه أن يعيد تسلسل الجُمَل (sequence) التي ينقلها له المتحدث إلى أصلها، محوِّلًا اللغة مرة أخرى إلى صورة؛ ذلك النص الذي يمكن للعقل قراءته. إن احتمالية تطابق صورة المتلقي مع الصورة الأصلية في ذهن المرسل ضئيلة جدًّا.

يزداد خطأ التحويل هذا سوءًا بسبب خطأ التحيز (bias error)؛ إذ إننا نشوِّه الآخرين عندما نُجبِر أفكارنا الخاصة وصورنا «الغشتالتية» على التطابق معهم، وهي عملية أبدع «بروست» (Proust) في وصفها:

إننا نُشبِع المظهر الخارجي للكائن الذي نراه بجميع المفاهيم التي كوَّناها عنه، ومما لا شك فيه أن مفاهيمنا هذه تشغل الحيز الأكبر في الصورة المُجمَلة التي تشكِّلها أذهاننا عن هذا الكائن، لدرجة أنها تحشو وجنتيه كليًّا وتتتبع خط أنفه بدقة، وتندمج بانسجام كبير مع نبرة صوته، فيلغ الأمر مبلغًا يجعل هذه العناصر كلها تبدو وكأنها ليست إلا غطاءً شفافًا، لا أكثر ولا أقل. وفي كل مرة نرى فيها هذا الوجه، أو نسمع هذا الصوت، نجد مفاهيمنا نحن في تفاصيل الوجه ونبرة الصوت.

«في كل مرة نرى فيها هذا الوجه، أو نسمع هذا الصوت، نجد مفاهيمنا نحن في تفاصيل الوجه ونبرة الصوت». إن الكلمات هذه هي المفتاح الذي يتيح لنا فهم العديد من العلاقات الفاشلة. عالجتُ في السابق مريضًا اسمه «دان»، كان قد انضم إلى معتكَف للتأمل حيث مارس الـ «تريبوسا»[1] (treposa)، وهي عملية تأملية يمسك فيها شخصان أحدهما بيدي الآخر لعدة دقائق، ويحدق كلٌّ منهما في عينَي الآخر ويتأمل أحدهما الآخر بعمق، ثم يكرران العملية ذاتها مع أفراد جدد. بعد أن نفذها «دان» عدة مرات، استطاع التمييز بوضوح بين الأفراد الذين شاركوه التأمل؛ شعر بوجود رابطة بسيطة مع بعضهم، بينما شعر بأواصر قوية مع آخرين، وكانت إحداها شديدة جدًّا ومقنعة، بحيث جعلته يظن أنه صار متصلًا روحيًّا بروحٍ أخرى تشبهه.

كلما تحدث «دان» عن هذه التجارب، أجبرتُ نفسي على كبح شكوكي وعقلانيتي: «الارتباط الروحي! نعم، بكل تأكيد! إن ما تصفه، يا «دان»، هو علاقة اجترارية. أنت لا تعرف هذا الشخص. بلغة «بروست»، لقد قمتَ بحشو هذا الكائن بالسمات التي تريدها أنت. لقد وقعت في حب شيء ابتدعَتْه مخيلتك».

طبعًا لم أعبِّر عن هذه المشاعر علنًا على مسمعه. لا أعتقد أن «دان» كان سيرغب في التعامل مع شخص متشكِّك للغاية. مع ذلك، أنا متأكد من أنني أفصحتُ عن وجهات نظري بطرق عديدة غير مباشرة؛ نظراتي

---

(1) جدير بالذكر أن مصطلح (treposa)، حسب وصف «يالوم»، غير شائع ولم يَرِدْ -على حد علمي- في أي مرجع إلا هذا الكتاب. كلمة (treposa) هي كلمة إسبانية وتعني «يصعد» أو «يتسلق». الممارسة التي يصفها هنا «يالوم» تشبه ما يسمى في السنسكريتية بالـ «تراتاكا» (Trāṭaka)، وهي وضعية تأملية ينظر فيها المتأمل طويلًا إلى نقطة معينة بهدف الشعور بالراحة والسكينة، فوجب التنويه. (المترجم).

الفضولية، والتوقيت الذي اخترته للإدلاء ببعض التعليقات أو الاستفسار عن بعض الأمور، وإبداء اهتمامي الشديد بموضوعات معينة دون غيرها. لكن «دان» تنبّه إلى هذه التلميحات، ولكي يدافع عن نفسه استشهد بـ«نيتشه» الذي قال في أحد كتبه إننا عندما نقابل شخصًا ما لأول مرة نعرف كل شيء عنه، وخلال لقاءاتنا اللاحقة معه، نحجب حكمتنا عن أنفسنا عمدًا. بما أنني أقدِّر «نيتشه» كثيرًا، جعلني هذا الاقتباس أتأمل الأمر للحظة. ربما نقوم فعلًا بالتخلي عن حذرنا وحيطتنا عندما نقابل أحدهم أول مرة، وربما نكون في طور اختيار القناع الذي سنلبسه أمام الآخر. قد تكون الانطباعات الأولى بالفعل أكثر دقة من الانطباعات الثانية أو الثالثة، لكن هذا بعيدٌ البُعد كله عن التواصل الروحي مع الآخرين. وصحيحٌ أن بصيرة «نيتشه» كانت نافذة في العديد من المجالات، إلا أنه لم يكن مرشدًا في العلاقات البين-شخصية؛ فهل شهد التاريخ على رجل أكثر وحدة وعزلة منه؟!

أتساءل إذا كان «دان» على حق. هل تمكَّن يا تُرى -عبر بوابة صوفية ما- من اكتشاف شيء جوهري وحقيقي عن الآخر؟ أم إنه قام ببساطة بحشر أفكاره ورغباته الخاصة داخل صورة بشرية ما؛ صورة وجدها جذابة فقط لأنها أثارت بداخله ارتباطات مريحة ومُحِبَّة وداعمة؟

لا يسعنا اختبار صحة حالة الـ «تريبوسا» لأن معتكَفات التأمل هذه عادة ما تتبع قاعدة «الصمت النبيل» (noble silence) التي لا تسمح بالكلام على الإطلاق، لكن «دان» التقى امرأة في عدة مناسبات اجتماعية، وحدق في عينيها، وشعَر بالاندماج الروحي معها. في بعض الحالات النادرة تعلَّم أن الاتحاد الروحي هو مجرد وهم؛ حيث شعرت المرأة بالحيرة أو الخوف من افتراضه بأن هناك روابط عميقة بينهما،

لكنه عادةً ما استغرق الكثير من الوقت قبل فهم حقيقة الأمر. لقد شعرتُ أحيانًا بأنني كنت قاسيًا حين قابلته بوجهة نظري للواقع.

«بالنسبة إلى هذه الحميمية الشديدة التي تشعر بها تجاه «دايان» (Diane)، ربما ألمحتُ إلى إمكانية وجود علاقة بينكما في المستقبل، لكن عليك أن تضع الحقائق في عين الاعتبار؛ فهي لا تعاود الاتصال بك، وقد عاشت مع رجل ما في الآونة الأخيرة، والآن -بعد أن انفصلَت عنه- هي على وشك الانتقال إلى العيش مع شخص آخر. أنصِت إلى فحوى كلامها».

بين الآونة والأخرى، شعرَت النساء اللواتي كان «دان» يحدق في أعينهن بنفس الارتباط الروحي العميق، وانجذبن معه إلى الإحساس بالحب، لكنه كان حبًّا يتلاشى بسرعة. في بعض الأحيان كان يتضاءل بشكل مؤلم، وفي مناسبات أخرى تحوَّل إلى موجة من الاتهامات الغيور العنيفة. غالبًا ما انتهى الأمر بـ «دان»، أو حبيبته، أو كليهما، إلى الإحباط؛ فمهما كان الطريق الذي سلكه الشعور بالحب، كانت النتيجة النهائية هي نفسها؛ لم يحصل أيٌّ منهما على ما كان يريد من الآخر.

كلي قناعة بأن «دان» والمرأة قد أخطآ في تفسير ما رآه كلٌ واحد منهما في الآخر خلال هذه اللقاءات الأولى المليئة بالافتتان، كلٌ منهما رأى انعكاسًا لنظرته المتوسلة المجروحة وظن خطأً أنها دليل على الرغبة والاكتمال. كان كل واحد منهما كفرخ عصفور جناحاه مكسوران يسعى إلى الطيران من خلال الإمساك بطائر آخر مكسور الجناحين. من المحال أن يتعافى الأشخاص الذين يشعرون بالفراغ بالاندماج مع شخص آخر غير مكتمل. على العكس تمامًا، فإن محاولة طائرين مكسوري الأجنحة الاندماج معًا سعيًا وراء التحليق ستفشل بالتأكيد، ومهما يصبرا فلن

يتمكنا من الطيران. في النهاية، سيكون انفصالهما أمرًا محتمًا، وستتعافى جراح كلٍّ منهما على حدة.

إن الغموض الذي يَحُول دون معرفتنا للآخر لا يكمن فقط في المشكلات التي وصفتُها آنفًا -البِنَى العميقة للصور واللغة، وإخفاء الفرد للمعطيات بشكل متعمَّد وغير متعمَّد، والعتمة[1] (scotomata) التي تؤثر على المراقب- ولكن أيضًا في الغزارة الهائلة والتعقيد اللذين يتَّسم بهما كل فرد منا. تسعى البرامج البحثية الضخمة إلى فك شفرة النشاط الكهربائي والكيميائي-الحيوي للدماغ البشري، لكن تجربة كل واحد منا تتدفق بتعقيد شديد للغاية لدرجة أنها ستتفوق إلى الأبد على كل التقنيات الجديدة التي تهدف إلى التنصت عليها.

في رواية «ببغاء فلوبير» (Flaubert's Parrot)، يوضح «جوليان بارنز» (Julian Barnes) بطريقة جميلة وغريبة الأطوار التعقيد الأبدي في كل إنسان. يشرع «بارنز» في البحث عن «فلوبير» الحقيقي؛ أي «فلوبير» بشحمه ولحمه الذي يقف وراء صورته العامة. بعد أن أصابه الإحباط من الأساليب التقليدية المباشرة في السِّيَر الذاتية، حاول «بارنز» أن يأخذ ماهية «فلوبير» الحقيقية على حين غرة باللجوء إلى وسائل غير مباشرة. على سبيل المثال، قام بتناول اهتمامه بالقطارات، أو الحيوانات التي شعر بالانسجام معها، أو الأساليب المختلفة (والألوان) التي استخدمها في وصف عيون «إيما بوفاري».

لكن «بارنز»، بالطبع، لم يستحوذ أبدًا على ماهية هذا الرجل، «فلوبير»، الحقيقية، وقام في النهاية بتولي مهمة أكثر بساطة. في زياراته إلى متحفَيْ «فلوبير» -الأول في منزل «فلوبير» عندما كان طفلًا، والآخر في

---

(1) العتمة أو البقعة العمياء. (المترجم).

المنزل الذي عاش فيه كشخص بالغ- رأى «بارنز» في كلٍّ من المتحفين ببغاء محشوًّا، حيث يدَّعي كل متحف منهما أنه نموذج الببغاء البارز، «لولو» (Lulu)، الذي استخدمه «فلوبير» في قصة «روح بسيطة» (A Simple Soul). يستثير هذا الموقف نزعة «بارنز» الاستقصائية، ويُقسِم على أنه سيتمكن من معرفة الببغاء الحقيقي من المزيف، بصرف النظر عن أنه لن يستطيع فهم هوية «فلوبير» الحقيقي.

لم يسعفه المظهر الخارجي للببغاوين في نيل مراده؛ فهما يشبه أحدهما الآخر إلى حد كبير، كما أن كليهما يطابق وصف «فلوبير» لـ «لولو». ثم، في أحد المتحفين، يقدم الحارس المُسِنُّ لـ «بارنز» دليلًا على أن الببغاء الذي بحوزة متحفهم هو الحقيقي؛ إذ كان على مجسمه ختم متحف «روان» (Museum of Rouen)، ثم يعرض على «بارنز» نسخة من إيصال يشير إلى أن «فلوبير»، منذ أكثر من مئة عام، كان قد استأجر ببغاء المتحف البلدي (وأعاده لاحقًا). ظنًّا منه أنه صار قريبًا من الحل، يبتهج المؤلف ويسرع إلى المتحف الآخر ليكتشف أن مجسم الببغاء المنافس عليه الختم ذاته. يتحدث لاحقًا إلى أقدم عضو على قيد الحياة في «جمعية أصدقاء فلوبير» (Société des Amis de Flaubert) الذي أخبره بالقصة الحقيقية وراء هذين الببغاوين. عندما كان المتحفان قيد الإنشاء (بعد فترة طويلة من وفاة «فلوبير»)، ذهب أمينا كلا المتحفين، بشكل منفصل، إلى متحف البلدية حاملين في أيديهما نسخة من الإيصال، وطلب كلٌّ منهما الحصول على ببغاء «فلوبير» من أجل المتحف الذي يُشرِف عليه، حيث تم اصطحاب كل أمين منهما إلى غرفة كبيرة مليئة بالحيوانات المحنَّطة فيها ما لا يقل عن خمسين ببغاء محشوًّا متطابقًا، وقيل لكلٍّ منهما: «خذ الببغاء الذي يحلو لك».

بسبب استحالة اكتشاف الببغاء الأصلي، تخلَّى «بارنز» عن اعتقاده بأن بإمكانه أن يقبض على «فلوبير الحقيقي»، أو أي شخص «حقيقي». لكن الكثير من الناس لا يكتشفون حماقة البحث عن «الحقيقة» ويستمرون في الاعتقاد بأنه بإمكانهم تعريف وتفسير الناس إذا حصلوا على ما يكفي من المعلومات عنهم. لطالما كان الجدل موجودًا بين الأطباء النفسيين وعلماء النفس حول صحة تشخيص النفسيات؛ فيؤمن بعضهم بمحاسن هذا العمل ويكرسون حياتهم المهنية سعيًا وراء تصنيف الأمراض بدقة ليس لها مثيل، بينما يتعجب آخرون، ومن بينهم أنا، من قيام أي أحد بأخذ عملية التشخيص على محمل الجد واعتبار أنها أكثر من مجرد مجموعة بسيطة من الأعراض والسمات السلوكية. ومع ذلك نجد أنفسنا تحت ضغط متزايد على الدوام (من المستشفيات وشركات التأمين والوكالات الحكومية) لكي نعمل على اختزال الناس في عبارات تشخيصية وفئات رقمية.

حتّى إنّ أكثر أنظمة الاصطلاحات النفسية تحررًا تمارس العنف ضد كينونة الشخص الآخر. فإذا تعاملنا مع الناس معتقدين أنه بمقدورنا تصنيفهم، فلن نتمكن من تحديد ماهيتهم أو تعزيز تلك الأجزاء الضرورية فيهم التي تسمو فوق التصنيفات. لا بد أن تفترض العلاقة التي تسعى إلى تمكين الآخر أن معرفته بشكل مطلق أمر غير ممكن. إذا أجبرني أحدهم على تشخيص «ماري» بشكل رسمي، فسوف أتبع الصيغة المنصوص عليها في الدليل التشخيصي والإحصائي النفسي الحالي، لأَصِلَ إلى تشخيص دقيق ورسمي من ستة أجزاء، لكنني سأعلم في قرارة ذاتي أنه لن يمتَّ بصلة إلى «ماري» الحقيقية، «ماري» التي فاجأتني دائمًا وكانت بعيدة عن منالي، «ماري» ذات الابتسامتين.

8

ثلاث رسائل لم تُفتَح بعدُ

«وصلت الرسالة الأولى يوم الإثنين. بدأ ذلك اليوم مثل أي يوم آخر. أمضيت الصباح في كتابة ورقة بحثية، وعند الظهيرة مشيتُ إلى نهاية ممر منزلي لكي آخذ البريد، فأنا عادةً ما أقرأ البريد في أثناء تناول الغداء. لسبب ما، لا أعرف لماذا، قال لي حَدْسي إن هذا اليوم لن يكون يومًا عاديًا. وصلت إلى صندوق البريد، ثم ... ثم ...».

لم يستطع «سول» المتابعة. تكسَّر صوته، وأخفض رأسه، وحاول استجماع قواه. لم أرَه من قبلُ في حالٍ أسوأ من هذه. علا اليأس مُحيّاه، مما جعله يبدو أكبر بكثير من ثلاثة وستين عامًا، كما غَزَت الحُمرة عينيه المنتفختين البائستين، وتلألأ جلده المليء بالعرق.

بعد مرور بضع دقائق حاول استئناف حديثه. «في صندوق البريد رأيت أنها كانت قد وصلت ... أنا ... أنا لا أستطيع الاستمرار، لا أعرف ماذا أفعل».

خلال الدقائق الثلاث أو الأربع التي قضاها «سول» في مكتبي، كان قد أجهد نفسه إلى درجة الاضطراب العميق. بدأ يتنفس بسرعة، ملتقطًا أنفاسًا قصيرة متقطعة ضئيلة. وضع رأسه بين ركبتيه وحبس أنفاسه، لكن دون جدوى، ثم قام من كرسيه ومشى جيئةً وذهابًا بسرعة في مكتبي وهو يبتلع جرعات كبيرة من الهواء. كنت على يقين من أنه إذا أفرط في التنفس أكثر من ذلك فسوف يُغشى عليه. تمنَّيت لو كان بحوزتي كيس

ورقي ليتنفس فيه، لكن بسبب افتقاري إلى هذا العلاج الشعبي القديم (مثله مثل أي علاج آخر لمواجهة فرط التنفس)، حاولت التحدث معه لكي أهدِّئ من روعه.

«لن يصيبك أي مكروه يا «سول». لقد قصدتني طلبًا للمساعدة، وهذا ما أجيد فعله على أتمّ وجه. سنجد معًا حلًّا لمشكلتك. أريد منك أن تقوم بما سأقوله لك. ابدأ بالاستلقاء هنا على الأريكة وركِّز على تنفسك. خُذ أنفاسًا عميقةً وسريعةً أولًا، ثم قم بإبطائها تدريجيًّا. أريدك أن تركِّز على شيء واحد فقط لا شيء آخر. أتسمعني؟ عليك أن تنتبه إلى أن الهواء الذي يدخل أنفك هو أكثر برودةً من الهواء الذي يخرج من أنفك. تأمَّلْ ذلك وسرعان ما ستلاحظ أنك كلما تنفَّست ببطء أكثر، أصبح زفيرك أكثر دفئًا».

كان اقتراحي أكثر فعالية مما توقَّعت. في غضون دقائق استرخى «سول»، وتباطأت وتيرة أنفاسه، وتلاشت نظرته المذعورة.

«والآن، بما أنك صرت بحالٍ أفضل يا «سول»، فلنَعُدْ إلى عملنا. تذكَّرْ أن عليك أن تخبرني بكل ما جرى؛ فأنا لم أرَك منذ ثلاث سنوات. ماذا حدث لك بالضبط؟ أخبِرني بكل شيء. زوِّدني بجميع التفاصيل».

إن للتفاصيل فائدة مدهشة؛ فهي غنية بالمعلومات، ولها تأثير مهدِّئ، وتخترق قلق العزلة؛ إذ يشعر المريض أن المعالج قد دخل إلى حياته بمجرد حصوله على التفاصيل.

لكن «سول» اختار ألَّا يُمِدَّني بخلفية ما حدث، واستمر في وصفه للأحداث الأخيرة، مُكمِلًا قصته من حيث توقف.

«أخذت بريدي وعدتُ إلى المنزل، ورحتُ أُلقِي نظرات سريعة على البريد العشوائي من الإعلانات وطلبات الأعمال الخيرية، ثم رأيته: ظرفًا رسميًّا كبير الحجم، بُنّيَّ اللون، من معهد «ستوكهولم» للأبحاث (Stockholm Research Institute). لقد وصل الرد أخيرًا! كنت متخوفًا في الأسابيع القليلة الماضية من الحصول على هذه الرسالة، والآن بعد أن وصلت أخيرًا، لم أستطع حَمْل نفسي على فتحها». صمت مؤقتًا مرة أخرى.

«ماذا حدث بعد ذلك؟ أخبِرني بكل شيء».

- «أعتقد أنني هَوَيتُ على كرسي المطبخ واكتفيتُ بالجلوس هناك، ثم طويت الرسالة وأدخلتها في جيب بنطالي الخلفي، وبدأت في إعداد الغداء». صمَت مجددًا.

«تابع. لا تُغفِل أيّ تفاصيل».

- «سلقت بيضتين وأعددت سلطة البيض. أعلم أن الأمر مضحك، لكن شطائر سلطة البيض دائمًا ما تساعدني على الهدوء. آكلها عندما أكون مستاءً فحسب. لا أضع فيها الخس ولا الطماطم ولا الكرفس المفروم أو البصل، بل أكتفي بالبيض المهروس والملح والفلفل والمايونيز على الخبز الأبيض الرقيق جدًّا».

- «وهل نجح ذلك؟ هل هدَّأت الشطائر من روعك؟».

- «واجهت صعوبةً قبل أن أتفرَّغ لأكلها. أولًا، كان انتباهي مشتتًا بسبب الظرف. كانت حافاته الخشِنة تحفر مؤخرتي، فأخرجت الرسالة من جيبي وبدأت أعبث بها؛ وضعتها قُبالة الضوء، وشعرت بوزنها، وحاولت تخمين عدد صفحاتها، مع أن عددها

لن يُحدِث أي فرق. كنت على يقين من أن فحواها ستكون موجزة وقاسية جدًا».

على الرغم من فضولي، تركت «سول» يروي القصة بطريقته الخاصة، وبالوتيرة التي أرادها.

«تابع».

- «حسنًا، تناولت الشطائر، حتى إنني تناولتها كما كنت أتناولها في طفولتي، بامتصاص محتوياتها امتصاصًا، لكنها لم تُؤدِّ مهمتها. كنت بحاجة إلى شيء أكثر فعالية، لأن هذه الرسالة مدمرة للغاية. قررت أخيرًا أن أخبِّئها في دُرجٍ في مكتبي».

- «من دون أن تفتحها؟».

- «نعم، وما زالت كذلك. ما الفائدة من فتحها؟ أعلم محتواها. إذا قرأتُ كلمات الرسالة بعينها فسأعمِّق من جراحي فحسب».

لم يكن لديَّ أي فكرة عما كان يتحدث عنه «سول». لم أعرف حتى عن علاقته بمعهد «ستوكهولم». اعتراني فضول شديد، لكنني وجدت متعةً منحرفةً في عدم الاستفسار. لطالما مازَحني أطفالي حول تمزيقي لأغلفة الهدايا كي أفتحها بسرعة بمجرد أن تصبح بين يدي، لذا من المؤكد أن صبري في ذلك اليوم كان علامة على تحقيقي درجةً ما من النضج. لِمَ العجَلة؟ سيقوم «سول» بتزويدي بالتفاصيل قريبًا.

«وصلت الرسالة الثانية بعد ثمانية أيام في ظرفٍ مطابقٍ للأول. وضعتها من غير أن أفتحها أيضًا فوق الظرف السابق في الدُّرج ذاته، لكن إخفاء الرسائل لم يُجدِ نفعًا لأنها شغلت بالي كليًا، لكنني لم أحتمل التفكير في محتواها. ليتني لم أذهب إلى معهد «ستوكهولم» قط!» تنهَّد «سول».

- «تابع».
- «لقد قضيت الكثير من الوقت في الأسبوعين الماضيين تائهًا في أحلام اليقظة. هل أنت متأكد من أنك تريد سماع كل ما لديَّ؟».
- «متأكد. أخبِرني عن أحلام اليقظة».
- «حسنًا. في بعض الأحيان أتصور أنني أخضع للمحاكمة، حيث أمثُل أمام أعضاء المعهد وهم يرتدون الشعر المستعار وزِيَّ القضاة. يكون أدائي باهرًا، فأرفض مشورة المحامي وأُذهِل الجميع بالطريقة التي أردُّ بها على كل التهم. وسرعان ما يتضح أنه ليس لديَّ ما أُخفِيه، فيجد القضاة أنفسهم في حالةٍ من الفوضى. واحدًا تلو الآخر يتخلَّون عن رُتَبهم ويسارعون ليكونوا أول من يهنِّئني ويطلب السماح مني. هذا واحد من أحلام اليقظة التي تراودني. أشعَرني بتحسُّن لبضع دقائق، أما الأحلام الأخرى فكانت سيئة وسقيمة».
- «أخبِرني عنها».
- «أشعر أحيانًا بضيقٍ في صدري، وأَخال أنني أُصاب بنوبة قلبية صامتة، وهذه هي أعراضها؛ صعوبة في التنفس وضيق في الصدر من دون الشعور بألم. أحاول جَسَّ نبضي، لكن هذا الشيء اللعين يُفلِت مني حين أريده. أخيرًا، عندما أشعر به أتساءل إذا ما كان مصدره هو شرياني الكعبري أم الشرايين الصغيرة في أصابعي التي تضغط على معصمي.

النبض الذي أشعر به هو تقريبًا ستٌّ وعشرون نبضة كل خمس عشرة ثانية. ستٌّ وعشرون ضرب أربع يساوي مئة وأربعًا في الدقيقة. ثم أتساءل إذا ما كان معدل 104 جيدًا أم سيئًا. لم أكن أعرف إذا ما كانت النوبة

القلبية الصامتة مصحوبةً بنبض سريع أم بطيء. على حد علمي، نبض «بيورن بورغ» (Björn [1]Borg) هو خمسون.

ثم هنالك حلم اليقظة الذي أرى فيه أنني أشقُّ الشريان التاجي لكي يخِفَّ الضغط ويتمكن الدم من الخروج. عندما يكون معدل النبض مئة وأربع نبضات في الدقيقة، فكم سأستغرق من الوقت قبل أن يُغشى عليَّ؟ ثم أفكِر في تسريع نبضي لكي يخرج الدم بشكل أسرع. يمكنني ممارسة الرياضة على دراجتي الثابتة. بإمكاني رفع معدل نبضي إلى مئة وعشرين في بضع دقائق.

في بعض الأحيان أتخيَّل أن دمي يملأ كوبًا ورقيًا. أسمع كل دَفْقة وهي تتناثر على جدران الكوب المُشمَّعة[2]، ربما تكفي مئة دَفْقة لكي تملأ كوبًا واحدًا؛ أي خلال خمسين ثانية فقط. ثم أفكِر بالطريقة التي سأشقُّ بها معصمي؛ هل أستخدم سكين المطبخ؟ تلك السكين الحادة الصغيرة ذات المقبض الأسود؟ أم شفرة الحلاقة؟ لكن لم تَعُدْ هناك شفرات حلاقة قاطعة؛ فقد استبدلوا بها تلك الشفرات الآمنة[3]. لم أنتبه من قبلُ إلى انقراض الشفرات التقليدية، ظننت أنني أنا أيضًا سأختفي مثلها من دون أي أثر. عسى أن يفكِر فيَّ أحدهم في لحظة غريبة تمامًا كما أفكِر في شفرة الحلاقة المنقرضة!

---

(1) لاعب كرة المضرب السويدي (1956) الذي يُعتبَر من أبرز الأسماء التي مارست اللعبة في التاريخ. (المترجم).

(2) يُستعمَل نوع خاص من الشمع في صناعة الأكواب الورقية لكي لا تتسرب المشروبات إلى الخارج. (المترجم).

(3) الشفرات الآمنة التي يشير إليها تُسمَّى (injector blade)، وهي آلات حلاقة مميزة تُمكِّن المستخدم من وضع الشفرة في مكانها من دون أن يلمسها بشكل مباشر. (المترجم).

لكن النصل تحديدًا لم ينقرض بعدُ، لا يزال حيًّا بفضل أفكاري. هل تعلم أن جميع الكبار الذين عرفتهم عندما كنت طفلًا أصبحوا في عِداد الموتى؟ لذلك فإن الطفل الذي بداخلي قد مات أيضًا. يومًا ما، ربما بعد أربعين عامًا، لن يكون هناك أحد ممن يعرفني على قيد الحياة، عندها سأكون قد متُّ فعلًا؛ أيْ حين تندثر كل الذكريات عني. فكَّرت كثيرًا في حقيقة أن الأشخاص المُسنِّين جدًّا هم آخر الأفراد على قيد الحياة الذين يعرفون شخصًا ما أو مجموعة من الأشخاص. عندما يموتون، تموت المجموعة بأكملها أيضًا، وتختفي من الذاكرة الحية. أتساءل عمن سيكون هذا الشخص بالنسبة إليَّ. موتُ مَن، يا تُرى، الذي سيجعل موتي أنا نهائيًّا؟».

خلال الدقائق القليلة الماضية، كان «سول» يتحدث بعيون مغلقة. فتحها فجأةً وأكد مرة ثانية: «أنت مَن طلب معرفة هذه التفاصيل. هل تريدني أن أستمر؟ أفكاري سقيمة للغاية».

- «أخبِرني بكل شيء يا «سول». أريد أن أعرف ما كنت تمرُّ به مؤخرًا».

- «من أسوأ الأشياء التي عانيت منها هي أنني لم أجد أذنًا مُصغية، ولا مكانًا ألجأ إليه، ولا أحدًا أستطيع ائتمانه على أسراري، ولا صديقًا أثق به بما يكفي لكي أتحدث معه عن محنتي».

- «ماذا عني أنا؟».

- «لا أعرف إذا كنت ما زلت تَذكُر، لكن الأمر استغرق مني خمسة عشر عامًا قبل أن أقرر استشارتك للمرة الأولى. لم أستطع تحمُّل عار رؤيتك مجددًا الآن، فقد قمنا بعمل جيد معًا. لم أتمكن من مواجهة العودة إلى العلاج وأنا مهزوم».

فهمت قصد «سول» تمامًا. لقد كانت جلساته العلاجية مثمرةً للغاية على امتداد عامٍ ونصف. قبل ثلاث سنوات، عندما انتهى علاجه، شعرنا بفخر كبير على أثر التغييرات التي قام بها. كانت جلسته النهائية بمثابة تخرُّج غمرته المعنويات المرتفعة، كان يلزمها فرقة آلات موسيقية نحاسية تعزف على وقع مسيره المظفَّر بالنصر إلى العالم الخارجي.

«لذلك حاولت معالجة الأمر بمفردي. أعرف ما تعنيه تلك الرسائل، إنها يوم قيامتي، ونهاية عالمي الشخصي. أعتقد أنني تفوَّقت عليها بخطوة واحدة خلال ثلاثِ وستين سنة، لكنها تجاوزتني الآن، ربما لأنني أصبحت أبطأ من ذي قبل بسبب عمري، ووزني، وانتفاخ رئتي. لطالما تمكَّنت من تأخير إطلاق هذا الحكم بشتى السبل. هل تتذكرها؟».

أومأت برأسي. «أذكر بعضها».

- «كنت أقدِّم الاعتذارات بإسراف، وأترجَّى الصفح منهم، وأنشر إشاعاتٍ بأنني مصاب بسرطان متقدِّم (نجحَت هذه الحجة كل مرة)، وإذا فشلت كل هذه السبل، كان خيار دفع بعض المال متاحًا دائمًا. أعتقد أن خمسين ألف دولار كفيلة بالتخلص من مصيبتي بأكملها مع معهد «ستوكهولم»».

- «ما الذي غيَّر رأيك؟ لماذا قررت الاتصال بي؟».

- «الرسالة الثالثة هي السبب. وصلَت بعد نحو عشرة أيام من الرسالة الثانية. لقد وضعَت حدًّا لكل شيء؛ كل خططي وكل آمالي في إيجاد أي مهرب. وأعتقد أنها وضعَت حدًّا لكبريائي أيضًا. اتصلتُ بسكرتيرتك بعد أن وصلَت الرسالة ببضع دقائق».

أعرف ما حدث لاحقًا. أخبَرتني سكرتيرتي بمكالمته: «أرغب في رؤية الطبيب في أقرب فرصة ممكنة. أعرف أنه مشغول جدًا. نعم، بعد أسبوع من يوم الثلاثاء، لا بأس في ذلك. ليست حالة طارئة».

عندما أخبَرتني سكرتيرتي بمكالمته الثانية بعد بضع ساعات («لا أقصد إزعاج الطبيب، لكنني أتساءل إذا ما كان في إمكانه استقبالي ولو لبضع دقائق قبل الأسبوع القادم بقليل».) عرفت أن «سول» كان يشعر باليأس الشديد، واتصلت به لترتيب موعد استشارة فوري.

ثم شرع في تلخيص أحداث حياته منذ أن التقينا آخر مرة. بعد فترة وجيزة من انتهاء علاجه، أي منذ نحو ثلاث سنوات، حاز «سول» –عالم بيولوجيا الأعصاب الضليع– على جائزة متميزة من معهد «ستوكهولم» للأبحاث في السويد؛ ألَا وهي منحة زمالة لمدّة ستة أشهر. وكانت شروط الجائزة سخية جدًا؛ راتبًا قدره خمسون ألف دولار دون أي قيود أو شروط، كما له حرية الانهماك في أبحاثه الخاصة وتأدية أقل قدر من المهام التدريسية والأعمال التشاركية.

عندما وصل إلى معهد «ستوكهولم» استقبله الدكتور «كيه» (Dr. K)، عالم شهير في الأحياء الخَلَوية. كان حضور هذا الدكتور رائعًا؛ تحدث بلهجة أوكسفوردية لا تشوبها شائبة، ورفض أن تنحني عزيمته للسنوات الخمس والسبعين التي قضاها في هذه الحياة، مكرِّسًا كل سنتيمتر من طوله البالغ مئة وثلاثة وتسعين سنتيمترًا في تشييد واحدة من أبهى وضعيات الوقوف على الإطلاق. أما «سول» المسكين، فقد أنهك ذقنه ورقبته لكي تنتصب قامته عند متر وستة وسبعين سنتيمترًا. وعلى الرغم من أن الآخرين أحبُّوا لكنة «سول» البروكلينية[1] العتيقة، فإنه

(1) نسبة إلى بلدة «بروكلين» في «نيويورك». (المترجم).

كان يكره سماع صوته. لم يَفُز الدكتور «كيه» بجائزة نوبل قط (مع أنه كان الوصيف في مناسبتين كما يعلم الجميع)، إلا أنه كان لا يقل شأنًا عن سائر الفائزين بالجائزة. لقد أبدى «سول» إعجابه به عن بُعد لمدة ثلاثين سنة، والآن، في حضرته، يكاد يتجرأ على النظر في عيني هذا الرجل العظيم.

عندما كان «سول» في السابعة من عمره، تُوُفِّي والداه في حادث سيارة، وتربَّى على يد عمته وعمه. منذ ذلك الحين، هيمنت على حياته فكرة البحث المستمر عن معنى المنزل والشعور بالمودة واستحسان الناس. كان الفشل دائمًا وراء تعرُّضه لجراح مروِّعة؛ جراح تلتئم ببطء وتُعمِّق من شعوره بعدم أهميته وعزلته. كل النجاحات التي حققها لم تسفر إلا عن بهجة عارمة سريعة الزوال.

لكن في لحظة وصوله إلى معهد «ستوكهولم» للأبحاث، لحظة استقبال الدكتور «كيه» له، انتابته قناعة غريبة بأن هدفه كان في متناول اليد، وأنه لا يزال هناك أمل في الشعور بالسلام في المحطة الأخيرة من حياته. عندما صافح «سول» يد الدكتور «كيه» القوية، تراءت له صورة جميلة خَلاصية، حيث كان هو والدكتور «كيه» يعملان جنبًا إلى جنب في القيام بأبحاث تشاركية بشكل دائم.

في غضون ساعات، ومن دون تخطيط مسبق كافٍ، اقترح «سول» أن يتعاون هو والدكتور «كيه» في إعداد مراجعة عن الأبحاث العالمية حول تمايز الخلايا العضلية، على أن يقدِّما توليفة خلَّاقة من الآراء ووجهات النظر، ويحدِّدا التوجهات الواعدة للدراسات المستقبلية. أنصت الدكتور «كيه»، وأبدى موافقته بحذر، ووافق على الاجتماع مع «سول» الذي سيتولى مهمة البحث في المكتبة مرتين أسبوعيًّا. انكبَّ «سول» بشغف

على هذا المشروع الذي كان وليد اللحظة، وقدَّر كثيرًا الساعات التي تشاوَر فيها مع الدكتور «كيه»، حيث قاما بتدارس التقدم الذي كان «سول» يحرزه، وسَعَيَا وراء العثور على أنماط قيِّمة في مجموعة الأبحاث الأساسية المتباينة.

استمتع «سول» بألق هذه العلاقة التعاونية جدًّا، لدرجة أنه لم يتنبه إلى أن بحثه المكتبي لم يكن مثمرًا. ونتيجة لذلك، أُصيب بالدهشة عندما أعرب الدكتور «كيه» بعد شهرين عن خيبة أمله بشأن البحث وأوصى بالتخلي عنه. لم يفشل «سول» في إنجاز أي مشروع طيلة حياته، لذا كان رد فعله الأول هو أن اقترح إنجاز العمل بمفرده. فأجاب الدكتور «كيه»: «لا أستطيع منعك بالطبع، لكنني أعتبره قرارًا غير حكيم. على أي حال، أرغب في فك ارتباطي بهذا البحث».

استنتج «سول» على عجَل أن نشر عملٍ آخر (ليصبح عدد أبحاثه 262، بدلًا من 261) سيكون أقل إثراءً من الاستمرار في التعاون بعض الشيء مع الدكتور العظيم، وبعد بضعة أيام من التفكير اقترح مشروعًا آخر. مرة أخرى، اقترح سول أن ينجز 95 في المئة من البحث، وأبدى الدكتور موافقته المتحفِّظة مجددًا. خلال الأشهر المتبقية له في معهد «ستوكهولم»، انشغل «سول» في البحث حتى الإنهاك. وبسبب امتلاء جدول أعماله بالمهام التدريسية وجلسات التشاوُر مع زملائه الأصغر سنًّا، اضطر إلى العمل على البحث خلال معظم الليل تحضيرًا للقاءاته مع الدكتور «كيه».

بعد نهاية الأشهر الستة، كان المشروع لا يزال قيد الإنجاز، لكن «سول» أكد للدكتور «كيه» أنه سيُكمِله ويحرص على نشره في مجلة علمية رائدة. المجلة التي وضعها «سول» نصب عينيه هي مجلة يحررها

أحد طلابه السابقين الذي كان غالبًا يطلب من «سول» كتابة المقالات. بعد مرور ثلاثة أشهر، أكمل «سول» كتابة البحث، وبعد الحصول على موافقة الدكتور «كيه» قدَّمه إلى المجلة، ليتفاجأ لاحقًا، بعد أحد عشر شهرًا، أن المحرر كان مصابًا بمرض مزمن خطير، وأن هيئة الناشرين قد قررت، مع الأسف، عدم الاستمرار في نشر المواد في المجلة، وإعادةَ جميع المقالات المُقدَّمة إليهم إلى أصحابها.

بدأ الشعور بالذعر يتسلل إلى «سول»، فأرسل المقال على الفور إلى مجلة أخرى، وبعد ستة أشهر تلقى إشعارًا بالرفض (لأول مرة منذ خمسة وعشرين عامًا)، حيث أوضح القائمون على المجلة، مع احترام مكانة المؤلفَيْن، سبب عدم نشرهم المقال. في الأشهر الثمانية عشر الماضية، نُشِرت ثلاث مراجعات عالية الكفاءة تتناول الموضوع ذاته، وعلاوة على ذلك، لم تدعم تقارير البحث الأوَّلية المنشورة في الأشهر القليلة الماضية الاستنتاجات التي توصَّل إليها «سول» والدكتور «كيه» حول التوجهات الواعدة في هذا المجال، لكنهم قالوا إنه سيكون من دواعي سرورهم إعادة النظر في المقالة إذا تم تحديثها، وتغيير نبرتها الأساسية، وإعادة صياغة استنتاجاتها وتوصياتها.

وقف «سول» مكتوف اليدين. لم يكن مستعدًّا لمواجهة العار المترتب على إخبار الدكتور «كيه» بأن مقالتهما لم تُنشَر حتى الآن، أي بعد ثمانية عشر شهرًا. كان «سول» متأكدًا من أن الدكتور «كيه» لم يتلقَّ في حياته إشعارًا برفض أي مقال له، إلى أن تعاون مع هذا العالم الزائف القصير المُلحّ القادم من «نيويورك». كان «سول» على دراية تامة بأن الدراسات الاستعراضية تتقادم بسرعة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمجالات التي تطرأ عليها التطورات بسرعة، مثل البيولوجيا الخَلَوية،

كما أن خبرته الطويلة في التعامل مع مجالس التحرير دلَّته على أن محرري المجلة امتنعوا عن إخباره بالحقيقة من باب اللباقة فحسب. كانت المقالة في عِداد الأموات ما لم يخصِّص هو والدكتور «كيه» وقتًا طويلًا لمراجعتها. أضِف إلى ذلك أنه سيكون من الصعب إكمال عملية التنقيح عن طريق البريد الدولي؛ التعاون وجهًا لوجه كان أمرًا ضروريًّا. لكن أولويات الدكتور «كيه» تفوق شأنًا كهذا، وكان «سول» على يقين من أنه سيفضِّل بكل بساطة أن يتبرأ من هذا الوباء بأكمله.

وهنا وجد «سول» نفسه في مأزق؛ فإن اتخاذ أي قرار يعني إخبار الدكتور «كيه» بما حدث، لكن «سول» لم يستطع حَمْل نفسه على فعل ذلك، لذلك -كما اعتاد أن يفعل في مثل هذه المواقف- لم يحرِّك ساكنًا.

مما زاد الطين بلَّة هو أنه كتب مقالًا مهمًّا حول موضوع ذي صلة تم قبوله للنشر فورًا. في هذه المقالة، نسب «سول» الفضل إلى الدكتور «كيه» فيما يخص بعض الأفكار التي عبَّر عنها، واستشهد بمقالتهما التي لم تُنشَر بعدُ، لكن المجلة أبلغت «سول» أن سياستها الجديدة لا تسمح له بنسب الفضل إلى أي شخص من دون موافقة خطية من ذلك الشخص (لئلَّا يقوم أحدهم باستخدام الأسماء الشهيرة بشكل مزيف)، كما لا يمكنه -للسبب نفسه- الاستشهاد بالأبحاث غير المنشورة من دون موافقة خطية من المؤلفين المشاركين.

كان «سول» أمام طريق مسدود؛ لم يكن بمقدوره أن يراسل الدكتور «كيه» بُغية الحصول على إذنه لنسب الفضل إليه من دون ذكر مصير بحثهما المشترك. طبعًا، كعادته، لم يفعل «سول» أي شيء.

تصدَّرت مقالته بعد عدة أشهر (من دون ذكر اسم الدكتور «كيه» أو الاستشهاد ببحثهما) عددًا دوريًّا في مجلة متميزة تختص بعلم الأعصاب.

تنهد «سول» بعمق كبير وقال: «وبهذا نكون قد وصلنا إلى اللحظة الراهنة. كنت أخشى نشر هذا المقال. أعرف أن الدكتور «كيه» سيقرؤه، وأعرف ما سيظن بي والمشاعر التي ستنتابه تجاهي. أعرف أنني أصبحت في نظره، وفي نظر المجتمع الأكاديمي في معهد «ستوكهولم» بأكمله، محتالًا ولصًا، لا، بل أسوأ من اللص. انتظرت ردَّه، وتلقيت الرسالة الأولى بعد أربعة أسابيع من نشر المقال (في الموعد المحدد)، أي بعد مضي وقت كافٍ على وصول عدد المجلة إلى الدول الإسكندنافية، وعلى قراءة الدكتور للمقال وإبداء رأيه فيه وإصدار حكمه عليه؛ كان ذلك وقتًا كافيًا لتصل رسالته إليَّ في كاليفورنيا».

صمت هنا «سول». كانت عيناه تتوسلان إليَّ: «لا أستطيع الاستمرار. خلِّصني من كل هذا. خلِّصني من هذه الآلام».

صحيحٌ أنني لم أرَ «سول» يائسًا هكذا من قبلُ، لكني كنتُ مقتنعًا بأني سأكون قادرًا على تقديم المساعدة له بسرعة، لذا باشرت الحديث بصوتي الفعَّال الجاد في العمل، متسائلًا عن الخطط التي وضعها أو الخطوات التي اتخذها. تردد قليلًا ثم قال إنه قرر إعادة الراتب البالغ قدره خمسين ألف دولار إلى معهد «ستوكهولم»! ولأنه يعلم، من تجربتنا السابقة في العلاج، أنني أعارض ميله إلى الخروج من الأزمات عن طريق المال، لم يُتِحْ لي «سول» فرصة الرد، وعقَّب بسرعة قائلًا إنه لم يقرر بعد حول الطريقة المثلى لإعادة هذا المبلغ. كان يفكر في كتابة رسالة تفيد بأنه سيعيد المال لأنه لم يقم باستغلال فترة زمالته في المعهد على أحسن وجه. الاحتمال الآخر الذي كان أمامه هو تقديم هدية لمعهد «ستوكهولم» من دون أي مقدمات؛ هدية تبدو غير مرتبطة بأي شيء آخر. رأى «سول» أن هدية مثل هذه قد تكون خطوة بارعة، بمثابة بوليصة تأمين تَحُول دون استنكارهم تصرفاته.

كان القلق واضحًا على «سول» حين كشف لي عن هذه الخطط، لأنه يعلم أنني سأعارضه. كان يكره إزعاج الناس، وأراد الحصول على موافقتي بقدر ما أراد موافقة الدكتور «كيه». شعرت بالارتياح لأنه كان على استعداد لمشاركة كل هذه الأمور معي؛ هذه هي النقطة الإيجابية الوحيدة التي وجدتها في الجلسة حتى الآن.

جلس كلانا في صمت لفترة وجيزة. كان «سول» منهكًا تمامًا، فانحنى إلى الوراء غارقًا في تعبه. وأنا أيضًا استرخيت في كرسيِّي وحاولت تقييم الوضع. كانت هذه الحكاية بأكملها كابوسًا هزليًا، أو ملحمة كقصة طفل القطران[1]، حيث تسببت عدم كفاءة «سول» الاجتماعية، عند كل منعطف، في إلصاقه بإحكامٍ أكبر بهذا المأزق التعجيزي.

لكن مظهر «سول» المروِّع لم يكن فيه أي مدعاة للضحك. لطالما قلَّل من شأن آلامه خشية أن يتسبب في «مضايقتي». يمكنني تلخيص وضعه بمضاعفة كل علامة من علامات التوتر التي ظهرت عليه بعَشْرٍ: استعداده لدفع خمسين ألف دولار، وتأملاته الانتحارية المرَضية (كان قد قام بمحاولة انتحار خطيرة قبل خمس سنوات)، وفقدانه للشهية، وأرَقه، وحاجته إلى أن يراني عاجلًا. ارتفع ضغط دمه (كما أخبَرني سابقًا) إلى مئة وتسعين على مئة وعشرين، وقبل ست سنوات عندما كان يعاني من التوتر، أُصيب بنوبة قلبية شديدة كادت تُودِي بحياته تقريبًا.

---

(1) إشارة إلى شخصية tar baby، التي ظهرت أول مرة في قصص الأرنب والثعلب المحتال Br'er Fox لـ«روبرت روزفلت» Robert Roosevelt، حيث يقوم الثعلب بصناعة دمية من القطران على شكل طفل ويُلبسها بعض الثياب. عندما يرى الأرنب الدمية، يعتقد أنها طفل حقيقي، فيكلّمها من دون أن يلقى ردًا. ظنًّا منه أنّ «الطفل» يتجاهله عمدًا، يغضب الأرنب ويلكُم الدمية مرارًا وتكرارًا، فتلتصق به. كلّما حاول ضربها التصقت به أكثر. تشير فكرة طفل القطران المجازية إلى معضلة تزداد تعقيدًا كلّما حاول المرء حلّها. (المترجم).

لذلك كان من الواضح أنه عليَّ ألَّا أقلِّل من خطورة الموقف. كان «سول» على وشك الانهيار كليًّا، ولا بد أن أقدِّم له المساعدة على الفور. في رأيي، كانت ردة فعله المضطربة بعيدة عن العقلانية تمامًا. لا يمكن لأحد تخمين محتوى تلك الرسائل؛ ربما كان فيها خبر لا علاقة له بمشكلته عن اجتماع علمي أو طرح مجلة جديدة. على أي حال، الأمر الذي كنت على يقين منه هو أن تلك الرسائل، بصرف النظر عن توقيتها، لم تكن رسائل استنكار من قِبَل الدكتور «كيه» أو من معهد «ستوكهولم»، وأن غمَّه سيزول بمجرد أن يقرأها.

قبل أن أتابع، فكَّرتُ في بعض السبل البديلة؛ هل تسرعتُ في الاستنتاج أو أفرطتُ في الحماسة؟ ماذا عن تحويلي المضاد؟ فلا أنكر أنني شعرت بنفاد صبري تجاه «سول». أراد صوت بداخلي أن يقول: «يا للسخافة! عُدْ إلى المنزل واقرأ تلك الرسائل اللعينة!» ربما كنت منزعجًا لأن علامات التآكل ظهرت على علاجي السابق له. هل جعلتني كبريائي الساخطة أسأم من «سول»؟

صحيح أنني اعتبرته أحمقَ في ذلك اليوم، إلا أنه لطالما نال إعجابي كثيرًا. لقد أحببته منذ أول لحظة قابلته فيها. قال شيئًا في اجتماعنا الأول جعله عزيزًا عليَّ: «سأبلُغ التاسعة والخمسين قريبًا. أرغب أن أكون قادرًا في يوم من الأيام على التنزه في شارع «يونيون» وقضاء فترة ما بعد الظهر في مشاهدة المحلات التجارية».

لطالما شعرت بالانجذاب إلى المرضى الذين يكابدون المشكلات ذاتها التي أكابدها. أعرف تمامًا معنى التشوق إلى القيام بنزهة وقت الظهيرة. كم من مرة تُقتُ إلى رفاهية المشي بعد ظهر يوم الأربعاء في شوارع «سان فرانسيسكو»! مع ذلك، حالي كحال «سول»، أجبرت نفسي

على مواصلة العمل وفرض جدول مهني يَحُول دون قيامي بتلك النزهة. كنت أعرف أننا كلينا يطاردنا الرجل ذاته الذي يحمل البندقية.

كلما تعمَّقت في ذاتي أكثر، ازداد يقيني أن مشاعري الإيجابية تجاه «سول» كانت لا تزال في أفضل حال. بصرف النظر عن مظهره الجسدي الكريه، شعرت بالدفء تجاهه. تخيَّلت أنني أحتضنه بين ذراعي، ورأيت هذه الفكرة مقبولة. حتى مع نفاد صبري من «سول»، كنت واثقًا من أنني سأقوم بما سيصبُّ في مصلحته.

كما أدركت أن هناك بعض العيوب في الحماسة الزائدة على حدِّها، فغالبًا ما يقوم المعالج المُفرِط في حماسته بمعاملة المريض معاملة الطفل، وعلى حد تعبير «مارتن بوبر» (Martin Buber)[(1)]: لا يساعد الآخر أو يرشده إلى «الكشف عن مكنوناته بوضوح»، بل يفرض نفسه عليه. ومع ذلك، كنت مقتنعًا بأنني أستطيع حل هذه الأزمة برمَّتها خلال جلسة أو جلستين. في ضوء اعتقادي هذا، بدَت مخاطر الحماسة المُفرَطة ضئيلة.

أضِف إلى ذلك (وهذه قضية تمكَّنت من فهمها لاحقًا، فقط من خلال التأمل في نفسي بشكل موضوعي) أنه من سوء حظ «سول» أنه طلب مشورتي في هذه المرحلة من مسيرتي المهنية التي أصبحت فيها فاقدًا للصبر وأسيِّر علاقاتي مع المرضى بشكل إداري، مُصرًّا على أن يواجهوا مشاعرهم حول كل شيء مباشرة وبشكل كامل، بما في ذلك الموت (حتى لو أدى ذلك إلى وفاتهم). اتصل بي «سول» في الفترة التي كنت أحاول فيها نسف هوَس «ثيلما» بالحب (انظر قصة «تعرية الحب»)، كما كنت أسعى في تلك الفترة أيضًا إلى إجبار «مارفن» على إدراك أنه كان قد شغل نفسه بالأمور الجنسية لكي يصرف قلق الموت عن ذهنه (انظر قصة

(1) فيلسوف ومترجم ومؤلف نمساوي (1878 - 1965). (المترجم).

«بحثًا عن الحالم»)، وكنت حينها أيضًا أُلحُ برعونة على «ديف» لكي يفهم أن تعلُّقه برسائل الحب القديمة كان محاولة غير مُجدِية لإنكار سوء حالته الجسدية وتقدُّمه في السن («لا تكن لطيفًا»).

وهكذا، مهما كانت النتيجة، قررت التركيز بشدة على رسائل «سول» وفَتْحها في جلسة واحدة أو جلستين على الأكثر. خلال تلك السنوات، دائمًا ما ترأست مجموعات علاجية تضم مرضى أُدخِلوا المستشفى لفترة قصيرة نسبيًّا. وبما أنني كنت أجتمع بهم لبضع جلساتٍ فقط، اكتسبتُ البراعة في مساعدة المرضى على صياغة جدول أعمال مناسب وواقعي لأهدافهم العلاجية والتركيز على تحقيقها كما يجب. لقد اعتمدتُ على هذه التقنيات في جلستي مع «سول».

- «كيف يمكنني مساعدتك اليوم يا «سول»؟ ما الشيء الذي تريدني أن أركِّز على فعله كثيرًا؟».
- «أعلم أنني سأتعافى في غضون أيام قليلة. كل ما في الأمر هو أنني لا أستطيع التفكير بوضوح. كان يجب أن أراسل الدكتور «كيه» على الفور. وقد بدأت مؤخرًا في كتابة رسالة له تستعرض، خطوة بخطوة، تفاصيل كل ما حدث».
- «هل تنوي إرسال هذه الرسالة قبل فتح الرسائل الثلاث؟» لم أتحمَّل فكرة أن يُدمِّر «سول» مسيرته المهنية بفعل شيء أخرق. تخيَّلتُ الحيرة على وجه الدكتور «كيه» وهو يقرأ رسالة «سول» الطويلة التي يدافع فيها عن نفسه ضد اتهامات لم يوجِّهها إليه الدكتور مطلقًا.

«عندما أفكر في ما يجبُ عليَّ القيام به، فغالبًا ما أسمع صوتك يسألني أسئلة عقلانية. إذا فكّرنا في الأمر مليًّا، فماذا سيتصرف هذا الرجل تجاهي؟ هل سيكتب شخص مثل الدكتور «كيه» رسالة إلى المجلة يحطُّ فيها من شأني؟ لا أظن أنه قد ينحدر إلى هذا المستوى قط، لأنه إذا قام بذلك يكون قد أساء إلى نفسه وإليَّ على حدٍّ سواء. نعم، أعرف طبيعة الأسئلة التي قد تطرحها أنت، لكن عليك أن تضع في الحسبان أن تفكيري يفتقر إلى المنطقية بعض الشيء».

كان في كلامه توبيخ مُبطَّن، ولكن لا لبس فيه. لطالما سعى «سول» إلى تملُّق الآخرين، وقد كرَّسنا الكثير من جلسات علاجه السابقة لفهم معنى هذه السِّمة ومعالجتها، لذلك أسعدتني قدرته على اتخاذ موقف أكثر صرامةً تجاهي، لكنني أيضًا شعرت بالغضب حين ذكّرني بأن الإنسان لا يفكِّر بشكل منطقي في وقت الأزمات.

«حسنًا، أخبِرني عن هذا السيناريو غير المنطقي الذي يجوب في بالك».

اللعنة! ما قلته لم يكن مناسبًا! فيه شيء من التعالي، وهو شعور لا أُكنُّه تجاهه على الإطلاق، ولكن ما إن شرعتُ في تعديل إجابتي حتى بدأ «سول» في الرد بملء إرادته. من عاداتي خلال العلاج أن أحرص على التريُّث وتحليل الجمل القصيرة كهذه، لكن في ذلك التوقيت لم يكن الدخول في هذه التفاصيل الدقيقة مواتيًا.

«أفكر في إمكانية التخلي عن مهنتي عالِمًا. قبل بضع سنوات، أُصبتُ بصداع شديد، فطلب مني طبيب الأعصاب إجراء الفحوصات بالأشعة السينية، قائلًا إنه صداع نصفي بلا شك، مع وجود احتمال ضئيل بإصابتي بورم سرطاني. قلتُ في نفسي آنذاك إن عمتي كانت على حق؛ هناك

خطب فيّ لا محالة. عندما كنت في الثامنة من عمري شعرتُ بأنها فقدت الثقة بي، ولم تكن تمانع تعرضي لأي سوء».

كنت أعرف من خلال علاجي له قبل ثلاث سنوات أن هذه العمة، التي ربّته بعد وفاة والديه، كانت امرأة حاقدة وانتقامية.

سألته: «لو أنها أساءت الظن بك كما تقول، فهل كانت ستضغط عليك كثيرًا للزواج بابنتها؟».

- «لم يحدث ذلك إلا عندما بلغَت ابنتها الثلاثين من العمر. كان أسوأ مصير بالنسبة إلى عمتي هو أن تظل ابنتها عانسًا، حتى إنه كان أسوأ من أن تجعلني صهرًا لها».

انتبه! ماذا هذا الذي تفعله؟ لقد نفَّذ «سول» ما طلبتُه وشارك معي السيناريو اللامنطقي الخاص به، لكن ها أنا ذا أنغمس فيه بكل غباء. حافِظ على تركيزك!

«ما خطتك القادمة يا «سول»؟ تصوَّر نفسك في المستقبل، بعد شهر واحد من الآن، هل ستفتح الرسائل الثلاث؟».

- «نعم، دون شك، سأكون قد فتحتها في غضون شهر واحد».

حسنًا، قلت في نفسي إن هذا كان تقدمًا لا بأس به، وقد فاق توقعاتي، لذا سعيت وراء المزيد.

«هل ستفتحها قبل إرسال تلك الرسالة بالبريد إلى الدكتور «كيه»؟ أنت تقول إنني أُعقلِن الأمور، لكن لا بد أن يظل واحد منا عقلانيًا على الأقل». لم ترتسم على وجه «سول» أي ابتسامة، وتلاشى حِسُّه الفكاهي كليًا، فاضطررت إلى الكفِّ عن المزاح. لم يَعُدْ بإمكاني التواصل معه بهذه الطريقة. «يبدو لي أنه من المنطقي قراءتها أولًا».

- «لست متأكدًا. لا أعرف ماذا سأفعل على الإطلاق. ما أعلمه هو أنني طوال الأشهر الستة التي قضيتها في معهد «ستوكهولم» لم أتوقف عن العمل إلا لثلاثة أيام. عملت أيام السبت والأحد، ورفضت في عدة مناسبات تلبية دعوات اجتماعية من الآخرين، حتى من الدكتور «كيه»، لأنني أردت أن ألزم المكتبة».

ظننت أنه كان يحاول جاهدًا تحييدي عن الموضوع الرئيسي، ولا يكفُّ عن استمالتي إلى الحكايات المثيرة. حافِظ على تركيزك!

«ما رأيك؟ هل من الممكن أن تفتح الرسائل قبل أن تعيد الخمسين ألف دولار؟».

- «لست متأكدًا من الجواب».

هناك احتمال كبير بأنه قد أرسل تلك الأموال بالفعل، وإذا كان الأمر كذلك فسوف يضطر إلى إخباري بمجموعة متشابكة من الأكاذيب التي ستعرِّض ما نقوم به لخطر حقيقي. لا بد أن أكتشف الحقيقة.

«علينا أن يثق أحدنا بالآخر كما فعلنا في السابق يا «سول». من فضلك قل لي، هل أرسلت هذه الأموال وانتهى الأمر؟».

- «ليس بعدُ، لكنني سأكون صادقًا معك: يبدو لي أمرًا منطقيًا للغاية، وأرجِّح قيامي بذلك، لكن عليَّ أن أبيع بعض الأسهم أولًا كي أتمكن من جمع هذا القدر من المال».

- «حسنًا، إليك رأيي في هذا الموضوع. من الواضح أن السبب الذي دفعك إلى رؤيتي هو أنك تريد مساعدتي في فتح تلك الرسائل». كنت أحاول التلاعب به قليلًا هنا، لأنه لم يُعرِب عن ذلك صراحة. «وكلانا يعرف أنك في نهاية المطاف، في الشهر المقبل بكل تأكيد، ستقوم بفتحها» المزيد من التلاعب،

لأنني أردت تحويل إرادته المزعزَعة إلى التزام ثابت. «كلانا يعرف أيضًا -وأنا أخاطب الجزء العقلاني منك هنا- أنه ليس عملًا حكيمًا أن تتخذ خطوات كبيرة لا رجعة فيها قبل أن تفتح الرسائل. يبدو لي أن الأسئلة الواقعية التي يجب طرحها هي متى، أي متى ستفتحها؟، وكيف، أي كيف يمكنني مساعدتك على أتم وجه؟».

- «يجب أن أفعل ذلك من دون تفكير. لست متأكدًا، ليس لديَّ أدنى فكرة».

«أترغب، يا ترى، في جلبها إلى هنا لتفتحها في مكتبي؟» هل صرت أنصرف نيابة عن «سول» الآن، أم كنت كالمتلصِص فحسب (كمن يشاهد سرداب «آل كابوني» (Al Capone)[1] أو خزينة سفينة الـ «تايتانيك» تُفتَح على الهواء مباشرةً؟).

«بمقدوري أن أُحضِرها إلى مكتبك لكي نفتحها معًا، ويمكنك أن تعتني بي إذا أُصبتُ بالانهيار. لكنني لا أريد فعل ذلك. ما أريده هو تولِّي الأمر بمفردي كشخص بالغ عاقل».

أحسنت! لقد أقنعني فعلًا. كان إصرار «سول» اليوم مثيرًا للإعجاب. لم أتوقع أن يكون متماسكًا هكذا، لكنني تمنيت لو أن تماسكه لم يكن مجرد وسيلة للدفاع عن هوَسه بهذه الرسائل. كان «سول» يحاول التشبُّث بموقفه أكثر، لذلك واصلت بعزم وعناد، رغم أنني بدأت أشكِّك في صحة اختياري للنهج المباشر.

(1) رجل عصابات أمريكي خطير من القرن العشرين. (المترجم).

«أم إنك تريدني أن أزورك في المنزل وأساعد على فتحها هناك؟».

شعرت أنه كان عليَّ أن أندم على إلحاحي بهذه الفظاظة، لكنني لم أتمالك نفسي. «أم إن هناك طريقة أخرى؟ تصوَّر أنك تضع خطة عمل لجلساتنا معًا؛ كيف يمكنني أن أمُدَّ لك يد العون على أكمل وجه؟».

لم يتغير موقف «سول» قيد أنملة. «ليس لديَّ أدنى فكرة».

نظرًا لأننا تجاوزنا الزمن المقرر للجلسة بخمس عشرة دقيقة تقريبًا، ولأنه كان هناك مريض آخر مأزوم في انتظاري، قمت بإنهائها مرغمًا. اعتراني قلق عارم بشأن «سول» (وحول الإستراتيجية التي اخترتها)، لدرجة أنني أردت رؤيته مرة أخرى في اليوم التالي. لم يكن لديَّ متسع من الوقت في جدول أعمالي، لكننا اتفقنا على الالتقاء مجددًا بعد يومين.

خلال جلستي مع المريض التالي لم أستطع صرف ذهني عن «سول» كثيرًا. لقد أذهلتني مقاومته لي؛ في كل خطوة اتخذتها كنت كمن يصطدم بجدار من الإسمنت. لم يكن ذلك «سول» الذي عهدته، الذي كان دائمًا مطواعًا بشكل مَرَضي جدًّا، مما سمح للكثير من الناس أن يستغلوه. حصلت زوجتاه السابقتان على تسويات مادية سخية غير متنازَع عليها بعد طلاقهما منه (كان «سول» يشعر بأنه أعزل في وجه مطالب الآخرين، لذا اختار حياة العزوبة خلال العشرين عامًا الماضية)، كما اعتاد طلابه على انتزاع منافع هائلة منه، إذ كان يتقاضى رسومًا بخسة مقابل خدماته الاستشارية المهنية.

بشكل أو بآخر، أنا أيضًا قمت باستغلال هذه السِمة في «سول» (لكني قلت لنفسي إنني فعلت ذلك لصالحه). سعيًا وراء مَرْضاتي حدَّد سعرًا معقولًا مقابل خدماته ورفض العديد من الطلبات التي لم يرغب في الموافقة عليها. التغيير الذي طرأ على تصرفاته (مع أنه نشأ عن رغبة

عُصابية في اكتساب حبي له والاحتفاظ به) كان سببًا في تكوُّن سلسلة من السلوكيات التكيُّفية وتولَّد عنه العديد من التقلبات الصحية الأخرى، لذا جرَّبت اتباع النهج ذاته في التعامل مع الرسائل، متوقعًا أن «سول» سيفتحها على الفور بناءً على طلبي، لكنْ من الواضح أنني أخطأت في التقدير. بطريقة ما، استجمع «سول» القوة الكافية لكي يتخذ موقفًا حازمًا ضدي. كنت سأحتفل بقوته المكتشَفة حديثًا لو أنها لم تكن ستؤدي إلى تدميره لذاته بيده.

تخلف «سول» عن جلسته التالية. اتصل بسكرتيرتي قبل نحو ثلاثين دقيقة من موعد جلسته الاعتيادي ليخبرني أنه يعاني من تشنُّج في ظهره ولم يتمكن من مغادرة سريره. عاودت الاتصال به على الفور، لكني لم ألْقَ ردًّا إلا من مجيبه الآلي. تركت له رسالة مفادها أن يتصل بي، لكنه لم يتصل حتى بعد مرور عدة ساعات. اتصلت به مرة أخرى وتركت له رسالة لا يستطيع المرضى مقاومتها: «اتصل بي لأن هناك شيئًا مهما أريد أن أقوله لك».

عندما اتصل «سول» في وقت لاحق من ذلك المساء، أقلقني صوته الكئيب والمنعزل. كنت متأكدًا من أنه لم يعانِ من أي تشنج في ظهره (غالبًا ما كان يلجأ إلى الخداع لكي يتجنب المواجهات المزعجة)، وكان يعرف أنني أعرف ذلك، لكن نبرة صوته الحازمة أشارت بوضوح إلى أنه لم يَعُدْ لديَّ الحق في التعليق على هذا الموضوع. ماذا عسايَ أن أفعل؟ كنت خائفًا على «سول»، قلقًا بشأن اتخاذه أي قرار متهور. كنتُ قلقًا بشأن إقدامه على الانتحار. كلا، لن أسمح له بإنهاء العلاج. سأجبره على رؤيتي عن طريق الحيلة. لا أحبذ لعب هذا الدور، لكن لم يكن لديَّ خيار آخر.

«أعتقد أنني أخطأت في تقدير حجم الألم الذي كنت تعاني منه يا «سول»، وضغطتُ عليك كثيرًا كي تفتح الرسائل. أعتقد أنه يمكننا معالجة الأمر بشكل أفضل، لكن كن واثقًا من أن تفويت الجلسات في هذا التوقيت هو أمر سيئ للغاية، لذا أقترح أن أزورك في المنزل إلى أن تستعيد عافيتك وتصبح قادرًا على التنقل».

تردد «سول» طبعًا، وأثار العديد من الاعتراضات -اعتراضات كنت أتوقعها- قائلًا إنه ليس مريضي الوحيد، وإنني مشغول جدًّا، وإنه بدأ يتماثل للشفاء، وإن حالته ليست طارئة، وإنه سيتمكن من القدوم إلى مكتبي قريبًا، لكنني كنت عنيدًا مثله ولم أسمح له أن يقنعني بالعدول عن قراري. أخيرًا وافق على استقبالي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

في طريقي إلى بيت «سول» شعرت بالبهجة، لأن الدور الذي كنت سأمارسه صار في طيِّ النسيان تقريبًا. لقد مرَّ وقت طويل منذ آخر مرة زرت فيها مريضًا في منزله. فكَّرت في أيام دراستي في كلية الطب، وفترة تدريبي التي تمثلت في الزيارة المنزلية جنوبَ بوسطن، ووجوه المرضى الذين رحلوا منذ زمن بعيد، وروائح المساكن الأيرلندية؛ الملفوف، والجمود، ونَتَنِ الجعة خارج البراد، وأغطية الأسرَّة، والأجساد التي شاخ لحمها. لاح في ذهني مريض مُسِنٌّ كنت أزوره بشكل دوري خلال جولاتي، كان مرض السكري قد تسبَّب في بتر كلتا ساقيه. اعتاد هذا المريض على اختبار معلوماتي مستعينًا ببعض الحقائق الجديدة التي كان يقرؤها من صحيفة الصباح: «ما نوع الخضراوات الذي يحتوي على أعلى نسبة من السكر؟ إنه البصل! ألم تكن تعلم ذلك؟ ما الأشياء التي يعلمونكم إياها في كلية الطب في هذه الأيام؟».

كنت أفكر إذا ما كان البصل يحتوي فعلًا على الكثير من السكر عندما وصلت إلى منزل «سول». كان الباب الأمامي مواربًا، وقد أخبرني مسبقًا بأنه كذلك. لم أسأله عمن قام بترك الباب على هذا النحو إذا كان هو طريح الفراش. بما أنه كان من الأفضل ألا يكذب «سول» عليَّ كثيرًا، فإنني لم أوجِه له إلا بعض الأسئلة عن حال ظهره أو عن كيفية عنايته به. كنت أعلم أن لديه ابنة متزوجة تعيش على مقربة من منزله، لذا ألمحت بشكل عابر إلى أنها كانت تلبي احتياجاته على الأرجح.

كانت غرفة نوم «سول» غرفة متقشفة، جدرانها المصنوعة من الجبس بيضاء كليًّا، وأرضيتها الخشبية خالية من أي لمسات زخرفية، ليس فيها صور عائلية، ولا أي أثر للحِسِّ الجمالي (أو لوجود امرأة في المنزل). كان مستلقيًا بلا حراك على ظهره. لم يُبْدِ سوى القليل من الفضول حول خطة العلاج الجديدة التي ذكرتها على الهاتف. في الواقع، كان منكفئًا على ذاته إلى حد كبير؛ الأمر الذي دفعني إلى صبِّ اهتمامي أولًا على علاقتنا معًا.

««سول»، إن شعوري تجاه الرسائل يوم الثلاثاء كان مشابهًا لشعور الجرَّاح تجاه دُمَّل كبير وخطير». بحكم معرفتي به في الماضي، كان «سول» يستجيب للتشبيهات الجراحية، فهي مألوفة لديه لأنه ارتاد كلية الطب (قبل أن يستقر في مجال البحث العلمي)، علاوة على ذلك، كان ابنه جرَّاحًا.

«لذا كنت مقتنعًا بضرورة شقِّ الدُّمَّل وتجفيفه، وكان عليَّ إقناعك بالسماح لي بالقيام بذلك. ربما تعجَّلتُ في التصرف، ربما لم يكن رأس الدُّمَّل قد برز بعدُ. أعتقد أنه بإمكاننا تجربة ما يوازي التعرُّض للحرارة والمضادات الحيوية الشاملة خلال جلسات العلاج. في الوقت الحالي،

دعنا نضع فتح الرسائل خارج نطاق حديثنا. من الواضح أنك ستفتحها عندما تكون مستعدًا». صمت لبرهة، وقاومت الإشارة إلى أن الإطار الزمني كان شهرًا واحدًا كما لو كان قد تعهّد بفعل ذلك رسميًا. لم يكن هذا التوقيت مناسبًا لممارسة الألاعيب؛ فلا شك أن «سول» سيتنبّه إلى أي شكل من أشكال المكر.

بدلًا من أن يجيبني، استلقى «سول» بلا حراك متحاشيًا النظر إليّ.

لذا قمت بتحفيزه: «هل اتفقنا؟».

أومأ «سول» بلا مبالاة.

واصلت الحديث: «فكّرت فيك خلال اليومين الماضيين». كنت أسعى هنا إلى استدعاء إحدى وسائل التواصل العميقة التي بحوزتي! استنادًا إلى تجربتي، دائمًا ما ينجح المعالج في إثارة اهتمام المريض عندما يقول إنه كان يفكِّر فيه خارج جدول جلساته المحدد.

لكن عيون «سول» لم تُوحِ بأي قدر من الاهتمام. اشتد شعوري بالقلق في هذه اللحظة، لكنني قررت مجددًا عدم التعقيب على انطوائيته، وتابعت سعيي لإيجاد طريقة تُمكِّنني من التواصل معه.

«كلانا يتفق على أنك بالغت في ردة فعلك تجاه الدكتور «كيه»؛ لقد أعادت إلى ذهني مشاعرَك العميقة التي لطالما اعترتك حول عدم انتمائك إلى أي مكان، وجعلتني أفكِّر في عمتك التي كانت تُذكِّرك مرارًا وتكرارًا بأنك كنتَ محظوظًا لأنها وافقت على الاعتناء بك بدلًا من وضعك في دار الأيتام».

- «هل سبق أن أخبرتك بأنها لم تتبنَّني قط؟» فجأةً تفاعَل معي «سول» مرة أخرى، أو بالأحرى، صار كلٌّ منا يتحدث على حِدَة، وليس وجهًا لوجه.

«عندما كانت تُصاب إحدى ابنتيها بوعكة صحية كان طبيب الأسرة يأتي إلى المنزل، لكن في حال مرضي أنا كانت تذهب بي إلى مستشفى المقاطعة وتصرخ: «هذا اليتيم بحاجة إلى عناية طبية»».

لا أعلم إذا ما لاحظ «سول» أنه، وأخيرًا، قد زاره طبيب في المنزل وهو في سن الثالثة والستين.

«إذن لطالما شعرتَ بأنه لم يرغب فيك أحد -بأنك كنت غريبًا أينما حللت. أتذكَّر ما أخبرتني به عن سريرك النقَّال في منزل عمتك، الذي كنت تفتحه كل ليلة في غرفة المعيشة».

- «كنتُ آخر مَن ينام وأول مَن يستيقظ. لم يكن بمقدوري فتح سريري حتى مغادرة الجميع غرفة المعيشة ليلًا، وفي الصباح كان عليَّ النهوض لكي أقوم بطيِّه قبل أن يستيقظ أحد».

اتضحت لي معالم غرفة نومه أكثر فأكثر، كانت مقفرةً مثل غرفة فندق من الدرجة الثانية في أحد بلدان العالم الثالث، وتذكَّرتُ وصفًا قرأته لغرفة «فيتغنشتاين» (Wittgenstein) العارية البيضاء في «كامبريدج». بدَا الأمر كما لو أن «سول» كان لا يزال لا يملك غرفة نوم، أو غرفة خاصة به، لا يشاركها مع أحد.

«أتساءل إذا ما كان الدكتور «كيه» ومعهد «ستوكهولم» بمثابة الملاذ الحقيقي بالنسبة إليك. أخيرًا وجدتَ المكان الذي تنتمي إليه؛ المنزل، وربما الأب الذي بحثت عنه طوال حياتك».

- «قد تكون على حق يا دكتور». بغض النظر عن إذا ما كنتُ مصيبًا أم لا، وعن إذا ما كان «سول» قد وافقني الرأي من باب الاحترام فحسب؛ فالشيء المهم هو أننا كنا نتبادل أطراف الحديث. شعرت بالهدوء لأننا عثرنا على أرضية مشتركة.

تابع سول: «رأيت منذ أسبوعين كتابًا في المكتبة عن «متلازمة المحتال» (imposter complex). أعتقد أنها تنطبق عليَّ إلى حد كبير. لطالما نسبت إلى نفسي أشياء لا أمثِلها وشعرتُ بأنني محتال. لطالما خشيت الكشف عن نفسي».

كانت هذه أشياء اعتيادية، معطيات استعرضناها أكثر من مرة سابقًا، لكنني لم أبذل أي جهد في التشكيك في توبيخه لذاته، لأنه أمر غير مُجدٍ. لقد فعلت ذلك كثيرًا في الماضي، وكان جوابه «على رأس لسانه» لكل سؤال طرحته. («لقد حظيتَ بمسيرة أكاديمية ناجحة للغاية». «في جامعة من الدرجة الثانية في قسم من الدرجة الثالثة». «ماذا عن منشوراتك التي بلغ عددها مئتين وثلاثة وستين؟» «بدأتُ في النشر قبل اثنين وأربعين عامًا، أي ستة منشورات فقط في السنة، ولا تنسَ أن معظمها لا يزيد على ثلاث صفحات، كما أنني غالبًا ما كتبت المقال نفسه بخمس طرق مختلفة. ناهيك بأن هذا الرقم يتضمن الملخصات، ومراجعات الكتب، والفصول المنفردة. تكاد منشوراتي تخلو من أي شيء أصيل»).

بدلًا من مجادلته، قلت له (بنبرة واثقة لأنني كنت أتحدث عنه وعن نفسي كذلك): «هذا ما كنتَ تقصده عندما قلت إن هذه الرسائل طاردتك طوال حياتك! بغض النظر عن حجم إنجازاتك، وعن أنك قدمت ما يكفي لثلاثة رجال، فأنت دائمًا تخشى من حكم الآخرين عليك ومن الكشف عن ذاتك. كيف سأنزع هذه السموم منك؟ كيف لي أن أساعدك على فهم أنك تشعر بالذنب من دون أن ترتكب أي جريمة؟».

- «جريمتي هي تشويه الحقائق؛ فأنا لم أنجز أي شيء قيِّم في هذا المجال. أعرف هذا، وبات الدكتور «كيه» يعرف ذلك الآن، ولو كنتَ مُلِمًّا بعلم الأعصاب لعرفت هذه الحقيقة أيضًا. لا أحد في الدنيا يستطيع الحكم بدقة على مسيرتي المهنية أكثر مني».

قلت في نفسي على الفور: «إن جريمتك الوحيدة هي استخدام الصيغة الخطأ من ضمير المتكلم».

ثم تنبَّهتُ إلى أن انتقادي لـ «سول» كان يزداد حِدَّةً كلما أصبح حادَّ الطبع. لحسن الحظ، كنت أحتفظ بهذه الآراء كلها لنفسي، وكان يجب أن أحتفظ بتعليقي الآتي لنفسي أيضًا.

«إذا كنتَ سيئًا كما تقول، وإذا كنتَ مُصِرًّا على أنك تفتقر إلى كل الفضائل وجميع القدرات العقلية التي تُخَوِّلك التمييز بين حقائق الأمور، فلماذا تعتقد أن آراءك، خاصةً آراءك حول نفسك، خالية من العيوب ولا تشوبها شائبة؟».

لم أَلقَ أي ردٍّ منه. في السابق، كانت عينا «سول» تبتسمان وتنظران إلى عينَيَّ، لكن من الواضح أن مزاجه اليوم لم يسمح له بتقبُّل التلاعب بالألفاظ.

أنهيت الجلسة بعد أن عقدنا اتفاقًا فيما بيننا. وافقت على أن أساعده بأي طريقة ممكنة، وأن أحرص على العناية بأمره خلال هذه الأزمة، وأن أزوره في المنزل كلما دعت الحاجة إلى ذلك. في المقابل طلبت منه أن يوافق على عدم اتخاذ أي قرارات نهائية. انتزعت منه وعدًا صريحًا بعدم إيذاء نفسه، وعدم مراسلة الدكتور «كيه» (قبل أن يستشيرني في الأمر)، وعدم سداد الأموال لمعهد «ستوكهولم».

إن عَقْد عدم الإقدام على الانتحار -سواء أكان عقدًا مكتوبًا أم عقدًا شفهيًّا- ينص على أن يقوم المريض بالاتصال بالمعالج عندما يشعر برغبة خطيرة في القضاء على حياته، ويتوعد المعالج فيه بإنهاء العلاج إذا انتهك المريض العقد بمحاولة الانتحار. لطالما وجدت العقد هذا مثيرًا للسخرية («إذا قتلت نفسك، فلن أعالجك مرة أخرى مهما حدث»)،

لكنه فعَّال بشكل ملحوظ، وقد شعرت بالاطمئنان الشديد بعد أن عقدت اتفاقًا مماثلًا مع «سول». وكان للزيارات المنزلية فوائد أيضًا، صحيحٌ أنها لا تناسبني، غير أنها جعلت «سول» مدينًا لي وزادت من قوة العقد.

مضت الجلسة التالية، بعد يومين، على المنوال نفسه. كان «سول» متحمسًا جدًّا لإرسال هدية الخمسين ألف دولار، لكنني واصلت معارضتي لتلك الخطة، واستكشفت خلفية ميوله إلى التخلص من المشكلات باللجوء إلى المال.

القصة التي رواها لي حول تعامله مع المال أول مرة كانت قصة تقشعر لها الأبدان. من سنِّ العاشرة إلى السابعة عشرة عمل بائعًا للصحف في مدينة «بروكلين»، حيث سهَّل له عمه -ذلك الرجل الخشن الفظُّ الذي نادرًا ما ذكره «سول»- بيع الصحف بالقرب من مدخل مترو الأنفاق، وكان يصطحبه إلى ذلك المكان كل صباح في الخامسة والنصف، ويعود ليُقِلَّه إلى المدرسة بعد ثلاث ساعات. لم يكترث لحقيقة أن «سول» تعرَّض للتوبيخ كل يوم في المدرسة لأنه كان دائمًا يصل متأخرًا بمقدار ربع ساعة تقريبًا.

على امتداد سبع سنوات، أعطى «سول» كل قرش كان يَجْنِيه إلى عمته، إلا أنه لم يشعر يومًا بأنه ساهم بما يكفي مادِّيًا، ويبدأ يرفع سقف توقعاته بشكل غير منطقي بخصوص كمية المال الذي كان عليه كسبه كل يوم. في كل مرة فشل في تحقيق هذه التوقعات كان يحرم نفسه تناول العشاء، إما جزئيًا وإما كليًا. تحقيقًا لهذه الغاية، تعلَّم أن يمضغ ببطء، وأن يحتفظ بالطعام داخل فمه. أحيانًا كان يعيد ترتيب طعامه على الطبق بحيث تبدو كميته أقل مما كانت عليه. وإذا أجبرَته نظرات عمته أو عمه على بلع الطعام (طبعًا لم يكن يعتقد أنهما اهتما بأمر تغذيته)، فقد تعلَّم

أن يتقيأ بصمت في الحمّام بعد انتهاء الوجبة. كان قد حاول شراء مكانة في العائلة، وهو الآن يحاول شراء كرسي مضمون على طاولة الدكتور «كيه» ومعهد «ستوكهولم».

- «لا يحتاج أولادي إلى هذه الأموال. يكسب ابني ألفي دولار مقابل جراحة مجازة الشريان التاجي، وغالبًا ما يقوم بعمليتين من هذا النوع في اليوم الواحد. ويجني زوج ابنتي مبلغًا شهريًا فيه 6 أرقام، لذا أفضّل إعطاء المال الآن لمعهد «ستوكهولم» قبل أن تنتزعه مني إحدى زوجتيَّ السابقتين في وقت لاحق. عقدت العزم على تقديم هدية الخمسين ألف دولار لهم. لِمَ لا؟ يمكنني تدبُّر الأمر. يوفِّر لي الضمان الاجتماعي ومعاشي الجامعي أكثر بكثير مما أحتاج إليه من المال. سأجعل المرسِل مجهول الهوية، وسأحتفظ بإيصال الحِوالة البريدية. إذا حدث السيناريو الأسوأ، أستطيع إظهار الدليل على أنني أنا الذي أعدتُ الأموال. ولا فرق عندي إذا لم يكن أيٌّ من هذه التدابير ضروريًا؛ فأنا أرسل المال لسبب وجيه جدًّا».

- «القرار بعينه ليس مهمًّا. المهم هو كيف ومتى ستتخذه. هناك فرق بين الرغبة في القيام بشيء ما والاضطرار إلى القيام به (بغية تجنُّب بعض المخاطر). أعتقد أنك تفكِّر ضمن إطار «الاضطرار» في هذه اللحظة، فإذا كنت تعتقد أن إعطاءهم خمسين ألف دولار فكرة جيدة، فسيظل رأيك على حاله بعد شهر من الآن. ثق بي يا «سول»، من الأفضل ألا تتخذ أي قرار لا رجعة فيه عندما تكون متوترًا للغاية ولا تفكر (كما قلتَ بنفسك) بعقلانية تامة. كل ما أطلبه منك هو الوقت يا «سول». قم بتأجيل إرسال الهدية في الوقت الحالي، إلى أن تَعبُر هذه الأزمة، وبعد أن تفتح الرسائل».

مرة أخرى أومأ موافقًا. ومرة أخرى، أيضًا، بدأتُ أظن أنه قد أرسل الخمسين ألف دولار بالفعل لكنه لم يكن مستعدًا لإخباري بذلك. هذا هو «سول» بطبيعة الحال. كان يواجه في الماضي صعوبة كبيرة في مشاركة المعلومات التي قد تكون محرجة، لدرجة أنني خصَّصتُ في الدقائق الخمس عشرة الأخيرة من كل جلسة وقتًا محددًا لـ «الأسرار»، حيث كنت أطلب منه صراحة أن يتجرأ على مشاركة الأسرار التي تكتَّم عليها خلال الجزء السابق من الجلسة.

استمررنا على هذا المنوال لعدة جلسات. أَصِلُ إلى منزله في الصباح الباكر، وأدخل من الباب الموارَب بشكل غامض، وأمارِس العلاج بجانب السرير الذي استلقى عليه «سول» مدَّعيًا المرض، وكلانا عرف حقيقة هذا الأمر، لكن بدَا أننا كنا نُبلِي بلاءً حسنًا. على الرغم من أنني كنت أقل انخراطًا معه مما كنت عليه في الماضي، مارست مهمة المعالج التقليدية، فسلَّطت الضوء على الأنماط والدلالات، وساعدت «سول» على فهم سبب اعتقاده بأن الرسائل كانت مصيرية للغاية، وفسَّرتُ له أنها لا تمثِّل محنة مهنية حالية فحسب، بل ترمز إلى بحثه الذي استمر طيلة حياته عن رضا الآخرين واستحسانهم إياه. كان بحثه مسعورًا جدًّا، وحاجته مُلِحَّة للغاية، لدرجة أنه ألحق الهزيمة بنفسه. في هذه الحالة، على سبيل المثال، لو لم يكن مستميتًا للحصول على رضا الدكتور «كيه» لكان قد تجنب المشكلة برمتها من خلال القيام بما يجب أن يقوم به أي باحث مشارِك؛ أي أن يُبقِي الباحث الآخر على اطِّلاع بجميع التطورات في عملهما المشترك.

لقد تتبعنا التطورات الأولية لهذه الأنماط. بعض المشاهد (كالطفل الذي كان دائمًا «آخر مَن ينام وأول مَن يستيقظ»، والمراهق الذي رفض ابتلاع طعامه عندما لم يتمكن من بيع ما يكفي من الصحف،

والعمة التي صرخت: «هذا اليتيم بحاجة إلى عناية طبية!») كانت صورًا مركزة، أو «إبستيمات» (episthèmes)[1]، حسب تعبير «فوكو» (Foucault)، تمثِل بوضوح كبير أنماط حياة كاملة.

لكن «سول»، الذي فشل في الاستجابة للعلاج الذي اتبع النهج التقليدي كما يجب، غرق في اليأس أكثر فأكثر مع كل جلسة. أصبحَت مشاعره أكثر برودة، وازداد وجهه جمودًا، ولم يَعُدْ يشارك الكثير من المعلومات طوعًا كما كان يفعل في السابق، وفَقَدَ كل روح الدعابة والقدرة على موازنة الأمور. كما اتخذ تحقيره لذاته أبعادًا هائلة. على سبيل المثال، ذكَّرتُه في إحدى الجلسات بكمية التدريس المجاني الذي قدَّمه لمجموعة الزملاء في معهد «ستوكهولم» وأعضاء هيئة التدريس المبتدئين هناك، فقال إنه كان قد أعاد علم الأعصاب بالزمن عشرين عامًا إلى الوراء نتيجة لما فعله بهؤلاء الطلاب الشبان اللامعين! كنت أتأمَّل أظفاري خلال حديثه، وابتسمتُ وأنا أرفع بصري إليه متوقعًا أن أرى تعبيرًا ساخرًا ومرحًا على وجهه، لكني دُهِشتُ عندما تأكدت أنه لم يكن يمازحني، كان «سول» جادًّا للغاية.

في كثير من الأحيان كان يستفيض بلا هوادة في الحديث عن الأفكار البحثية التي سرقها، والحيوات التي تسبَّب في خرابها، والزيجات التي دمَّرها، والطلاب الذين جعلهم يرسبون (أو ينجحون) بشكل اعتباطي. كان نطاق وتمدُّد الشر الذي تحدث عنه، بالطبع، دليلًا على شعوره بعَظَمة تُنذر بالشؤم، وكانت بدورها تغطي على شعور عميق باحتقار الذات والدونية.

(1) مفردها «إبستيمة»، وهي وفقًا لـ «فوكو»، البنية المعرفية أو النظام المعرفي الذي تتميز به كل حقبة معينة عبر التاريخ. (المترجم).

تذكَّرتُ خلال هذه المحادثة أحد أوائل المرضى الذين عالجتهم عندما كنت طبيبًا مقيمًا. مُزارِع أحمر الوجه، ذو شعر بلون الرمل، مصابٌ بالذهان، كان يُصِرُّ على أنه قد أشعل فتيل الحرب العالمية الثالثة. لم أفكِر في هذا المُزارِع -لقد نسيت اسمه- منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لذا فإن سلوك «سول» الذي جعله يتراءى إلى ذهني كان في حدِّ ذاته علامة تشخيصية تنذر بالخطر.

كان «سول» يعاني من فقدان الشهية الشديد. فَقَدَ وزنه بسرعة، ووجد صعوبة هائلة في النوم، واجتاحت الأوهام المدمرة للذات عقله باستمرار. كان في طور تخطِّي تلك الحدود الحرِجة التي تفصل الشخص المضطرب والمعذَّب والقَلِق عن الشخص الذهاني. تكاثرت العلامات المشئومة بسرعة كبيرة في علاقتنا التي بدأت تفقد سِماتها الإنسانية. لم نَعُدْ أنا و«سول» أصدقاء أو حلفاء، وتوقَّف كلٌّ منا عن الابتسام في وجه الآخر، واختفى التواصل النفسي والجسدي بيننا على حد سواء.

صرتُ أنظر إليه على أنه شيء بدلًا من أنه إنسان. لم يَعُدْ «سول» شخصًا مكتئبًا، بل أصبح «اكتئابًا». وعلى وجه التحديد، وفقًا لـ «الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية» (Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders)، كان اكتئابًا «رئيسيًّا» (major depression) شديدًا ومتكررًا ومِلنخوليا (melancholic)، ترافقه اللامبالاة والتخلف النفسي الحركي (psychomotor retardation) وفقدان الطاقة والشهية واضطراب النوم ووهم الإشارة (reference)[1] والتفكير الهُذائي (paranoid)

(1) وهم الإشارة هو توهُّم الفرد بأن الأحداث العادية في العالم الخارجي ترتبط به وتؤثر عليه مباشرة. (المترجم).

والانتحاري. سألت نفسي عن الدواء الذي يجب أن أعطيه له، وعن طبيعة المشفى الذي يجب أن أضعه فيه.

لم أحبذ يومًا علاج أولئك الذين يَعبُرون هذه الحدود وصولًا إلى الذهان. لا شك في أنني أثمِن وجود المعالج ومشاركته في عملية العلاج، لكنني بدأت ألاحظ أن كتمان الحقائق قد استشرى في العلاقة بيني وبين «سول»، وكنت أنا مذنبًا في هذا أكثر منه. فقد تواطأت معه في تصديق كذبته حول الإصابة التي تعرَّض لها ظهره. إذا كان، كما يقول، طريح الفراش، فمن الذي كان يساعده؟ من كان يطعمه؟ لكنني لم أطرح هذه الأسئلة لأنني كنت أعلم أنها ستدفعه بعيدًا عني. بدَا لي أنه كان من الأفضل أن أتصرف من دون استشارته، وأن أُبلغ أولاده عن وضعه الراهن. تساءلت في نفسي عن طبيعة الموقف الذي يجب أن أتخذه حول الخمسين ألف دولار. إذا كان «سول» قد أرسل المال بالفعل إلى معهد «ستوكهولم»، فألَا يجب عليَّ أن أنصحهم بإعادة تلك الهدية؟ أو، على الأقل، أن يؤخروا تحصيلها بشكل مؤقت؟ هل كان ذلك من حقي أو مسئوليتي؟ هل كنتُ سأسيء السلوك مهنيًا إذا لم أقم بذلك؟

ما زلت أفكِر كثيرًا في الرسائل (على الرغم من أن حالة «سول» قد أصبحت حرجة جدًا، مما جعلني أفقد الكثير من الثقة بتشبيه «تجفيف الدُمَّل» جراحيًا الذي استخدمته سابقًا). بينما كنت أسير في منزل «سول» في طريقي إلى غرفة نومه، نظرت حولي باحثًا عن طاولة المكتب التي احتوى أحد أدراجها على الرسائل. هل يجب أن أخلع حذائي وأمشي على رءوس أصابعي –جميع الأطباء النفسيين يحبون لعب دور المحقِق قليلًا– حتى أجدها وأفتحها عنوة لكي أُعيد «سول» إلى صوابه مستعينًا بمحتوياتها؟

عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، كنت قد أُصبتُ بتكيُّس عقدي كبير على معصمي. حينها أمسَك طبيب الأسرة اللطيف يدي بلطف وهو يفحصها، ثم قام فجأة بضرب معصمي بكتاب ثقيل، كان يحمله خلسة في يده الأخرى، ليفجِّر التكيُّس. في لحظة واحدة مؤلمة انتهى العلاج وتجنَّب الطبيب إجراء عمل جراحي مكثَّف. هل هناك مكان في الطب النفسي لمثل هذا الاستبداد الحسَنِ النية؟ صحيح أن النتيجة كانت ممتازة، وأن الطبيب قد نجح في علاج التكيُّس، لكني رفضت بعد ذلك مصافحة أي طبيب مرة أخرى لعدة سنوات!

كان قد علَّمني معلِّمي القديم، «جون وايتهورن» (John Whitehorn)[1]، أن تشخيص المعالج «للذهان» منوط بطبيعة العلاقة العلاجية. في رأيه، يجب أن يُشخَّص المرض على أنه «ذهاني» إذا لم يَعُدْ لدى المعالج أي شعور بأنه هو والمريض حليفان يعملان معًا لتحسين الصحة العقلية لهذا الأخير. وفقًا لهذا المعيار، كان «سول» مصابًا بالذهان. لم تَعُدْ مهمتي تتمثَّل في مساعدته على فتح تلك الرسائل الثلاث المختومة، ولا في نصحه بأن يكون أكثر حزمًا أو بأن يُروِّح عن نفسه بالتنزه وقت الظهيرة، أصبحت مهمتي هي إبعاده عن المستشفى ومنعه من تدمير نفسه.

هذه هي المعضلة التي واجهتها عندما حدث شيء لم أكن أتوقعه. في إحدى الليالي التي سبقت زيارة من زياراتي لـ «سول»، تلقيت رسالة منه مفادها أن ظهره قد تماثل للشفاء، وأنه أصبح الآن قادرًا على المشي، وأنه سيقابلني في مكتبي وفقًا لموعدنا. بعد أن رأيته لبضع ثوانٍ، وقبل أن يقول

(1) كان «وايتهورن» (1894 - 1974) أستاذًا بارزًا في الطب النفسي في جامعة «واشنطن». (المترجم).

كلمة واحدة، أدركت أن تغيُّرًا كبيرًا طرأ عليه. «سول» الذي عهدته كان قد عاد إليَّ، ورحل ذلك الرجل الغارق في اليأس، المجرد من إنسانيته وضحكته ووعيه الذاتي. في الأسابيع الماضية كان محاطًا من كل جانب بالذهان؛ الذهان الذي طرقتْ على نوافذه وجدرانه بقلق عارم. الآن، على نحو غير متوقَّع، تحرَّر «سول» منه وانضم إليَّ كأن شيئًا لم يكن.

قلت لنفسي إن شيئًا واحدًا فقط قد يكون مسئولًا عن هذا التغيير؛ الرسائل!

لم يُبقِني «سول» في حالة من التشويق كثيرًا. لقد تلقَّى في اليوم السابق مكالمة هاتفية من زميل له يطلب منه مراجعة طلبٍ لمنحةٍ ما. خلال حديثهما سأله صديقه، بشكل عابر، إذا ما كان قد سمع عما جرى للدكتور «كيه». متخوفًا، أجابه «سول» بأنه كان طريح الفراش وأنه توقف عن التواصل مع الجميع خلال الأسابيع القليلة الماضية، فقال زميله إن الدكتور «كيه» تُوُفِّي فجأة بسبب الانصمام الرئوي، ثم شرع في وصف الظروف المحيطة بالوفاة. لم يتمكن «سول» من منع نفسه من مقاطعة زميله، وأخذ يصيح: «لا يهمني من كان معه، وكيف مات، وأين دُفِن، ومَن تحدَّث في مراسم العزاء! لا يهمني أيٌّ من هذه الأشياء! فقط أخبِرني متى مات!» حصل «سول» في نهاية المطاف على تاريخ الوفاة بالضبط، ومن خلال بعض العمليات الحسابية السريعة تأكد أن الدكتور «كيه» مات قبل أن تصل إليه المجلة، وبالتالي لم يكن بإمكانه قراءة المقال الذي نشره «سول»؛ أي إنه لم يكتشف أمره! فجأة لم يَعُدْ خائفًا من الرسائل، فجلبها من طاولة المكتب وفتحها.

كانت الرسالة الأولى من زميل في مرحلة ما بعد الدكتوراه في معهد «ستوكهولم»، يطلب من «سول» كتابة رسالة يدعم فيها طلبه للحصول على وظيفة مدرِّس مبتدئ في هيئة تدريس إحدى الجامعات الأمريكية.

الرسالة الثانية كانت عبارة عن إعلان عن وفاة الدكتور «كيه» وموعد مراسم التأبين، وقد تم إرساله بالبريد إلى جميع الزملاء السابقين والحاليين وأعضاء هيئة التدريس في معهد «ستوكهولم» للأبحاث.

أما الرسالة الثالثة فتضمَّنت ملاحظة قصيرة من أرملة الدكتور «كيه»، التي راسلت «سول» مفترضة أنه قد أصبح على دراية بوفاة الدكتور «كيه». لطالما أشاد الدكتور «كيه» بـ «سول»، وكانت تعلم أنه لو كان على قيد الحياة لَأراد منها أن ترسل إلى «سول» هذه الرسالة غير المكتملة التي وجدَتْها على طاولة مكتبه. أعطاني «سول» الملاحظة المختصرة من الدكتور «كيه» الراحل، مكتوبةً بخط اليد:

عزيزي البروفيسور سي

أُخطِط للقيام برحلة إلى الولايات المتحدة، وهي الأولى لي منذ اثني عشر عامًا. أرغب في تضمين «كاليفورنيا» في خط سير رحلتي، شريطة أن تكون مقيمًا هناك وأن تكون على استعداد لرؤيتي. لقد افتقدتُ محادثاتنا كثيرًا. كما هو الحال دائمًا، أشعر بالعزلة هنا. من النادر أن يشكِّل الزملاء في معهد «ستوكهولم» الصداقات فيما بينهم. كلانا يعلم أنه كان بمقدورنا أن نقدِّم ما هو أفضل بكثير من مشروعنا المشترك، لكن بالنسبة إليَّ، المهم هو أنه أتاح فرصة التعرف عليك شخصيًا بعد اطِّلاعي على مسيرتك الأكاديمية واحترامها لمدة ثلاثين عامًا.

لديَّ طلب أخير ...

هنا انتهت الرسالة. ربما بالغتُ في تحليلها، لكنني تخيَّلت أن الدكتور «كيه» كان يريد شيئًا ما من «سول» لا يقل أهمية بالنسبة إليه عن التأييد الذي حاول «سول» الحصول عليه من الدكتور «كيه»، لكن بغض النظر عن هذا التخمين، الأمر المؤكد هو أن جميع وساوس «سول» حول نهاية عالمه كانت قد دُحِضَت، نظرًا لأن نبرة الرسالة كانت رحبة الصدر دون أدنى شك، بل كانت عطوفًا ومحترمة.

تنبَّه «سول» جيدًا إلى هذا الأمر، وكان قد تحسنت صحته على أثر الرسالة فوريًا وعميقًا. تلاشى اكتئابه بكل نُذُره «البيولوجية» المشئومة في غضون دقائق، وبدأ الآن يرى أن تفكيره وسلوكه في الأسابيع القليلة الماضية كان منفصلًا عنه وغريبًا عليه. علاوة على ذلك، سرعان ما أعاد «سول» توطيد علاقتنا القديمة؛ شعر بالمودة تجاهي مرة أخرى، وشكرني على بقائي بجانبه، وأعرب عن أسفه لأنه كان حِمْلًا ثقيلًا عليَّ في الأسابيع المنصرمة.

استعاد «سول» صحته، وكان مستعدًّا لإنهاء العلاج على الفور، لكنه وافق على المجيء مرتين أخريين؛ في الأسبوع التالي وبعد شهر واحد. خلال هاتين الجلستين حاولنا فَهْم ما حدث، وقمنا بوضع خطة استجابة إستراتيجية للضغوط التي يمكن أن يتعرَّض لها في المستقبل. استكشفتُ جميع الجوانب المضطربة في سلوكياته؛ ميوله إلى التدمير الذاتي، وإحساسه الهائل بأنه شخص سيئ، والأرق وفقدان الشهية. تماثل «سول» للشفاء بشكل ملحوظ للغاية. اتضح لنا بعد ذلك أننا أنجزنا كل ما يمكن إنجازه، وافترقنا.

خطر لي في وقت لاحق أنه إذا كان «سول» قد أساء الحكم بشدة على مشاعر الدكتور «كيه» تجاهه، فمن المحتمل أنه أساء تفسير مشاعري أنا أيضًا. هل أدرك يومًا مدى اهتمامي به؟ وكم كنت أرغب أن يترك

عمله جانبًا، من وقت لآخر، ويستمتع بوقت فراغه في نزهة بعد الظهر في شارع «بونيون»؟ ألم يدرك قط كم كنت أود أن أتنزه معه وأن نتناول «الكابتشينو» معًا؟

لكن، للأسف، لم أقل أيًا من هذه الأشياء لـ «سول». لم نلتقِ مرة أخرى، وبعد ثلاث سنوات علمت أنه قد فارق الحياة. بعد ذلك بوقت قصير، في حفلة ما، التقيت شابًا كان قد عاد منذ فترة قصيرة من معهد «ستوكهولم»، وخلال محادثة طويلة حول زمالته التي امتدت عامًا هناك، ذكَرتُ له أنه كان لديَّ ذات مرة صديق اسمه «سول»، وكان أيضًا قد حظي بتجربة مثمرة في ذلك المعهد. كان يعرف «سول»، نعم. في الواقع، كان الفضل في حصوله على المنحة يرجع جزئيًا إلى «العلاقات الوطيدة التي أنشأها «سول» بين الجامعة ومعهد «ستوكهولم»». هل كان ما سمعتُه هو أن «سول» منح معهد «ستوكهولم» -من خلال وصيته- تَرِكة قدرها خمسون ألف دولار؟

9

الإخلاص العلاجي

«أنا تافهة، حثالة، أنا شخص بغيض. قيمتي كقيمة الصفر. أتجوَّل متخفية في مكبَّات القمامة خارج المجتمعات البشرية. يا ربَّاه، ما أجمل الموت! كم أتمنى أن أموت! أن أُسحَق كليًّا في موقف سيارات متجر «سيف وي» (Safeway)، ثم أُجرَف بعيدًا بمياه خرطوم الحرائق من دون أن يتبقى أي شيء يتعلق بي، ولا أي ذرة، ولا حتى بضع كلمات مرسومة بالطباشير على الرصيف تقول: «في يوم من الأيام، مرَّت من هنا فقاعة كانت تسمى «مارج وايت» (Marge White)»».

كانت هذه واحدة من مكالمات «مارج» الهاتفية في وقت متأخر من الليل. يا إلهي! كم كنت أمقت تلك المكالمات! الأمر الذي أزعجني في مكالمتها لم يكن انتهاكها حرمة حياتي؛ فقد دربت نفسي على تقبُّل هذا الأمر، إنه جزء من طبيعة مهنتي. وقبل عام من الآن عندما قَبِلتُ أن تكون «مارج» مريضة عندي، عرفت أنها ستتصل بي كثيرًا. بمجرد أن رأيتها شعرت بما كانت تخبئه لي. بإمكان أي معالج ذي خبرة بسيطة أن يرى دلائل الاضطراب العميق التي ظهرت عليها. كان رأسها وكتفاها المترهلتان تشير إلى أنها مصابة بالاكتئاب، أما بؤبؤا عينيها العملاقان ويداها وقدماها المضطربة فانبعث القلق منها بشكل واضح. وكل شيء آخر يحيط بها -محاولات الانتحار المتعددة، واضطراب الأكل، وتعرُّضها للاعتداء الجنسي من قِبَل والدها حين كانت في سنٍّ مبكرة، والتفكير

الذهاني العرَضي، وثلاثة وعشرون عامًا من العلاج- كان يصرخ قائلًا: «شخصية حَدِّية» هذه هي العبارة التي تثير الرعب في قلب الطبيب النفسي الذي يبحث عن راحة البال في منتصف العمر.

أخبرتني أنها في الخامسة والثلاثين من عمرها، تعمل فَنِّيَّةً في أحد المختبرات، وأنها خضعت للعلاج لمدة عشر سنوات على يد طبيب انتقل مؤخرًا إلى مدينة أخرى. كانت تعاني من الوحدة القاتلة، وأكدت لي أنها عاجلًا أم آجلًا ستقتل نفسها، كان الأمر مجرد مسألة وقت بالنسبة إليها.

كانت تدخِّن بشراهة خلال الجلسات، وغالبًا ما كانت تمج مرتين أو ثلاث مرات من كل سيجارة قبل أن تطفئها بغضب وتشعل واحدة أخرى بعد بضع دقائق. لم تستطع البقاء في مكانها خلال الجلسة، ووقفت ثلاث مرات وسارت جيئةً وذهابًا، كما جلست قليلًا على الأرض في الزاوية المقابِلة لمكتبي وتكوَّرت على جسدها مثل شخصية كرتونية من شخصيات «فايفر» (Feiffer)[1].

دفعتني غريزتي في البداية إلى أن أفرَّ بعيدًا عنها وألَّا أراها مرة أخرى. فكَّرت في ابتداع عذر ما، أي عذر؛ إن جدول مواعيدي مزدحم للغاية، أو إنني سأغادر البلاد لبضع سنوات، أو إنني شرعت في العمل باحثًا بدوام كامل.

ربما فُتِنْتُ بجمالها، بشعرها الأبنوسي وغُرَّتها التي أطَّرت وجهها الأبيض المذهل ذا الملامح المثالية، أو ربما كان إحساسي بالالتزام تجاه مهنتي مدرسًا هو السبب؛ ففي الآونة الأخيرة كنت أتساءل كيف لي أن أُعلِّم طلابي كيفية أداء العلاج النفسي وأنا أرفض في الوقت ذاته -دون

(1) «جولز رالف فايفر» (Jules Ralph Feiffer) (1929)، مؤلف ورسام كاريكاتير أمريكي شهير. (المترجم).

أن يؤنبني ضميري- علاج المرضى الصِعاب المراس. أعتقد أنني قبلت علاج «مارج» لأسباب عديدة، لكن السبب الأبرز هو العار؛ عار اختيار الطريق الأسهل، عار تجنُّب المرضى الذين كانوا في أمسّ الحاجة إليَّ. لذلك كنت أتوقع تلقي مكالمات منها وهي تشعر باليأس، كنت أتوقَّع التعامل مع الأزمة تلو الأزمة، كما توقعتُ أنني سأضطر ربما إلى إدخالها المستشفى في مرحلة ما. أحمد الله أنني تجنَّبت ذلك الأمر. الاجتماعات مع طاقم الجناح في ساعة الصباح الأولى، وكتابة التوجيهات، والاعتراف العلني بفشلي، وجرجرة نفسي إلى المستشفى كل يوم، كل ذلك كان سيستهلك أجزاء كبيرة من وقتي.

كلا، الأمر الذي كرهته لم يكن تطفُّلها عليَّ أو حتى الإزعاج الذي تسبَّبت فيه مكالماتها، بل كان أسلوب محادثاتنا هو الذي كرهته. على سبيل المثال، كل كلمة نطقتها «مارج» نطقتها بتلعثم، وكلما شعرَت بالاضطراب تلعثمت وتشوَّه وجهها. كان بمقدوري تصوُّر أحد جوانب وجهها الجميل مشوَّهًا بشكل فظيع بسبب التقطيب والتشنجات. حين كانت تنعم بالهدوء والاستقرار، كنا نتحدث عن تشنجات وجهها، وتوصَّلنا إلى أنها كانت محاولة لجعل نفسها قبيحة؛ آلية دفاع واضحة ضد الجنس. كانت تحدث هذه التشنجات كلما واجهت «مارج» تهديدًا جنسيًّا من الخارج أو الداخل، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل. مجرد نطق كلمة الجنس كان كفيلًا باستدعاء التشنجات.

لطالما أزعجني تلعثمها أيضًا. أعلم أنها كانت تتألم، لكن كان عليَّ دائمًا أن أمنع نفسي من أن أقول لها: «هيا يا «مارج»! ادخلي في صلب الموضوع! ما الكلمة التالية؟».

لكن أسوأ ما في هذه المكالمات كان عدم كفاءتي؛ فقد وضعتني على المحكِ، وكنتُ دائمًا أشعر بالعجز. لا بد أنني تلقيت عشرين مكالمة من هذا القبيل في العام الماضي، ولم أتمكَّن في أيٍّ منها من إيجاد طريقة لمدِّ يد العون إليها كما يجب.

المشكلة أنها رأت في تلك الليلة مقالًا عن زوجتي في «ستانفورد ديلي» (Stanford Daily). بعد عشر سنوات، قرَّرت زوجتي ترك منصبها رئيسةً إدارية لمركز «ستانفورد» للأبحاث عن المرأة (Stanford Center for Research on Women)، وكانت صحيفة الجامعة قد أفرطت في الإشادة بها، ومما زاد الطين بلة أن «مارج» حضرت في ذلك المساء محاضرة عامة ألقتها فيلسوفة شابة فصيحة وجذابة للغاية.

لم أقابل في حياتي كثيرًا من الناس الذين يكرهون أنفسهم مثلما تكره «مارج» نفسها. لازمتها هذه المشاعر على الدوام. في أفضل الأحوال كانت تتراجع إلى الوراء في انتظار إشارة مناسبة لكي تظهر مجددًا، وكان النجاح المشهود له علنًا لامرأة أخرى في سنِّها هو الإشارة الأقوى على الإطلاق؛ عندها تغمرها كراهية الذات، وتفكِّر بجدية أكبر من المعتاد في الانتحار.

حاولتُ جاهدًا العثور على كلمات تخفِّف من معاناتها. «لماذا تفعلين هذا بنفسك يا «مارج»؟ تقولين إنك لم تحققي أي شيء يُذكَر، وإنك تفتقرين إلى إحراز الإنجازات كليًّا، وإنك لستِ أهلًا للوجود، لكن كلينا يعرف أن هذه الأفكار ليست إلا حالة ذهنية لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلَة! ألا تذكرين كم شعرتِ بالرِّضا عن نفسك قبل أسبوعين؟ لم يتغيَّر العالم الخارجي قيد أنملة منذ ذلك الحين، ولا تزالين الآن كما كنتِ تمامًا في ذلك الوقت!».

كنت أسير على المسار الصحيح؛ فقد حظيت بانتباهها. سمعتها وهي تنصت إليّ فتابعتُ الحديث.

«إن مقارنة نفسك سلبيًّا بالآخرين هي دائمًا أمر مدمّر للذات. اسمعي ما سأقوله. عليك أن تخفّفي الضغط على نفسك. لا تقارني نفسك بالبروفيسور «جي» -التي قد تكون المتحدثة الأكثر توهجًا في كل أنحاء الجامعة- ولا بزوجتي التي لم تَحظَ بالتكريم إلا في هذا اليوم من حياتها. يمكن للمرء دائمًا إذا أراد جلد ذاته أن يقارن نفسه بشخص ما بشكل سلبي. أعرف هذا الشعور، وقد فعلتُ ذلك في السابق أيضًا.

لِمَ لا تقارنين نفسك بشخص يفتقر إلى ما لديك أنت؟ لطالما كنتِ متعاطفةً مع الآخرين. فكِّري في عملك التطوعي مع المشردين؛ أنت لا تُشيدين بنفسك نهائيًّا على ذلك. قارني نفسك بشخص لا يأبه لأمر الآخرين قط، أو لماذا لا تقارنين نفسك، على سبيل المثال، بأحد المشرَّدين الذين قدَّمتِ لهم المساعدة؟ أراهنك على أنهم جميعًا يقارنون أنفسهم بشكل سلبي بك».

صوت إغلاق سماعة الهاتف أكَّد لي الأمر الذي أدركتُه على الفور؛ لقد ارتكبتُ خطأً فادحًا. كنت أعرف «مارج» جيدًا وأعلم بالضبط كيف يمكن أن تكون ردة فعلها تجاه خطئي. ستقول إنني أفصحتُ عن مشاعري الحقيقية، وإنني أعتقد أنها ميئوس منها لدرجة أن الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن تقارن نفسها بهم بشكل إيجابي هم النفوس الأكثر تعاسة على وجه البسيطة.

لم تفوِّت «مارج» الفرصة وبدأت جلسة العلاج التالية -صباح اليوم التالي لحسن الحظ- بالتعبير عن هذه المشاعر بالذات، ثم واصلت بصوت مخيف وإيقاع متقطع مُطلِعةً إيَّايَ على «الحقائق المطلقة» عن نفسها.

«عمري خمسة وثلاثون عامًا. لقد عانيت من الأمراض العقلية طوال حياتي، وزرت الأطباء النفسيين منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري. لا أعرف كيف أعيش من دونهم، وسأضطر إلى تناول الدواء ما حييت. إن أقصى أمنياتي هو ألَّا أدخل مستشفى الأمراض العقلية. لم أحظَ بالحب في حياتي قط. لن أُنجِب الأطفال أبدًا. لم أحظَ يومًا بعلاقة طويلة الأمد مع رجل، وليس لديَّ أي أمل في الحصول على ذلك مستقبلًا. أعجز عن تكوين الصداقات. لا أحد يتصل بي في عيد ميلادي. بات والدي، الذي تحرَّش بي عندما كنت طفلة، في عِداد الأموات. أمي امرأة مجنونة ساخطة، ويبدو أنني سأُصبح مثلها مع مرور الوقت. قضى أخي معظم حياته في مستشفى الأمراض العقلية. لا أتمتع بأي موهبة أو قدرة مميزة. سأعمل إلى الأبد في وظيفة وضيعة بلا مستقبل. سوف يلازمني الفقر طوال حياتي، وسأنفق دائمًا معظم راتبي الشهري على الرعاية النفسية».

توقفَت «مارج» عن الكلام. ظننتُ أنها قد انتهت، لكن لم يكن ذلك واضحًا تمامًا لأنها كانت تتحدث وكأنها طيف زائف، بسكون غريب، من دون أن تُحرِك أي شيء سوى شفتيها؛ لا أنفاسها، ولا يديها، ولا عينيها، أو حتى خديها.

فجأةً عاودت الكلام. مثل لعبة ميكانيكية تعمل بالزنبرك، كان لا يزال لديها القليل من الطاقة: «أنت تطلب مني أن أتحلى بالصبر، وتقول لي إنني لست جاهزة بعدُ، لست جاهزة للتوقف عن العلاج، أو للزواج، أو لتبني طفل ما، أو للتوقف عن التدخين. انتظرتُ كثيرًا. انتظرت طوال حياتي. لقد فات الأوان، فات الأوان لممارسة الحياة».

جلستُ هناك من دون أن أغمض عيني وأنا أستمع لخطابها المطوَّل، ولِلَحظةٍ ما شعرت بالخجل لعدم تأثُري به. لم يكن قلبي قاسيًا، لكنني

سمعت ذلك من قبلُ، وتذكَّرتُ حجم الاضطراب الذي شعرتُ به عندما ألفت هذا الخطاب أول مرة، حينها تملَّكني التعاطف والحزن، وصرت «الطبيب النفسي اليهودي المبتل الذهن»[1]، على حد تعبير «همنغواي».

الأسوأ من ذلك بكثير (وهذا يصعب الاعتراف به) أنني كنت أتفق معها؛ فقد عرَضَت «تاريخ حالتها الحقيقي» بشكل مؤثر ودامغ جدًّا، لدرجة أنها أقنعتني تمامًا! كانت بالفعل تعاني من نقص حاد في القدرات، ربما لن تتزوج أبدًا، كانت فعلًا غير مؤهلة للانخراط في الحياة، وافتقرت إلى القدرة على التقرب من الآخرين. قد تحتاج إلى سنوات عديدة من العلاج، وربما ستظل مريضة نفسية إلى الأبد. لقد انجذبتُ بعمق إلى يأسها وتشاؤمها، لدرجة أنني فهمت بسهولة لماذا أغراها الانتحار كثيرًا. بصعوبة استطعتُ التفكير في كلمة واحدة من شأنها أن تمنحها بعض الراحة.

استغرق الأمر مني أسبوعًا، أي إلى أن حان موعد جلستنا التالية، لأُدرِك أن خطابها كان بروباغاندا ناتجة عن الاكتئاب. اكتئابها هو الذي كان يتحدث، وكنتُ أحمق بما يكفي للاقتناع به. لم أفكِر في كل التحريف في كلامها، لم أفكر في الأمور التي لم تَقُلْها؛ فقد كانت امرأة ذكية ومبدعة وجذابة للغاية (أي عندما لا تُشوِّه وجهها). كنت دائمًا

(1) المقصود بـ «المبتل الذهن» أو «المبتل الأفكار» (wet-thinking) هو الشخص الحساس جدًّا الذي تمتلأ عيناه بالدموع بسرعة، لكن لا تَرِدُ هذه العبارة: (wet-thinking Jewish psychiatrist) التي ينسبها «يالوم» إلى «همنغواي» إلا في هذا الكتاب وفي مقالة لـ «يالوم» بعنوان «همنغواي: دراسة طبنفسية» (Hemingway: A Psychiatric View) يعود تاريخها إلى 1971، أي إن جميع مؤلفات «همنغواي» لا تحتوي على هذه العبارة، ولم ترد في أي مرجع آخر. قد يكون السبب وراء هذا هو أن «يالوم» أعاد صياغة جملة ما كتبها أو قالها «همنغواي» وفسَّرها «يالوم» على هذا النحو، فوجب التنويه. (المترجم).

أتطلع إلى رؤيتها والوجود معها. احترمتُ سخاءها تجاه الآخرين، على الرغم من معاناتها والتزامها بخدمة المجتمع.

والآن، بعد أن سمعت خطابها مرة أخرى، فكّرتُ مليًا في كيفية إبعادها عن هذه الحالة الذهنية. خلال ظروف مماثلة في الماضي، كان الاكتئاب يسيطر عليها كليًا لعدة أسابيع. كنت على يقين من أنني إذا تصرفت على الفور فسأتمكن من مساعدتها على تجنُّب قدر كبير من الألم.

«إن اكتئابك هو الذي يقول هذا الكلام يا «مارج»، ليس أنت. تذكّري أنك كلما غرقتِ في الاكتئاب تمكّنتِ من النهوض مجددًا. الشيء الوحيد الجيد في الاكتئاب -وليس هناك غيره بتاتًا- هو أنه دائمًا ما ينتهي».

توجهتُ إلى طاولة مكتبي وفتحت ملفها، وقرأت بصوت مسموع أجزاء من رسالة كتبَتها «مارج» قبل ثلاثة أسابيع عندما كانت تشعر بالبهجة العارمة تجاه الحياة:

« ... لقد كان يومًا رائعًا. مشيت أنا و«جين» (Jane) في جادّة «تلغراف» (Telegraph Avenue). جربنا ارتداء فساتين سهرة تعود إلى الأربعينيات في متاجر الملابس البالية. ووجدتُ بعض أسطوانات «كي ستار» (Kay Starr) القديمة. ركضنا على طول جسر «غولدن غيت»، وتناولنا الغداء في مطعم «غرينز» (Greens). يبدو أن «سان فرانسيسكو» تعجُّ بالحياة حقًّا. دائمًا ما أنقل لك الأخبار السيئة، لذا أحببتُ أخبرك ببعض الأشياء الجيدة. أراك الخميس».

على الرغم من هبوب نسيم الربيع الدافئ عبر النافذة المفتوحة، كان فصل الشتاء حاضرًا في مكتبي، وتجمَّد وجه «مارج». راحت تحدق في الحائط وبدا أنها لا تكاد تسمعني. كان ردُّها ككتلة من الجليد: «أنت تعتقد أنني عديمة القيمة. لقد طلبت مني أن أقارن نفسي بالمشردين. تلك هي قيمتي في نظرك».

- «أعتذر عن ذلك يا «مارج». أنا لا أكاد أجيد قول أي شيء مفيد على الهاتف. لقد كان تصرفًا أخرق من قِبَلي، لكن، صدقيني، كانت نيتي أن أَمُدَّ إليك يد العون، وبمجرد أن قلتُ ما قلته عرفت أنه كان خطأً».

يبدو أن ذلك أتى بنتيجة إيجابية؛ فقد سمعتها تَزفر، كما أرخت كتفيها المتشنجتين، ولانت ملامح وجهها، ثم استدارت برأسها قليلًا جدًا نحوي.

اقتربتُ منها مقدار خطوة أو اثنتين. «لقد مررنا أنا وأنت بهذه الأزمات من قبل يا «مارج»، حين كنتِ تشعرين بالسوء، كما هو حالك الآن. ما الأمور التي أسعفتنا في السابق؟ أتذكُر تلك المرات التي خرجتِ فيها من المكتب وأنتِ تشعرين بتحسُّن ملحوظ عما كنتِ عليه عندما دخلتِ. ما الذي أحدث الفارق حينها؟ ما الذي قمتِ به أنت؟ وماذا الذي قمتُ به أنا؟ دعينا نعمل على اكتشاف ذلك معًا».

لم تستطع «مارج» الإجابة عن هذا السؤال في البداية، لكنها بدَت مهتمة به، وظهر المزيد من العلامات على ذوبان جليدها؛ فقد طقطقت رقبتها وأرسلت شعرها الأسود الطويل مرفرفًا ليستقر على جانب واحد، ثم مررت أصابعها فيه. ضايقتُها بالسؤال ذاته عدة مرات، وفي النهاية أصبحنا مثل الشركاء في التحقيق، نعمل على إيجاد الحل معًا.

قالت إنه من المهم بالنسبة إليها أن تجد أذنًا مصغية، لكن لم يكن هناك في حياتها أي شخص آخر غيري ولا مكان آخر غير مكتبي تستطيع أن تعبِّر فيه عن ألمها. كانت تعلم أيضًا أننا كنا نحقق نتائج جيدة عندما نبحث بعناية في الحوادث التي قذفت الاكتئاب نحوها بعنف.

سرعان ما تفحَّصنا جميع الأحداث المقلِقة التي طرأت خلال الأسبوع، واحدًا تلو الآخر. بالإضافة إلى الضغوط التي تحدَّثت عنها على الهاتف، كانت تحت ضغوط أخرى. على سبيل المثال، خلال اجتماع استمر طوال النهار في مختبر الجامعة، حيث كانت تعمل، تعمَّد المهنيون والأكاديميون تجاهلها بشكل واضح. أبديتُ تعاطفي معها وأخبرتها بأن آخرين أيضًا مثلها -بمن فيهم زوجتي- يَشْكُون من معاملة الناس لهم بهذه الطريقة. أسررتُ إليها بأن زوجتي كانت تشعر بالغضب من ميل جامعة «ستانفورد» إلى الحد من ميزات أولئك الذين ليسوا جزءًا من الهيئة التدريسية وعدم احترامهم كثيرًا.

تناولت «مارج» مجددًا موضوع عدم نجاحها وحجم الإنجازات التي حققها رئيسها في العمل، البالغ من العمر ثلاثين عامًا.

سألتها متأملًا: «ما الهدف من تفحُّص هذه المقارنات السلبية؟ إن في هذا الأمر عقابًا ذاتيًا وانحرافًا شديدين، كمن يقوم بالعض على أسنانه التي تؤلمه». أخبرتها أنني أنا أيضًا قارنت نفسي بشكل سلبي بالآخرين في مناسبات عديدة. (لم أذكر أي تفاصيل محددة. ربما وَجَب عليَّ فعل ذلك في سبيل معاملتها على قدم المساواة).

لجأتُ إلى تشبيه حالتها بمنظِم حرارة يعمل على تنظيم احترام الذات، حيث عانت «مارج» من خللٍ ما في هذا المنظِم، كان قريبًا جدًا من سطح جسمها. لم يحافظ على استقرار احترامها لذاتها، بل تذبذب بشكل كبير

وفقًا للأحداث الخارجية. عندما يطرأ حدث جيد تشعر بالراحة، أما إذا انتقدها أحدهم مرة واحدة فكان الإحباط يسيطر عليها لعدة أيام. كان الأمر أشبه بمحاولة الحفاظ على تدفئة منزل بوضع المدفأة المزوَّدة بمنظِم الحرارة قرب النافذة.

عندما انتهت الجلسة لم تكن مضطرة إلى أن تخبرني بأنها شعرت بتحسُّن كبير، إذ اتضح ذلك في طريقة تنفُّسها، وفي مشيتها، وفي ابتسامتها حين غادرَت المكتب.

صمد هذا التحسُّن بشكل جيد، وحظيت «مارج» بأسبوع ممتاز، حيث لم أتلقَّ أي مكالمة منها وهي تعاني من أزمة نفسية ما. عندما رأيتها بعد أسبوع بدَت شديدة الحماسة والنشاط. لطالما كنت مؤمنًا بأن معرفة الأشياء التي تُحسِّن حالة المرء النفسية لا تقل أهمية عن تحديد الأشياء التي تعكِّر صفو حياته، لذلك سألتها عن الأمر الذي أحدث الفارق.

فقالت «مارج»: «بطريقة ما، قلَبَت جلستنا الأخيرة كل شيء رأسًا على عقب. إن قدرتك على انتشالي من حالة الذعر تلك، خلال فترة قصيرة جدًا، تكاد تكون أمرًا إعجازيًّا. أنا سعيدة حقًّا لأنك طبيبي النفسي».

على الرغم من أن مجاملتها البريئة سَرَّتني، شعرتُ بعدم الارتياح بسبب فكرتين اثنتين؛ قولها «بطريقة ما» -الأمر الذي يحوم حوله الغموض- ورؤيتها لي صانعًا للمعجزات. إذا استمرت «مارج» في التفكير على هذا النحو، فلن تتحسن مطلقًا، لأنها بذلك استمدت العون إما من محيطها الخارجي وإما من أشياء لا تستطيع فهمها. تتمثل مهمتي معالجًا (مثل مهمة الأب أو الأم) في أن أجعل المريض في غنًى عني؛ أي أن أساعده على أن يصبح أمًّا وأبًا لنفسه. لم يكن هدفي أن أشعِرها بأنها أصبحت في حال أفضل، بل أردت مساعدتها على تحمُّل مسئولية تحسين مزاجها

بنفسها، وأردت أن تكون عملية التحسُّن هذه واضحة لها قدر الإمكان. لهذا السبب لم أشعر بالارتياح عندما قالت: «بطريقة ما»، وشرعتُ في استكشاف حقيقة الأمر.

سألتها: «هل لكِ أن تحدِّدي بالضبط الشيء الذي كان عونًا لك في جلستنا الأخيرة؟ في أي لحظة بدأتِ تشعرين بالتحسُّن؟ دعينا نتعقب أثر هذا معًا».

- «حسنًا، خذ على سبيل المثال الطريقة التي تعاملتَ بها مع تعليقي الحذق حول المشردين. كان بإمكاني أن ألجأ إليه لكي أعاقبك باستمرار. حقيقةً، أعلم أنني فعلت ذلك مع المعالجين النفسيين في الماضي، ولكن عندما أفصحتَ بكل واقعية عن نيّتك الصادقة واعترفت بأنك أسأت التصرف، وجدتُ أنه لم يكن هناك داعٍ لأن أغضب كالأطفال حول هذا الموضوع».
- «يبدو أن تعليقي جعلك تحافظين على صلتك بي. منذ أن عرفتك وأنتِ تغرقين في الاكتئاب باستمرار كلما قطعتِ صلتك بالجميع وانعزلتِ تمامًا، لذا فإن المغزى الهام هنا هو أن عليك أن تجعلي حياتك مأهولة بالناس». سألتها عن الأشياء الأخرى المفيدة التي حدثت خلال تلك الجلسة.

«الشيء الرئيسي الذي غيَّر حالي كليًا -أي تلك اللحظة التي شعرتُ فيها بالهدوء- هو أنك أخبرتني أنني وزوجتك نواجه مشكلات مماثلة في العمل. كنت أشعر أنني بغيضة وغريبة الأطوار إلى حد كبير، وأن زوجتك مقدَّسة جدًا لدرجة أنه لا يمكن أن يُذكَر اسمي واسمها في الجملة ذاتها. عندما أسررت لي بأن زوجتك وأنا نعاني من المشكلات ذاتها تأكدتُ قطعًا من أنك تُكِنُّ لي بعض الاحترام».

كنت على وشك الاحتجاج والإصرار على أنني لطالما احترمتها، لكنها اعترضت طريقي: «أعلم، أعلم. لطالما أخبرتني بأنك تحترمني وبأنك معجب بي، لكنها ظلت مجرد كلمات بالنسبة إليَّ، لم أصدقها يومًا، إلا أنها في هذه المرة كانت مختلفة؛ فقد فاق فعلك مستوى الكلمات».

تحمَّست جدًّا لما قالته «مارج». كانت بارعة في وصف القضايا المحورية؛ أن «تفوق الأفعال مستوى الكلمات»، هذا هو الأمر المهم حقًّا؛ كانت أفعالي هي العلامة الفارقة، وليست أقوالي. السر هو إذن أن أقدِم شيئًا ما للمريض. عندما شاركتُ معلومة عن زوجتي كنت قد قدَّمت شيئًا لـ «مارج»، كما لو أنني منحتها هدية ما. السر هو الفعل العلاجي وليس الكلام العلاجي!

لقد حفزتني هذه الفكرة كثيرًا، وبصعوبة استطعت انتظار نهاية الجلسة لكي أتمكَّن من التفكير بعمق في الأمر، لكنني وجَّهت انتباهي لـ «مارج» مجددًا؛ إذ كان لديها المزيد من الكلام.

«الأمر الذي ساعدني كثيرًا أيضًا هو عندما سألتني مرارًا وتكرارًا عن الأشياء التي أسعفتني في الماضي. لقد أصررتَ على وضع المسئولية على عاتقي أنا، مما جعلني أدير دفة الجلسة. كان ذلك أمرًا جيدًا. عادةً ما أعاني من الاكتئاب لعدة أسابيع، لكنك دفعتني في غضون دقائق إلى تحرِّي حقيقة ما جرى.

في الواقع، إن مجرد قيامك بطرح سؤال «ما الذي أسعفنا في السابق؟» كان مفيدًا، لأنه أكَّد لي أن هناك سبيلًا ما للتعافي. من المفيد أيضًا أنك لم تَدَّعِ أنك الساحر الذي يعرف أجوبة كل الأسئلة فينتظر من الآخر تخمينَ أجوبتها. أُعجبتُ باعترافك بأنك لا تعرف الأجوبة، ثم دعوتني إلى استكشافها معك».

كلامٌ كالموسيقى! خلال العام الذي عالجت فيه «مارج» كنت أتبع قاعدة فعلية واحدة في طبيعة عملي؛ ألَا وهي أن أُعاملها على قدم المساواة. حاولتُ ألَّا أجرِّدها من إنسانيتها، أو أن أشفق عليها، أو أن أفعل أي شيء يخلق التفاوت بيننا. لقد طبَّقتُ هذه القاعدة بكل ما في وسعي، وشعرت بالارتياح الآن عندما علِمتُ أنها حققت نتائج إيجابية.

إن مشروع «العلاج» النفسي يعجُّ بالتناقضات الداخلية. عندما يقوم طرف ما –أي المعالج– بـ «علاج» طرف آخر –أي المريض– فمن المفهوم منذ البداية أن طرفَي العلاج، أي الاثنين اللذين يشكِّلان تحالفًا علاجيًا، ليسا متساويين تمامًا أو متحالفين بشكل كامل؛ إذ إن أحدهما يشعر بالأسى والحيرة، بينما يُرجَى من الآخر أن يستخدم مهاراته المهنية لفك التشابكات والتنقيب بموضوعية في القضايا الكامنة وراء هذا الأسى والحيرة. علاوة على ذلك، يقوم المريض بدفع المال للشخص الذي يعالجه. إن كلمة «يعالج»[1] تحديدًا تعني عدم المساواة، لذا فإن «علاج» شخصٍ ما على أنه نظير للمعالج يستلزم بالضرورة عدم المساواة، وهو الأمر الذي يجب على المعالج أن يتغلب عليه أو أن يُخفِيه من خلال ادِّعائه بأن الآخر مساوٍ له.

إذن، عندما عامَلتُ «مارج» على قدم المساواة، فهل كنتُ أتظاهر أمامها (وأمام نفسي) بأننا متساويان؟ قد يكون الوصف الأدق للعلاج النفسي هو أنه معاملة المريض على أنه شخص بالغ. ربما يبدو هذا مجرد حذلقة كلامية، لكن شيئًا ما كان على وشك الحدوث في علاجي لـ «مارج»، وقد أجبرني على أن أكون صريحًا جدًّا بشأن كيفية تواصلي معها أو، على العموم، مع أي مريض.

(1) الفعل الوارد هنا هو (treat)، الذي يحتمل سياقين اثنين: «يُعالج» و«يتعامل مع»؛ ولذلك وضعه الكاتب بين علامتي اقتباس. (المترجم).

بعد نحو ثلاثة أسابيع، أي بعد ثلاثة أسابيع من اكتشافي لأهمية الفعل العلاجي، حدث شيء استثنائي. في خضمّ جلسة من جلساتنا المعتادة، كانت تخبرني بتفاصيل الأسبوع المريع الذي مرّت به. بدَا مزاجها بلغميًا (phlegmatic)[1]، وكانت تنّورتها مجعّدة ومتمعّجة، وشعرها أشعث، ووجهها مشحونًا بالإحباط والتعب.

وسط مرثيتها هذه، أغلقت عينيها فجأة، وهذا ليس بالأمر الغريب في حد ذاته، لأنها دخلت في حالة تنويم ذاتي (autohypnotic state) أكثر من مرة في أثناء تلك الجلسة، لكنني عقدت العزم منذ فترة طويلة على ألّا أبتلع هذا الطُّعم؛ أي ألّا أرافقها إلى حالة التنويم المغناطيسي هذه، وأن أوقظها منها بدلًا من ذلك. قلت لها: «"مارج"»، وكنت على وشك أن أُكمِل الجملة: «ألَا تحافظين على تركيزك معي من فضلك؟» عندما سمعت صوتًا غريبًا وقويًا يخرج من فمها قائلًا: «أنت لا تعرف من أنا».

كانت على حق. لم أكن أعرف هوية ذلك الشخص الذي تحدّث الآن. كان صوتًا مختلفًا وقويًا جدًا، وواثقًا من نفسه للغاية، لدرجة أنني نظرت حول المكتب لوهلة لكي أرى إذا ما كان أحدهم قد دخل.

سألت الصوت: «من أنت؟».

- «إنها أنا! أنا!» ثم هبّت «مارج»، التي تحوّلت كليًا، على قدميها وراحت تتجوّل في المكتب وتُمعِن النظر في خزائن الكتب، وتُقوِّم الصور وتُسوِّيها، وتتفحّص أثاثي. لم تكن تلك «مارج» التي أعرفها. لقد تغيّر كل شيء فيها ما عدا الملابس؛ وضعية وقوفها، وجهها، وثقتها بنفسها، ومشيتها.

(1) المزاج أو النفسية البلغمية هي الشخصية الباردة والهادئة، نسبةً إلى طبيعة البلغم وظهوره، خصوصًا في فصل الشتاء. (المترجم).

كانت «مارج» الجديدة مفعمة بالحيوية ولعوبًا بشكل صارخ وممتع في الوقت ذاته. قال الصوت الغريب العميق بطبقة الـ «كونترالتو»[1]: «بما أنك تتظاهر بأنك يهودي مثقف، فلِمَ لا تفرش مكتبك بأثاثٍ يتماشى مع شخصيتك هذه؟ غطاء الأريكة هذا مكانه في أحد مراكز «غودويل» (Goodwill)[2] (هذا إن قبِلوا به)، وقطعة القماش تلك على الحائط ينخرها العفن بسرعة كبيرة؛ لنحمد الله على ذلك! وانظر إلى هذه اللقطات لساحل «كاليفورنيا». لقد سئمت من هذه الصور في مكاتب الأطباء النفسيين!».

كانت ذكية وعنيدة ومثيرة للغاية. كم كان أمرًا منعشًا أن ترتاح أذني من صوت «مارج» الصاخب والطنَّان الذي لا يَلين! لكنني بدأت أشعر بالارتباك، لأني استمتعت بهذه السيدة كثيرًا، وقد تداعت إلى ذهني أسطورة «لوريلي» (Lorelei)[3] بسببها. على الرغم من أنني كنت أعرف مخاطر المماطلة في الخروج من هذه الوضعية، قررتُ الدردشة معها بعض الوقت.

«لماذا أتيتِ؟» سألتها. «لماذا اليوم؟».

- «لكي أحتفل بفوزي. لقد فزت، كما تعلم».
- «بماذا فزتِ؟».

(1) طبقة الصوت النسائية الأكثر عمقًا وانخفاضًا. (المترجم).

(2) منظمة أمريكية غير ربحية تسعى إلى مساعدة المحتاجين ودعم مجتمع الفقراء والمهمَّشين. (المترجم).

(3) أسطورة من الفولكلور الألماني. وهي حورية تتمتع بجمال ساحر، يقال إنها كانت تجلس على قمةٍ صخرة معينة على ضفة نهر «الراين» وتغني وتشتِّت البحَّارة بجمالها، فيفقدون التحكُّم في قواربهم لتتحطم ويَلقَوا حتفهم. (المترجم).

- «لا تتظاهر بالغباء أمامي! أنا لست هي! لا أعتقد أن كل شيء تقوله أنتَ رائع. هل تعتقد أنك قادر على مساعدة «مارج»؟» كانت ملامح وجهها تتحرك بشكل مدهش، وتحدَّثت بنبرة هازئة يجدها المرء عادة في شخصية شريرة في رواية ميلودرامية فيكتورية.

تابعَت الكلام بطريقة ساخرة متفاخرة: «حتى وإن عالجتَها لمدة ثلاثين عامًا، فسيكون الفوز من نصيبي. يمكنني تحطيم حصيلة علاج عام كامل في يوم واحد. وإذا لزم الأمر، يمكنني أن أدفعها إلى أن تنزل عن الرصيف باتجاه شاحنة متحركة».

- «لكن لماذا؟ ما الذي ستكسبينه من فعل ذلك؟ فإذا خسِرت «مارج»، فستخسرين أنتِ أيضًا». ربما أَطَلْتُ الحديث معها أكثر مما ينبغي، فمن الخطأ أن أتحدث معها عن «مارج»؛ كان ظلمًا في حقها. لكن جاذبية هذه المرأة كانت شديدة ولا تُقاوَم تقريبًا. شعرتُ لفترة وجيزة بموجة غثيان مثير للعجب، كما لو كنت أنظر عبر صَدْع في نسيج الواقع، عبر شيء محظور، عبر المكوِّنات الخام والشقوق والندوب الملتئمة والخلايا والأريمات[1] الجنينية التي -في الأحوال الطبيعية- لا يجب أن تكون ظاهرة على المخلوق البشري المكتمل. انصبَّ انتباهي كله عليها.

(1) الأريمة أو «البلاستيولا» (blastula) هي إحدى المراحل المبكرة في تطوُّر الجنين. (المترجم).

«"مارج" بغيضة. أنتَ تعرف أنها بغيضة. كيف تحتمل الوجود بقربها؟ إنها بغيضة! بغيضة!» ثم شرعَت في تقليد «مارج» بأداء مسرحي مذهل لم أرَ مثيلًا له في حياتي. كل حركة جسدية رأيتُها على مرِّ الشهور، وكل تجهُّم، وكل فِعْل قامت به «مارج» برز أمامي عبر تسلسل زمني. رأيتُ «مارج» تقابلني بخجل أول مرة، رأيتها تتكوَّر على نفسها في زاوية مكتبي. عيونها الكبيرة المذعورة كانت تتوسَّل إليَّ ألَّا أتخلى عنها. رأيتُها في حالة الغَشْيَة الذاتية (autotrance)، بعيون مغلقة، وجفون وامضة تُخفِي وراءها نشاطًا يشبه حركة العين السريعة[1] (REM). رأيت وجهها المتشنِّج مثل وجه «كوازيمودو» (Quasimodo). كان مشوَّهًا يكاد لا يستطيع الكلام. اختبأَت خوفًا خلف كرسيها كما كانت تفعل «مارج» عادةً عند شعورها بالذعر. راحت تشكو بشكل ميلودرامي وساخر من ألم طعنة مروِّعة في رحمها وثديها، ثم راحت تسخر من تلعثم «مارج» وبعض تعليقاتها المألوفة: «أنا سـ... سـ... سـ... سعيدة جدددددًا لأنك طبيبي النفسي». ثم جثَت على ركبتها وقالت: «هـ... هـ... هـ... هل أنت معجب بي يا د... د... د... دكتور؟ لا تـ... تـ... تـ... تتخلَّ عـ... عـ... عني. لا قـ... قـ... قيمة لي من دونك».

كان هذا الأداء استثنائيًّا، مثل مشاهدة ممثلة تنحني أمام الجماهير بعد أن لعبت عدة أدوار في مسرحية مسائية، ثم سلَّت الحضور لفترة وجيزة، ربما لبضع ثوانٍ فقط، بالانسلال إلى كل شخصية من شخصياتها. (لقد غاب عن ذهني لِلَحظة أن الممثلة في المسرح الذي كان أمامي لم

(1) حركة العين السريعة rapid eye movement: حالة من حالات النوم الخمسة تكون فيها عضلات الجسم غير نشطة تمامًا وتتحرَّك العيون بشكل سريع جدًّا في جميع الاتجاهات. ينشط الدماغ في هذه الحالة وتتشكَّل فيها الأحلام. (المترجم).

نكن هي الممثلة حقًا، بل مجرد شخصية تلعب دورًا واحدًا من الأدوار. الممثلة الفعلية، أي طبقة الوعي المسئولة، ظلَّت متوارِية وراء الكواليس).

أداء باهر بكل تأكيد، لكنه قاسيًا أيضًا إلى أبعد الحدود من قِبَل السيدة التي سمَّت نفسها «أنا» (عجزتُ عن إيجاد اسم آخر لها). تأجَّجت النار في عينيها وهي تواصل تدنيس «مارج»، قائلة إنها لا يمكن شفاؤها، وإنها ميئوس من أمرها، وإنها مثيرة للشفقة. قالت «أنا» إن على «مارج» كتابة سيرتها الذاتية تحت عنوان (ضحكَت هنا بصوت خافت): «وُلِدتُ لأكون مثيرة للشفقة».

- «وُلِدتُ لأكون مثيرة للشفقة». ابتسمتُ رغمًا عني. كانت هذه السيدة الحسناء العديمة الرحمة امرأة مهولة. شعرت بأنني قد خُنت «مارج» لأنني وجدت منافِستها شديدة الجاذبية، ولأنني ذُهِلت كثيرًا بتقليدها لـ «مارج».

فجأةً -بسرعة البرق- انتهى المشهد. أغمضَت «أنا» عينيها لمدة دقيقة أو دقيقتين، وعندما فتحتهما كانت قد اختفت، وعادت «مارج» وهي تبكي وتشعر بالذعر. وضعَت رأسها بين ركبتيها، وتنفَّست بعمق، واستعادت رباطة جأشها شيئًا فشيئًا. بكَت لعدة دقائق ثم تحدَّثت أخيرًا عما حدث. (كانت تتذكر المشهد الذي حدث حالًا جيدًا). لم تنفصل عن ذاتها من قبلُ -أوه، صحيح، حصل ذلك مرة واحدة، حيث ظهرت شخصية ثالثة تُدعَى «روث آن» (Ruth Anne)- لكن المرأة التي حضرت اليوم لم تُبرِز نفسها في السابق قط.

شعرتُ بالحيرة مما حدث. لم تَعُدْ قاعدتي الأساسية الوحيدة -«عامِل «مارج» على قدم المساواة»- كافية. أيُّ «مارج» هذه التي سأتعامل معها؟ «مارج» التي جلست تبكي وتتنهد أمامي، أم «مارج»

المثيرة واللامبالية؟ بدَا لي أن الشيء الذي يجب أن أُولِيه اهتمامي هو علاقتي بمريضتي؛ أي العلاقة البَيْنية (betweenness) (مصطلح آخر من مصطلحات «مارتن بوبر» الغريبة التي لا نهاية لها) التي تجمعني بـ «مارج». ما لم أتمكن من حماية تلك العلاقة والإخلاص لها، فسأفقد الأمل كليًا في علاجها، لذا كان من الضروري أن أُعدِّل قاعدتي الأساسية من «عامِل المريض على قدم المساواة» إلى «كن مخلصًا للمريض». قبل كل شيء، يجب ألَّا أسمح لـ «مارج» الأخرى بأن تُغوِيني.

يمكن أن يتسامح المريض مع عدم إخلاص المعالج له خارج نطاق جلسته الخاصة. ومع أنه من المفهوم أن لدى المعالِجين علاقات أخرى، وأن هناك مريضًا آخر ينتظر نهاية الجلسة لكي يَحِين دوره، فغالبًا ما يكون هناك اتفاق ضمني على عدم مناقشة هذا الأمر خلال العلاج؛ إذ يتآمر المعالج والمريض لكي يتظاهرا بأن علاقتهما أحادية، كما يأمل كلٌّ من المعالج والمريض سرًّا ألَّا يلتقي المرضى الخارجون والداخلون إلى المكتب بعضهم ببعض. حقيقةً، من أجل تفادي حدوث ذلك يقوم بعض المعالجين بتصميم مكاتبهم ببابين؛ أحدهما للدخول والآخر للخروج.

لكن يحقُّ للمريض أن يحظى بإخلاص المعالج خلال الجلسة. ينصُّ عقدي غير المصرَّح به مع «مارج» (كما هو الحال مع جميع مرضايَ) على أنني عندما أكون معها، يجب أن يكون تركيزي موجَّهًا حصريًا نحوها هي فقط.

لقد سلَّطَت «مارج» الضوء على بُعد آخر لهذا العقد؛ ألَا وهو أن أصبَّ اهتمامي على ذاتها الأكثر مركزية. كان والدها، الذي تحرَّش بها، قد ساهم في تطوير ذات جنسية زائفة في «مارج» بدلًا من تكوين الأواصر مع ذاتها المتكاملة، لذا يجب ألَا أرتكب الخطأ نفسه.

لم يكن الأمر سهلًا. لأكون صادقا تمامًا، أردت أن أرى السيدة «أنا» مرة أخرى. صحيحٌ أنني قابلتها لمدة تقل عن ستين دقيقة، إلا أنني أصبحت متيَّمًا بها. بسبب عشرات الساعات التي قضيتها مع «مارج» في الكواليس القاتمة، برَز هذا الطيف الجذَّاب بوضوح تام باهر. من النادر جدًا ظهور شخصيات من هذا القبيل في حياتنا.

لم أكن أعرف اسمها، ولم تتمتع بالكثير من الحرية، لكن كلًّا منا عرف سبيل الوصول إلى الآخر. في الجلسة التالية حاولَت «أنا» كثيرًا أن تأتي إليَّ مرة أخرى. رأيت «مارج» تُومِض بجفونها ثم تُغلِقها مجددًا. كنا على بُعد دقيقة أو دقيقتين أخريين فقط من تجدُّد لقائنا. شعرت بالحماقة والحماسة معًا. غمرَتني ذكريات الماضي المنعِشة، وتذكَّرتُ ذلك اليوم الذي انتظرت فيه هبوط طائرة حبيبتي في مطار الجزر الكاريبية.

هذه المرأة، هذه الـ «أنا»، فهِمتني جيدًا. كانت تعلم أن الإرهاق قد نال مني، وأنني كنت متعبًا من أنين «مارج» وتلعثمها، وأنني سئمت من ذعرها، ومن جلوسها على هيئة كرة في الزوايا، واختبائها تحت طاولة المكتب. لقد سئمتُ من صوتها الطفولي الصاخب. كانت «أنا» تعلَم أنني أريد التعامل مع امرأة حقيقية. كانت تعلم أنني أتظاهر، فحسب، بمعاملة «مارج» على قدم المساواة. كانت تعلم أننا لسنا متساويَين؛ فكيف لنا أن نكون كذلك في الوقت الذي تصرَّفَت فيه «مارج» بجنون شديد، وتفضَّلتُ عليها أنا بالتسامح مع جنونها؟

لقد أقنعني أداء «أنا» المسرحي الذي تقيَّأت من خلاله كل سلوكيات «مارج» على شكل مقتطفات، لقد أقنعَتني بأنه أنا وهي (نحن الاثنين فقط) كنا ندرك حجم معاناتي مع «مارج». كانت هي[1] المُخرِجة

(1) يقصد شخصية «مارج» الأخرى. (المترجم).

المذهلة والجميلة التي صنعت هذا الفيلم. يمكنني أن أكتب مقالًا إكلينيكيًا عن «مارج»، أو أن أُخبِر زملائي عن مسار علاجها، لكنني لن أتمكّن نهائيًا من نقل روح تجربتي معها، لأنها كانت تفوق الوصف. لكن «أنا» عرَفَت حقيقة الأمر. بما أن بمقدورها لعب كل هذه الأدوار، فلا بد أنها العقل المدبِّر الخفي الذي يوجِّهها جميعها. الشيء الذي جمعني بـ «مارج» كان يتجاوز حدود اللغة.

لكن الإخلاص ثم الإخلاص! لقد قطعت عهدًا على نفسي بالوفاء لـ «مارج». إذا اقترَنتُ بـ «أنا» فسيكون ذلك كارثيًا بالنسبة إلى «مارج»، سيصبح دورها هامشيًا، مثل شخصية قابلة للاستبدال. وهذا بالطبع هو بالضبط ما أرادت «أنا» تحقيقه. كانت «أنا» مثل «لوريلي»، جميلة ومثيرة للاهتمام، لكنها فتّاكة أيضًا. كل ذرة من غضب «مارج» وكراهيتها لذاتها تجسَّدت فيها.

لذلك بقيت مخلِصًا، وكلّما شعَرتُ بأنّ «أنا» كانت على وشك الظهور -على سبيل المثال، عندما أغمَضَت «مارج» عينيها ودخلت تدريجيًا في حالة الغشية- سارعتُ إلى إيقاظها صارخًا: ««مارج»، ركّزي معي».

بعد أن تكرَّرت هذه الحادثة، أدركتُ أن الاختبار النهائي لا يزال يتربَّص بنا. كانت «أنا» تستجمع قواها بعناد وتحاول بشدة بالغة الانضمام إليَّ مجددًا. تطلَّبَت تلك اللحظة قرارًا حازمًا، واخترت الوقوف إلى جانب «مارج». سوف أُضحّي بمنافِستها لأجلها، وأنتف ريشها، وأمزّقها إربًا إربًا، وشيئًا فشيئًا، سأطعمها إلى «مارج». تقنية الإطعام هذه تلخَّصت في تكرار سؤال نموذجي واحد: «ماذا ستقول «هي» لو كانت هنا؟».

بعض إجابات «مارج» كان غير متوقَّع، وبعضها الآخر كان مألوفًا. عندما رأيتها في أحد الأيام تتفحَّص الأشياء في مكتبي بخجل، قلت لها: «تفضَّلي. تحدَّثي يا «مارج». تحدَّثي نيابة عنها».

أخذت «مارج» نفَسًا عميقًا وتحدَّثت بصوت نشيط. «بما أنك تتظاهر بأنك يهودي مثقف، فلِمَ لا تفرش مكتبك بأثاثٍ يتماشى مع شخصيتك هذه؟».

طرَحَت «مارج» هذا السؤال كما لو كان فكرة خرَجَت بها هي، وبدا من الواضح أنها لم تتذكَّر كل شيء قالته «أنا». ارتسمت ابتسامة على وجهي رغمًا عني؛ فقد سُرِرتُ لأنني تشاركت في بعض الأسرار مع «أنا».

- «كل الاقتراحات مرحَّب بها يا «مارج»».

لدهشتي، قدَّمَت العديد من الأشياء الجيدة. «ضع بابًا فاصلًا، أو علِّق نبتة الفوشيا من السقف، أو ستارًا قائمًا كي تفصل طاولتك المزدحمة عن بقية المكتب. ضع إطارًا بُنيًّا داكنًا هادئًا لصورة الشاطئ هذه إذا كنت مُصِرًّا على الاحتفاظ بها. وقبل كل شيء، تخلَّص من قماش «التابا» (tapa)[1] الرثِّ المعلَّق على الحائط. إنه يعجُّ بالتفاصيل لدرجة أنه يتسبَّب لي في الصداع. لقد لجأت إليه مؤخرًا لتنويم نفسي مغناطيسيًّا».

- «تعجبني اقتراحاتك يا «مارج»، لكن أعتقد أنك قسوتِ على قماش الحائط. إنه صديق عزيز لي؛ لقد اشتريته قبل ثلاثين عامًا في «ساموا» (Samoa)».

- «قد يشعر الأصدقاء الأعزاء براحة أكبر في المنزل بدلًا من المكتب».

(1) قماش اشتهر في غرب منطقة المحيط الهادئ مصنوع من قشر بعض الأشجار، مثل شجرة التوت. (المترجم).

حدَّقتُ بها. كانت ذكية جدًا. هل كنت أتحدَّث إلى «مارج» حقًا؟

نظرًا لأنني كنت آمل في إنشاء تحالف أو اندماج بين نسختَيْ «مارج»، حرَصتُ على الاصطفاف مع الوجه الإيجابي لكلٍّ منهما؛ فإذا قمت بمعاداة «أنا» بأي شكل من الأشكال، فستنتقم من «مارج» بكل بساطة، لذا بذلت ما في وسعي، على سبيل المثال، لكي أُخبِر «مارج» (مفترضًا أن «أنا» كانت تسمع كل شيء) بأنني استمتعتُ بلامبالاة «أنا» وحيويتها وطيشها.

لكنني كنت أسلك طريقًا ضيقًا. إذا أفرطتُ في الصراحة، فسترى «مارج» كم فضَّلتُ «مارج» الأخرى عليها. ظننتُ أن «أنا» قد سخِرت بالفعل من «مارج» بسبب ذلك، لكنني لم أرَ أي دليل على هذا الأمر. كنت على يقين من أن «أنا»، أي «مارج» الأخرى، كانت تحبني. ربما أحبَّتني بما فيه الكفاية لكي تغيِّر من سلوكها! لا بد أنها تعرف أنني أنفر من التخريب الوحشي[1].

إن في هذا وجهًا من أوجه العلاج النفسي الذي لا يتعلَّمه المعالِجون خلال التدريب؛ كوِّن علاقة رومانسية مع عدو مريضك اللدود، وبعد ذلك، عندما تكون متأكدًا من أن العدو وقع في حبك، استخدم هذا الحب لكي تُحبِط هجماته على مريضك.

استمر إخلاصي لـ «مارج» خلال الشهور العديدة التالية من العلاج. في بعض الأحيان حاولَت أن تخبرني عن «روث آن»؛ الشخصية الثالثة. وأحيانًا أخرى كانت تنسلُّ إلى وضعية الغشية وتنحدر إلى سنٍّ مبكرة، لكنني رفضت الوقوع في فخ هذه الإغراءات، وعقدت العزم على أن أكون حاضرًا معها، واستدعيتها على الفور كلما أوشكَت على مغادرة اللحظة الراهنة بالانسلال إلى سنٍّ أخرى أو شخصية أخرى.

(1) القصد هنا هو أنه يتمنى أن تَعدِل «مارج» الأخرى عن تدمير «مارج» الأولى. (المترجم).

عندما بدأت العمل في مهنة العلاج النفسي لأول مرة، كنت أعتقد بسبب طبية سريرتي أن الماضي ثابت وقابل للمعرفة، وأنه إذا كنتُ فطنًا بمَا فيه الكفاية، فسأكون قادرًا على اكتشاف أول منعطف خطأ؛ أي ذلك المسار المشئوم الذي أدَّى إلى إفساد حياة كاملة، وأنه يمكنني التصرف بناءً على هذا الاكتشاف لكي أعيد الأمور إلى نصابها الصحيح مرة أخرى. لو قابلتُ «مارج» في تلك الفترة لَكنت قد عمَّقتُ من حالة التنويم التي دخلَت فيها، وجعلتُها تنحدر إلى ماضيها، وطلبتُ منها استكشاف صدماتها المبكرة –على سبيل المثال، اعتداء والدها الجنسي عليها– ثم حَثثتُها على اختبار وتفريغ كل المشاعر المتولِّدة؛ الخوف، والإثارة، والغضب، والغدر.

لكنني تعلَّمتُ على مر السنين أن مشروع المعالج النفسي لا يقوم على إقحام المريض في عملية حفر أثري مشتركة، وإذا نجح أي معالج في مساعدة مريض ما بهذه الطريقة، فلا علاقة للبحث والعثور على ذلك المسار الخطأ بهذا النجاح (لا تتدهور حياة المرء أبدًا بسبب مسار خطأ واحد، بل لأن المسار الرئيسي بأكمله كان خطأ). إذن لا يمكن لمعالج أن يساعد المريض بغربلة الماضي، بل من خلال الوجود معه بقلب محبٍّ، من خلال كونه جديرًا بالثقة، واهتمامه بالمريض، والإيمان بأن نشاطهما المشترك سينجح في النهاية في تخليصه وشفائه. تمثيلية الانحدار العمري واسترجاع سِفاح القُربى (أو، على العموم، أي مشروع علاجي أو فكري) لا ينجح في العلاج إلا لأنه يوفِّر للمعالج والمريض بعض النشاط المشترك المثير للاهتمام، بينما تنضج القوة العلاجية الحقيقية –أي العلاقة العلاجية– أعلى الشجرة.

لذلك كرَّستُ نفسي لكي أكون حاضرًا مع «مارج» ومخلصًا لها، وواصلنا استيعاب «مارج» الأخرى معًا. طرحت أفكاري على مسمع «مارج»: «ماذا كانت ستقول في هذا الموقف؟ كيف كانت ستمشي أو ترتدي ملابسها؟ حاوِلي تقليدها. تظاهَري بأنك هي لدقيقة أو دقيقتين يا «مارج»».

مع مرور الشهور، ازداد جسم «مارج» سِمنة على حساب «مارج» الأخرى؛ أصبح وجهها مستديرًا وصدرها أكثر امتلاءً. بدَت بحال أفضل، وارتدت ملابس أجمل، كما انتصبَت في جلستها، وصارت ترتدي جوارب منقوشة، وعلَّقت ذات مرة على حذائي المهترئ.

خطر لي أحيانًا أن ما كنا نقوم به شبيه بأكل لحوم البشر. بدَا الأمر كما لو أننا خصَّصنا «مارج» الأخرى للتبرُّع بأعضائها لبنكِ الأعضاء النفسية. بين الحين والآخر، كلما كانت مواقع المستقبِلات (receptor sites)[1] مهيأة كما يجب، قمنا بسحب جزء من «أنا» تمهيدًا لعملية الزرع. صارت «مارج» تعاملني على قدم المساواة، وطرحت عليَّ بعض الأسئلة، وغازلتني قليلًا. «كيف ستعيش من دوني بعد أن ينتهي العلاج؟ أنا متأكدة من أنك ستفتقد مكالماتي القصيرة في وقت متأخر من الليل».

ولأول مرة، طرحَت عليَّ أسئلة شخصية. «كيف قررت العمل في هذا المجال؟ هل ندمت يومًا على قرارك هذا؟ هل شعرت بالملل من قبلُ؟ وهل شعرت بالملل بصحبتي؟ كيف تتعامل مع مشكلاتك أنت؟» لقد استحوذت «مارج» على الأجزاء الشُّجاعة من «مارج» الأخرى، وهذا ما حثَثتُها على القيام به تمامًا، وكان من المهم أن أتقبَّل وأحترم

(1) مواقع المستقبِلات هي بروتينات توجد عادةً على سطح الخلايا، وهي قادرة على التعرف على جزيئات معينة والارتباط بها. (المترجم).

جميع أسئلتها. أجبتُ عن كل واحد منها بأكبر قدر ممكن من الدقة والصدق. تأثَّرَت «مارج» بإجاباتي، وازدادت جرأتها بشكل استثنائي خلال محادثاتها معي، لكنها أصبحت ألطف أيضًا.

ماذا عن «مارج» الأخرى؟ أتساءل عمَّا تبقَّى منها بحلول هذا الوقت؛ هل تم اختزالها إلى حذاء بكعب عالٍ لا يلبسه أحد؟ أم أصبحت مجرد نظرة جذابة وجريئة لم تجرؤ «مارج» على تملُّكها بعدُ؟ أم ابتسامة مخيفة مثل ابتسامة القطة «تشيشر» (The Cheshire Cat)[1]؟ أين تلك الممثلة التي لعبت دور «مارج» بتألُّق كبير؟ أنا متأكد من أنها رحلت. تطلَّب ذلك الأداء طاقة وحيوية هائلة، وقد تمكَّنتُ أنا و«مارج» من تخليصها من كل قوتها. على الرغم من أن «مارج» استمرت في زيارتي لعدة أشهر بعد الجلسة التي ظهرت فيها «أنا»، وأننا لم نتحدث عنها مجددًا، فإنني لم أتمكَّن من نسيانها قطُّ، ما زالت تتراءى إلى ذهني في أوقات غير متوقَّعة.

قبل أن أشرع في علاج «مارج»، أخبرتها أنه لا يمكننا الاجتماع إلا لمدة أقصاها ثمانية عشر شهرًا بسبب الإجازة التي كنت قد خطَّطتُ لها. والآن بعد أن انتهت المدة، وأنجزنا ما أنجزناه، كانت «مارج» قد تغيَّرت؛ أصبحت حالات الذعر حدثًا نادرًا، وعفا الزمن مكالماتها الهاتفية. كما عمِلَت على تكوين حياتها الاجتماعية وصار لديها صديقان مقرَّبان. لطالما كانت «مارج» مصوِّرة موهوبة، والآن، لأول مرة منذ سنوات، أمسكَت بكاميرتها واستمتعت مرة أخرى بهذا الشكل من أشكال التعبير الفني الخلَّاق.

---

(1) شخصية خيالية في «مغامرات «أليس» في بلاد العجائب» لـ «لويس كارول». (المترجم).

شعرتُ بالرضا عما قمنا به، لكنني لم أخدع نفسي بالاعتقاد أن علاج «مارج» قد انتهى، ولم أتفاجأ مع اقتراب جلستنا الأخيرة عندما ظهرت أعراضها القديمة، حيث لزِمَت الفراش أكثر من مرة خلال عطلة نهاية الأسبوع، وعانت من نوبات بكاء طويلة، كما انجذبت فجأة إلى الانتحار. بعد جلستنا الأخيرة مباشرة تلقيتُ رسالة حزينة منها، وهذه السطور التالية جزء من تلك الرسالة:

لطالما تصوَّرتُ أنك قد تكتب شيئًا ما عني. كنت أريد ترك بصمة في حياتك. لا أرغب في أن أكون «مجرد مريض آخر» من مرضاك. أردتُ أن أكون شخصًا «مميَّزًا». أريد أن أكون شيئًا ما؛ أي شيء مهما كان. أشعر بأن لا قيمة لي. أنا نكِرة. ربما لو تركتُ أثرًا ما على حياتك، لأصبحتُ شخصًا مهمًّا -شخصًا لن تنساه مهما حييت- ولكان وجودي حقيقيًّا فعلًا.

أرجو منكِ يا «مارج» أن تفهمي أنه على الرغم من أنني كتبت هذه القصة عنك، فإنني لم أفعل ذلك لكي أجعل وجودك حقيقيًّا. أنتِ موجودة بالفعل من دون تفكيري فيك أو الكتابة عنك، تمامًا كما يستمر وجودي عندما لا تفكِّرين فيَّ.

مع ذلك، إن هذه القصة قصة عن الوجود بالتأكيد، لكنها معنية بـ «مارج» الأخرى، «مارج» التي لم تَعُدْ موجودة. كنت على استعداد لأن أكون جلَّادها، وأن أُضحِّي بها من أجلك أنتِ، لكنني لم أنسَها قطٌّ؛ فقد انتقمَت لنفسها بتخليد ذكراها في ذهني.

10

بحثًا عن الحالم

«الجنس هو جذر كل شيء. أليس هذا ما تقولونه دائمًا أيها الأطباء النفسيون؟ حسنًا، في حالتي أنا قد تكونون على حق. أَلقِ نظرة هنا، سترى بعض الروابط المثيرة للاهتمام بين صداعي النصفي وحياتي الجنسية».

أخرج «مارفن» مخططًا ثخينًا من حقيبته، وطلب مني أن أُمسِك بأحد طرفيه، ثم كشف، بعناية فائقة، عن جدول بطول ثلاث أقدام يُسجِّل فيه بدقة كبيرة كل صداع نصفي أُصِيب به وكل تجربة جنسية حظي بها خلال الأشهر الأربعة السابقة. تبيَّن لي من خلال نظرة واحدة تعقيد جدوله البياني، حيث رمز اللون الأزرق إلى كل نوبة صداع نصفي وشدَّتها ومدَّتها وعلاجها، أما تهيُّجاته الجنسية -باللون الأحمر- فقد عبَّر عنها باستخدام مقياس من خمس نقاط، وفقًا لأداء «مارفن»، وقد مثَّل سرعة القذف بشكل منفصل، والعجز الجنسي أيضًا، مع التمييز بين عدم قدرته على الحفاظ على الانتصاب وعجزه عن الانتصاب نهائيًّا.

لم يكن استيعاب الجدول دفعة واحدة سهلًا لكثرة البيانات فيه. قلت له: «يا له من عمل متقن! لا بد أن الأمر استغرق منك أيامًا عديدة».

- «أستمتع بصنع الجداول، وأجيد القيام بذلك. عادةً ما ينسى الناس أننا -نحن المحاسبين- نتمتع بمهارات في الرسم لا تُستخدَم أبدًا في الأعمال الضريبية. انظر إلى شهر يوليو؛ أربع حالات صداعٍ

نصفي، وكل واحدة منها يسبقها إما العجز الجنسي وإما الأداء الجنسي من الدرجة الأولى أو الثانية».

شاهدتُ إصبع «مارفن» وهي تشير إلى الصداع النصفي والعجز الجنسي الممثَّلَينِ ببُقَع صغيرة. إنه على حق؛ كانت الروابط مثيرة للإعجاب، لكن الاضطراب انتابني شيئًا فشيئًا، لأنه أفسد تحكُّمي في سير الجلسة. كنا قد بدأنا الآن جلستنا الأولى، أي إن هنالك الكثير من المعلومات التي أردت الحصول عليها قبل أن أكون مستعدًّا لتفحُّص مخطط «مارفن»، لكنه أجبرني على النظر إليه بإصرار هائل، لدرجة أن خياري الوحيد كان مشاهدة إصبعه القصيرة تتتبَّع بقايا علاقاته الجنسية في يوليو الماضي.

قبل ستة أشهر، فجأةً، ولأول مرة في حياته، أُصيب «مارفن» البالغ من العمر أربعة وستين عامًا بصداع نصفي مزمن. لقد استشار طبيب أعصاب، لكنه فشل في السيطرة على صداع «مارفن»، ثم أحاله إليَّ.

قابلتُ «مارفن» أول مرة قبل بضع دقائق فقط، عندما خرجت إلى غرفة الانتظار لمرافقته إلى المكتب. رأيته يجلس هناك بصبر. كان رجلًا أصلع قصيرًا ممتلئ الجسم، عيناه كعينَي البومة، تتلألآن ولا ترمشان قطُّ وهما تنظران من خلال نظارته الكروم الضخمة اللامعة.

سرعان ما علِمت أن «مارفن» كان يهتم كثيرًا بالنظارات؛ فقد أثنى على إطار نظارتي بعد أن صافحني مباشرةً عندما مشينا في الممر إلى المكتب وسألني عن طرازه. أعتقد أنني أخطأتُ كثيرًا عندما اعترفت بجهلي باسم الشركة المُصنِّعة، وازدادت الأمور إحراجًا عندما أزلت نظارتي لقراءة اسم العلامة التجارية على هيكل النظارة واكتشفت أنه لا يمكنني قراءته من دون النظارة. أدركتُ سريعًا، لأن نظارتي الأخرى

كانت في المنزل، أنني لن أستطيع إعطاء «مارفن» هذه المعلومة السخيفة التي أرادها، لذلك أمسكتُ بنظارتي ووضعتها أمام عينيه لكي يقرأ العلامة التجارية. للأسف، كان هو أيضًا بعيد النظر، وضاع المزيد من دقائقنا الأولى معًا عندما قام بإزالة نظارته لكي يلبس نظارة القراءة الخاصة به.

والآن، بعد بضع دقائق، قبل أن أتمكَّن من المضي قدمًا في إجراء المقابلة معه بطريقتي المعتادة، وجدتُ نفسي محاصَرًا بمخطَّط «مارفن» الذي كان قد أعدَّه بقلم رصاص باللونين الأحمر والأزرق. كلا، لم تكن بدايتنا بداية جيدة. ومما زاد المشكلة تعقيدًا أنني كنت قد انتهيتُ آنفًا من جلسة مؤثرة ومرهقة مع أرملة مُسِنَّة مشتّتة الفكر سُرقت محفظتها مؤخرًا[1]. كنت منشغلًا بالتفكير فيها قليلًا، لذا كان عليَّ أن أستنهض عزيمتي لكي أكرِّس لـ «مارفن» الاهتمام الذي يستحقه.

كنت قد تلقيتُ مذكرة استشارية موجَزة فحسب من طبيب الأعصاب الذي أحاله إليَّ، ولم أكن أعرف أي شيء عن «مارفن». بعد أن انتهينا من طقس النظارات الافتتاحي، استهللتُ الجلسة بسؤاله: «ما خطبك؟» كان ذلك عندما أجابني قائلًا: «الجنس هو جذر كل شيء. أليس هذا ما تقولونه دائمًا أيها الأطباء النفسيون؟».

فتحت المخطَّط وأخبرتُ «مارفن» بأنني أرغب في دراسته بالتفصيل لاحقًا، وسعيًا إلى استعادة توازن الجلسة بعض الشيء، طلبتُ منه أن يقصَّ عليَّ تاريخ مرضه بأكمله منذ البداية.

أخبرني أنه منذ نحو ستة أشهر، لأول مرة في حياته، بدأ يعاني من الصداع. كانت أعراضه هي أعراض الصداع النصفي المألوف ذاتها؛ الهالة البصرية (visual aura) (أي الأضواء الساطعة) والتوزُّع الأحادي

(1) إشارةً إلى قصة «مُحصنة أنا». (المترجم).

الجانب للألم المبرح الذي عكَّر حياته لساعات وساعات، وغالبًا ما تطلَّب منه الأمر أن يستلقي في الفراش في غرفة مظلمة.

«وكما تقول، إن لديك سببًا وجيهًا للاعتقاد بأن أداءك الجنسي يتسبَّب في الصداع النصفي؟».

- «قد تعتقد أن هذا الأمر غريب -بالنسبة إلى رجل في عمري وطبيعة عملي- لكن لا يمكنك الطعن في الحقائق. ها هو الدليل أمامك!» ثم أشار إلى المخطَّط الذي مكث بهدوء على طاولة مكتبي. «كل حالة صداع نصفي في الأشهر الأربعة الماضية كان قد سبقها أداء جنسي فاشل بأربع وعشرين ساعة».

تحدَّث «مارفن» بطريقة مدروسة ومتحذلقة. من الواضح أنه تدرَّب مسبقًا على طرح هذه المعلومات.

«لقد عانيتُ خلال العام الماضي من تقلبات مزاجية عنيفة؛ تارة أشعر بأنني على ما يرام، وتارة أشعر بأن نهاية العالم قد أوشكت، لكن لا تتعجَّل في استخلاص الاستنتاجات». هز إصبعه في وجهي مشددًا على ما قاله. «عندما أقول إنني على ما يرام فذلك لا يعني أنني أعاني من نوبة هوَس[1]. سبق أن سلكت هذا الطريق مع أطباء الأعصاب الذين حاولوا علاجي من اضطراب الهوَس الاكتئابي بالليثيوم، لكن نتيجة هذا العلاج الوحيدة كانت تضرُّ كلتا كِلْيَتَيَّ. أعتقد أن هذه هي الأسباب التي تدفع الناس إلى الادِّعاء على الأطباء. هل سبق لك أن رأيت أحدًا يُصاب في سن الرابعة والستين بالهوَس الاكتئابي لأول مرة؟ هل تعتقد أنتَ أن الليثيوم كان العلاج المناسب لي؟».

---

(1) من أعراض الهوس الاكتئابي تقلُّب المزاج بشكل متكرر وشعور مفرط بالثقة والتفاؤل. (المترجم).

لقد أزعجتني أسئلته، لأنها شتَّتت انتباهي ولم أتمكَّن من الإجابة عنها. هل كان حقًّا ينوي مقاضاة طبيب الأعصاب الذي عالجه؟ فأنا لا أرغب في التورط في هذه الأمور. كان عليَّ التعامل مع كَمٍّ كبير من المعطيات، لذلك التمست قدرته على الخوض في حوار فعال.

«سيكون من دواعي سروري أن أتناول هذه الأسئلة لاحقًا، لكن يمكننا الاستفادة من وقتنا اليوم على أتم وجه إذا أخبرتني أولًا بقصة مرضك بجميع تفاصيلها».

- «أنتَ محقٌّ فعلًا! لنَبقَ على المسار الصحيح. حسنًا، كما أخبرتك منذ قليل، يتقلَّب مزاجي جيئةً وذهابًا بين الشعور بالرضا والشعور بالقلق والاكتئاب معًا، ودائمًا ما أشعر بالصداع عندما يعتريني الاكتئاب. لم أُعانِ من أي حالة صداع قبل ستة أشهر!».
- «وماذا عن العلاقة بين الجنس والاكتئاب؟».
- «كنت على وشك تناول هذا الموضوع ...».

يجب أن أكون حذرًا؛ فقد بدأ يشعر بنفاد صبري. من الواضح أنه يريد سرد القصة على هواه، ليس على هوايَ أنا. بحق السماء، كُفَّ عن الضغط عليه!

«حسنًا. هذا هو الجزء الذي ستجد صعوبة في تصديقه؛ خلال الاثني عشر شهرًا الماضية، تحكَّم الجنس في مزاجي كليًّا. إذا مارست الجنس بشكل جيد مع زوجتي يبدو العالم مشرقًا، وإذا لم يكن الأمر كذلك أُصاب بالاكتئاب والصداع!».

- «حدِّثني عن نوبات الاكتئاب التي تصيبك. صفها لي».

«مثل أي حالة اكتئاب أخرى؛ أشعر بالإحباط».

- «أخبِرني بالمزيد من التفاصيل».
- «ماذا تريدني أن أقول؟ يبدو لي كل شيء مظلمًا».
- «بماذا تفكِّر خلال هذه النوبات؟».
- «لا أفكِّر في أي شيء. هذه هي المشكلة. أليس هذا هو الاكتئاب بعينه؟».
- «أحيانًا، عندما يصاب الناس بالاكتئاب، تجوب بعض الأفكار أذهانهم».
- «أقوم بإحباط نفسي بنفسي».
- «كيف ذلك؟».
- «ينتابني شعور بأن الفشل سيكون حليفي في ممارسة الجنس على الدوام، وأن حياتي بوصفي رجلًا قد قضَت نحبها. بمجرد أن يبدأ الاكتئاب، فمن المؤكد أنني سُأصاب بالصداع النصفي خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. أخبَرني أطباء آخرون أنني أدور في حلقة مفرغة. دعنا نفكر، ما الذي يجري هنا؟ عندما أكون مكتئبًا أشعر بالعجز الجنسي، وبعد ذلك، لأنني عاجز جنسيًا، أشعر بمزيد من الاكتئاب. نعم، هذا ما يحدث لي، لكن معرفة حقيقة الأمر لا تضع حدًّا له، ولا تكسر الحلقة المفرغة».
- «ما الشيء القادر على كسرها إذن؟».
- «كنت أظن أنني سأجد الإجابة عن هذا السؤال، خصوصًا أن ستة أشهر قد انقضت؛ فأنا شديد الملاحظة، لطالما كنتُ كذلك. هكذا يتقاضى المحاسبون الجيدون أجرهم، لكنني تائه؛ ففي بعض الأيام يكون أدائي الجنسي جيدًا، ويتحسن كل شيء مرة أخرى، لكن لماذا في تلك الأيام بالتحديد؟ ليس لديَّ أدنى فكرة».

وهكذا مضت الجلسة. كان شرح «مارفن» دقيقًا، لكنه كان شحيحًا أيضًا، ومزعجًا قليلًا، ومليئًا بالعبارات البالية والأسئلة وتعليقات الأطباء الآخرين. ظل حديثه مركزًا على حالته السريرية[1]؛ الأمر الذي أدهشني. وعلى الرغم من أنه طرح تفاصيل حياته الجنسية، لم تظهر عليه علامات الإحراج أو الوعي الذاتي، وبشكل عام، لم يعبِّر عن أي مشاعر عميقة.

حاولتُ في مرحلة ما أن أرفع الستار عن سلوك «الرجل الودود المُحِبّ للعِشْرة» الذي تصنَّعه «مارفن».

- «لا بد أنك تجد صعوبة في تناول الجوانب الحميمية من حياتك أمام شخص غريب. لقد قلت لي إنك لم تتحدث إلى طبيب نفسي من قبلُ».
- «لا علاقة للأشياء الحميمية على وجه الخصوص، بل بالطب النفسي؛ فأنا لا أُومِن بالأطباء النفسيين».
- «لا تؤمن بوجودنا؟» كانت محاولة غبية لإلقاء نكتة ضعيفة، لكن «مارفن» لم ينتبه إلى تعليقي الساخر.

«كلا، كلا، ليس هذا ما أقصده. أقصد أنني لا أثق بهم، وزوجتي «فيليس» (Phyllis) أيضًا حالها كحالي. عرفنا في السابق ثنائيًّا من الأزواج يعانيان من مشكلات زوجية، وكانا قد استشارا الأطباء النفسيين، وانتهى الأمر بهما في محكمة الطلاق. لا يمكنك إلقاء اللوم عليَّ لكوني أتصرف بحذر، أليس كذلك؟».

(1) أي إنه لم يتهرب من اللحظة الراهنة ولم يتطرق إلى موضوعات بعيدة عن السياق العلاجي. (المترجم).

بحلول نهاية الجلسة لم أكن قد تمكَّنتُ بعدُ من تقديم أي توصية له، فحدَّدتُ جلسة استشارية أخرى. تصافحنا، وعندما غادر مكتبي لاحظت أن رحيله أسعدني. شعرت بالأسف لأنني كنت مضطرًا إلى رؤيته مجددًا.

كنت غاضبًا من «مارفن»، لكن لماذا؟ هل بسبب سطحيته، وإغاظته لي، وهزِّه لإصبعه في وجهي، ونبرة صوته حين قال «أيها الأطباء النفسيون»؟ أم بسبب تلميحاته حول مقاضاة طبيب الأعصاب ومحاولته أن يُقحِمني في هذا الموضوع؟ أم لأنه كان متسلطًا جدًّا؟ لقد استولى على الجلسة بأكملها؛ مبتدئًا بسؤاله السخيف عن النظارات، ثم بإصراره على وضع الجدول بين يدي، سواء أردت ذلك أم لا. تخيلت أنني أمزِّق هذا الجدول إلى أشلاء مستمتعًا بكل لحظة خلال قيامي بذلك.

لكن لماذا استشطتُ غضبًا إلى هذه الدرجة؟ حسنًا، لقد عطَّل «مارفن» وتيرة الجلسة. أين المشكلة في ذلك؟ كان واضحًا وأخبَرني عن مشكلته بأكبر قدر ممكن من الدقة، واجتهد كثيرًا وفقًا لمفهومه عن الطب النفسي. على العموم، كان جدوله مفيدًا، ولو كان إعداد ذلك الجدول فكرتي لَشعرت بالسعادة. ربما كانت المشكلة مشكلتي أنا ولا علاقة له بها؟ هل أصبحت متعنتًا إلى هذا الحد وتقدَّمت في السن؟ هل كنت جامدًا جدًّا ورتيبًا لدرجة أنني صرتُ منزعجًا وضربت الأرض بقدمي امتعاضًا عندما لم تَمضِ الساعة الأولى وفقًا لرغبتي؟

عندما توجَّهت بسيارتي إلى المنزل في ذلك المساء، أمعنت التفكير في «مارفن»؛ «مارفن» الرجل و«مارفن» الفكرة. كان «مارفن» الذي هو من لحم ودم مزعجًا وباهتًا، لكن «مارفن» المشروع العلاجي كان مثيرًا للاهتمام. فكر في هذه القصة الخارقة للعادة؛ لأول مرة في حياته، هذا الرجل المتوازن -حتى وإن كان مملًّا- الذي تمتَّع بصحة جيدة

مؤخرًا في الرابعة والستين من عمره، والذي مارس الجنس مع المرأة ذاتها لمدة واحد وأربعين عامًا، أصبح فجأة حساسًا بشكل غريب تجاه أدائه الجنسي، وسرعان ما أصبحت عافيته رهينة بأدائه الجنسي. إن هذا الحالة مستفحلة (حيث إن صداعه النصفي يعكِّر صفو حياته بشكل استثنائي)، وغير متوقعة (لم يتسبَّب له الجنس في أي مشكلات غير عادية من قبلُ)، وفجائية (اندلع بكامل قوته قبل ستة أشهر بالضبط).

منذ ستة أشهر! من الواضح أن الحل كان في المتناول، وبدأتُ الجلسة الثانية باستكشاف الأحداث التي وقعت قبل ستة أشهر، والتغييرات التي طرأت في حياته بعد ذلك.

أجابني «مارفن»: «لا شيء يُذكَر».

قلت له مُلحًّا: «مستحيل»، ثم طرحت السؤال ذاته بعدة طرق مختلفة. علِمتُ أخيرًا أن «مارفن»، قبل ستة أشهر، اتخذ قرارًا بالتقاعد وبيع شركة المحاسبة الخاصة به. تكشَّفت هذه المعلومات ببطء، لكن ليس لأنه لم يكن راغبًا في إخباري عن التقاعد، بل لأن الحدث هذا لم يَعنِ له شيئًا.

لكن حَدْسي قال لي خلاف ذلك؛ إذ دائمًا ما تكون المراحل المفصلية في حياة الإنسان ذات مغزى، ويبرز التقاعد كأحد أهم هذه المراحل. كيف يُعقَل ألَّا يثير التقاعد مشاعر عميقة حول انقضاء الحياة وزوالها، وحول معنى وأهمية مشروع حياة المرء بأكمله؟ بالنسبة إلى أولئك الذين يتعمَّقون في ذاتهم، يُعتبَر التقاعد وقت مراجعة الحياة وتلخيصها، ووقت تنامي الوعي بمحدودية الوجود والاقتراب من الموت، إلا أن هذا لم ينطبق على «مارفن».

- «مشكلات بسبب التقاعد؟ لا بد أنك تمزح. هذا هو ما عمِلت لأجله طوال حياتي حتى أتمكَّن من التقاعد».

- «هل ستفتقد أي شيء يتعلَّق بعملك؟».

- «الصداع فحسب، ويمكنك القول إنني وجدت طريقة لاصطحابه معي! أقصد الصداع النصفي». ابتسم «مارفن» ابتسامة عريضة. من الواضح أنه شعر بالسرور لأنه تمكَّن من إلقاء هذه النكتة. «حقيقة، لقد أصابني عملي بالإرهاق والملل لسنين عدة. ماذا سأفتقد في رأيك؟ النماذج الضريبية الجديدة؟».

- «يثير التقاعد في بعض الأحيان مشاعر جسيمة لأنه حدَثٌ بالغ الأهمية في حياة المرء، ويذكِّرنا بمراحلها. أنت تعمل منذ متى؟ خمسة وأربعين عامًا؟ والآن تتقاعد فجأة، وتنتقل إلى مرحلة جديدة. عندما أتقاعد أنا، أعتقد أن ذلك سيوضِّح لي بشكل غير مسبوق، أكثر من أي وقت مضى، أن الحياة لها بداية ونهاية، وأنني كنت أنتقل ببطء من نقطة إلى أخرى عبر السنين، وأن نهايتي صارت على بعد خطوات فقط».

- «مجال عملي هو المال، والمال هو المغزى هنا. إن تقاعدي يعني أنني كسبت الكثير من المال لدرجة أنني لست بحاجة إلى كسبه بعد الآن. ما الهدف من ذلك؟ الأرباح التي أجنيها تمكِّنني من أن أعيش عيشة مريحة للغاية».

- «لكن حقًّا يا «مارفن»، ماذا سيعني لك عدم العمل مرة أخرى؟ لقد عملت طوال حياتك. لقد حصلت على معنى وجودك من خلال العمل. لديَّ حَدْس بأن التخلي عنه أمر مخيف».

- «ما حاجتي إليه؟ يُنهِك بعض زملائي أنفسهم في تكديس الأموال حتى يتمكَّنوا من العيش على الفوائد المركَّبة. هذا هو الجنون بعينه! عليهم هم أن يستشيروا أطباء نفسيين».

لفٍّ ودوران! لفٍّ ودوران! دعوت «مارفن» مرارًا وتكرارًا لكي يتأمل في ذاته ويتبنّى ولو لِلَحظة واحدة منظورًا كونيًا يحدِّد مخاوفه الوجودية العميقة؛ إحساسه بمحدوديته والشيخوخة والزوال، وخوفه من الموت، المصدر الذي يَمُدُّه بهدفه في الحياة، لكن لم تكن هناك نقطة التقاء فيما بيننا؛ لقد تجاهلني وأساء فهمي. بدَا كأنه ملتصق بالأمور السطحية.

بعد أن سئمت من السفر وحيدًا في هذه الرحلات الباطنية، قررت التعامل مع مخاوف «مارفن» من كثب. تحدَّثنا عن عمله، وعَلِمتُ أنه عندما كان صغيرًا جدًّا، اعتبره والداه وبعض معلّميه معجزة في الرياضيات. عندما كان في سن الثامنة، خضع لتجربة أداء في برنامج «كويز كيدز» (Quiz Kids)[1] الإذاعي من دون أن يجتازها، لكنه لم يَرْقَ يومًا إلى مستوى تطلعات الآخرين.

شعرتُ أنه تنهَّد عندما قال ذلك، فسألته: «لا بد أن هذا ترك جرحًا عميقًا فيك. هل تعافيت منه كما يجب؟».

أجابني قائلًا: «إنني ربما كنت أصغر سنًّا من أن أفهم كم كان عدد الأولاد الذين لم يجتازوا تجربة الأداء في «كويز كيدز» في الثامنة من العمر».

- «لا تتبع المشاعرُ القواعدَ العقلانية دائمًا. في الواقع، لا أعتقدُ أن هذا يحدث كثيرًا».
- «لو استسلمتُ للمشاعر في كل مرة تعرضت فيها للأذى لما حقَّقت أي شيء في حياتي».
- «لاحظتُ أنك تجد صعوبة في التحدث عن جروح الماضي».

(1) مسابقة ثقافية للأطفال اللامعين استمرت من 1940 حتى 1956. (المترجم).

- «كنت واحدًا بين مئات الأولاد. لم تكن مشكلة كبيرة».

- «ولاحظتُ أيضًا أنني كلما حاولتُ التقرب منك قلتَ لي إنك لست بحاجة إلى أي شيء».

- «لقد جئت إليك طلبًا للمساعدة، وسأجيب عن جميع أسئلتك».

من الواضح أن اجتذابه بشكل مباشر لن يُجدِي نفعًا. سوف يستغرق الأمر من «مارفن» وقتًا طويلًا قبل أن يصارحني بضعفه، لذا عُدتُ أدراجي إلى جمع الحقائق. نشأ «مارفن» في «نيويورك»، وكان والداه يهوديَّين فقيرين من الجيل الأول. تخصَّص في الرياضيات في كلية في مدينة صغيرة، وفكَّر لفترة وجيزة في الالتحاق بكلية الدراسات العليا، لكنه كان ينتظر الزواج بفارغ الصبر، حيث إن «فيليس» كانت حبيبته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره، ولأنه لم يكن لديه أي موارد مالية، قرَّر أن يصبح مدرسًا في مدرسة ثانوية.

بعد ستِّ سنوات من تدريس علم المثلثات، شعر «مارفن» بأنه وصل إلى طريق مسدود، واستنتج أن مغزى الحياة هو تحصيل الثروة. كانت مجرد فكرة أن يعيش خمسة وثلاثين عامًا أخرى على راتبه مدرسًا في مدرسة ثانوية أمرًا لا يُطاق. أصبح حينها على يقين من أن قرار التدريس في المدرسة كان خطأً فادحًا، وبعد أن أتم عامه الثلاثين شرع في تصحيحه. التحق بدورة محاسبة مكثفة، ثم ودَّع طلابه وزملاءه وافتتح شركة محاسبة، أثبتت له في النهاية أنها مربحة للغاية، ثم من خلال الاستثمارات المدروسة في عقارات «كاليفورنيا» أصبح رجلًا ثريًّا.

«بهذا نكون قد وصلنا إلى اللحظة الراهنة يا «مارفن». إلى أين ستتجه حياتك من هنا؟».

- «حسنًا، كما قلت لك، ليس هناك فائدة من جمع المزيد من الأموال. لا أطفال لديَّ ...» -هنا أصبح صوته شاحبًا- «ولا أقارب فقراء، ولا أنوي التبرع بمالي للجمعيات الخيرية».
- «بدَا صوتك حزينًا عندما قلت إنه لا أطفال لديك».
- «لقد مضى ما مضى. شعرتُ بخيبة الأمل حينها، لكن كان ذلك منذ وقت طويل، قبل خمسة وثلاثين عامًا. لديَّ الكثير من الخطط؛ أريد أن أسافر، أريد أن أضيف المزيد إلى مجموعاتي من الطوابع، وأزرار الحملات السياسية، وأزياء «البيسبول» القديمة، ومجلة «ريدرز دايجست» (Reader's Digest)، عسى أن تكون بديلًا للأطفال».

بعد ذلك، استكشفتُ علاقة «مارفن» بزوجته التي أصرَّ على أنها تنسجم معه إلى أبعد الحدود. «بعد واحد وأربعين عامًا ما زلت أشعر أن زوجتي سيدة عظيمة. لا أحب البقاء بعيدًا عنها، حتى لِلَيلة واحدة. في الواقع، يمتلأ قلبي بالدفء عندما أرى وجهها في نهاية اليوم، ويتلاشى كل توتُّري. يمكنك أن تقول إنها مثل الفاليوم (Valium) بالنسبة إليَّ».

وفقًا لـ «مارفن»، كان نشاطهما الجنسي رائعًا قبل ستة أشهر. إنهما متزوجان منذ واحد وأربعين عامًا، لكن لا يبدو أن السنين قد أثرت على البريق والعاطفة في علاقتهما. عندما بدأ العجز الجنسي يحدث بشكل دوري مع «مارفن»، أظهرَت «فيليس» في البداية تفهمًا وصبرًا كبيرين، لكن خلال الشهرين الماضيين، أصبحت سريعة الانفعال. قبل أسبوعين فقط، كانت قد تذمرت من أنها سئمت من «التعرض للاستغلال»؛ أي أن تُستثار جنسيًا من دون أن تبلغ الذروة.

كان «مارفن» يُقدِّر مشاعر «فيليس» كثيرًا، وكان منزعجًا للغاية عندما شعر بأنه أغضبها. كان يكتئب لعدة أيام بعد نوبة من العجز الجنسي، واعتمد على «فيليس» كليًّا لاستعادة توازنه. في بعض الأحيان كانت تعيد له رباطة جأشه ببساطة بطمأنته بأنها لا تزال تعتقد بأنه رجل فحل، وأنه يحتاج إلى بعض الراحة الجسدية فحسب، ثم تُحمِّمه بالصابون في الحمام، وتحلق له شعره، وتقوم بتدليكه، ثم تضع عضوه التناسلي الرخو في فمها إلى أن ينتصب.

لقد أدهشني في المقابلة الثانية، كما في المقابلة الأولى، عدم شعور «مارفن» بالدهشة من قصته. أين كان فضوله بأن حياته قد تغيَّرت تغيرًا جذريًّا، لدرجة أن مستقبله وسعادته، وحتى رغبته في الحياة، أصبحت خاضعة كليًّا لقدرته على الحفاظ على انتفاخ عضوه التناسلي من عدمها؟

كان الوقت قد حان لكي أقدم اقتراحًا لـ «مارفن» حول علاجه. لم يكن «مارفن» أهلًا لتلقِّي علاج استكشافي عميق، وذلك لعدة أسباب. لطالما وجدت صعوبة في التعامل مع هؤلاء الذين يفتقرون إلى الإحساس بالفضول. وعلى الرغم من أنه يمكنني مساعدته على الكشف عن مشاعر الفضول، فلن تتوافق هذه العملية الدقيقة والطويلة مع رغبة «مارفن» في علاج موجز وفعَّال. عندما تأملت في أول جلستين، أدركت أنه أيضًا قاوم جميع مناشداتي له بأن يتعمق في مشاعره. يبدو أنه لم يفهم قصدي؛ فلم تكن هناك نقطة التقاء فيما بيننا، ولم يكن مهتمًّا بالمغزى الدفين للأحداث. كما قاوم محاولاتي لتبادل أطراف الحديث معه على صعيد شخصي ومباشر. على سبيل المثال، عندما سألته عن جروح الماضي، أو عندما قلت له إنه تجاهل كل محاولاتي للتقرب منه.

كنت على وشك تقديم توصيتي الرسمية بأن يبدأ ببرنامج علاج سلوكي معرفي (نهج مبني على تغيير الجوانب الملموسة لسلوك الأفراد، وعلى وجه الخصوص، التواصل في العلاقات الزوجية والسلوكيات والعادات الجنسية) عندما قال «مارفن»، بشكل عابر تقريبًا، إن بعض الأحلام قد راودته خلال الأسبوع.

كنت قد استفسرت عن أحلامه خلال الجلسة الأولى. ومثل العديد من المرضى الآخرين أجاب قائلًا إنه لا يستطيع تذكر تفاصيل حلم واحد على الرغم من أنه كان يحلم كل ليلة. اقترحت عليه الاحتفاظ بدفتر ملاحظات بجانب سريره لكي يدوِّن أحلامه، لكن بدَا أنه لا يهتم بمشاعره الداخلية البتة، مما جعلني أشكِّك في أنه سينفِّذ الأمر، وتهاونت عن الاستفسار عنها في الجلسة الثانية.

أخرج مفكرته وبدأ في قراءة سلسلة من الأحلام:

كانت «فيليس» مضطربةً لأنها لم تُحسِن التصرف معي في الآونة الأخيرة، ثم غادرَت عائدة إلى المنزل، لكن عندما تَبِعتُها إلى هناك كانت قد اختفت. رأيتُ قلعة كبيرة على جبل مرتفع، وخشيتُ أن أجدها ميتة فيها. بعد ذلك حاولتُ الدخول إلى إحدى الغرف من خلال النافذة لأنني اعتقدت أن جثتها هناك. كنتُ على حافة ضيقة عالية، ولم أستطع الذهاب أبعد من ذلك، لكنني لم أتمكَّن من الالتفاف والعودة بسبب شدة ضيق الحافة. خفت أن أسقط، ثم خشيت أن أقفز وأقتل نفسي.

كنت أنا و«فيليس» نخلع ملابسنا لكي نمارس الحب. كان «وينتورث» (Wentworth) –أحد شركائي– الذي يزن مئتين وخمسين رطلًا، هناك في الغرفة، كما وقفت والدته في الخارج. اضطررنا إلى عصب عينيه حتى نتمكَّن من الاستمرار. عندما ذهبتُ إلى الخارج لم أستطع أن أشرح لوالدته لماذا قمنا بعصب عيني ابنها.

رأيت مجموعة من الغجر يتجمعون على شكل معسكر في الردهة الأمامية لمكتبي. جميعهم كانوا متَّسخين؛ أيديهم وملابسهم والحقائب التي كانوا يحملونها. سمعت الرجال يتهامسون ويتآمرون بنبرة تهديدية. سألت نفسي لماذا سمحَت لهم السلطات بالتخييم في العراء.

رأيتُ الأرض تحت منزلي تتحول إلى سائل. كان لديَّ مثقب عملاق، وعرفت أنني سأضطر إلى الحفر على عمق خمس وستين قدمًا لإنقاذ المنزل. اصطدمت بطبقة من الصخور الصلبة، وأيقظتني الاهتزازات.

أحلامٌ مدهشة! ما مصدرها يا تُرى؟ هل يُعقَل أن «مارفن» رأى هذه الأحلام فعلًا؟ رفعت نظري إليه متوقعًا أن أرى شخصًا آخر يجلس أمامي، لكنه كان لا يزال هناك، ينتظر بصبر سؤالي التالي، بعينيه الفارغتين خلف نظارته اللامعة.

بضع دقائق وتنتهي الجلسة. سألت «مارفن» إذا ما كان قد شكَّل أيَّ ارتباطات بأي جانب من جوانب هذه الأحلام، فاكتفى بهز كتفيه. كانت لغزًا بالنسبة إليه. لقد طلبت منه أن يقصَّ عليَّ أحلامه، وقام بذلك، هذا كل ما في الأمر.

بصرف النظر عن الأحلام، شرعتُ في اقتراح برنامج علاج زواجي، ربما من ثماني جلسات إلى اثنتي عشرة جلسة، وقدَّمت له اقتراحات أخرى؛ أن أعمل على علاجهما معًا، أو أن أُحيلهما إلى شخص آخر، أو أن أُحيل «فيليس» إلى معالِجة نفسية لبضع جلسات، لنقوم بعد ذلك نحن الأربعة -«فيليس» و«مارفن» وأنا ومعالِجتها- بالاجتماع خلال جلسات مشتركة.

أنصت «مارفن» باهتمام إلى ما قلته، لكن تعابير وجهه كانت جامدة جدًّا، لدرجة أنني لم أتمكَّن من قراءة مشاعره. عندما سألتُه عن رأيه

تصرَّف بشكل رسمي غريب وقال: «سأضع اقتراحاتك بعين الاعتبار وأُعلِمك بقراري».

هل أُصيبَ بخيبة أمل؟ أم شعر بأنّه قوبل بالرفض؟ لم أستطع تحديد مشاعره. بدَا لي في ذلك الوقت أن توصيتي كانت صحيحة. الخلل الوظيفي الذي عانى منه «مارفن» كان حادًّا، وقد يتجاوب، كما اعتقدت، مع برنامج علاجي سلوكي معرفي موجز. علاوة على ذلك، كنت مقتنعًا بأنه لن يستفيد من العلاج الفردي، وأشارت كل العوامل إلى فشله. كان «مارفن» صعب المراس للغاية. ببساطة، كان يفتقر إلى «التعقل النفسي»، وفقًا لمصطلحات مهنتنا.

ومع ذلك، لقد فاتتني، مع الأسف، فرصة العمل على علاجه بعمق. لقد أثارت ديناميكية حالته اهتمامي إلى أبعد الحدود. تيقينت من أنّ انطباعي الأول كان دقيقًا؛ أي إن تقاعده الوشيك قد أجَّج فيه الكثير من القلق بشأن المحدودية والشيخوخة والموت، وأنه كان يحاول التعامل مع هذا القلق من خلال الهيمنة على نشاطه الجنسي، بل إن الكثير من اهتمامه مركزٍ على الفعل الجنسي، لدرجة أن هذا الفعل كان مُرهَقًا، وبالنتيجة، مرتبكًا.

في رأيي، كان «مارفن» مخطئًا تمامًا عندما قال إن الجنس كان أصل جميع مشكلاته. على العكس تمامًا، كان الجنس مجرد وسيلة غير فعَّالة يحاول من خلالها تجفيف موجات القلق النابعة من مصادر أكثر أهمية. حينًا بعد حين، كما أظهر لنا «فرويد» في السابق، يُعبِّر المرء عن القلق الصادر من الجنس باللجوء إلى وسائل أخرى منحرفة. وقد يكون العكسٍ هو الصحيح في كثير من الأحيان؛ أي إن مشاعر القلق الأخرى قد تتنكر على شكل قلق جنسي. كان حلمه حول المثقب العملاق جليًّا

إلى أبعد الحدود؛ كانت الأرض تحت قدمَيْ «مارفن» تتحول إلى سائل (صورة بصرية مُلهِمة تشير إلى انعدام الأسس لديه)، وكان يحاول محاربة ذلك عن طريق الحفر بقضيبه، على عمق خمس وستين قدمًا (أي خمسة وستين عامًا)!

أما الأحلام الأخرى فكانت دليلًا على العالم الوحشي الكامن تحت مظهر «مارفن» الخارجي الهادئ؛ عالم يجتاحه الموت والقتل والانتحار والغضب تجاه «فيليس»، ومخاوفه من الأشباح المتسخة والخطيرة التي تتفجر داخله. أعتقد أن الرجل المعصوب العينين، في الغرفة التي كان سيمارس فيها «مارفن» و«فيليس» الحب، مثير للاهتمام على وجه الخصوص. عند تفحُّص المشكلات الجنسية، من المهم دائمًا أن نسأل: هل هناك أكثر من شخصين حاضرين في أثناء ممارسة الحب؟ إذ إن وجود الآخرين -أطياف الآباء أو الأمهات أو الأنداد أو العشاق الآخرين- يُعقِّد الفعل الجنسي إلى حد كبير.

لكن العلاج السلوكي هو الخيار الأمثل. كان من الأفضل ألَّا أرفع الغطاء عن هذا العالم السفلي. كلما فكرت في الأمر، شعرت بسعادة أكبر لأنني كبحتُ فضولي وتصرَّفتُ بشكل إيثاريٍّ منهجي من أجل مصلحة المريض.

على أي حال، نادرًا ما نحصل على المكافآت عند اللجوء إلى العقلانية والدقة في العلاج النفسي. بعد بضعة أيام اتصل «مارفن» وطلب تحديد موعد آخر. كنت أتوقَّع أن ترافقه «فيليس»، لكنه حضر بمفرده، وبدَا قلقًا ومُرهَقًا. في ذلك اليوم تخلَّى عن المقدمات الافتتاحية ودخل في صلب الموضوع مباشرة.

«يا له من يوم سيئ! أشعر بالبؤس. لكن أولًا، أود أن أقول إنني أقدِّر الاقتراح الذي قدَّمتَه الأسبوع الماضي. بكل صدق، كنت أتوقع أن تنصحني بزيارتك ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع على مدار السنوات الثلاث أو الأربع القادمة. لقد حذَّرني الآخرون من أن الأطباء النفسيين يفعلون ذلك بغض النظر عن المشكلة، وهذا لا يعني أنني ألومكم، ففي نهاية المطاف هذا عملكم ولا بد أن تكسبوا لقمة العيش.

نصيحتك حول العلاج الزواجي بدَت منطقية بالنسبة إليَّ. نعاني أنا و«فيليس» بالفعل من بعض المشكلات في التواصل، أكثر مما أخبرتك به الأسبوع الماضي. في الواقع، لقد قلَّلتُ من هول القضية عندما عرضتها عليك. لقد واجهت بعض الصعوبات في ممارسة الجنس -لكنها كانت أقل سوءًا مما هي عليه اليوم- على امتداد آخر عشرين عامًا، مما جعل مزاجي متقلبًا بشكل دائم، لذلك قررت أن آخذ بنصيحتك، لكن «فيليس» تأبى التعاون. إنها ترفض زيارة معالج أزواج أو معالج جنسي أو أي أحد آخر. طلبتُ منها أن تأتي اليوم فقط للتحدث معك، لكنها تمسَّكت بموقفها بعناد».

- «لكن لماذا؟».

- «سأتناول ذلك بعد قليل، لكن أولًا، أريد الحديث عن شيئين آخرين اليوم». صمت «مارفن» هنا. في البداية ظننت أنه كان يحاول التقاط أنفاسه؛ فقد تحدث بسرعة كبيرة، لكنه كان يستجمع شتات نفسه، فأدار ظهره ونظَّف أنفه ومسح عينيه خلسة.

ثم تابع: «لقد وصلت إلى الحضيض. خلال هذا الأسبوع عانيتُ من أسوأ صداع نصفي على الإطلاق، واضطررت إلى الذهاب إلى غرفة الطوارئ الليلة قبل الماضية لأخذ حقنة».

- «نعم، تبدو مُرهَقًا اليوم».
- «آلام الصداع تكاد تقتلني، ومما يزيد الطين بلة أنني لا أستطيع النوم. رأيت كابوسًا الليلة الماضية أيقظني في نحو الثانية صباحًا، وظللت أعيد تخيله طوال الليل. ما زلت عاجزًا عن صرفه عن ذهني».
- «دعنا نستعرضه معًا».

بدأ «مارفن» في قراءة الحلم بطريقة ميكانيكية جدًّا، لدرجة أنني طلبت منه التوقف، ثم استخدمتُ نهج «فريتز بيرلز» (Fritz Perls)[1] القديم طالبًا منه البدء من جديد ووصف الحلم بصيغة الزمن الحاضر، كما لو كان يرى الحلم الآن. وضع «مارفن» مفكرته جانبًا وسرده مستندًا إلى ذاكرته:

أرى رجلين طويلَي القامة بوجهين شاحبين وجسدين هزيلين للغاية. يمشيان الهوينى في مرج مظلم بصمت مطبق. يرتديان ملابس سوداء بالكامل؛ قبعتين عاليتين سوداوين، ومعطفين طويلين، وحذاءين أسودين مع غطاءين أسودين للكاحل. يشبهان الحانوتيَّة أو أعضاء حركة الاعتدال (Temperance)[2] من العصر الفيكتوري. فجأة يصادفان عربة أمامهما، لونها أسود أبنوسي، تحتضن طفلة ملفوفة بشاش أسود. من دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، يبدأ أحد الرجلين في دفع العربة. يتوقف بعد مسافة قصيرة، ويمشي إلى الأمام، ومن ثَم ينحني ويقوم بإزالة الشاش بعصاه السوداء ذات الرأس الأبيض المتوهج، ويُدخِل هذا الرأس بشكل منهجي في مهبل الطفلة.

(1) من أبرز علماء النفس في التاريخ، مؤسس علاج «الغشتالت». (المترجم).
(2) حركة اجتماعية كانت تدعو الناس إلى عدم تناول المشروبات الكحولية. نشطت في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين في عدة بلدان، مثل أمريكا وكندا والنرويج وفنلندا. (المترجم).

لقد أصابني هذا الحلم بالدهشة، وتجسَّدَت صُوَره الصارخة على الفور في ذهني. نظرتُ متعجبًا إلى «مارفن»، الذي بدَا غير متأثر وغير مدرك لشدة الحلم الذي ابتكره لاوعيُه. ظننتُ أن هذا لم يكن حلمه هو، ولا يمكن أن يكون كذلك، ولا يمكن أن ينبثق من «مارفن»؛ لقد كان مجرد الوسيط الذي استخدم شفتيه لسرد الحلم. تساءلت في نفسي: كيف يمكنني مقابلة صاحب الحلم؟

في الواقع، لقد دعم «مارفن» هذه الفكرة الغريبة لأنه لم يكن مُلمًّا بالحلم نهائيًّا، وتفاعل معه كما لو أنه يقرأ نصًّا غريبًا. طبعًا، شعرَ بالخوف أثناء سرده، وهزَّ رأسه كما لو كان يحاول إخراج طعم الحلم السيئ من فمه.

وجَّهت تركيزي إلى مشاعر القلق: «لماذا وصفتَ الحلم بأنه كابوس؟ أي جزء من الحلم بثَّ فيك الرعب بالضبط؟».

- «بعد أن فكَّرت في الأمر الآن، فإن آخر جزء منه؛ وَضْع العصا في مهبل الطفلة، هو الجزء المرعب، لكنني لم أعتقد ذلك خلال الحلم. الذي أشعرني بالرعب هو كل شيءٍ آخر: الخُطى الصامتة، والسواد، والحَدْس العميق بأن شيئًا مشئومًا سيحدث. كان الحلم بجميع تفاصيله مشبَعًا بالخوف».
- «ما الشعور الذي انتابك خلال الحلم حول إدخال العصا في مهبل الطفلة؟».
- «إذا كان هناك أي شعور لديَّ حول هذا الجزء، فأعتقد أنه كان شعورًا ذا تأثير مُسكِنٍ تقريبًا، كما لو أنه هدَّأ الحلم، أو بالأحرى حاول فعل ذلك وفشل. لا شيء من هذا يبدو منطقيًّا بالنسبة إليَّ، فأنا لم أُومِن يومًا بالأحلام».

أردت مناقشة الحلم بشكل موسَّع، لكن كان عليَّ صبُّ انتباهي على احتياجاته الآنية. إن عدم رغبة «فيليس» في التحدث معي، ولو مرة واحدة من أجل مساعدة زوجها الذي كان في حالة حرجة جدًّا، دحض رواية «مارفن» عن زواجه المثالي والمتناغم. وجب عليَّ المواصلة بحذر بسبب مخاوفه (ومخاوف «فيليس» أيضًا بلا شك) من أن المعالجين النفسيين يتطفَّلون على المشكلات الزوجية ويُؤجِّجونها، لكن كان لا بد أن أكون متأكدًا قطعًا من أنها كانت تُعارِض علاج الأزواج بشدة. تساءلتُ الأسبوع الماضي إذا ما كان «مارفن» قد شعر بأنَّني قابلته بالرفض. ربما كانت هذه حيلة لجأ إليها لكي يتلاعب بي من أجل أن أقدِّم له برنامج علاج فرديًّا. يا تُرى، ما مقدار الجُهد الذي بذله «مارفن» في إقناع «فيليس» بالمشاركة معه في العلاج؟

أكد لي «مارفن» أن زوجته امرأة عنيدة جدًّا.

«لقد أخبرتك أنها لا تؤمن بالطب النفسي، لكن المسألة تتجاوز ذلك بكثير؛ فهي ترفض استشارة أي طبيب، ولم تخضع لفحص أمراض النساء منذ خمسة عشر عامًا. لا يمكنني إلا اصطحابها إلى طبيب الأسنان عندما تعاني من ألم في أسنانها».

فجأة، عندما طلبت منه ذكر أمثلة أخرى عن عناد «فيليس»، ظهرت بعض الأشياء غير المتوقَّعة.

«حسنًا، يبدو أنه لا مهرب من إخبارك بالحقيقة، لأنه ليس هناك جدوى من إنفاق أموالي على العلاج بينما أنا أجلس هنا وأكذب عليك. تعاني «فيليس» من بعض المشكلات، ومشكلتها الرئيسية هي أنها تخشى الخروج من المنزل. أعتقد أن هذا المرض له اسم ما، لكني نسيته».

- «رهاب الخلاء (agoraphobia)؟».

- «نعم، بالضبط. لقد عانت منه لسنوات وسنوات. نادرًا ما تغادر المنزل لأي سبب من الأسباب إلا من أجل ...» -انخفض هنا صوت «مارفن» واكتسب نبرة سرِّية- «... الهروب من خوف آخر».
- «أي خوف آخر هذا؟».
- «الخوف من الناس الذين يزورون المنزل!».

ثم قال لي إنهما لم يستضيفا أحدًا في المنزل منذ سنوات عدة، لا، بل منذ عقود. وإذا كان عليهما استضافة الناس -على سبيل المثال، في حالة قدوم أفراد الأسرة من خارج المدينة لزيارتهما- كانت «فيليس» على استعداد لاستقبالهم في مطعم ما: «على أن يكون مطعمًا بأسعار منخفضة، لأن «فيليس» تكره إنفاق المال». وأضاف «مارفن» أن المال كان سببًا آخر لمعارضتها العلاج النفسي.

إضافة إلى ذلك، لم تسمح «فيليس» لـ «مارفن» باستقبال أي أحد في المنزل. قبل أسبوعين، على سبيل المثال، اتصل بعض الضيوف من خارج المدينة ليسألوا إذا ما كان بإمكانهم إلقاء نظرة على مجموعة أزرار الحملات السياسية التي يملكها. لم يكلِّف «مارفن» نفسه عناء سؤال «فيليس» إذا ما كانت ستقبل ذلك، كان يعلم أنه سيُجَنُّ جنونها، وإذا حاول فرض الأمر عليها فسوف «تحرمه من مضاجعتها إلى إشعار آخر»، حسب قوله. وبالتالي، كما فعل في السابق أكثر من مرة، قضى معظم اليوم في حزم مجموعة الأزرار بأكملها لكي يعرضها في مكتبه.

أوضحت لي هذه المعلومات الجديدة أن «مارفن» و«فيليس» بحاجة ماسَّة إلى العلاج الزواجي، ولكن تطورًا جديدًا قد طرأ الآن. لقد عجَّت أحلام «مارفن» الأولى بالأيقونات البدائية كثيرًا، لدرجة أنني كنت أخشى

في الأسبوع السابق أن العلاج الفردي قد يحطِّم صمام أمان هذا اللاوعي الغاضب، وارتأيتُ أن العلاج الزواجي سيكون أكثر أمانًا. أما الآن، بظهور هذا الدليل على العلاقة المَرَضية الشديدة فيما بين «مارفن» وزوجته، خطر لي أن العلاج الزواجي قد يتسبب في مشكلات هائلة أيضًا.

أكدتُ لـ «مارفن» أنني، بعد أن وضعت كل شيء في عين الاعتبار، ما زلت أعتقد أن العلاج الأفضل هو علاج الأزواج السلوكي، لكن علاج الأزواج يتطلب وجود الزوجين، وإذا لم تكن «فيليس» مستعدة بعدُ للحضور (الأمر الذي أكده على الفور)، فقد أخبرته أنني أرحب بعلاجه فرديًا.

«لكن كن حذرًا، فمن المرجح أن يتطلَّب العلاج الفردي عدة أشهر، أو سنة، أو أكثر من ذلك، ولن تكون التجربة حديقة من الورود، فقد تظهر فيها بعض الأفكار أو الذكريات المؤلمة التي ستزيد مؤقتًا من عدم الارتياح الذي تشعر به الآن».

قال «مارفن» إنه قد فكَّر فعلًا في الأمر خلال الأيام القليلة الماضية، وكان يرغب في البدء على الفور. اتفقنا أن نلتقي مرتين أسبوعيًا.

كان جليًّا أن كلينا لديه بعض التحفظات؛ حيث استمر «مارفن» في التشكيك في العلاج النفسي ولم يُظهِر اهتمامًا كبيرًا بالخوض في أعماق ذاته، ولم يوافق على العلاج إلا لأنه وقف عاجزًا أمام الصداع النصفي ولم يكن لديه خيار آخر يلجأ إليه. أما أنا فكان سبب تحفظي هو أنني كنت متشائمًا جدًّا بشأن علاجه. وافقت على علاجه لأنني لم أرَ أي خيار علاجي آخر قابلًا للتطبيق.

كان بإمكاني إحالته إلى معالج غيري، إلا أن هناك سببًا آخر؛ ذلك الصوت؛ صوت الكائن الذي خلق لاوعيُه تلك الأحلام المذهلة. كان

هناك حالم مدفون في مكان ما في أعماق «مارفن» ينقر على الجدران محاولًا إيصال رسالة وجودية عاجلة. تصوَّرتُ مشهد الحلم مجددًا، وعدتُ إلى العالم الصامت السوداويِّ للرجلين الهزيلين، والمرج المظلم، والطفلة الملتحِفة بالشاش الأسود. فكّرت في الطرف المتوهِّج من العصا والفعل الجنسي الذي لم يكن ذا طابع جنسي حقًّا، إنما مجرد محاولة غير مجدية لإزالة مشاعر الرهبة.

تساءلت إذا ما كان تنكُّره أمرًا غير ضروري، وإذا كان بإمكان الحالم التحدث إليَّ من دون مكر فماذا يمكن أن يقول؟

«أنا عجوز قد وصل إلى نهاية مسيرته المهنية. ليس لديَّ أطفال، وأدنو من الموت بقلب يغصُّ بالذعر. الظلام يخنقني، صمت الموت يخنقني. أعتقد أنني أعرف ما الحل. أحاول اختراق هذا السواد بتعويذتي الجنسية، لكن ذلك لا يفي بالغرض».

إلا أن هذه كانت تأملاتي أنا، ولا علاقة لـ «مارفن» بها. لقد طلبت منه أن يشكِّل ارتباطات بالحلم، وأن يفكِّر فيه، وأن يقول أي شيء يتبادر إلى ذهنه، لكنه لم يتفوَّه بشيء، واكتفى بهز رأسه.

«أنت تهز رأسك رفضًا على الفور تقريبًا. حاوِل مرةً أخرى. امنح نفسك فرصة. خذ أي جزء من الحلم ودَعْ أفكارك تتجول فيه».

لم أحصل على أي إجابة منه على الإطلاق.

«ما رأيك في العكاز ذي الرأس الأبيض؟».

ابتسم «مارفن» ابتسامة ساخرة. «كنت أتساءل متى ستطرح هذا السؤال! ألم أقل لك سابقًا أنكم يا علماء النفس ترون أن الجنس أصل كل شيء؟».

وجدتُ مفارَقة في اتهامه، لأنني إذا كنت متأكدًا من شيء واحد حول «مارفن»، فهو أن الجنس لم يكن مصدر مشكلاته.

«لكنه حلمك أنتَ يا «مارفن»، وعكازك أنت. أنت الذي صنعته. ماذا يعني لك هذا العكاز؟ وما رأيك في التلميحات إلى الموت؛ الحانوتيَّين، والصمت، والسواد، والجو المرعب والمُنذِر بالشؤم على العموم؟».

عندما وجد «مارفن» نفسه مخيَّرًا ما بين مناقشة الحلم من منظور الموت أو الجنس، اختار هذا الأخير على الفور.

«حسنًا، قد يهمك أن تعرف عن شيء ذي طابع جنسي حدث بعد ظهر أمس، قبل نحو عشر ساعات من الحلم. كنتُ مستلقيًا على السرير في طور التعافي من الصداع النصفي. جاءت «فيليس» ودلَّكت رأسي ورقبتي، ثم ظهري، ثم ساقي، ثم قضيبي. جرَّدتني من ملابسي ثم خلعَتْ كل ملابسها».

لا بد أن هذا كان حدثًا استثنائيًا؛ فقد أخبرني «مارفن» أنه هو الذي كان يبادر إلى ممارسة الجنس على الدوام تقريبًا. اعتقدتُ أن «فيليس» أرادت التكفير عن ذنبها بسبب رفضها استشارة معالج الأزواج.

«في البداية لم أتجاوب معها».

- «لِمَ لا؟».
- «حقيقةً، كنت خائفًا. كنت على وشك التعافي من أسوأ نوبة صداع نصفي على الإطلاق، وخشيت أن أفشل في أدائي ثم أصاب بصداع نصفي آخر. لكن «فيليس» وضعت قضيبي في فمها حتى انتصب. لم أرها مثابرة إلى هذا الحد من قبلُ. قلت لها أخيرًا: «لنذهب إلى السرير، قد تكون ممارسة الجنس بشكل

جيد الشيء الوحيد الذي سيخلِّصنا من بعض هذا التوتر».

صمت «مارفن» مؤقتًا.

«لماذا صمتَّ؟».

- «أحاول تذكُّر كلماتها بالضبط. على أي حال، بدأنا في ممارسة الحب. أبليت بلاءً حسنًا، ولكن عندما كنت على وشك بلوغ الذروة، قالت «فيليس»: «هناك أسباب أخرى لممارسة الحب غير التخلُّص من التوتر». كان ذلك كفيلًا بأن يفقدني انتصابي في ثانية واحدة!».

- «هل أخبرتَ «فيليس» بالضبط عن شعورك حيال التوقيت الذي قالت فيه ما قالته؟».

- «اختيارها للتوقيت سيئ دائمًا؛ لطالما كان كذلك. لكنني كنت غاضبًا جدًّا ولم أرغب في التحدث، وكنت خائفًا مما قد أقوله أيضًا. فإذا قلت الشيء الخطأ، فبمقدورها أن تُنغِّص عيشتي، وأن تمتنع عن ممارسة الجنس معي كليًّا».

- «ما الشيء الذي يمكن أن تقوله لها؟».

- «أنا خائف من دوافعي؛ دوافعي الإجرامية والجنسية».

- «ماذا تقصد؟».

- «هل تتذكر ذلك الخبر عن الرجل الذي قتل زوجته بسكب الأسيد عليها؟ يا له من شيء مروع! لكن، مع ذلك، لقد فكَّرت كثيرًا في تلك الجريمة. أتفهم كيف يمكن أن يؤدي الغضب تجاه امرأة إلى جريمة كهذه».

يا إلهي! كان لاوعيُ «مارفن» أقرب إلى إدراكه مما كنت أعتقد. تذكرتُ أنني لا أريد رفع الغطاء عن مشاعره البدائية، على الأقل ليس خلال هذه المرحلة المبكرة من العلاج. انتقلتُ إلى الحديث عن الجنس بدلًا من الجريمة.

«قلت لي إنك تخاف أيضًا من دوافعك الجنسية. ماذا تقصد بذلك؟».

- «لطالما كانت دوافعي الجنسية شديدة جدًّا. لقد سمعتُ أن هذا ينطبق على العديد من الرجال الصُّلعان، وأنها علامة على تمتُّع الرجل بالكثير من الهرمونات الذكورية. هل هذا صحيح؟».

لم أرغب في تشجيعه على الخروج عن الموضوع الرئيسي، فتجاهلتُ السؤال قائلًا: «تابع».

- «حسنًا، طوال حياتي وأنا أضع هذه الدوافع تحت السيطرة، لأن «فيليس» صارمة بشأن عدد المرات التي نمارس فيها الجنس، ودائمًا ما يكون الحال نفسه؛ مرتين في الأسبوع، باستثناء أعياد الميلاد والعطل الرسمية».

- «هل تنتابك بعض المشاعر حول ذلك؟».

- «أحيانًا، لكن أعتقد أن القيود مفيدة في بعض الأوقات. من دونها قد لا يعرف جموحي أي حدود».

كان هذا تعليقًا مثيرًا للفضول. «ماذا تقصد بذلك؟ هل تقصد إقامة العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج؟».

صُدِم «مارفن» من سؤالي. «لم أُقدِم على خيانة «فيليس» في حياتي! ولن أفعل ذلك أبدًا!».

- «حسنًا، لكن ماذا تقصد بقولك إن جموحك قد لا يعرف أي حدود؟».

بدَا «مارفن» في حيرة من أمره. شعرتُ بأنه كان يتحدث عن أشياء لم يناقشها مع أحد من قبلُ. تحمَّست لأجله؛ فقد كانت هذه الجلسة مُضنية جدًا. أردته أن يتابع، واكتفيتُ بالانتظار.

«لا أعرف ما هو قصدي، لكنني أتساءل أحيانًا عما كان سيكون عليه الحال لو تزوجت من امرأة تتمتع بالدوافع الجنسية ذاتها التي لديَّ أنا، وترغب في ممارسة الجنس وتستمتع به مثلي».

- «هل تعتقد أنك كنت ستحظى بحياة مختلفة جدًا؟».

- «دعني أصحح شيئًا واحدًا قلته لك. ما كان يجب أن أستخدم كلمة «تستمتع» منذ قليل، لأن «فيليس» تستمتع بالجنس، لكن كل ما في الأمر أنه لا يبدو عليها أنها ترغب في ممارسته حقًا. عوضًا عن ذلك ... ما الكلمة المناسبة هنا؟ تُوزِّعه عليَّ إذا أحسنتُ التصرف. في هذه الأوقات تحديدًا أشعر بالخداع والغضب».

صمت «مارفن» لبرهة، ثم قام بحل زر ياقة قميصه، ودلَّك رقبته، وراح يحرك رأسه بشكل دائري. كان يحاول التخلص من التوتر، لكنني تخيلت أنه كان ينظر في جميع أنحاء الغرفة، وكأنه يريد أن يتأكد أن لا أحد آخر يستمع إلينا.

«تبدو غير مرتاح. بماذا تشعر الآن؟».

- «أشعر أنني خائن، أشعر أنه كان عليَّ ألا أقول هذه الأشياء عن «فيليس»، كما لو أنها ستكتشف ما قلته».

- «أنت تمنحها الكثير من السُّلطة. عاجلًا أم آجلًا، لا بد أن نفهم جميع تفاصيل هذه القضية».

ظل «مارفن» منفتحًا، على غير العادة، خلال الأسابيع العديدة الأولى من العلاج. بشكل عام، كان تجاوبه أفضل بكثير مما كنت أتوقع. كان متعاونًا، وتخلَّى عن شكوكه المشاكِسة حول الطب النفسي. قام بكل ما هو مطلوب منه، وكان يَحضُر إلى الجلسات مستعدًّا، حيث صمَّم، حسب قوله، على الحصول على عائد جيد من استثماره هذا. كما تعزَّزت ثقته بالعلاج عندما حقَّق بعض الأرباح المبكرة وغير المتوقعة؛ اختفت تقريبًا نوبات الصداع النصفي في ظروف غامضة بمجرد أن بدأ العلاج (لكن تقلباته المزاجية الشديدة المرتبطة بالجنس ظلت على حالها).

خلال هذه المرحلة الأوَّلية من العلاج، ركَّزنا على قضيتين اثنتين: أولًا زواجه، وثانيًا (بدرجة أقل، بسبب مقاومته لهذا الموضوع) الآثار المترتبة على تقاعده. لكنني كنت حريصًا على التعامل معه بحذر شديد وكأنني جرَّاح يتهيأ لإجراء عملية جراحية متجنبًا أيَّ شَقٍّ عميق في الجلد. أردت أن يستكشف «مارفن» هذه القضايا، ولكن من دون أن يمحِّصها، خشية أن تتزعزع المعادلة الزوجية غير المستقرة بينه وبين «فيليس» (مما قد يؤدي إلى تخلِّيه عن العلاج على الفور)، وخشية تأجيج قلق الموت لديه (وبالتالي معاناته من المزيد من نوبات الصداع النصفي).

في الوقت نفسه الذي أجريت فيه هذا العلاج المعتدل والواقعي إلى حدٍّ ما مع «مارفن»، كنت منخرطًا أيضًا في حوار رائع مع الحالم، ذلك الإنسان المُصغَّر المُتنوِّر المُقيم، أو بالأحرى المسجون داخل «مارفن»، الذي إما كان جاهلًا بوجود الحالم وإما أنه قد سمح له، بقلب طيب ونية سليمة، أن يتواصل معي. بينما كنت أنا و«مارفن» نتبادل أطراف الحديث

على مستويات سطحية، راح الحالم يبعث سلسلة منتظمة من الرسائل من القاع.

ربما جلب خطابي مع الحالم نتائج عكسية، ربما، على أثر لقائي بالحالم، كنت مستعدًا لمنح «مارفن» فرصة المضي قدمًا بوتيرة أبطأ. أتذكّر أنني بدأت كل جلسة مترقبًا الحصول على بيان جديد من الحالم، بدلًا من أن أكون متحمسًا لرؤية «مارفن».

في بعض الأحيان كانت أحلامه، مثل الأحلام الأولى، تعبِّر بصور مخيفة عن القلق الأنطولوجي. في أحيان أخرى تتنبأ بأحداث قادمة في العلاج، وتارة أخرى تلعب دور الحواشي السينمائية لجلسات العلاج، مقدِّمة ترجمة حية لأقوال «مارفن» الحذرة.

بعد مضي بضع الجلسات، صارت تصل إليَّ بعض الرسائل المفعمة بالأمل:

كان هناك معلِّم في مدرسة داخلية يبحث حوله عن أطفال مهتمين بالرسم على قماش كبير أبيض. في وقت لاحق، أخبرت صبيًّا قصيرًا سمينًا -من الواضح أنه كان أنا- بذلك، فتحمَّس جدًّا لدرجة أنه بدأ في البكاء.

كانت الرسالة واضحة:

«يشعر «مارفن» أن أحدًا ما -وهو أنتَ دون أدنى شك؛ معالِجه النفسي- قد عرض عليه فرصة للبدء من جديد. يا له من عرض مثير أن تتاح له فرصة أخرى لكي يرسم حياته من جديد على قماش أبيض!».

ثم تَبِع ذلك أحلام أخرى تبعث على الأمل:

أرى أنني في حفل زفاف. تقترب مني امرأة وتقول لي إنها ابنتي التي نسيتها منذ فترة طويلة. أشعر بالدهشة لأنني لم أكن أعرف أن لديَّ ابنة. إنها في منتصف العمر. ترتدي ثيابًا بألوان بُنِّيَّة مُشبعة. كان أمامنا بضع

ساعات فقط للتحدث. سألتها عن ظروف حياتها، لكنها لم تستطع تناول هذا الموضوع. شعرتُ بالأسى عندما غادرَتْ، لكننا اتفقنا على تبادل الرسائل.

الرسالة:

«يكتشف «مارفن» لأول مرة أن لديه ابنة؛ أي الجانب الأنثوي واللَّيِّن والحساس منه، الأمر الذي يجذب انتباهه كثيرًا. الاحتمالات أمامه لا حدود لها. يفكر في التواصل معها بشكل مستمر، عسى أن يتمكن من استعمار الجزر التي اكتشفها حديثًا في ذاته».

حلمٌ آخر:

أنظر من النافذة وأسمع ضجة تصدر من الشجيرات. يبدو أنها قطة تطارد فأرًا. أشعر بالأسف على الفأر، فأخرج وأتوجه نحوه. لكن ما أعثر عليه هو قطتان صغيرتان لم تتمكّنا بعدُ من فتح عيونهما. أركض لأخبر «فيليس» بذلك لأنها مُولَعة بالقطط.

الرسالة:

«يدرك «مارفن» حق الإدراك أن عينيه كانتا مغلقتين طوال هذا الوقت، وأنه مستعد أخيرًا لفتحهما، كما أنه متحمِّس لأن «فيليس» كانت أيضًا على وشك أن تفتح عينيها. لكن كن حذرًا؛ فهو يظن أنك تلعب معه لعبة القط والفأر».

وسرعان ما تلقيت المزيد من التحذيرات:

أتناول العشاء مع «فيليس» في مطعم آيِل للسقوط. الخدمة فيه سيئة للغاية، ونادرًا ما يحضر النادل إلى الطاولة. أخبرَتْه «فيليس» أنه متسخ وأن هندامه رثٌّ. أشعر بالدهشة لأن الطعام لذيذ جدًّا.

الرسالة:

«إنه يُدبّر قضية ضدك. تريد «فيليس» أن تخرج من حياتهما، لأنك تشكِّل تهديدًا خطيرًا لكليهما. خذ حذرك. لا تتدخل في النزاع الحاصل بينهما. مهما كان طعامك جيدًا، فمن المحال أن تكون ندًا لهذه المرأة».

ثم رأى حلمًا يشكو فيه مني بشكل واضح:

أشاهد عملية زرع قلب والجرَّاحُ مستلقٍ. يتهمه شخص ما بالمشاركة فقط في عملية الزرع وإهمال جميع الظروف الفوضوية التي أدت إلى حصوله على القلب من المتبرع. يعترف الجرَّاح بصحة هذا الأمر. كانت هناك ممرضة في غرفة العمليات. قالت إنها لم تتمتع بهذا الامتياز مثل الجرَّاح؛ إذ كان عليها أن تشهد الفوضى بأكملها.

الرسالة:

«عملية زرع القلب هي، بالطبع، العلاج النفسي. (أرفع لك القبعة يا صديقي الحالم العزيز! «زرع القلب»؛ يا له من رمز صوري خلَّاق للعلاج النفسي!) يشعر «مارفن» أنك غير مبالٍ، وأنك تفتقر إلى الحماسة، وأنك لم تُظهِر الكثير من الاهتمام بحياته؛ أي كيف أصبح «مارفن» الشخص الذي هو عليه اليوم؟».

كان الحالم يقدِّم لي النصائح حول سير العلاج. لم أَحظَ في حياتي بمُشرِف مثل هذا. كنت مفتونًا جدًا به لدرجة أنني بدأت أغفل عن دوافعه. هل كان يعمل بالنيابة عن «مارفن»، محاولًا مساعدتي على مساعدة «مارفن»؟ هل كان يأمل أنه إذا تغيَّر «مارفن» فسوف يحصل هو -أي الحالم- على حريته من خلال الاندماج مع «مارفن»؟ أم إن هدفه الرئيسي كان تخفيف عزلته الخاصة[1] من خلال بذل الجهود للحفاظ على العلاقة التي كانت تربطه بي؟

(1) يقصد عزلة الحالم. (المترجم).

بغضِّ النظر عن دوافعه، وجدت أن نصيحته حكيمة. لقد كان على حق؛ فأنا فعلًا لم أكن منكبًا على التواصل مع «مارفن»! ظلَّت علاقتنا رسمية جدًّا حتى بدَت مخاطبة أحدنا للآخر بالأسماء الأُولى أمرًا غير مرغوب فيه. أخذ «مارفن» نفسه على محمل الجد، وكان المريض الوحيد الذي لم أستطع المزاح معه. حاولت في كثير من الأحيان التركيز على علاقتنا، ولكن باستثناء بعض العبارات الساخرة في أول جلستين (مثل «أنتم يا علماء النفس تعتقدون أن الجنس هو أصل كل شيء»)، لم يشر إليَّ على الإطلاق. لقد عاملني باحترام وإجلال شديدين، واعتاد أن يجيب عن استفساراتي حول مشاعره تجاهي بجُمَل مفادها أنني أجيد ما أفعله حقًّا، لأنه لم يَعُدْ يعاني من نوبات الصداع النصفي. بعد مرور ستة أشهر، ازداد اكتراثي بأمر «مارفن» إلى حد ما، لكنه لم يستهوِني كثيرًا بعدُ. كان الأمر غريبًا جدًّا لأنني كنت مُولَعًا بالحالم، بشجاعته وصِدْقه اللاذع. من حين لآخر، كان عليَّ أن أذكِّر نفسي بأن الحالم كان في الحقيقة «مارفن»، وأنه سمح لي بالتواصل بشكل مباشر مع ذات «مارفن» المركزية؛ تلك الدوامة النفسية التي تمتلك الحكمة المطلقة ومعرفة الذات.

كان الحالم محقًّا عندما قال إنني لم أتعمَّق في التفاصيل الفوضوية المحيطة بمصدر القلب الذي كان سيُزرَع في العملية. لقد أهملتُ تجارب «مارفن» والأنماط التي شكَّلت حياته المبكرة. ونتيجة لذلك، خصَّصتُ الجلستين التاليتين لدراسة طفولته دراسة دقيقة. أحد أكثر الأشياء المهمة التي عرفتها عن «مارفن» هو أنه عندما كان في السابعة أو الثامنة من عمره ح شيء سرِّيٌّ كارثي حطَّم عائلته وأدى إلى نفي والده نهائيًّا من غرفة نوم والدته. لم يكتشف «مارفن» حقيقة ما حدث نهائيًّا، إلا أنه يعتقد، استنادًا إلى بعض التعليقات المتفرقة على لسان والدته، أن والده كان إما خائنًا لوالدته وإما مدمنًا على القمار.

بعد نَفْيِ والده، وقع على عاتق «مارفن»؛ الابن الأصغر، أن يصبح رفيق والدته الدائم. كانت وظيفته أن يرافقها في جميع المناسبات الاجتماعية. تحمَّل «مارفن» لسنوات عدة مزاح أصدقائه الساخر حول مواعدته والدته.

من الواضح، طبعًا، أن المهمة العائلية الجديدة التي نفَّذها «مارفن» جعلت والده ينفر منه، حيث تضاءل وجود والده بين أفراد أسرته في البداية، ثم أصبح مجرد ظِلٍّ، وسرعان ما تبخَّر إلى الأبد. بعد ذلك بعامين، تلقَّى شقيق «مارفن» الأكبر بطاقة بريدية من والدهما يقول فيها إنه على قيد الحياة وبصحة جيدة وإنه متأكد من أن العائلة ستكون أفضل حالًا من دونه.

من دون أدنى شك، كانت حياة «مارفن» مهيأةً لظهور معضلات «أوديبية» جسيمة في علاقاته مع النساء. كانت علاقته بأمه حصرية، وحميمية للغاية، واستمرت فيها المودة لفترة طويلة، لذا كانت لها عواقب وخيمة على علاقته بالرجال. في الواقع، كان «مارفن» يظن أنه ساهم بشكل كبير في اختفاء والده. لم يكن غريبًا إذن أن «مارفن» كان يَحذَر منافسة الرجال ويخجل خجلًا شديدًا من النساء. كانت «فيليس» أول وآخر امرأة يخرج معها في موعد أول، حيث حافظ على علاقته بها إلى أن تزوَّجها. كانت تصغره بست سنوات، خجولًا مثله وعديمة الخبرة مثله مع الجنس الآخر.

كانت الجلسات الاستذكارية[1] هذه، في رأيي، مثمرة إلى حد ما. تعرَّفتُ فيها على الشخصيات التي شغلت ذهن «مارفن» ورسمت له

(1) أو الاسترجاعية. أصل المصطلح الوارد هنا هو (anamnesis)، أي قيام المريض بتذكُّر أو استرجاع تاريخه على نحو يرتبط بحالته المرَضية. (المترجم).

(وشاركته) بعض أنماط حياته المتكررة والمهمة. على سبيل المثال، تكراره لجزء معين من علاقة والديه في زواجه، حيث إن زوجته كانت مثل زوجة[1] والده، تفرض سيطرتها بحرمانه من ممارسة الجنس.

عندما تكشَّفت هذه المعطيات، تمكَّنت من فهم مشكلات «مارفن» الحالية وفقًا لثلاث وجهات نظر مختلفة تمامًا؛ الوجودية (مع التركيز على القلق الأنطولوجي الذي ظهر بعد أن اجتاز «مارفن» مرحلة رئيسية في حياته)، والفرويدية (مع التركيز على القلق «الأوديبي» الذي أدى إلى اندماج الفعل الجنسي بقلق بدائي كارثي)، والتواصلية (مع التركيز على عدم استقرار العلاقة الديناميكية الزوجية بسبب أحداث حياته الأخيرة، والمزيد من هذا كان سيتكشَّف عما قريب).

اجتهد «مارفن»، كما هو الحال دائمًا، لتزويدي بالمعلومات اللازمة، لكنه سرعان ما فقد الاهتمام بجذور أنماط حياته الحالية، على الرغم من أن أحلامه تطلَّبت ذلك. قال ذات مرة إن هذه الأحداث القديمة تنتمي إلى عصر آخر (مئة عام تقريبًا)، كما أشار بحزن إلى أننا كنا نناقش أحداثًا كانت كل الشخصيات فيها في عِداد الأموات باستثنائه هو.

سرعان ما قدَّم لي الحالم سلسلة من الرسائل حول ردة فعل «مارفن» تجاه غزواتنا لحياته الماضية:

رأيت سيارة غريبة الشكل، تشبه صندوقًا كبيرًا طويلًا على عجلات. كانت سوداء بجلد لامع. لقد دُهِشت حين رأيت أن نوافذها الوحيدة، التي كانت في الخلف، مائلة للغاية، بحيث لا يمكن للمرء أن ينظر من خلالها.

---

(1) تقصّد يالوم كتابة «زوجة والده» لكي يركّز على علاقتهما الزوجيّة فقط بعيدًا عن الابن مارفن. (المترجم).

كانت هناك سيارة أخرى لا تعمل مرآة الرؤية الخلفية فيها كما يجب. نوافذها الخلفية مزوَّدة بمرشِّح[1] ينزلق صعودًا وهبوطًا، لكنه كان عالقًا.

كنت أُلقِي محاضرة بنجاح باهر، ثم تسبَّب جهاز عرض الشرائح في المشكلات. أولًا، لم أتمكَّن من إخراج الشريحة من جهاز العرض من أجل وضع شريحة أخرى. كانت الشريحة تُظهِر رأس رجل. ثم لم أتمكن من عرض الشريحة بوضوح، ثم صارت رءوس الناس تَحُول دون رؤية الشاشة كما يجب. تنقَّلتُ في جميع أنحاء المُدرَّج لكي أحصل على زاوية رؤية لا يعترضها أحد، لكنني لم أستطع رؤية الشريحة كاملة.

أعتقد أن هذه هي الرسالة التي حاول الحالم إيصالها إليَّ:

«أحاول أن أنظر إلى الوراء لكن بلا جدوى. ليست هناك نوافذ خلفية ولا مرآة للرؤية الخلفية. تُعيق رؤيتي شريحةٌ تُظهِر رأسًا. الماضي، والقصة الحقيقية، وتسلسل الوقائع الحقيقية، كلها غير قابلة للاسترداد. الرأس الظاهر على الشريحة -أي رأسي، ورؤيتي، وذاكرتي- يَحُول دون ذلك. لا أستطيع رؤية الماضي إلا بعد ترشيحه من خلال عيون الحاضر؛ أي ليس كما عرفته وعشته في ذلك الوقت، ولكن كما أعيشه الآن. لا يُجدِي استرجاع الماضي نفعًا في إزاحة الرءوس عن طريقي.

لا يضيع الماضي إلى الأبد فحسب، بل إن المستقبل، فوق ذلك، محتوم. السيارة ذات الجلد اللامع؛ ذلك الصندوق -أي تابوتي- ليس فيه نوافذ أمامية أيضًا».

---

(1) المقصود هنا هو مُرشِّح ضوئي كالزجاج المصبوغ باللون الأسود الذي يمنع دخول الضوء إلى داخل السيارة. (المترجم).

شيئًا فشيئًا، بتحفيز بسيط مني، صار «مارفن» يغوص في المياه العميقة. ربما سمع القليل من محادثاتي مع الحالم فكان أول ارتباط شكّله مع السيارة؛ الصندوق الأسود الغريب ذي العجلات، هو قوله: «إنه ليس تابوتًا». لاحَظ «مارفن» أنني رفعت حاجبيَّ. ابتسم وقال: «ألم يقل أحد علماء النفس إن المرء يفضح نفسه عندما يحتجُّ أكثر من اللازم؟».

- «إنها سيارة بلا نوافذ أمامية يا «مارفن». فكِّر في الأمر. ماذا ترى؟».

- «لست متأكدًا. أعتقد أن المرء لا يستطيع تحديد وجهته من دون النوافذ الأمامية».

- «كيف ينطبق ذلك عليك نظرًا لما تواجهه في حياتك الآن؟».

- «التقاعد. أنا بطيء الفهم قليلًا، لكنني أرى ما ترمي إليه شيئًا فشيئًا، إلا أنني لست قلقًا بشأن التقاعد. لماذا لا أشعر بأي شيء يا تُرى؟».

- «مشاعرك موجودة في مكان ما؛ فهي تتسرب إلى أحلامك. قد يكون من المؤلم جدًا أن تعيش هذا المشاعر. قد يكون هناك ما يعترض سبيل شعورك بالألم، لذا يتجسَّد في نواحٍ أخرى. كم من مرة قلت لي: «لماذا أشعر بالغضب الشديد من أدائي الجنسي؟ إنه أمر غير منطقي»! إن إحدى مهامنا الرئيسية هي تصحيح المسار وإعادة المشاعر إلى مكانها الطبيعي».

سرعان ما أخبرني عن سلسلة من الأحلام التي تناولت الشيخوخة والموت بوضوح تام. على سبيل المثال، رأى أكثر من مرة أنه كان يمشي في مبنى خرساني كبير تحت الأرض لم يكتمل بعدُ.

هذا الحلم على وجه الخصوص ترك فيه أثرًا ملموسًا:

رأيت «سوزان جينينغز» (Susan Jennings). كانت تعمل في محل لبيع الكتب. بدَت مكتئبة. مشيتُ نحوها لكي أعبِّر عن تعاطفي معها، وأخبرتها أنني أعرف ستة أشخاص آخرين مكتئبين مثلها. عندما رفعَتْ نظرها إليَّ كان وجهها عبارة عن جمجمة بغيضة مليئة بالمخاط. استيقظتُ مذعورًا للغاية.

تجاوب «مارفن» بشكل جيد مع هذا الحلم.

««سوزان جينينغز»؟ «سوزان جينينغز»؟ عرفتها قبل خمسة وأربعين عامًا عندما كنت طالبًا في الكلية. لا أعتقد أن ذكرها خطر على بالي ولو لمرة قبل اليوم».

- «فكِّر فيها الآن. ما الذي يتبادر إلى ذهنك؟».
- «أرى وجهها. إنه مستدير وممتلئ، وترتدي نظارة كبيرة».
- «هل يذكِّرك ذلك بأي شخص؟».
- «كلا، لكنني أعرف ما ستقوله أنت. ستقول إنها تشبهني، لأن وجهي مستدير وأرتدي نظارة كبيرة».
- «ماذا عن «الستة الآخرين»؟».
- «أوه، هناك قصة وراء ذلك بكل تأكيد. بالأمس كنت أتحدث إلى «فيليس» عن جميع أصدقائنا الذين ماتوا، وعن مقال صحفي يتناول الأشخاص الذين يموتون مباشرة بعد التقاعد. أخبرتها أنني قرأت نشرة الخريجين ونوَّهَت بأن ستة أشخاص من دُفعتي أصبحوا في عِداد الأموات. لا بد أن هؤلاء هم «الستة الآخرون الذين كانوا مكتئبين» مثلها في الحلم. يا له من أمر مدهش!».

- «يبرز خوفك من الموت بزخم يا «مارفن»، في هذا الحلم وفي جميع الكوابيس الأخرى. الجميع يخاف من الموت. لم أعرف أحدًا في حياتي يخالف هذه القاعدة، لكن معظم الناس يعالجون هذا الخوف مرارًا وتكرارًا على مرِّ السنين. أما في حالتك أنت، فيبدو أنه قد انفجر دفعة واحدة. ينتابني شعور قوي بأن التقاعد هو الذي أشعل هذه النار».

قال لي «مارفن» إن أكثر حلم أثَّر فيه على الإطلاق كان ذلك الحلم الأول، قبل ستة أشهر، الذي رأى فيه الرجلين الهزيلين والعكاز الأبيض والطفلة. ظلَّت تلك الصور تطارد ذهنه مرارًا وتكرارًا، خاصة صورة الحانوتي الفيكتوري الهزيل أو أعضاء حركة الاعتدال. اعتقد «مارفن» أن هذا يرمز له هو؛ لقد كان مبالِغًا في اعتداله، وكان يعلم، منذ عامين تقريبًا، أنه أصاب نفسه بحالة من المَوات طوال حياته.

مع مرور الوقت، شعرت بالذهول من «مارفن»، حيث أصبح يخوض في أعماق ذاته، لدرجة أنني لم أصدِّق أنني كنت أتحدث إلى الشخص نفسه. عندما سألته عما حدث معه قبل عامين، تحدَّث عن واقعة لم يشاركها مع أحد من قبلُ، حتى مع «فيليس». بينما كان يقلِّب في نسخة من مجلة «علم النفس اليوم» (Psychology Today) في عيادة طبيب أسنان، جذب انتباهه مقال يفيد بأن المرء يحاول إجراء محادثة نهائية وذات مغزى مع كل شخص مهم اختفى من حياته.

ذات يوم عندما كان بمفرده، حاول فعل ذلك. تخيَّل أنه يُخبِر والده كم اشتاق إليه وكم كان يود أن يعرفه، لكن والده لم يُجِبه. تخيَّل أنه يودِّع والدته الوداع الأخير وهي جالسة أمامه في كرسيها الهزاز المصنوع من الخشب المنحني، لكن كلمات الوداع تلك لم تترافق مع أي مشاعر

إطلاقًا. كزَّ على أسنانه وحاول إجبار نفسه على الإحساس ببعض المشاعر، لكن دون طائل. صبَّ تركيزه على معنى كلمة «مطلقًا»؛ لن يراها مرةً أخرى مطلقًا. تذكَّر أنه ضرب طاولة مكتبه بقبضته مجبِرًا نفسه على تذكُّر برودة جبين والدته عندما قبَّلها وهي مستلقية في نعشها، لكنه لم يشعر بأي شيء. صرخ بصوت عالٍ: «لن أراك مرة أخرى مطلقًا» من دون جدوى أيضًا. في تلك اللحظة بالتحديد أدرك أنه كان قد أمات نفسه.

بكى في مكتبي ذلك اليوم. بكى على كل ما فاته، على كل سنوات حياته التي قضاها ميتًا. كم كان من المحزن، قال «مارفن»، أنه انتظر حتى الآن ليحاول العودة إلى الحياة! شعرت لأول مرة بأنني قريب جدًّا من «مارفن». أمسكت بكتفه بإحكامٍ وهو يبكي.

عند نهاية هذه الجلسة، كنت مرهقًا ومتأثرًا جدًّا. وأخيرًا، قلت في نفسي، اخترقنا ذلك الحاجز المنيع، أخيرًا اندمج «مارفن» مع الحالم وتحدَّثا بصوت واحد.

شعر «مارفن» بتحسُّن بعد جلستنا هذه وكان متفائلًا للغاية، إلى أن حدث أمر غريب بعد بضعة أيام. كان هو و«فيليس» في خضم الجِماع عندما قال لها فجأة: «أعتقد أن الطبيب على حق. قد يكون قلقي الجنسي برُمَّته هو قلق بشأن الموت فعلًا!» ما إن أنهى هذه الجملة حتى قذف مبكرًا قذفًا فجائيًّا لا متعة فيه. غضبَتْ «فيليس»، وهي محقة في ذلك، من اختياره هذا الموضوع للمداعبة الكلامية. وبَّخ «مارفن» نفسه على الفور بسبب عدم حساسيته تجاهها وعجزه الجنسي وغرق في اكتئاب عميق. سرعان ما تلقيت رسالة عاجلة وقلقة من الحالم:

كنت أُحضِر أثاثًا جديدًا إلى المنزل، لكنني لم أستطع إغلاق الباب الأمامي. قام أحدهم بوضع جهازٍ ما هناك لإبقاء الباب مفتوحًا. ثم رأيت عشرة أشخاص أو اثني عشر شخصًا يقفون خارج الباب ويحملون الحقائب. كانوا أشرارًا فظيعي الهيئة، خاصةً تلك العجوز التي لا أسنان لها. ذكّرني وجهها بـ «سوزان جينينغز». ذكّرتني أيضًا بـ «مدام ديفارج» (Madame Defarge) في الفيلم المقتبس عن رواية «قصة مدينتين» (A Tale of Two Cities)، التي كانت تَحُوك الثياب عند المقصلة بينما كانت الرءوس المقطوعة تتساقط قربها.

الرسالة:

«لقد دبَّ الذعر في قلب «مارفن». أصبح يدرك الكثير من الأمور، وكل ذلك حدث بسرعة كبيرة. إنه يشعر الآن أن الموت يتربص به. لقد فتح باب الإدراك، لكنه بات يخشى أن كَمًّا هائلًا من المعطيات قد خرج منه، وأن الباب عالق، وأنه لن يتمكن من إغلاقه مرة أخرى».

ثم توالت الأحلام المخيفة بسرعة حاملةً رسائل مماثلة:

الوقت ليل. كنت جالسًا على شرفة عالية في أحد المباني. سمعت طفلًا صغيرًا يبكي وسط الظلام طالبًا المساعدة. أخبرته أنني آتٍ لأنني الوحيد الذي يُمكِنه مساعدته، لكن عندما انطلقتُ في ظل العتمة، أصبح الدَّرَج يضيق أكثر فأكثر، وانفصل الدرابزين الضعيف من مكانه حين تمسَّكت به. خِفتُ أن أذهب أبعد من ذلك.

الرسالة:

«لقد دفنتُ بعض الأجزاء الجوهرية مني طوال عمري؛ الصبي الصغير والمرأة والفنان و الباحث عن المعنى. أعلم أنني أَمَتُّ نفسي وأن معظم

جوانب حياتي قد فاتتني، لكن لا يمكنني دخول هذه العوالم الآن. لا أستطيع تحمُّل مشاعر الخوف والندم».

حلم آخر:

أخضع لامتحانٍ ما. أُسلِّم دفتري الامتحاني وأتذكَّر أنني لم أُجِب عن السؤال الأخير. أشعر بالذعر. أحاول استعادة الدفتر، لكن الوقت قد انتهى. أحدّد موعدًا لمقابلة ابني بعد انتهاء الامتحان.

الرسالة:

«أدرك الآن أنني عشت معظم حياتي من دون أن أستغلها. لقد انتهت الدورة وانقضى الامتحان. كنت أرغب في أن تكون تجربتي مختلفة. ماذا عن هذا السؤال الأخير في الامتحان؟ ماذا كان يا ترى؟ ربما لو سلكت طريقًا مختلفًا لَفعلت شيئًا آخر، لأصبحت شيئًا آخر، بدلًا من مدرِّس في مدرسة ثانوية، بدلًا من محاسب ثريّ، لكن فات الأوان. لن أتمكَّن من تغيير أيٍّ من إجاباتي. لقد نفد الوقت. لو كان لديَّ ابنٌ لتمكَّنت من بعث نفسي في المستقبل، بعد الموت، من خلاله».

في وقت لاحق من نفس الليلة رأى هذا الحلم:

أتسلق دربًا جبليًا. أرى أن بعض الناس يحاولون إعادة بناء منزلٍ ما في الليل. أعلم أنهم لن يتمكنوا من ذلك، وأحاول إخبارهم، لكنهم لا يستطيعون سماعي. أسمع شخصًا واقفًا في الخلف ينادي باسمي. إنها أمي تحاول اللحاق بي. قالت إن لديها رسالة لي. هناك شخصٌ ما يُحتضَر، لكنني أعلم أن الذي يُحتضَر هو أنا. عندما استيقظت كنت أتصبَّب عرقًا.

الرسالة:

«لقد فات الأوان. لا يمكن للمرء إعادة بناء منزله في الليل، لا يمكنه تغيير المسار الذي سلكه وهو على وشك الدخول في عالم الموت. عندما ماتت والدتي كان عمرها مثل عمري الآن. أنا على وشك اللحاق بها، وأدرك أن الموت أمر لا مفرَّ منه. لا يمكنني تغيير المستقبل لأن الماضي سيدركني».

كانت هذه الرسائل من الحالم تهدر بصوت يزداد صخبًا. كان لا بدَ أن أُصغي إليها. لقد أجبرتني على مراجعة ما كان يحدث في جلسات العلاج وتحديد المسار الذي كنا نتجه نحوه.

كان «مارفن» قد أحرز تقدمًا بسرعة كبيرة، ربما أكثر من اللازم. في البداية كان رجلًا يفتقر إلى البصيرة، كان عاجزًا، لا، بل رافضًا أن يتأمل في ذاته، لكنه قام خلال فترة قصيرة نسبيًا -ستة أشهر- باكتشافات هائلة. أصبح يدرك أن عينيه، مثل عيون القطط الحديثة الولادة، كانتا مغلقتين، وأن في أعماقه عالمًا غنيًا صاخبًا، وإذا أقدم على مواجهته فسوف يجلب له خوفًا شديدًا، لكنه سيمنحه الخلاص أيضًا من خلال تنوير بصيرته.

لم تَعُدِ المظاهر الخارجية تُغرِي «مارفن»، قلَّ انبهاره بمجموعاته من الطوابع ومجلات «ريدرز دايجست». لقد فتح عينيه الآن وأصبح يرى الحقائق الوجودية، وكان يتصارع مع حتمية الموت وعجزه عن إنقاذ نفسه.

أتت يقظة «مارفن» بسرعة أكبر مما كنت أتوقع. ربما كان يستمع فعلًا إلى صوت الحالم داخله. في البداية كان حريصًا على رؤية الحقيقة، لكن الحماسة سرعان ما تسبَّبت له في شعور عميق بالندم. حزن على ماضيه والخسائر الوشيكة الحدوث. وأكثر ما جعله يشعر بالأسى هو الفجوات

الكبيرة في حياته؛ تلك الإمكانات التي لم يُفعّلها، والأطفال الذين لم ينجبهم، والأب الذي لم يعرفه، والمنزل الذي لم يصبح مأهولًا بالعائلة والأصدقاء قط، وهي إنجازات لربما كانت ستجلب له مغزى أعمق بكثير من تجميع الأموال. أخيرًا، شعر بالأسى على نفسه، وعلى الحالم المسجون، وعلى الصبي الصغير الذي كان يبكي تحت جنح الظلام طلبًا للنجدة.

أدرك أنه لم يَعِش الحياة التي كان يريدها حقًّا. منّى نفسه بأنه لا يزال هناك متّسع من الوقت لتعويض ما فات، ولِرَسْم حياته من جديد على قماش أبيض كبير. صار يحاول الدخول إلى غرف سِرّية، ويهمس لابنة مجهولة، ويتساءل أين يذهب الآباء الذين يختفون.

لكنه تجاوز الحدود المسموح بها. أصبح في مكان لا يمكن أن تصل إليه خطوط الإمداد، وتعرَّض للهجوم من جميع الجبهات. كان الماضي معتمًا ولا يمكن استرجاعه، والمستقبل مسدودًا. لقد فات الأوان؛ بنى منزله، وانتهى من الامتحان الأخير. لقد فتح أبواب الوعي ليتفاجأ بأن قلق الموت قد غمره.

في بعض الأحيان يرفض المرء قلق الموت معتبرًا إياه أمرًا بسيطًا بسبب شموليته؛ فمَن منا لا يعرف الموت ويخشاه؟ لكن مجرد معرفة الموت بشكل عام وكَزِّ الأسنان والشعور بالقشعريرة مرة أو مرتين لا تُقارَن نهائيًّا بإدراك المرء حقيقة موته والإحساس به في عظامه وصميم كيانه. نادرًا ما يختبر المرء الرعب الناتج عن الوعي بالموت، ربما مرة أو مرتين فقط في العمر، لكن «مارفن» كان يعيش الرعب هذا ليلة بعد ليلة.

في حربه ضد هذا الرعب، افتقر «مارفن» إلى أبسط آليات الدفاع النفسية، بما أنه ليس لديه أطفال، لم يتمكن من العثور على العزاء في وهم الخلايا العروسية[1] (germ cells) الخالدة، ولم يكن متمسكًا بأي معتقَد ديني، غير مؤمن بالحياة الآخرة التي تحافظ على الوعي، ولا بوجود إله حارس موجود في كل مكان. ولم يكن «مارفن» شخصًا قد حقَّق ذاته في الحياة، لذا فلا عزاء له في هذا الجانب أيضًا (على العموم، كلما قلَّ شعور المرء بأنه عاش حياة مليئة بالإنجازات، تفاقم قلق الموت لديه). والأسوأ من ذلك كله أن «مارفن» كان عاجزًا عن رؤية أي نهاية لقلقه في المستقبل. كانت صور الحلم واضحة المعالم؛ لقد هربت العفاريت من غرفة عقله وأصبحت، بكامل عددها وخطرها، نصب عينيه. لم يستطع الهرب منها أو سجنها مجددًا لأن باب الغرفة عالق.

وصلتُ أنا و«مارفن» إلى مرحلة حاسمة طريقها ممهدٌ بالوعي الكامل. عند هذا المنعطف يقف المرء أمام الهاوية، ويقرر كيف سيواجه الحقائق الوجودية التي لا ترحم؛ الموت والعزلة وانعدام الأساس والمعنى، وليس هناك أي حلول طبعًا. تصبح خيارات المرء في هذا الوقت محدودة جدًّا؛ إما أن يكون حازمًا أو متفاعلًا أو متحديًا بشجاعة أو متقبلًا لمصيره برصانة، وإما أن يتخلى عن عقلانيته، أو -تحت وطأة الرهبة والغموض- أن يضع ثقته في العناية الإلهية.

لم أستطع تصوُّر كيف سيتصرف «مارفن»، ولم أكن أعرف كيف يمكنني مَدُّ يد العون إليه. أتذكَّر أنني كنت أتطلع إلى كل جلسة متشوقًا لمعرفة الخيارات التي سيتخذها. ماذا سيقرر؟ هل سيهرب من اكتشافه؟ هل سيتمكن مرة أخرى من الاستلقاء تحت غطاء خداع الذات المريح؟

---

(1) الخلايا الجنسية أو التكاثريّة

هل سيلجأ في نهاية المطاف إلى الحل الديني؟ أم إنه سيجد القوة والمأوى في الحلول التي تقدمها «فلسفة الحياة» (Lebensphilosophie)[1]؟ انتابني شعور شديد لم أختبره من قبلُ بأنني كنت أمارس دورًا مزدوجًا؛ دور المعالج المشارك والمراقب. على الرغم من أنني أصبحت متفاعلًا عاطفيًا مع «مارفن» ومهتمًا بما سيحدث له، أدركت في الوقت نفسه أنني كنت في وضعية مميزة تتيح لي دراسة نشأة الإيمان لدى الأفراد.

صحيحٌ أن مشاعر القلق والاكتئاب لازمت «مارفن»، إلا أنه تابع العلاج بشجاعة. صرت أحترمه أكثر فأكثر. لقد ظننت أنه كان سيتوقف عن العلاج منذ فترة طويلة. يا تُرى، ما الذي جعله يلتزم بالجلسات؟

قال لي إن هناك أكثر من سبب وراء ذلك. أولًا، كان قد تحرر من الصداع النصفي. ثانيًا، تذكَّرَ أنني حذَّرته في أول لقاء لنا من أن حالته النفسية ستتأزم خلال بعض فترات العلاج. وَثِقَ بكلامي حين قلتُ له إن قلقه الحالي كان مجرد مرحلة من مراحل العلاج وأنه سيتلاشى عاجلًا أو آجلًا. علاوة على ذلك، كان مقتنعًا بأن شيئًا مهمًا تمخَّض عن جلسات العلاج؛ لقد تعلَّم أشياء عن نفسه في الأشهر الخمسة الماضية أكثر مما تعلَّمه في سنواته الأربع والستين السابقة!

كما حدث شيء آخر غير متوقع نهائيًا، ألَا وهو أن علاقته بـ «فيليس» خضعت لتحول ملحوظ.

«صرنا نتحدث معًا أكثر من السابق وبصدق أكبر من أي وقت مضى. لا أتذكر متى حدث هذا التغيُّر. عندما تقابلنا أنا وأنت خلال الأسابيع الأولى تحدثت مع «فيليس» بعض الشيء، لكن هذا كان إنذارًا كاذبًا.

---

(1) حركة فلسفية ألمانية برزت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ركزت على قيمة ومعنى الحياة. (المترجم).

أعتقد أنها كانت تحاول إقناعي بأنه يمكننا التحدث، أحدنا مع الآخر، من دون الحاجة إلى معالج.

لكن الأمر تغيَّر جذريًا خلال الأسابيع القليلة الماضية. أصبحنا نتحدث معًا بكل معنى الكلمة. أخبرتها عن الأحاديث التي تدور بيني وبينك في كل جلسة. في الواقع، صارت تنتظرني عند الباب حتى أعود إلى المنزل من الجلسات، وتشعر بالانزعاج إذا قمت بتأجيل الأمر. على سبيل المثال، إذا اقترحتُ أن ننتظر حتى يحين موعد العشاء لكي يكون لدينا موضوعُ نقاشٍ مثير للاهتمام على مائدة الطعام».

- «ما الأشياء التي تجذب انتباهها؟».
- «كل شيء تقريبًا. أخبرتك سابقًا أن «فيليس» تكره إنفاق المال، وتحب التنزيلات، لذا قلنا من باب المزاح إننا حصلنا على صفقة علاج لشخصين بتسعيرة علاج شخص واحد».
- «يسعدني تقديم صفقة كهذه لكما».
- «أعتقد أن أكثر شيء حَظِي باهتمام «فيليس» هو النقاشات التي دارت بيني وبينك حول عملي، وحول مدى خيبة أملي لأنني لم أنجز الكثير من خلال قدراتي، مكرِّسًا ذاتي لجمع المال فحسب، ولأنني لم أَضَع في عين الاعتبار الأشياء التي كان بمقدوري تقديمها لهذا العالم. لقد أثَّر ذلك فيها بشدة، وقالت إنه إذا كان هذا ينطبق عليَّ أنا، فهو ينطبق عليها بأضعاف مضاعفة، لأنها عاشت حياة أنانية كليًّا ولم تقدِّم شيئًا لأحد».
- «لكنها أعطتك الكثير».
- «ذكَّرتُها بهذه الحقيقة، وشكرتني في البداية على ما قلته، لكنها قالت لاحقًا، بعد التفكير في الأمر مليًّا، إنها ليست واثقة تمامًا

من ذلك؛ قد تكون ساعدتني بعض الشيء، لكنها قالت إنها وقفت في طريقي نوعًا ما».

- «ماذا قصدَتْ بذلك؟».
- «ذكَرَتْ لي كل الأشياء التي قلتها لك سابقًا؛ كانت تمنع الآخرين من زيارة منزلنا، وتُثنِيني عن تكوين صداقات جديدة خشية أن يرغبوا في زيارتنا، كما كانت ترفض السفر، بل وتردعني عنه أيضًا. هل أخبرتك بذلك من قبلُ؟ الأهم من ذلك كله أنها تأسَّفت على عدم إنجابها الأطفال ورفضها منذ سنوات عدة رؤية طبيب مختص بشئون الخصوبة».
- «أنا مندهش حقًّا يا «مارفن». يا لهذا الانفتاح وهذا الصدق! كيف استطعتما فعل ذلك؟ لا بد أن الحديث عن هذه الأشياء صعب للغاية».

ثم قال إن «فيليس» دفعت ثمن بصيرتها هذه؛ حيث أصبحت مضطربة للغاية. في إحدى الليالي لم يستطع «مارفن» النوم، وسمع صوت همس قادمًا من غرفتها. (كانا ينامان في غرف نوم منفصلة بسبب شخيره). دخل «مارفن» إلى غرفتها على رءوس أصابعه ورآها راكعة بجانب سريرها. كانت تُصلِّي مردِّدة هذه العبارة مرارًا وتكرارًا: «الله سيحميني. الله سيحميني. الله سيحميني».

تأثَّر «مارفن» كثيرًا بهذا المشهد، لكنه لم يتمكن من العثور على الكلمات المناسبة لوصفه. أعتقد أن الشفقة غلبت عليه؛ الشفقة على «فيليس»، وعلى نفسه، وعلى جميع الأشخاص الذين لا حول لهم ولا قوة. وأظن أنه أدرك أن ترديدها لتلك العبارة كان كتعويذة سحرية، أو حماية بسيطة من التجارب الفظيعة التي يتعيَّن علينا جميعًا مواجهتها.

تمكن من النوم أخيرًا، وفي وقت لاحق من تلك الليلة رأى هذا الحلم:

كان هناك تمثال لإلهة أنثى في غرفة كبيرة مزدحمة، تشبه المسيح، لكنها كانت ترتدي ثوبًا برتقاليًا رقيقًا فضفاضًا. على الجانب الآخر من الغرفة كانت هناك ممثلة ترتدي فستانًا طويلًا أبيض اللون. تبادلت الممثلة والتمثال الأماكن. بشكل أو بآخر، كانا قد تبادلا الأثواب. نزل التمثال من مكانه وصعدت الممثلة على قاعدة التمثال.

قال لي «مارفن» إنه، وأخيرًا، استطاع فَهْم حلم من أحلامه؛ كان قد حوَّل النسوة في حياته إلى آلهة، معتقدًا أنه سيكون آمنًا إذا تمكَّن من استرضائهن. لهذا السبب كان دائمًا يهاب غضب «فيليس»، ولهذا السبب أيضًا كانت تستطيع منحه راحة كبيرة عن طريق الجنس عندما يكون متوترًا.

«خاصة الجنس الفموي. أخبرتك سابقًا أنه عندما أكون في حالة من الذعر فإنها تمسك بقضيبي وتضعه في فمها فتختفي كل مشاعري السلبية. لا علاقة للجنس نهائيًا بهذا، لقد قلتَ لي ذلك منذ البداية، والآن أعلم أنك على حق. فأحيانًا يكون قضيبي رخوًا كليًا. كل ما في الأمر أنها تتقبلني تقبلًا كاملًا وتدخلني فيها، فأصبحت جزءًا منها تقريبًا».

- «لا شك في أنك تمنحها قُوَى سحرية كما لو كانت إلهة. باستطاعتها أن تشفيك بمجرد ابتسامة أو عناق، أو بممارسة الجنس معك. لا عجب أنك تبذل جهدًا كبيرًا كي لا تضايقها. لكن المشكلة هنا هي أن الجنس قد تحوَّل إلى شيء دوائي. كلا، هذا التشبيه ليس عميقًا بما فيه الكفاية. لقد أصبح الجنس مسألة حياة أو موت، وتعتمد نجاتك على الاندماج مع هذه المرأة.

من الطبيعي إذن أنك تجد ممارسة الجنس أمرًا صعبًا. يجب أن يكون الجنس فعلًا مبهجًا نابعًا عن الحب، وليس إجراءً يَقِينًا الخطر. لو كان الجنس هكذا، فإن أي شخص -بما في ذلك أنا طبعًا- سيعاني من مشكلات العجز الجنسي».

أخرج «مارفن» مفكرته وكتب بضعة أسطر. شعرت بالغضب منذ عدة أسابيع عندما بدأ في تدوين الملاحظات لأول مرة، لكنه استفاد من العلاج كما يجب، لذا تعلَّمتُ احترام الأدوات التي يلجأ إليها لكي يتذكر المعطيات الضرورية.

«لنرَ إذا كنتُ قد فهمتُ ما ترمي إليه. تقول نظريتك إن ما أسمِّيه ممارسة الجنس في كثير من الأحيان هو ليس الجِماع بعينه -ليس الجِماع الجيد على الأقل- بل هو وسيلة لحماية نفسي من الخوف، وخاصة الخوف من الشيخوخة والموت. وعندما أعاني من عجز الانتصاب، فذلك ليس لأنني أفشل جنسيًا بوصفي رجلًا، ولكن لأنني أحاول أن أحصل من خلال الجنس على أشياء بعيدة المنال».

- «بالضبط، وهناك الكثير من الأدلة على ذلك، مثل حلمك عن الحانوتيَّينِ الهزيلين والعصا ذات الرأس الأبيض، وحلمك عن الأرضية السائلة تحت منزلك التي حاولتَ إصلاحها بالحفر مستخدمًا المثقب العملاق، إضافةً إلى شعورك بالهدوء، الذي وصفتَه الآنِ، من خلال الاتصال الجسدي بـ «فيليس»، وهو اتصال يتنكَّر على هيئة ممارسة الجنس، لكنه -كما نوهت منذ قليل- ليس جنسًا على الإطلاق».

- «إذن هناك قضيتان اثنتان. أولًا، لدينا محاولتي للحصول على أشياء لا يمكن للجنس تقديمها. وثانيًا، أمنح «فيليس» قوة خارقة للطبيعة تقريبًا بحيث يمكنها شفائي أو حمايتي».
- «ثم انهار كل هذا عندما سمعتَ تضرُّعها الحزين المتكرر».
- «أدركتُ عندها مدى ضعفها، أو بالأحرى، مدى ضعف جميع النساء. كلا، ليس النساء فحسب، بل جميع الناس. كنت أنا و«فيليس» نقوم بالشيء ذاته تمامًا؛ الاعتماد على قوى سحرية».
- «أنت تعتمد على قوتها من أجل أن تحميك، وهي بدورها تلتمس الحماية من خلال التضرع بكلمات سحرية، وانظر كيف أصبح حالكما!».
- «هناك شيء آخر مهم. فكِّر في مجريات الأمور الآن من وجهة نظر «فيليس»، بفرض أنها قَبِلَت، من خلال حبها لك، أن تلعب دور الإلهة الذي منحتَها إياه، فكِّر كيف أثَّر ذلك الدور على نموها هي. من أجل أن تبقى واقفةً على قاعدة التمثال لم تتمكن في السابق من التحدث إليك عن آلامها ومخاوفها، ولم يتغير ذلك إلا منذ فترة قصيرة جدًّا».
- «مهلًا! دعني أدوِّن هذه المعطيات. سوف أضطر إلى شرح كل هذا لـ «فيليس»». راح «مارفن» يكتب الملاحظات بعنف.

«إذن، بشكل أو بآخر، كانت تلبِّي رغباتك غير المعلنة من خلال التكتُّم على شكوكها والتظاهر بأنها كانت أقوى مما هي عليه. يقول لي حَدْسي إن هذا هو أحد الأسباب التي جعلتها تمتنع عن القدوم إلى العلاج؛ أي إنها نفذت رغبتك بألَّا تتغير هي. لديَّ حَدْس أيضًا بأنه إذا طلبتَ منها الانضمام إلى العلاج الآن فسوف تلبِّي ذلك».

- «يا إلهي! يبدو أننا نسير على الوتيرة ذاتها. لقد ناقشتُ الأمر مع «فيليس» بالفعل، وهي مستعدة للتحدث معك».

وهكذا انضمَّت «فيليس» إلى جلسات العلاج. حضرت برفقة «مارفن» في الجلسة التالية. كانت امرأة وسيمة ورشيقة، تغلَّبت بمحض إرادتها على خجلها، وخلال جلستنا الثلاثية كشفت عن ذاتها بجرأة واضحة.

اتضح لنا أن تخميناتنا حول «فيليس» صحيحة نوعًا ما. كانت تضطر غالبًا إلى كتم شعورها بالنقص لئلَّا تثير قلق «مارفن». وبالطبع ألزمت نفسها بمراعاة مشاعره إلى أقصى الحدود عندما يمرُّ بمحنة ما، مما يعني أنها ألزمت نفسها بذلك طوال الوقت تقريبًا في الآونة الأخيرة.

لكن سلوكها لم يكن قائمًا كليًا على الاستجابة لمعاناة «مارفن»، كانت أيضًا في حالة صراع مع عدة مشكلات شخصية، لا سيما حساسيتها المؤلمة بشأن عدم تحصيلها العلمي واعتقادها بأن الناس، وخاصة «مارفن»، يفوقونها فكريًا. إن أحد الأسباب التي جعلتها تخشى وتتجنب المناسبات الاجتماعية هو أنه قد يسألها أحدهم: «ما مجال عملك؟» كما كانت تتجنب الخوض في المحادثات المطوَّلة لئلَّا يعرف الآخرون أنها لا تحمل شهادة جامعية. كلما قارنت نفسها بالآخرين، استنتجت أنهم كانوا أكثر اطلاعًا وذكاءً منها، وأكثر خبرة في السياقات الاجتماعية، وأكثر ثقة بالنفس وجذبًا لاهتمام الناس.

قلت لها: «قد يكون الجنس هو المجال الوحيد الذي يتيح لكِ الاحتفاظ بالقوة. إنه المجال الذي يكون فيه «مارفن» بحاجة إليك، ولا يمكنه فرض سيطرته عليك بأيِ شكل من الأشكال».

أجابت «فيليس» بتردُّد في البداية، لكن بدأت الكلمات تتدفق منها بعد حين. «أعتقد أنه كان لا بد أن يكون بحوزتي شيءٌ ما يريده «مارفن»؛ فهو في غنًى عني في معظم مجالات الحياة الأخرى. في كثير من الأحيان أشعر أنه ليس لديَّ الكثير لأقدِّمه له. لم أتمكن من إنجاب الأطفال، وأخاف من الناس، ولم أعمل يومًا واحدًا خارج المنزل، كما أنني أفتقر إلى المواهب أو المهارات». صمَتَت لبرهة ومسحت عينيها، ثم قالت لـ «مارفن»: «هل رأيت بأم عينك؟ يمكنني البكاء عندما أريد ذلك».

التفتَت إليَّ مجددًا. «لقد قال لك «مارفن» إنه يخبرني عن النقاشات التي تدور بينكما؛ الأمر الذي جعلني أخضع للعلاج بشكل غير مباشر. بعض الموضوعات التي تناولتماها زعزعت كياني؛ فهي تنطبق عليَّ أكثر مما تنطبق عليه».

- «على سبيل المثال؟».
- «الندم. لقد أثَّرت فيَّ هذه الفكرة بشكل كبير. إن حياتي مليئة بالأشياء التي تستدعي الندم، أو بالأحرى، إنني أندم على الكثير من الأشياء التي لم أفعلها».

تعاطفتُ مع «فيليس» في تلك اللحظة، ورغبتُ بكل جوارحي أن أقول لها شيئًا مفيدًا. «إذا أمعنَّا التفكير في الماضي فلا بد أن تعترينا مشاعر الندم، لكن الشيء المهم الآن هو الانتقال نحو المستقبل. علينا أن نفكر في التغيير. هذا ما يجب أن يَحدُث اليوم؛ بعد خمس سنوات من الآن يجب أن تنظرا إلى الوراء من دون أن تشعرا بالندم على ما فعلتماه خلال السنوات الخمس تلك».

أجابت «فيليس» بعد صمت وجيز. «منذ ثلاثين عامًا وأنا أقول لنفسي إنني صرت أكبر سنًّا من أن أقوم بأي تغيير. ثلاثون عامًا! لقد ذهبت

حياتي كلها سُدًى وأنا أشعر أن القطار قد فاتني، لكن تغيُّر «مارفن» أمام عيني خلال الأسابيع الماضية كان أمرًا مثيرًا للإعجاب. إن مجرد وجودي هنا اليوم، في مكتب معالج نفسي، وتحدُّثي عن نفسي، هو في حد ذاته خطوة كبيرة. لا أعلم إن كنت تشعر ذلك».

يا لحسن الحظ! لقد استيقظَت في «فيليس» الحاجة إلى التغيير بسبب التغيير الذي طرأ على «مارفن». في كثير من الأحيان لا يجري العلاج بهذه الطريقة. في الواقع، إنه لمن الشائعٍ أن يتسبَّب العلاج في وضع الضغوط على الزواج؛ إذا تغيَّر المريض وظلَّ زوجه حبيس الموقف الراهن، فغالبًا ما يتفكك التوازن الديناميكي للعلاقة الزوجية، مما يضع المريض أمام خيارين: إما التخلي عن التغيير، وإما المضي قدمًا فيه وتعريض الزواج للخطر. شعرتُ بالكثير من الامتنان لأن «فيليس» كانت مرِنة جدًّا.

كان آخر شيء ناقشناه هو التوقيت الذي ظهرت فيه أعراض «مارفن». كنت مقتنعًا بأن المعنى الرمزي للتقاعد -القلق الوجودي الكامن وراء هذه المرحلة المفصلية في الحياة- كان كافيًا لتفسير ظهور أعراضه، لكن «فيليس» زوَّدتني بتفسيرات إضافية لسؤال: «لماذا الآن؟».

- «لا شك لديَّ في أنك محقٌّ فيما تقوله، ولا بد أن «مارفن» يشعر باستياء كبير من التقاعد، لكنه لا يدرك حجم استيائه الحقيقي. لكن، بصراحة، أنا نفسي مستاءة من تقاعده، وعندما أشعر بالاستياء تجاه أي شيء، فإن ذلك يزعج «مارفن». هذه هي ديناميكية علاقتنا. إذا شعرتُ بالقلق، من دون أن أتفوَّه بحرف واحد، فإنه يشعر بذلك وينزعج. في بعض الأحيان ينزعج بشدة، لدرجة أنه يسلبني من شعوري بالاستياء».

قالت «فيليس» كل هذا بسهولة كبيرة، حتى إنني نسيت لِلَحظة الضغط الكبير الذي كانت تتعرَّض له. منذ قليل، كانت تنظر إلى «مارفن» بين الجملة والأخرى، إما لتلقِّي الدعم منه وإما لطمأنة نفسها بأنه قادر على تحمُّل ما ستقوله، لكنها أصبحت الآن مندمجة مع كلماتها، وجلست بجسد ورأس ثابتين تمامًا وهي تتحدث.

«ما الذي يزعجك بالضبط في تقاعد «مارفن»؟».

- «السبب الرئيسي هو أن «مارفن» يرى أن تقاعده يعني السفر. لا أعرف إذا أخبرك عني وعن علاقتي بالسفر. أشعر بالإحراج مما سأقوله، لكن فكرة مغادرة المنزل تحديدًا تُسبِّب لي الكثير من المتاعب، ناهيك بالسفر حول العالم. السبب الآخر هو أنني لست مستعدة لـ «استيلاء» «مارفن» على المنزل. خلال السنوات الأربعين الماضية، كان هو يدير المكتب وأنا أدير المنزل. نعم، أعرف أن هذا منزله هو أيضًا، لا، بل إنه منزله بالكامل؛ فهو الذي ابتاعه، لكنه أمر مزعج للغاية أن أسمعه يتحدث عن إعادة تصميم الغرف حتى يتمكن من عرض مجموعاته المختلفة. على سبيل المثال، ينوي «مارفن» أن يكلف أحدهم بصنع طاولة زجاجية جديدة لغرفة الطعام لكي يرى من خلالها أزرار الحملات السياسية. لا أريد أن أتناول الطعام فوق هذه الأزرار. حقيقةً، أخشى أننا على وشك مواجهة بعض المتاعب. ثم إن...» صمَتَت هنا.

«أتريدين قول شيء آخر يا «فيليس»؟».

- «حسنًا، أجد صعوبة بالغة في الحديث عن هذا الأمر. أشعر بالخجل من نفسي، لكنني أخشى أن بقاء «مارفن» في المنزل

سيجعله يرى أنني لا أفعل شيئًا يُذكَر طيلة اليوم، وبالتالي سأفقد احترامه تجاهي».

أمسك «مارفن» بيدها. كان تصرفًا سليمًا في تلك اللحظة.

في الواقع، ظل متعاطفًا معها طوال الجلسة، لم يطرح أي أسئلة مشتِّتة، ولم يتفوَّه بأي عبارات بالية من باب المزاح، ولم يبذل أي جهد من أجل أن يبقى الحديث سطحيًّا. طمأن «فيليس» قائلًا إنه رغم اهتمامه بالسفر فلن يتعجل في الأمر ما لم تكن هي جاهزة لذلك، وأخبرها صراحةً أن علاقتهما هي أهم شيء بالنسبة إليه، وأن هذه هي أول مرة يشعر بالقرب منها على هذا النحو.

التقيتُ «فيليس» و«مارفن» في العلاج الزوجي لعدة جلسات أخرى. عملت على تعزيز طريقة تواصلهما الجديدة الأكثر انفتاحًا، وقدَّمت لهما بعض التوجيهات فيما يخص أساسيات الأداء الجنسي، لا سيما حول دور «فيليس» في الحفاظ على انتصاب «مارفن» وفي مساعدته على تجنُّب القذف المبكر، ونصحت «مارفن» أن يتعامل مع الجنس بشكل أقل ميكانيكية، ونوهت بأنه يمكنه، إذا لم يحافظ على انتصابه، أن يمنح «فيليس» النشوة يدويًّا أو عن طريق الفم.

بما أن «فيليس» كانت حبيسة المنزل لسنوات خلت ونادرًا ما غادرته بمفردها، بدَا لي أن الوقت قد حان لكسر هذا النمط. رأيت أن سبب خوفها، أو أحد أسباب خوفها، من الأماكن المكشوفة قد عفاه الزمن الآن، ويمكنها أن تتغلب على هذا الخوف باللجوء إلى التناقض (paradox). حصلتُ أولًا على موافقة «مارفن» أن يتبع أي اقتراح أقدِّمه له من أجل مساعدة «فيليس» في التغلب على رهابها، ثم أوعزت إليه أن يقول لها هذه الكلمات بحذافيرها كل ساعتين: «أرجوك يا «فيليس»، لا تغادري

المنزل. أريد أن أكون مطمئنًا أنك موجودة هناك على الدوام لتعتني بي وتَصرِفي عني الشعور بالخوف»، وإذا كان في العمل فعليه أن يتصل بها ليقول لها هذه الكلمات.

اتسعت عينا «فيليس» ونظر إلى «مارفن» وكأنه لم يصدِّق ما سمعه. هل أنا جادٌّ فيما أقوله؟

قلت له إنني أعلم أن الأمر يبدو جنونيًّا، لكنني أقنعته بأن يفي بوعده باتباع تعليماتي.

ضحك كلاهما في البداية عندما أخبر «مارفن» «فيليس» ألا تغادر المنزل. بدَا الأمر سخيفًا ومصطَنعًا؛ فهي لم تغادر المنزل منذ عدة أشهر، ولكن سرعان ما حلَّ الغضب محل الضحك. شعر «مارفن» بالغضب مني لأنني أصررت على أن يَعِدني بتكرار الجملة الغبية ذاتها، حتى إن «فيليس» غضبت منه لأنه أمرها بالبقاء في المنزل مرارًا وتكرارًا، مع أنها كانت تعلم أن «مارفن» يتبع تعليماتي. بعد بضعة أيام، ذهبَت إلى المكتبة بمفردها، ثم للتسوق، وفي الأسابيع القليلة التالية تطورت مغامراتها كثيرًا، الأمر الذي لم تفعله منذ سنوات عدة.

نادرًا ما ألجأ إلى مثل هذه الأساليب التلاعبية في العلاج، لأن الثمن عادةً ما يكون باهظًا للغاية، حيث يُضطَر المعالج إلى أن يضحِّي بصدق العلاقة العلاجية، لكن التناقض يُجدِي نفعًا أحيانًا عندما يكون الأساس العلاجي متينًا، حينها يؤدي السلوك الذي يصفه المعالج إلى تلاشي المسبِّبات الكامنة وراء الأعراض. في هذه الحالة، لم يكن رهاب الخلاء الذي تعاني منه «فيليس» عرَضًا خاصًّا بها وحدها، بل كان مرتبطًا بكليهما معًا، وكان هدفه الحفاظ على توازن علاقتهما الزوجية. مع وجود «فيليس» الأبدي في المنزل للعناية بـ «مارفن»، كان بإمكانه الخروج

إلى العالم وتوفير الحياة الآمنة لهما وهو يشعر في الوقت ذاته بالاطمئنان لأنه يعلم أنها دائمًا في انتظاره.

إن في التدخل الذي قمت به مفارقة معينة، حيث إن مزج النهج الوجودي والتناقض التلاعبي عادة ما تنتج عنه ديناميكية غريبة الأطوار. ومع ذلك، بدَا تسلسل الأحداث طبيعيًا في هذه الحالة. طبَّق «مارفن» على علاقته مع «فيليس» الأفكار التي استمدَّها من مواجهته ليأسه القابع في أعماق نفسه. على الرغم من الإحباط الذي شعر به (الذي تجسَّد في عدم قدرته على إعادة بناء منزله ليلًا في الحلم)، شرع في إعادة بناء كلية لعلاقته بزوجته. بات اليوم كلٌّ من «مارفن» و«فيليس» يكترث كثيرًا بازدهار وكيان الآخر، بحيث أصبح بإمكانهما التعاون بصدق في عملية انتزاع الأعراض من جذورها.

لقد أحدث التغيير الذي طرأ على «مارفن» سلسلة سلوكيات تكيُّفية. بعد أن تحرَّرت «فيليس» من قيودها، تغيَّرت جذريًا في غضون بضعة أسابيع، وعزَّزت هذا التحسُّن على امتداد العام التالي من خلال العلاج الفردي مع معالج آخر.

التقيتُ «مارفن» بعد ذلك عدة مرات فقط. كان مسرورًا بالتقدم الذي أحرزه، وأدرك، على حد تعبيره، أنه حقق عائدات جيدة من استثماره؛ فقد اختفى الصداع النصفي –السبب الرئيسي وراء سعيه إلى العلاج– إلى الأبد. لا يزال يعاني من التقلبات المزاجية (بسبب الجنس طبعًا)، لكن شدة هذه الحالة قد تضاءلت بشكل كبير. حسب تقدير «مارفن»، عادت وتيرة تقلباته المزاجية إلى ما كانت على مدار الأعوام العشرين الماضية.

وأنا أيضًا شعرتُ بالرضا عن النتائج التي حققناها. طبعًا كان بإمكاننا أن نعمل على تحقيق المزيد من الإنجازات، لكن المكاسب التي تحصَّلنا عليها عمومًا فاقت توقعاتي في الجلسة الأولى، كما أن أحلام «مارفن» المؤلمة قد ذهبت بلا رجعة؛ الأمر الذي جعلني مطمئنًا أيضًا. على الرغم من أنني لم أتلقَّ أي رسائل من الحالم خلال الأسابيع الماضية، فإنني لم أفتقدها؛ فقد اندمج «مارفن» والحالم معًا، وصرت أتحدث إليهما الآن بوصفهما شخصًا واحدًا.

من عادتي أن أقابل المرضى لمتابعة تطورهم بعد مرور عام واحد، لصالحهم هم ومن أجل أن أحصل على معطيات تنوِّر بصيرتي على الصعيد الشخصي، وهذا ما حدث مع «مارفن» أيضًا، كما أنني أقوم دائمًا بتشغيل شريط تسجيل لجزء من الجلسة الأولى على مسمع المريض. استمع «مارفن» إلى عشر دقائق من جلستنا الأولى باهتمام كبير، وابتسم في وجهي وقال: «من هذا الأحمق يا تُرى؟».

كان تعليق «مارفن» الساخر مهمًّا. بعد أن شاهدت ردة الفعل ذاتها عند العديد من المرضى، أصبحت أعتبرها دليلًا حقيقيًّا على التطور، وهذا ما قاله «مارفن»: «أنا شخص مختلف الآن، ولا أكاد أذكر كيف كان حالي العام الماضي. لقد غيَّرت جميع عاداتي. رَفْض التفكير في حياتي، ومحاولة السيطرة على الآخرين أو تخويفهم، وإقناع الناس بذكائي ومخططاتي ودقتي؛ كل ذلك أصبح جزءًا من الماضي. ما عدتُ أتصرف على هذا النحو».

إن هذه ليست تعديلات طفيفة، بل تغييرات جذرية في شخصية المرء، لكن طبيعتها دقيقة للغاية، بحيث إنها تستعصي على معظم الاستبيانات التي تركِّز على نتائج العلاج.

جاء «مارفن» إلى جلسة المتابعة مستعدًا كعادته، مع مجموعة ملاحظات استعرض وقيَّم من خلالها المهمات التي تناولناها في العلاج، وكان الحكم عليها متباينًا؛ حيث استطاع الحفاظ على التطور في بعض النواحي، بينما تراجع قليلًا في نواحٍ أخرى. أولًا، أخبرني أن «فيليس» كانت على ما يرام؛ ظلت تُبلِي بلاءً حسنًا في تخلُّصها من رهاب مغادرة المنزل، كما انضمَّت إلى مجموعة علاج نسائية، وكانت تحاول التعامل مع خوفها من الوجود في المناسبات الاجتماعية. ربما أكثر ما أثار إعجابي هو قرارها بمعالجة قلقها حول افتقارها إلى التحصيل العلمي من خلال الالتحاق بالعديد من دورات الإرشاد الجامعية.

أما «مارفن» فقد تخلَّص من الصداع النصفي كليًّا، لكن تقلباته المزاجية ظهرت بين الحين والآخر من دون أن تعكِر صفو حياته، كما عانى بشكل دوري من ضعف الانتصاب، لكن هذا الأمر لم يَعُدْ يشغل باله كثيرًا. غيَّر رأيه بشأن التقاعد، وأصبح يعمل الآن بدوام جزئي، لكنه انتقل إلى مجال تطوير وإدارة العقارات، وقد وجده أكثر متعة من عمله القديم. لا يزال التفاهم بينه وبين «فيليس» جيدًا للغاية، لكنه وجد نفسه مظلومًا في بعض الأحيان لأن نشاطات «فيليس» الجديدة جعلته يشعر بأنها كانت تهمله.

وماذا عن صديقي العزيز؛ ذلك الحالم؟ ماذا حلَّ به؟ هل بعث بأي رسالة أخرى إليَّ؟ على الرغم من أن «مارفن» لم يَعُدْ يرى أي كوابيس أو أحلام عميقة، كان يشعر بأن لاوعيَه يدمدم له في الليل. في الليلة التي سبقت جلسة المتابعة رأى حلمًا قصيرًا مليئًا بالغموض. بدَا لي أن الحلم حاول إخبار «مارفن» بشيء ما. قال لي «مارفن» إنه ربما بإمكاني فهم هذا الحلم:

أرى زوجتي أمامي تقف عارية مباعِدةً بين ساقيها. أنظر نحو المدى من خلال المثلث الذي شكَّله تباعد ساقيها، لكن الشيء الوحيد الذي أراه هناك، بعيدًا في الأفق، هو وجه أمي.

رسالة الحالم الأخيرة:

«إن بصيرتي مقيَّدة بالنساء اللواتي عرفتهن في حياتي وصنعتهن في مخيلتي. مع ذلك، لا يزال بإمكاني النظر بعيدًا نحو الأفق. قد يكون ذلك كافيًا».

كلمة الختام

بعد قراءة «تعرية الحب» مجددًا في عامي الثمانين

عندما وافقتُ على كتابة حاشية لكتاب «تعرية الحب»، لم أكن أتوقَّع أنها ستكون تجربة مليئة بالعواطف الجيَّاشة. لقد ألَّفتُ هذا الكتاب قبل خمسة وعشرين عامًا، ومنذ ذلك الحين لم أقرأه بالكامل نهائيًّا. كانت هذه النظرة إلى الماضي، إلى كتابات ذاتي السابقة، تجربة مثيرة ومؤثرة، لكنها كانت أيضًا مروعة ومحرجة. سرعان ما تحوَّلت مشاعر الفخر التي اختبرتها في البداية إلى شعور بالانكماش: «إن مهارة هذا الرجل في الكتابة تفوق مهارتي بشكل واضح».

في البداية ظننتُ أنني سأقابل ذاتي عندما كنت شابًّا، لكنني أدركت، بعد القيام ببعض الحسابات، أنني لم أكن يافعًا بأي شكل من الأشكال عندما كتبت هذا الكتاب، بل كنت في منتصف الخمسينيات من عمري! وجدت هذا الأمر مفاجئًا، لأن الكاتب يبدو شابًّا مفعمًا بالحيوية، وغالبًا ما بدَا متحررًا من أي قيود ومفرطًا في ثقته بذاته، إضافةً إلى أنه كان نشيطًا بشكل لا يُحتمَل. في كثير من الأحيان، كان يدكُّ أسوار الآليات الدفاعية للمرضى بأدواته الحربية! أتمنى لو كان بإمكاني الإشراف عليه لكي أكبح جماحه.

مع ذلك، أحببت الكثير من الأشياء في ذاتي الأصغر سنًا. على سبيل المثال، أحببت تجنُّبه التشخيصات أو التصنيفات. شعرت أنه كان يتعامل مع كل مجموعة معينة من الشكاوى والخصائص الشخصية كما لو كان يراها لأول مرة، كما لو كان يعتقد حقًّا أن كل امرئ فريد من نوعه ويتطلب نهجًا علاجيًّا مميزًا. وأعجبني تقبُّله لعدم اليقين وتكلُّفه المهمة الشاقة المتمثلة في ابتداع نهج علاجي مختلف لكل مريض. شعرت بالأسى عليه لأنه واجه الصعوبات في كل برنامج علاجي. كان يفتقر إلى الثقة الكامنة في المدارس الفكرية الراسخة، مثل مدرسة «فرويد» أو «يونغ» أو «لاكان» أو «أدلر»، أو الاستعرافية السلوكية (cognitive-behavioral) ذات النظام التحليلي الشامل، لكنني سُرِرت لأنه لم يُقنع ذاته بأنه كان يعرف أشياء خفية.

ويا لجرأته! إن إفراطه في كشفه عن ذاته قبل خمسة وعشرين عامًا كان صارخًا، ومن شأنه أن يُغضِب معظم المعالجين النفسيين، ولا يزال صارخًا حتى هذا اليوم. أشعر بالصدمة؛ كيف تجرأ على الكشف عن الكثير من أسراري؟ عن مخبئي السِّرِّي لرسائل الحب، والعادات القهرية التي أتبعها في العمل، ومواقفي القاسية التي لا تُغتفَر من الذين يعانون من السمنة المفرطة وحكمي عليهم، وهاجس الحب الذي منعني من الحضور بكامل وعيي خلال عطلة على الشاطئ بصحبة عائلتي؟ لكن على الرغم من هذا السلوك، فأنا فخور به لأنه لم يختلق أي أعذار تَحُول دون صياغة علاقة علاجية حقيقية، ولو كنت ذلك الشخص اليوم لفعلت الشيء ذاته. ما زلت مقتنعًا بأن كشف المعالج عن ذاته بحكمة من شأنه أن يسهِّل سَيْر العلاج.

لقد كان هذا الكتاب نقطة تحوُّل محورية بالنسبة إليَّ. خلال السنوات العديدة الأولى التي كنت فيها عضوًا في هيئة التدريس بكلية الطب

بجامعة «ستانفورد»، شاركت بشكل موسَّع في تدريس العلاج النفسي والبحث والنشر في المجلات الأكاديمية. تخصَّصت مع مرور الوقت في العلاج الجماعي، وخلال إجازتي الأولى شرعت في تأليف كتاب عن العلاج الجماعي. بعد أن انتهيت منه وجَّهت انتباهي إلى شيء آخر يهمني، لكن انشغالي سابقًا حال دون التركيز عليه، ألَا وهو دور القضايا الوجودية في حياة الإنسان والهموم البشرية. بعد عقد كامل من الدراسة والبحث، ألَّفت كتابًا بعنوان «العلاج النفسي الوجودي»، ولم تكن النية من ورائه إنشاء مجال جديد، بل زيادة إدراك جميع المعالجين بالقضايا الوجودية، إذ تلعب القضايا الوجودية الرئيسية الأربع -الموت، ومعنى الحياة، والعزلة، والحرية- دورًا مفصليًّا في التجربة الداخلية لكل إنسان وتشكِّل فحوى هذا الكتاب.

بمجرد أن أنجزت هذا الكتاب واصلت العمل على تطوير أفكار جديدة حول استخدام هذه المخاوف الوجودية في العلاج النفسي، لكنني توصلت تدريجيًّا إلى استنتاجٍ مفاده أن أفضل سبيل للتعبير عن هذه الأفكار هو من خلال السرد. فلا عجب أن أهم المفكرين الوجوديين -مثل «كامو» و«سارتر»- استطاعوا التعبير عن أفكارهم بوضوح وإقناعٍ كبيرين من خلال قصصهم ورواياتهم بدلًا من الأعمال الفلسفية التقنية.

كما أنني تنبَّهت إلى أن السرد لَعِبَ دورًا رئيسيًّا، حتى وإن كان خفيًّا، في الكتب التي ألَّفتها. لقد قال لي المعلِّمون والطلاب في السابق إن الحكايات العديدة -بعضها مؤلَّفٌ من بضع صفحات فقط، وبعضها الآخر لا يتجاوز فقرة أو فقرتين- التي وضعتُها في كلٍّ من «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» (The Theory and Practice of Group Psychotherapy) و«العلاج النفسي الوجودي»

زادت بشكل كبير من فعالية هذين الكتابين، وأخبرني طلابي أن وجود بعض القصص المثيرة للاهتمام في الكتب النظرية التقنية جعلهم أكثر تَوْقًا إلى قراءة هذه الكتب.

وهكذا تطوَّرت لديَّ تدريجيًا قناعةٌ بأن أفضل طريقة لنقل أفكاري إلى الطلاب وتعزيز الإدراك الوجودي عندهم هي السرد. في عام 1987 عقدت العزم على تأليف كتاب مختلف من نوعه؛ كتاب أضع فيه القصة أولًا والمناقشة النظرية ثانيًا. لم أكن بأي حال من الأحوال أنوي الابتعاد عن دوري مدرِّسًا للعلاج النفسي، كل ما في الأمر أنني اتبعت طريقة مختلفة لتأدية هذه المهمة. الهدف من كتاب «تعرية الحب» هو تأليف مجموعة من القصص التعليمية التي تستهدف (مثل جميع قصصي ورواياتي اللاحقة) المعالج النفسي الشاب وجميع الناس الآخرين، بمن في ذلك المرضى، المهتمين بالعلاج النفسي. كان النبع الذي غذّى أفكار القصص هو كتاب «العلاج النفسي الوجودي».

العامل الآخر الكامن وراء هذا القرار هو أنني لطالما أردت أن أكون قاصًا بما أنني كنت دائمًا قارئًا نهمًا، وفي مرحلة ما في مراهقتي المبكرة بدأت أتوق إلى أن أصبح كاتبًا حقيقيًا. كانت هذه الرغبة أسفل قائمة أولوياتي، بينما واصلت مسيرتي الأكاديمية، لأنني عندما بدأت في كتابة هذه القصص العشر شعرت أنني أسير على درب العثور على نفسي.

ترتبط الكتب والأماكن بعضها ببعض في ذاكرتي. كلما أعدت قراءة كتاب ما أو فكّرت فيه، تخيلت على الفور المكان حيث قرأته أول مرة. عندما قرأت «تعرية الحب» مجددًا تدفّق إلى ذهني تيار من الذكريات الجميلة التي بدأت في عام 1987 عندما رحل ابني الأصغر من المنزل لكي يتابع دراسته في الجامعة، وسافرتُ برفقة زوجتي حول العالم لقضاء

إجازة لمدة عام. أولًا، تعرفنا على الثقافة اليابانية، حيث قمت بالتدريس لمدة أسبوعين في طوكيو. بعد ذلك قضينا أسبوعين في الصين حيث ألقت زوجتي، الباحثة في النسوية، بضع محاضرات لطلاب الجامعات والمعلِّمين. في آخر يوم لي في الصين أمضيت فترة ما بعد الظهيرة أتجول بمفردي في الشوارع الخلفية لـ «شنغهاي»، ورأيت صدفةً كنيسة كاثوليكية جميلة، مهجورة تمامًا. بعد أن تأكدت من أنني كنت وحدي، دخلت كابينة الاعتراف (مُتَبَوِّئًا كرسي القسيس) وتأملت في أجيال القساوسة الذين سمعوا اعترافات الناس في هذا الصندوق. حسدتهم على قدرتهم على نطق هذه الكلمات: «لقد غُفِرَتْ ذنوبك». يا لقوتها العلاجية! بينما كنت جالسًا على هذا الكرسي السلطوي، حظيت بتجربة كتابية استثنائية: حلم يقظة استمر ساعة كاملة رأيت فيه حبكة قصة «ثلاث رسائل لم تُفتح بعدُ» برمتها. كتبت الأفكار الأساسية لهذه القصة على الورق الأبيض الوحيد الذي كان في متناولي: الصفحات الفارغة من جواز سفري!

لكني لم أشرع في الكتابة بشكل جدي إلا عندما أصبحنا في «بالي» (Bali)، حيث أقمنا لمدة شهرين في «كوتا» (Kuta) في منزل غريب فيه جدار مرتفع حول الحديقة المورقة الكبيرة، لكنه لا يحتوي على جدران داخلية بخلاف السُتُر المعلقة على الحائط. نظرًا لأنني لم أكن بحاجة إلى كتب مرجعية من أجل كتاباتي، كانت حقائبي خفيفة، فلم أجلب إلا كدسة ملاحظات من جلسات لخمسين مريضًا تقريبًا. كان الجو مذهلًا وخياليًا. جلست الطيور بألوانها القزحية بشجاعة في الأشجار المتشابكة في الحديقة، وأطلقت ألحانًا غريبة. أَسكَرَتْني رائحة الأزهار غير المألوفة وأنا جالس في الحديقة أقرأ كل ملاحظاتي مرارًا وتكرارًا. بينما تدفقت ذكريات الجلسات إلى ذهني على مدار الأيام، كان بعض القصص يتجذر ويكتسب قوة كبيرة من دون أن ألاحظ ذلك تقريبًا،

مجبِرًا إيايَ على وضع جميع الملاحظات الأخرى جانبًا وتكريس طاقتي لتلك القصص تحديدًا. عندما بدأت الكتابة لم يكن لديَّ أي فكرة عن المسار والشكل الذي ستأخذه قصصي. شعرت بأنني متفرج يشاهدها تتطور على سجيَّتها. كثيرًا ما سمعت الكُتَّاب يقولون إن القصص تَكتُب نفسها بنفسها، لكني لم أفهم قصدهم حقًّا إلا عندما رأيت قصصي تَكتُب نفسها بنفسها واحدةً تلو الأخرى. بعد مرور شهرين، تشكَّل لديَّ فَهْم جديد وعميق لحكاية قديمة سمعتها في المدرسة الثانوية عن الروائي الإنكليزي «ويليام ميك بيس ثاكيري» (William Makepeace Thackeray) في القرن التاسع عشر. تقول الحكاية إن «ثاكيراي» خرج من مكتبه ذات مرة، فسألته زوجته كيف سارت الكتابة في ذلك اليوم، أجابها قائلًا: «يا له من يوم فظيع! لقد تصرف «بيندينيس» (Pendennis)[1] بحماقةٍ اليوم، ولم يكن بوسعي التدخل لإيقافه». سرعان ما اعتدت على سماع شخصياتي يتحدث بعضها إلى بعض. صرت أتنصت عليها طوال الوقت، حتى بعد الانتهاء من الكتابة، عندما كنت أتجوَّل مع زوجتي، شابكًا ذراعي بذراعها، على أحد شواطئ «بالي» الرملية الشاسعة.

بعد فترة وجيزة، حظيت بتجربة كتابية أخرى. كانت تلك واحدة من التجارب السامية في حياتي. في مرحلة ما، عندما كنت متعمقًا في إحدى القصص، لاحظت أن ذهني المتقلب بدأ يلتفت إلى قصة أخرى كانت تتشكَّل ببطء بعيدًا عن إدراكي المباشر. فهمتُ أن تلك كانت إشارة غريبة جدًّا مني إليَّ تفيد بأن القصة التي كنت أكتبها شارفت على نهايتها، لكي أبدأ في القصة الأخرى التي كانت في انتظاري.

---

(1) الشخصية الرئيسة في رواية «ثاكيري» بعنوان (The History of Pendennis: His Fortunes and Misfortunes, His Friends and His Greatest Enemy). (المترجم).

كنت قد ألَّفت جميع كتبي السابقة بالقلم الرصاص والورق، بمساعدة سكرتيرتي في جامعة «ستانفورد» التي كانت تُنضِّدها على الآلة الكاتبة، لكن الوقت كان قد حان، في عام 1987، لمواكبة العصر واستعمال جهاز الكمبيوتر والطابعة. تعلَّمت التنضيد باستخدام الكمبيوتر على متن الطائرة عن طريق لعبة فيديو، حيث تهاجم الأحرف سفينتي الفضائية وأدافع عنها بلَكْم الأحرف المهاجمة قبل أن تتمكن من تفجير سفينتي. كان طراز الكمبيوتر المحمول حينها لا يُعوَّل عليه، والطابعة أيضًا كانت أقل منه ثباتًا في الأداء، وقد تعطَّلَتْ كليًا بعد شهر واحد فقط في «بالي». خفت أن أفقد الصفحات التي ألَّفتُها في جهاز الكمبيوتر، لذا سعيت إلى الحصول على المساعدة. ووجدت أنه كانت هناك طابعة واحدة فقط في «دينباسار» (Denpasar)؛ المدينة الرئيسة في «بالي»، في مدرسة للمعلوماتية. هناك، من خلال الترجِّي أو الرشوة (لقد نسيت إلى أيّ منهما لجأتُ)، حصلت على نسخة ورقية ثمينة من الصفحات التي أنجزتها حتى ذلك التاريخ.

حضرني الإلهام سريعًا في «بالي». لم أفقد تركيزي نهائيًا (في تلك الأيام الخوالي قبل اختراع البريد الإلكتروني)، وكتبت بشكل أفضل وأسرع من أي وقت مضى. في أثناء وجودي هناك كتبت القصة الرئيسية «تعرية الحب»، و«بحثًا عن الحالم»، و«لو كان الاغتصاب قانونيًا...»، واستخدمتُ الملاحظات التي كتبتها في جواز سفري، داخل كابينة القسيس، في تأليف قصة «ثلاث رسائل لم تُفتَح بعدُ». كتبتُ «ابتسامتان» و«لا تكن لطيفًا» في «هاواي»، وجميع القصص الأخرى في «باريس»، غالبًا في مقهًى يقع على مقربة من مقبرة العظماء.

كانت خطتي الأوَّلية هي إتْباع كل قصة ببضع فقرات تتناول النقاط النظرية فيها، لكني سرعان ما وجدت أن هذه الخطة غير عملية، فوضعت كل المعطيات النظرية في خاتمة من خمسين صفحة شرحت فيها بعمق محتوى كتابي الحقيقي. بعد أن أرسلت المخطوطة إلى ناشري بوقت قصير، اتصلت بي «فيبي هوس»، وهي محررة صعبة المراس إلى أبعد الحدود (لكنها نعمة من السماء أيضًا)، وخُضْنا صراعًا طويلًا وشرسًا. كانت مقتنعةً الاقتناع كله بأنه لا حاجة إلى التفسيرات النظرية على الإطلاق، وأنني يجب أن أَدَع قصصي تتحدث عن نفسها. استمر الجدال المحتدم بيننا لبضعة أشهر، وكنت أقدم لها نسخة تلو الأخرى، لتقوم هي بإرجاع كل واحدة منها بعد أن اختصرت منها العديد من الصفحات. بعد عدة أشهر كانت قد قلَّصت المقدمة من خمسين صفحة إلى عشر صفحات تقريبًا. عندما كنت أُعيد قراءة الكتاب، تذكَّرت مرة أخرى أنها كانت على حق تمامًا.

على الرغم من أنني أشعر بالفخر بهذا الكتاب، أشعر بالندم بسبب قصة «السيدة البدينة». لقد راسلني عبر البريد الإلكتروني العديد من النساء البدينات وعبَّرنَ عن الإهانة الكبيرة التي شَعَرْنَ بها بسبب كلماتي. لا أعتقد أنني قد أتصرف بانعدام الإحساس لو كتبت هذه القصة اليوم. مع أنني حاكمت نفسي عدة مرات ووجدت أني مذنب، اسمحوا لي أن أغتنم هذه الفرصة لكي أدافع عن نفسي. إن الشخصية الرئيسية في هذه القصة هي أنا، وليس المريضة. إنها قصة عن التحويل المضاد؛ أي المشاعر غير العقلانية والمُخزِية في كثير من الأحيان التي يشعر بها المعالج تجاه المريض، والتي تشكِّل عَقَبة هائلة أمام العلاج. لقد منعتني مشاعري السلبية تجاه الأشخاص البدينين من التفاعل العميق اللازم لنجاح العلاج. بينما كنت أعاني داخليًّا من هذه المشاعر، لم أكن أتوقع

أن تُدرِكها مريضتي، إلا أنها أحسَّت بمشاعري بدقة، كما يتضح من خلال كلامها في النهاية. إن هذه القصة تصوِّر كفاحي للتعامل مع هذه المشاعر المتمردة من أجل أن أتواصل مع المريضة على المستوى الإنساني. صحيحٌ أنني أشجب مشاعري هذه، إلا أنني ما زلت أفتخر بكلماتي الأخيرة في القصة التي كانت بمثابة انحلال العقدة: «عندما تعانقنا، فُوجِئتُ أنه كان بإمكاني أن أُحِيطها بكلتا ذراعيَّ بشكل كامل».

أُنهِي استعراضي للأحداث الماضية هذه بملاحظة قد تجدها ذاتي الأصغر سنًّا أمرًا مفاجئًا؛ وهي أن الحياة في الثمانين أفضل مما كنت أتوقع. طبعًا لا أنكر أن حياة الإنسان عندما يتقدم في السن تصبح مجرد سلسلة من الخسارات اللعينة، واحدةً تلو الأخرى. مع ذلك، وجدت في عقدي السابع والثامن والتاسع هدوءًا وسعادةً أكبر بكثير مما كنت أتخيل. وهناك مكافأة إضافية منحتني إياها الشيخوخة، ألَا وهي أن قراءة أعمالي القديمة أصبحت ممتعة جدًّا! لقد وجدت أن لِفقدان الذاكرة، الذي لا يهرب منه أحد، بعض المزايا؛ فعندما قلَّبت في صفحات «ثلاث رسائل لم تُفتَح بعدُ» و«تعرية الحب» و«أخطأ الموت في الاختيار»، والقصص الأخرى، شعرت بفضول لذيذ يجتاح كياني. كنت قد نسيت كيف انتهت هذه القصص.

تعرية الحب

«لا أحبّذ علاج المرضى الواقعين في الحبّ. قد يكون ذلك بسبب الحسد، فأنا أيضًا أتوق إلى الافتتان بأحدهم. أو ربّما لأنّ الحبّ والعلاج النفسي يتعارضان جذريًّا. ففي الوقت الذي يحارب فيه المعالج البارع الظلام ويفتّش عن النور، يُبنى الحبّ الرومانسي على الغموض وينهار عند التنقيب فيه، إنّ إحدى المفارقات العظيمة في هذه الحياة هي أنّ الوعي بالذات يولّد القلق. فيأتي فعل الاندماج ليقضي على القلق جذريًّا، من خلال التخلّص من الوعي بالذات. الشخص الذي يقع في الحب ويدخل في حالة اندماج سعيدة لا يتأمّل نفسه لأنّ أناه المُتسائلة الوحيدة (والقلق المصاحب للعزلة) يذوبان في صورة الـ«نحن». وهكذا ينفصل المرء عن قلقه، ولكنّه يفقد نفسه».

***

يسرد هنا الطبيب النفسي ذائع الصيت إرفين د. يالوم عشر حكايات من واقع جلسات العلاج النفسي تدور كلها حول ألم الوجود، وببراعة ملفتة يُعرّي ما يسكن عمق تلك الحكايات حتى تغدو كالمرايا نرى فيها أنفسنا.

9781998800162

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING